

لجوه خزانة العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

كل الحقوق محفوظة

إشرافه : محمد أمين عمران

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلتك ، ومزيد تطولك ، وأصلى
وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد : فهذه « الجزء الثاني - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاوياً
ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء
والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب
الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافر دواعى الخطابة فى هذا العصر ، وتفاق سوقها .
وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير
الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يعيط اللثام عن خفايا مراميها ،
وغوامض مغازيها ، فجاء بحمده تعالى وافياً مرضياً ، والله نسأل أن يكلاًنا
برعايته ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى
ونعم النصير م

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى
رجب سنة ١٣٥٢
نوفبر سنة ١٩٣٣

فهرس

مأخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
عشر - العشرون - الحادى والعشرون
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الخامس - السابع
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
نهج البلاغة : للشريف الرضى : « الأول
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : الجزء الأول - الثاني
معجم البلدان : لياقوت الحموى : « الثالث
أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : « الثالث
النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : « الأول
لابن تغرى بردى :
وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثاني
معاهد التنصيص : لعبدالرحيم العباسي : « الأول -
نفع الطيب ، للمقرئ : « الأول
بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : « الثاني
محمد البيهقي العلوى

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبى الفرج بن الجوزى .

« « « « : لابن عبد الحكم

سرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

أنباء نجباء الأنبياء : لابن ظفر المكي

الحسن البصرى : لابن الجوزى

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبى طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاعى

إعجاز القرآن : لأبى بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
بر	بر	٨	١٠
البراءة من عليّ واللعن له	البراءة من عليّ له	٢٠	٤٧
لا يفلّ	لا يفلّ	٥	٩٣
القارة	القارة	٤	١١٥
أخى	آخى	٢	١٢٢
مثلكم	مثلكم	١١	١٢٤
شهرت	شهرت	١١	١٤١
يرثني	يرثني	١٥	١٤٢
رتق	رفق	٢٠	١٥٥
وصلني على نبيه	وصلني نبيه	١	١٦٢
ياحياء	ياحياء	١٠	٢٠٨
ووليّ	ووليّ	٩	٢١٩
حمامة	جماعة	٢٠	٢٥٤
زياد	زياداً	١١	٢٦٤
معرّتنا	معرّتنا	١٤	٢٦٤
بها	يها	١٣	٢٦٩
بين	بين بين	٢٤	٢٦٩
خاتم	خاتم	٣	٢٧٠

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
بالرّجال	بالرّجال	١١	٢٧١
محمد أخيه	محمد وأخيه	١٧	٢٨٥
فُضُول	فُضُول	١٥	٣٠٣
تُجَمَّرُوا	تُجَمَّرُوا	١٢	٣١١
القَرِيَّة	القَرِيَّة	١	٣٢٩
ييد	بيدك	٥	٣٥٥
الحروبَ	الحروبُ	٧	٣٦٠
عرّضتاني	عرّضتاني	٧	٣٦٥
ياللرجال	ياللرجال	٥	٣٦٧
توبة	توبة	١٧	٣٩٢
حجرها	حجرها	١	٣٩٧
أمية	أمية	٤	٤١٢
أمية	أمية	٩	٤١٥
غلامًا	غلامًا	٨	٤١٦
أمية	أمية	١٦	٤١٦
جهة	جهة	١٥	٤٢٤
لا يرون	لا يرون	١٣	٤٤٥
التروية	التروية	١٤	٤٤٨

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤٦٢	٣	في ظلمتها	في ظلمها
٤٦٧	٧	حسناتهم	حسناتهم
٤٧٧	٨	بشكايتة	بشكايته
٤٨٨	٩	شاعت	شاعت



الباب الثالث

الخطبة والوصايا

في

العصر الأموي

خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن عليّ بعد وفاة أبيه (١)

خطب الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعاها فقال :

« لقد قتلت ليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم

عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه

أحدٌ كان قبله ، ولا يُدْرِكُه أحدٌ يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله

[١] في السّمايل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن عليّ توفى سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ : ص ٤) أنه توفى سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفى سنة ٥١ هـ .

عليه وسلم لبيعه في السرية^(١) ، وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يتناع بها خادماً لأهله ، ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد

رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : « وَمَنْ يَتَّقِرْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » ، فاقراف الحسنة مودتنا أهل البيت .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

تعبثته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه فاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويجمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خاقه ، وسماه كرهاً^(٣) ، ثم قال لأهل

[١] السرية من خمسة أناس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . [٢] الرجس : العذر والمأثم ، وكل ما استعذر من

العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

[٣] يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهًا لَكُمْ »

الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فاستم إليها الناس نائمين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة ، حتى ننظر وتنظروا، ونرى وترى » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقيح هذا المقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرَّ الذين أَسْنَتُهُمْ كَالْمَخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ (١) . فإذا جَدَّ الْجِدُّ فَرَوَّاغُونَ كَالثَعَالِبِ ، أما تخافون مقت الله ! ولا عَيْبَهَا وعارها (٢) ! » . ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصحاب الله بك المرآشد ، وجنَّبك المكاره ، ووفَّقك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقاتلتك ، وانتهينا إلى أمرت ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكركى . فمن أحب أن يُوافيني فليواف » ثم مضى لوجهه ، إلى النخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأنبوا الناس ولا موهم وحرصوهم . وكلوا الحسن بمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرِّفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمسكروا ونشيطوا للخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

[١] جمع محراق بالكسر : السيف (وهو أيضاً المنديل ياف ليصرب به) وفي الدعاء : أى و وقف الدعاء : أى الحفض والسلام . [٢] أى عار فملتكم هذه : وهى تناصهم عن إجابة الحسن إلى مادعاهم إليه ، وفى الأصل : « وعاريتها » وأراه محرِّفاً إذ العارة هى العارية ولا معنى لها .

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط^(١) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتمنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خاقه لخاقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينةً ، ولا مريدا له بسوء ولا غائلة^(٢) ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة . ألا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل . فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترّونه يريد بما قال ؟ قالوا نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه ، حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطْرَفَه^(٣) عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلداً سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحرق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراد ، ولا موه وضعفوه لما تكلم .

فلما مرّ في مُظَلِّم^(٤) ساباط ، قام إليه رجل من بنى أسد يقال له جرّاح بن سنان ، ويده معول^(٥) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ،

[١] ساباط كسرى بالمدائن . [٢] النائلة : الشر والفساد والدامية . [٣] رداء من خز مربع دو أعلام . [٤] مظلم مضاف إلى ساباط التي قرب المدائن : موضع هناك . [٥] المعول : الفأس العظيمة التي يقر بها الصخر .

ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذه فشقتُهُ ، حتى بلغت أُرَيْبَتَهُ^(١) ،
وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه
نحرا جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ - خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب
الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عاياه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ،
وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - في أشياء
اشترطها - ثم قام الحسن في أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسى عنكم ثلاثاً : قَتَلَكُمُ أَبِي ، وَطَعَنَكِي

إِيَّايَ ، وَاتَّهَى بِكُمْ مَتَاعِي » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإيقاد الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) .
وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، فدكلم معاوية ، وأمره أن يأمر
الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن
أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنى أريد أن يبدو عِيَهُ للناس^(٢) ، فلم يزل عمرو
بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : يا
يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمرٍ لم يُروَ فيه ، ثم قال :

[١] الأريية : أصل الفخذ . [٢] روى أبو الفرج الاصبهاني أنه كان و لسان الحسن نهل

أف : (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١١) .

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وَحَقَّنَ دماءكم بأخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعةٌ ، تحاربون من حاربتُ ، وتسالمون من سالمْتُ ، وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قَوْل معاوية اجلس ، فلم يزل ضَرِمًا (١) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والامامة والسياسة ١ : ١٢٠ ، وأنباء نبينا، الأبا. ص ٥٦)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن عليّ رضی الله عنه بعد الصلح أن يخُطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسى فجلس عليه ، ثم قال : « الحمد لله الذى توحد في ملكه ، وتفرد في ربو بيته ، يُؤثني الملك من يشاء ، وينزعهُ ممن يشاء . والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وَحَقَّنَ دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء (٢) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن ربّ عليّ كان أعلم بعلی حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها ، جرّعكم رَنَقًا (٣) ، وسَقَاكم عَلَقًا (٤) ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فلستم بملومين

[١] صرم عليه كفرح احدم غضبا فهو صرم . [٢] البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول . [٣] ماء رنق : كعدل وكتف وجبل كدر . [٤] العلق : الدم ودوية و الماء تمسّ الدم .

على بغضه ، وإيم الله لا ترى أمةً محمد خَفَضًا ما كانت ساداتهم وقادتهم بنى أمية ،
ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تَصْدُرُوا عنها حتى تَهْلِكُوا ، لطاعتكم طواغيتكم (١) ،
وانضواثكم (٢) إلى شياطينكم ، فعند الله أختسبُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء
دَعَتِكُمْ ، وَحَيْفٌ (٣) حَكَمِكُمْ ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مراعى الله ، صائب على أعداء
الله ، نكالٌ على نجار قریش ، لم يزل آخذًا بجناجرها ، جائمًا على أنفاسها ، ليس
بالملومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة (٤) في حرب أعداء
الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابته ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في
الله لومة لأئم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عجلٌ أو كاد ، وأصاب متثبتٌ أو كاد ، ماذا أردت

من خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٠)

٨ - خطبة لمعاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله
الكوفة وصالح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن
يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركت قتالك - وهو
لى حلال - لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ نخطب معاوية أهل
الكوفة فقال :

[١] الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال . [٢] انضمامكم .

[٣] الحيف : الظلم : [٤] الفروق والفروقة : شديد الفزع .

« يا أهل الكوفة ، أترانى ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت
أنكم تصلون وتزكون وتحججون ، ولكننى قاتلتكم لا تأمر عليكم وعلى رفا بكم ، وقد
آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب فى هذه الفتنة
فطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمى هاتين ، ولا يصلح الناس إلا ثلاث :
إخراج العطاء عند محله ، وإقفال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو فى داره ، فإنه
إن لم تغزوهم غزؤكم » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن علىّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما
جالسان تحت المنبر ، فذكر علياً عليه السلام . فقال منه ثم نال من الحسن ،
فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :
« أيها الناكر علياً : أنا الحسن ، وأبى علىّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ،
وأبى فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عتبة
ابن ربيعة ، وجدتى خديجة ، وجدتك قتيبة ، فلعن الله أئمننا ذكراً ، والأئمننا
حسباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن سرد فى استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ،
أتى سليمان بن سرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم -

فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فقال وعليك السلام ،
اجلس لله أبوك ، جلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنْ تَعَجَّبْنَا لَا يَنْقُضِي مِنْ بَيْعَتِكَ مَعَاوِيَةَ ، وَمَعَكَ مِائَةُ أَلْفِ
مُقَاتِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَكُلُّهُمْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ ، مَعَ مِثْلِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ ،
سِوَى شِيعَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ ، ثُمَّ لَمْ تَأْخُذْ لِنَفْسِكَ بَقِيَّةً فِي الْعَهْدِ ،
وَلَا حَظًّا مِنَ الْقَضِيَّةِ ، فَلَوْ كُنْتَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، وَأَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ كِتَابًا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَيْهِ
شَهُودًا مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ ، كَأَنَّ الْأَمْرَ عَلَيْنَا
أَيْسَرَ ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَاكَ هَذَا ، فَرَضَيْتَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَزَعَمَ عَلَى رءِوسِ
النَّاسِ مَا قَدْ سَمِعْتَ : إِنِّي كُنْتُ شَرَطْتُ لِقَوْمٍ شُرُوطًا . وَوَعَدْتُهُمْ عِدَاتٍ ،
وَمِنِّيَّتَهُمْ أَمَانِيَّ ، إِرَادَةَ إِطْفَاءِ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمُدَارَاةَ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ ، إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَنَا كَلِمَتَنَا
وَأَلْفِتْنَا ، فَإِنْ كُلُّ مَا هُنَاكَ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ . وَوَاللَّهِ مَا عَنَى بِذَلِكَ إِلَّا نَقْضَ
مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَأَعْدِ الْحَرْبَ جِدَّةً ^(١) ، وَأُذِنَ لِي أَشْخَصُ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَأُخْرِجُ
عَامِلَهُ مِنْهَا ، وَأُظْهِرُ فِيهَا خَلْعَهُ ، وَأَنْبِذُ إِلَيْهِ ^(٢) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الْخَائِبِينَ . »

ثم سكت ، فتكلم كلٌّ من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعث سليمان
ابن سرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أننا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعته .

(الإمامه والسياسة ١ : ١٢٠)

[١] هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أي فيه . [٢] . معناه إذا هادنت قوما ، فعلت منهم
النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابها إلى الغش ، حتى تعلمهم أنك بعصت العهد ، ويكونوا في علم الغش مستوين ،
ثم أوقع بهم .

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصالح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأأس مني وأشد شكيمه ، ولما كان رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقْنَ دِمَائِكُمْ ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وساموا الأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برّ ، أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيَلِي الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر^(١) ، إن الله لاعمق لحكمه ، ولا راد لقضائه ، وأما قولك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فوالله لأن تَذِلُوا وتُعَافُوا أحبُّ إليّ من أن تَعَزُّوا وتُقْتَلُوا ، فإن رَدَّ اللهُ علينا حَقَّنَا في عافية ، فَبَلْنَا وسألنا الله العَوْن على أمره ، وإن صَرَفَهُ عنا رَضِينَا وسألنا الله أن يبارك في صَرَفِهِ عنا ، فليكن كل رجل منكم حِلْسًا^(٢) من أحلاس بيته ، مادام معاوية حيًا ، فإن يَهْلِك ، ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يَكِلِنَا إلى أنفسنا : فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

[١] يفل . [٢] الحلس بساط البت ، وفلان حلس من أحلاس البيت : للذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة كن حلساً من أحلاس بينك حتى تأتيك يد خاطئه ، أو منية قاضية » أى لا تبرح

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةٌ ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون ، أهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين ^(٢) اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فأطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ^(٣) : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » « وَرُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياءه الذين قال لهم : « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاتِ الْفِتْيَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ » فَتَلْقَوْنَ لِلرَّمَاحِ أَزْرًا ^(٤) ، وللسيوف جزراً ^(٥) ، وللعمد حطاً ، وللسهام غرَضًا ، ثم : لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

(مروج الذهب ٢ : ٥٣)

[١] العترة : رهط الرجل وعشيرته الأذنون . [٢] الثقل : كل شيء عس ومصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

[٣] يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

[٤] الأزر : جمع إزار وهو اللدفة وكل ما وارك وسترك : أي تكونون أجربة للرمح تعيب في أبدانكم وتستر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الطهر : أي تركيبكم الزمخ وتعلوكم ، والمراد تطعنون وتضربون بها والأول أوجه . [٥] أي قطعاً .

[٦] عمد بهتجين ، وعمد بضمين : جمع عمود ، وهي من الآلات التي كانت تشمل في القتال .

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف ^(١) والعجلة سفاهة ، والسفاهة ضعف ، والقلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ومخالطة أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن علي ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :
« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي علينا
السلام قوارص ^(٢) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، إن الحسن
قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصديق ، وأمر فأطيع ، وخفقت ^(٣) له النعال ،
وإن ذلك كرافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوئنا . قال
معاوية فما تريدون ؟ قالوا ابعث إليه فليحضر لنفسه ونسب أباه ونعيه ونوبخته
ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرره بذلك ، ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من

[١] الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبه والتمدح بما ليس عندك أو مجاوزة قدر الظرف والاداء فوق ذلك تكبرا . [٢] القوارص من الكلام التي تنفصك وتؤلمك . [٣] الحق صوت النعل .

ذلك . قال معاوية إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن ، فقال ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه وعيبي لي ، قالوا ابعث إليه على كل حال . قال إن بعثت إليه لأنصفنه منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يرهبني قوله على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليه لآمرته أن يتكلم بلسانه كله . قالوا مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتموني وبعثتم إليه وأبيتم إلا ذلك ، فلا تمرضوا^(١) له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقدفوه بحجره ، تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء من قبله ، فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله ، فقال إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأهم ، فقال الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغيني ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، أدرأ^(٢) بك في نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأني أتت ، بحول منك وقوة ، بأرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه كرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقدارتاد^(٣) القوم ، وخطر^(٤)وا خطران الفحول ، بيك في أنفسهم وعُلوا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ، فقال لحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله ن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم ، إني لأستحيي لك من الفحش ،

[١] تمرض : ضعف في أمره . [٢] أدفع . [٣] الارتياح : الذهاب والمجيء .

[٤] خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعهما واهتز وتجتز وخطر بسيفه ورمحه : رفعه مرتة ووضعه أخرى خطراً (بالتحريك) وخطر الفعل بذنبه : ضرب به يميناً وشمالاً .

وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف ، فأيهما تُقر وأيهما تُنكر؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب ، ومالي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم؟ إن وليي الله وهو يتولى الصالحين ، فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(١) ومنى ، وإنما دعوناك لنقرررك أن عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبههم ، ولا تمنعك وحدثك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله ﷺ ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مكرهاً ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظالماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له ، ثم ذكر الفتنة يعيره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لله ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قريش ، يُسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟

فإن كنت ترى أنا كذَبنا في شيء ، فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال :

« يا بني هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فَعَرَفَ حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصَّهرُ كان لكم يُكرِّمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك .

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حَسَنُ : كان أبوك شرَّ قريش لقريش ، لِسَفْكِهِ لدمائها ، وقطعِهِ لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن قَتَلَ عثمان ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها ^(١) قادحاً ، ولا في ميزانها راجحاً ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به . فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد ^(٢) منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان .

١٧ - مقال المغيرة بن شعبة

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشمع عليا وقال : والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولا في حكم يعيل ، ولكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

[١] الزند : العود الذي يقدح به النار . [٢] أهدد القاتل بالقتيل : قتله به .

١٨ - رد الحسن بن عليّ عليهم

فتكلم الحسن بن عليّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يامعاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فُحُشًا أَلْفَتَهُ ، وسوء رأى عُرِفَتْ به ، وَخُلُقًا سَيِّئًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ ، وَبَغْيًا عَلَيْنَا ، عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يامعاوية واسمعوا ، فَلَأَقُولَنَّ فِيكَ وَفِيهِمْ مَا هُوَ دُونَ مَا فِيكُمْ ، أَنشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الرَّهْطُ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي شَتَمْتُمُوهُ مِنْذَ الْيَوْمِ صَلَّى الْقَبْلَتَيْنِ ^(١) كَلْتَيْهِمَا ، وَأَنْتَ يَامَعَاوِيَةَ بِهَمَا كَافِرٌ ، تَرَاهَا ضَلَالَةً وَتَعْبُدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ^(٢) غَوَايَةَ ، وَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ كَلْتَيْهِمَا بَيْعَةَ الْفَتْحِ ^(٣) وَبَيْعَةَ الرَّضْوَانِ ^(٤) ، وَأَنْتَ يَامَعَاوِيَةَ بِإِحْدَاهُمَا كَافِرٌ ، وَبِالْآخَرَى نَاكِثٌ ، وَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَوَّلَ النَّاسِ إِيمَانًا ، وَأَنْتَ يَامَعَاوِيَةَ وَأَبَاكَ مِنَ الْمُؤَاَفَةِ قُلُوبِهِمْ ، تُسِرُّوْنَ الْكُفْرَ وَتُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، وَتُسْتَمَالُونَ بِالْأَمْوَالِ ، وَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَلَسْتُمْ

[١] كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت المقدس تألفاً لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول . [٢] اللات : صنم تقبب بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان يبطن نخلة .

[٣] روى الطبرى فى تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فجلس لهم - فيما بلنى - على الصفا ، وصر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعة لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبرى ٣ : ١٢١ - وكان معاوية من أسلم بعد الفتح . [٤] بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية فى غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه دلى الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان .

تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيمكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، وَيُفْلِحُ^(١) حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط ، وَأَنْشُدُكَ اللهُ يَا معاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عُتْبَةُ هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم العن الرَّاكِبَ والقَائِدَ والسَّائِقَ » . أتُنسى يا معاوية الشعر الذي كتبتَهُ إلى أبيك - لما همَّ أَنْ يُسَلِمَ - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِمَنَّ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَا
بَعْدَ الَّذِينَ بَدَرُوا أَصْبَحُوا مِرْقًا^(٢)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ ثَانَتِهِمْ
وَحَنْظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَا^(٣)
لَا تَرَكَنَّ إِلَى أَمْرٍ تُكَلِّفُنَا
وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرْقَا^(٤)
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعُدَاةِ «لَقَدْ
حَادَ ابْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعُزَّى إِذَا فَرِقَا»^(٥)

الله لما أخفيتُ من أمرِك ، أكبر مما أبديت ، وأنشدكم الله أيها الرهط ، أتعلمون أن علياً حرَّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » . وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكبر أصحابه إلى بني قريظة ، فنزلوا

[١] ينصر . [٢] الزرق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره .

[٣] أي لشدة الحزن والأسى . [٤] الخرق بحركة الألف يحسن الرجل العمل والنصرف في

الأمور ، والحق . [٥] فرق : فزع .

من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالرأية ، فاستنزلهم على حكم الله ، وحكم رسوله ،
 وفعل في خيبرَ مثلها ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك
 رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جذيمة ^(١) ،
 فبعث إليك ونهَمَك ^(٢) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط ، نشدتكم الله ألا تعلمون
 أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن ، لا تستطيعون
 ردّها ؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو
 تقيفاً إلى الدين ، فوقع به ، وسبه ، وسفّهه ، وشتمه ، وكذّبه ، وتوعده ، وهم أن يبطن
 به ، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم العير ^(٣) إذ عرض لها رسول الله
 صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام ، فطردها أبو سفيان وساحل ^(٤) بها ، فلم
 يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت

[١] في الأصل « خريمة » ، وهو تحريف ، وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مائة بن كنانة ، وقد
 بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين امتنع مكة داعياً ، ولم يعثه مقاتلاً ، فلما
 رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد فندد
 ذلك فكفروا ، ثم عرصهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية
 عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن الفيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجر بن من اليمن
 حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما - فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يده
 إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال يا علي
 اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه
 ماله قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه
 ليدي ميلة الكلب ، (والميلة بالكسر : الإناه يبلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال
 إلا وداه بقيت منه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ،
 قال فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون
 فعمل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحذت ، ثم استقبل القبلة
 قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثلاث مرات .

[٢] الذي في كتب اللغة : « نهمة : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم
 وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه . [٣] العير الإبل تحمل الميرة . [٤] أي بها ساحل البحر .

وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أُحُد ، حيث وَقَفَ تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه ، وهو ينادى **أَعْلُ هُبَلُ** ^(١) مراراً فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مراتٍ ، ولعنهُ المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وَغَطَفَانِ وَالْيَهُودِ ، فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبوسفیان في قريش ، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والهدى معكوفاً **أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ** ^(٢) ، ذلك يوم الحديبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أبوسفیان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن ، فقيل يا رسول الله أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع ، وأما القادة فلا يُفْلح منهم أحد ^(٣) ، والسادسة يوم الجمل الأحمر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبه ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، منهم أبوسفیان ، فهذا لك يامعاوية .

وأما أنت يا بن العاص ، فإن أمرك مشترك ، وضعناك أمك مجهولاً ، من **عَمَّهَر** ^(٤) **وَسِفَاح** ، فتحاكم فيك أربعة من قريش ، فغلب عليك جزأرها ، والأمهم

[١] أى اعل وانتصر ياهل وهو صنم كان في الكعبة . [٢] والهدى معطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهدى ما يهدى إلى مكة ، ومعكوف أى محبوساً وهو حال . أن يبلغ محله أى مكانه .
[٣] لا يتعارض مع هذا أن أبوسفیان أبلغ بعد وأسلم ، إذا التى فيه إلا ، وليس النفي بلى . [٤] حور : ذكروا أن النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عنزة بالتحريك) فسويت : فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة ، فكانت بغياً ، ثم أعتقها ، فوقع عليها بوهب بن عبد المطاب ، وأميه بن خلف الجهمي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبو سفیان بن حرب ، العاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدت حمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمة فيه ، فقالت هو من عاص بن وائل ، وذاك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفیان ، وى ذلك فول أبو سفیان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

• أبوك أبو سفیان لاشك قد بدت لنا ديك منسه بينات الشمائل

يقال إنه جعل لرجل ألب درهم على أن يسأل حمرا وهو على المنبر : من أمه ، فسأله فقال : أمي سلمى

حسباً ، وأخبثهم منّصيباً ، ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأبتري^(١) فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد ، وهجوته وآذيته بمكة ، وكذّته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة ، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) ، فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائباً ، وأكذبك واشياً ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي ، حسداً لما ارتكب من حليلته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية

بنت حرمة تلقب بالنابغة من بني عزة أصابتها رماح العرب فبيعت بكاهن ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء يؤذنه . (ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

[١] الثاني المبغض ويسهل ، وذلك أن العاص بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم أبتري عند موت ابنه الفاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المقطع عن كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيتقى حسس ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة وهو الأبتري لا أنت . [٢] يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأته قریش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبين ، وأبى النجاشي أن يخفر ذنبه . [٣] وذلك أن حمرا وعمارة ركبوا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان حمارة جليلاً وسيماً تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليلى أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة فقال لامرأة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبلي ابن عمك ، فقبلته ، وهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، فامتنعت منه ، ثم إن حمراً جالس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هو سكانها الذي تعدل به » فدفعه حمارة إلى البحر ، فلما وقع عمرو سبوح حتى أخذ بمنجاف السفينة ، ووضف عمرو عليه في نفسه وعلم أنه كان أراد قتله ومضياً حتى نزل الحبشة ، فلما اطمأن بها لم يلبث حمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلف إليها وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر حمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه حمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته وميئته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقاً فقل لها فاندعك يدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فأبى أعرفه وأتني بشيء منه حتى أصدقك ، قال أفعل فسألها ذلك فدعت منه وأعطته شيئاً في فارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة المالك لا ماسمنا بمثل هذا ، ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة آخر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن ينفضن في إحليله ثم خلى سبيله ففرج هارباً .

والإسلام ، ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرهط يعلمون ، أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لأقول الشعر ولا ينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُحصى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سَعَرْت (١) عليه الدنيا ناراً ، ثم لحقتَ بِفِلَسْطِينِ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بديناه ، فلسنا نلومك على بغضٍ ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ، ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك ابن العاص ! ألسنت القائل في بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟	وما السَيْرُ مني بِمُسْتَنْكَرٍ
فقلت : ذريني فإني امرؤ	أريد النجاشي في جعفر
لأَكْوِيَهُ عنده كِيَّةٌ	أقيم بها نَحْوَةَ الْأَصْعَرِ (٢)
وَشَانِي أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِهِمْ	وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِداً	ولو كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ (٣)

[١] سمر النار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول خلافة عثمان والياً على مصر - منذ خلافة عمرو بن الخطاب - ثم إن عثمان ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرذاع - خراج مصر ولى عمرو بن العاص على الجند فلم ينفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمراً ، فلما قدم عمرو دينة جعل يطعن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بمدئ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، وكان قول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه (نكأ قرحة : قمرها قبل أن تبرأ فنديت) . [٢] الصعر : محرمة الليل في الحد ، صعر : كفرح وهو صعر ، وصعر خده تصعيراً : أماله من الكبر . [٣] كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة تبة بن غزوان ، وهو من بنى نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعنى عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أى في صعوبة وصول إليه .

ولا أنتى عن بنى هاشم وما أسطعت في الغيب والمخضر
فإن قبيل العتب منى له وإلا لويت له مشفري (١)

فهذا جوابك ، هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في
الخر (٢) ، وقتل أبك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صبراً (٣) ، وأنت
الذي سماه الله الفاسق ، وسمى علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت
يا عليّ ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً ، فقال لك عليّ اسكت
يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : « أَفَن كَانَ

[١] المشفر للبعير : كالشمة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . [٢] وذلك أن عثمان
رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولى عليها الوليد بن دحية - وهو
أخوه لأبيه - ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم
وأنه تكلم في الصلاة والفت إلى من يفتنون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا
صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتاً وأراد أن يحده حول إذا نعت إليه
رحلاً من قریش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى عليّ ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به
[٣] القتل صبراً : أن يحبس الرجل ويرمى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهراء به . صنع مرة وليمة ودعا إليها كبراء قریش وفيهم رسول الله
الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبدا
ذلك أبي بن خلف الجمحي ، وكان صديقاً له ، فقال ماشىء بلاني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رح
شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أنشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهدت له ، ف
أبى : وجهي من وجهك حرام إن نقيت محمداً فلم تطأ عنقه، وتبزيق في وجهه، وتلطيم عينه ، فلما رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْدَنِي أَن تَحَدَّثْتُمَعَ الرَّسُولِ سَكِينًا » وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلى في حجر الكعبة
مأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ
بمكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام
وهو راجع .

مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً :
« إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا^(١) » ويحك يا وليد ! مهما نسيت فلا تنس قول
الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتابُ عزيزٌ) في عليّ وفي الوليد قرأنا^(٢)

فتبّوا الوليد إذ ذاك فسقاً وعليّ مَبْـُـوءاً إيماناً^(٣)

ليس من كان مؤمناً (عمرك الله) كمن كان فاسقاً خوفاً

سوف يُدعى الوليد بعد قليل وعليّ إلى الحساب عياناً

فعليّ يُجزى بذاك جنأنا ووليدٌ يجزى بذلك هوأنا

رب جدّ لعقبة بن أبان لابس في بلادنا ثبانا^(٤)

وما أنت وقريش ، إنما أنت عِلج من أهل صفورية^(٥) ، وأقسم بالله لأنت
أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة : فوالله ما أنت بحصيف^(٦) فأجيبك ، ولا عاقل

فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتقى ، وما عقلك وعقل

[١] وذلك أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن دقبة إلى بني المصطلق لأخذ
الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه لحسبهم مقاتليه فرجع ، وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فقاتلهم ، فأتوه منكربن ماقاله عنهم ، فزك
الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ

فَتُضَيِّقُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » . [٢] مهمل عن « قرأنا » . [٣] فتبوا مهمل
عن « فتبوا » . [٤] أبان : هو والد أبيه عقبة ، وهو الوليد بن دقبة بن أبي مبيط أبان بن أبي عمرو
ذكوان بن أمية بن عبد شمس ، والتبنا سراويل صغير مقدار شهر يستر العورة المفلغة فقط يكون للملايين .

[٥] صفورية بلد بالأردن (بضم الهمزة والدال وتشديد النون) ، والمليج : الرجل من كفار العجم ، وذلك
أن جدّه ذكوان كان يلقب بالصفوري ، ذكر جماعة من النساء أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد
شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بني أمية أصله (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٥٤)

[٦] حصيف : ككرم استحکم دقله فهو حصيف .

أمتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سبته على رؤوس الأشهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت الأحياني إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر ابن حجاج فيك :

يَا لِلرَّجَالِ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَاسِبَّةِ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ ^(١)

نُبِّئْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عَرْسِهِ جِنْسٍ لَتِيمِ الْأَصْلِ مِنْ لِحْيَانَ ^(٢)

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيقتك ولم تقتل فاضحك ، وكيف ألومك على بغض علي ، وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة : فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنحلة : « استمسكي فإني طائرةٌ عنك » . فقالت النحلة وهل علمت بك واقعة علي ، فأعلم بك طائرةٌ عنى ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ، واقدرأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان ، وأما نخركم علينا بالامارة ، فإن الله تعالى يقول : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ^(٣) مَثْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » .

[١] السبة : العار . [٢] همس الرجل : امرأته ، وبنو لحيان : حمى من هذيل ، وهو لحيان ابن هذيل بن مدركة . [٣] أي كثرتنا ، أمره : كنعصره ، وأمره : كثره ، (وفي قراءة : أمرنا) أو المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أي جعلناهم أمراء .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال
يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقذفه أئى بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف .
فقال معاوية : خلّ عنه ، لاجزالك الله خيراً ! فتركه ، فقال معاوية : قد أنبأتكم
أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم
على البيت ، قوموا عني ، فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدواكم
عن رأى الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لمامات الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسينُ ومحمدُ بن
الحنفية^(١) ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ،
وقد اغرّ وورقت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد ، فلئن عزّت حياتك ، لقد هدّت وفاتك ، ولنعم
الروحُ روحٌ تضمّنه بدنك ، ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمّنه كفنك ، ولنعم
الكفنُ كفنٌ تضمّنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ،
خامس أصحاب الكساء^(٢) ، وخلفُ أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ،

[١] هو محمد بن علي بن أبي طالب ، والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن لجم وتسمى خولة بنت
جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . [٢] الكساء : هو
كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يصابون إليه ، يقال : « آل الكساء » وهم النبي عليه الصلاة
السلام ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :
والخمسة الفر أصحاب الكساء معاً خير البرية من عجم ومن عرب
قال أبو عثمان الخالدي :

أعاذل إن كساء التقى كسانه جي لأهل الكساء
ومن قصة هذا الكساء ماروت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم
فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبداً ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله

وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر (١) الطيار في الجنة

وروحه وكلته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ، وبإذننا على أنه ابن الله ونحن نبأبعك على أنك رسول الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فما زالوا يحاجونه ويلاعنونه ، حتى أنزل الله : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ (أى فى عيسى) مِنْ بَدَدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم — والمباهلة الملاعنة — فقالوا يا أبا القاسم : بل نرحب فنسطر فى أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان دا رأبهم « وهو أحد رؤسائهم ، قال ياقوت فى معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا ... الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ما باهل قوم نبياً قط ، فماش كبيرهم ولانيت صغيرهم ، واتن فعلمت لكان الاستئصال ، فإن أبيتهم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أتمت عليه ، فوادعوا الرجل واصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أوحز » وفد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأسموا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إنى لأرى وجوهاً لو سألتوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تماهلوا فتملكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا يا أبا القاسم : « رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتهم المباہلة فاسلموا ، يكن لكم مالمسلمين وعليكم ما على المسلمين » فأبوا ، فقال : فإنى أناجزكم القتال ، فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصلحك على أن لا تنزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك فى كل عام ألبى حلة ، ألفاً فى صفر ، وألفاً فى رجب ، وثلاثين دراهم حادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولولاءوا المسحوا قرده وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الظ على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج فى المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » فن ذلك الوقت سمي الحسة أصحاب الكساء (أنظر كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب لأبى طالب ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩)

[١] هو جعفر بن أبى طالب ، وقد استشهد فى غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين آخر الراية من زيد بن حارثة الذى استشهد قبله فى هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

المأوى ، وغذتكَ أكفَّ الحق ، ورُيِّت في حِجْرِ الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فَطَبَّتَ حياً وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غيرَ طيبةٍ لفراقك ، إنها غير شاكَّةٍ أن قد خيرَ لك ^(١) ، وإنك وأخاك لسيدا شبابِ أهلِ الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأبیه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولى الخلافة يزيدُ بن معاوية (في هلال رجب سنة ٦٠ هـ) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عُتْبَةَ بن أبي سُفْيَان أن يأخذ الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخْصَةٌ ^(٢) ، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه ونعَى له معاوية ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : « إن مثلى لا يعطى بيعته سراً ، ولا أراك تجتزئ بها منى سراً ، دون أن تُطهرها على رهوس الناس علانيةً ، فاذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمراً واحداً » فقال له الوليد - وكان يحب العافية - « فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس » .

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء ، فقال : « أَصْبِحُوا ثم ترون ونرى » فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُأخُوا عليه ، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيا من رجب سنة ٦٠ هـ) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية ، فانه قال له :

البارحة ، فرأيت جعفرًا يطير مع الملائكة وجناحاه مفرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ - . [١] خار الله لك في الأمر : جعل لك فيه الخير .
[٢] الرخصة : التسهيل .

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحبُّ الناسِ إلىَّ ، وأعزُّهم علىَّ ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقَّ بها منك ، تنحَّ بِتَبَعَتِكَ ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس ، فادعُهُم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حَمَدَتَ الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقصِ الله بذلك دينَكَ ولا عقلك ، ولا يُذهِبِ بهِ مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخلَ مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فمنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوّل الأسيئة ، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيعَها دَمًا ، وأذلَّها أهلاً . »

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيلٌ ذلك ، وإن نبتت ^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوبُ ما يكون رأياً ، وأحزمُهُ عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلاً منها حين تستدبرها استدباراً ، قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مؤوقفاً » وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك : ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فاقدم علينا ^(٤) - وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة -

[١] تبعة جمع تابع . [٢] ضاقت . [٣] الشعف جمع شمفة محركة ، وهى رأس الجبل .
[٤] اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية لخدموا الله عليه ، وقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على اقوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنه

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :
« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ،
نخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبلت الشيعة تختلف
إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهل
(بالتحريك : الصعف والفرع والقتل) فلا تمروا الرجل من نفسه « قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه وقتل
أنفسنا دونه » قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن علي من
سليمان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين
من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك
الجبار العنيد الذي اتزى (وثب) على هذه الأمة ، فأبزها أمرها ، وغصبها فيهما ، وتأمر عليها بغير رضا
منها ، ثم قتل خيارها ، واستنقى شرارها ، وحمل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعداً له كما بعدت
شهود ، لأنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ،
عسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أمك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى تلحقه
نام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن
، من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : خيم لا (أي أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى
م في غيرك ، فالمجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجنب ، وأبعت
نار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جم بالفتح وهو معظم الماء ، وطمى الماء : علا ، وطم :
ر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ،
حسين بن علي إلى الملائمة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هاشماً وسعيداً (وهما هاشم بن هاشم
سعيد بن عبد الله) قدما علي بكتيكم ، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي
صصتم وذكرتم ، ومقالة جالسكم لأنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ،
د بهتت إليكم أخى وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم ،
ن كتب إلي أنه قد أجمع رأي مثلكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم
نرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فاعمرى ما للإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط
لداث بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام .

« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما في أنفسهم ، وما أغرك منهم ، والله أحَدَثَكَ عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيدنَّكم إذا دعوتهم ، ولأقاتلنَّ معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم ، حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله »

فقام حبيب بن مُظَاهِرِ الفَقْعَسِيِّ فقال :

« رحمك الله قد قضيت ما في نفسك بواجبٍ من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولهما .
فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ — خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلكُ الرجال ، وتُسْفَكُ الدماء ، وتُنْصَبُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال : إني لم أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أتبُّ على من لا يتبُّ عليّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرشُ بكم ، ولا آخذ بالقرفة^(١) ولا الظنَّة ولا الشَّهْمَةَ ، ولكنكم إن أبادتكم صَفَحْتُمْ^(٢) لي ، وَنَكَّثْتُمْ بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبتت قائمته في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما إذ أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يُرْذِيهِ الباطلُ »

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

[١] القرنة : التهمة ، وقرفه بالشيء : اتهمه . [٢] أي جاهرتموني بالمداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا الغشم^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُسْتَضْعَفِينَ » فقال : « أن أكون من المُسْتَضْعَفِينَ في طاعة الله أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أكون من الأَعَزِّينَ في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قويا غير النعمان ، فبعث إلى عُبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضم إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) وَلَآئِي مِصْرِكُمْ وَتَغْرَمُكُمْ^(٢) »

وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُرِيبيكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لمحسَنكم ومطيعكم كالوالد الأبرّ ، وَسَوْطِي وسيفي على من ترك أمرى ، وخالف عهدي ، فليُبْقِ امرؤ على نفسه ، الصدق يُنْبِئُ عنك لا الوعيد » .

نزل فأخذ العُرْفَاءَ^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج ، دار المختار، حتى انتهى إلى دارهاني بن عُرْوَةَ المُرَادِيَّ لا تُدْأَبُه ، وَنَحَى خبره إلى زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال لا والله لا أجيئك أبداً ، أنا أجيئك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد ضيَب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء

[١] الغشم : الظلم ، والمراد الشدّة . [٢] الثغر : موضع الخافة من فروج البلدان .
[٣] جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو القريب وهو دون الرئيس .

على ثيابه ، وثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هائناً وحبسه ، خشي أن يثب الناس به ، فخرج فصعد المنبر ومعه أشرف الناس وشروطه وحشمه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تختلفوا ولا تفرقوا ، فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا ، وتجرموا ، إن أخاك من صدقك ، وقد أعذر من أنذر »

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد ، وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : « أشرقوا على الناس ، فمنا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم فصول^(١) الجنود من الشام إليهم » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :
« أيها الناس : الحقوا بأهاليكم ، ولا تعجلوا الشر ، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت ، وقد أعطى الله الأمير عهداً اتممت^(٢) على حربته ، ولم تنصرفوا من عشيئتكم أن يحرم ذريئتكم العطا ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع ، وأن يأخذ البر

[١] فصل من البلد فصولا خرج منه . [٢] يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، حتى لا يبقى له فيكم بقيةٌ من أهل المعصية إلا أذاقها
وبال ما جرّت^(١) أيديها .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقاتلهم أخذوا
يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج
متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب
وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب
عجوز فسألها أن تؤويه ، فأوته في دارها .

٢٦ - خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ،
وأمر فنودي : « أَلَا بَرَّتِ الذِّمَّةَ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْعَتَمَةَ^(٢) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ،
فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى
عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيف الجاهل ، فدأنى ما قد رأيت من الخلاف
الشقاق ، فَبَرَّتِ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيَّتُهُ ،
بِإِذْنِ اللَّهِ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالزَّمُوا طَاعَتَكُمْ وَبِعْتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنُ بْنُ نُعْمَيْرٍ^(٣) ، ثَكَلْتُكَ^(٤) أَمْكَ إِنْ صَاحَ^(٥) بَابَ سِكَّةٍ مِنْ
بِكَ الْكُوفَةِ ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ

[حرّ جرة : اجترم جريمة . [٢] العتمة : وقت صلاة المشاء .

[وكان على شرط ابن زياد . [٤] ثكته : فقدته .

[صاحبه يصوحه فانصاح : أى شغفه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

الكوفة ، فابتعت مُرَاصِدَةً على أفواه السكك ، وَأَصْبَحَ غَدًا وَأَسْتَبِرَ^(١) الدُّورَ وَجُسْنَ خِلَالَهَا ، حتى تأتيني بهذا الرجل . ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسالماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد بن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب عنقه ، فهَوَى رَأْسَهُ إلى الأرض ، وَأَتْبَعَ جَسَدَهُ رَأْسَهُ ، ثم أمر بهاني بن عروة ، فأخرج إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانيء ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعَجَل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ، وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسيرَ إلى الكوفة ، أتاه عبداً ابن عباس ، فقال : « يا بنَ عَمِّمَّ إنك قد أرجف الناس أنك سائرٌ إلى العرافِ قَبِيْنٌ لي ما أنت صانع ؟ » قال : « إني قد أجمعت المسير في أحدِ يومَيَّها إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني - رحم الله - أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وَضَبَطُوا بلادهم ، وَنَفَوْا عَدُوَّهُمْ ؟ فإن قد فعلوا ذلك فسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْكَ إليهم ، وأميرهم عليهم ، قاهرٌ له

[١] سبر الجرح وغيره واستبره : امتنع غوره .

وَعَمَّالُهُ تَجْبِي بِلَادِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَغْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيُخَالِفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فَقَالَ لَهُ حُسَيْنٌ : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَتَاهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، فَخَدَّتهُ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « مَا أَدْرِي مَا تَرَكْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكَفَّضْنَا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبَّرَنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعُ ؟ » فَقَالَ الْحُسَيْنُ : وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَيَّانِ الْكُوفَةِ ، وَأَقْدَمْتُ كِتَابَ إِلِيَّ شِيعَتِي بِهَا وَأَشْرَافُ أَهْلِهَا ، وَأَسْتَخِيرُ اللَّهَ » فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شِيعَتِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ، ثُمَّ إِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّهَمَهُ فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَقَمْتَ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتَ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُوفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْتِنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ أَخْرَجَ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ مَعِيَ شَيْءٌ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْدِلُوهُ ^(١) بِي ، فَوَدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا لَتَخْلُوَ لَهُ » .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَشِيِّ أَوْ مِنَ الْغَدِ ، أَتَى الْحُسَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : « يَا بَنَ عَمِّ ، إِنِّي أَتَّصَبَّرُ وَلَا أَصْبِرُ ، إِنِّي أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ الْمَهْلَاكِهَ لِاسْتِنْفَالِ ، إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَوْمٌ غُدُرٌ ^(٢) ، فَلَا تَقْرَبْنَهُمْ ، أَقِمْ بِهَذَا الْبَلَدِ ، كَيْ سَيِّدُ أَهْلِ الْحِجَازِ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَرِيدُونَكَ كَمَا زَعَمُوا ، فَارْتَبِعْهُمْ فَلْيَنْفُوا عِدْوَهُمْ ، ثُمَّ اقْدَمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أُيِّدَتْ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ ، فَسِرْ إِلَى الْيَمَنِ ، بِهَا حِصُونًا وَشِعَابًا ^(٣) ، وَهِيَ أَرْضٌ عَرِيضَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَلَا يَبُكُّ بِهَا شَيْعَةٌ » ،

[١] أي لم يسووه . [٢] جمع غدور كصبور .

[٣] الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

وأنت عن الناس في عزلة ، فكتب إلى الناس وترسل وتبت دُعَاكَ ، فَإِنِ
أرجو أن يأتيك عند ذلك ، الذي تحبُّ في عافية .

فقال له الحسين : « يابن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ، ولكني
قد أزمعت وأجمعت ^(١) على المسير » فقال له ابن عباس : « فَإِنِ كُنْتَ سَائِرًا .
فلا تَمِرْ بنسائك وصببتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه
وولده ينظرون إليه » ، ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك
إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك ^(٢) ، والله الذي
لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك ، إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على
وعليك الناس أطعتني ، لفعلتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فرأى
بعبد الله بن الزبير ، فقال : قررت عينك يابن الزبير ! ثم قال :

يَا لِكِ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَا لِكَ الْجَوْفِ بِيضِي وَأَصْفِرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقَّرِي ^(٣)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

[١] يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر ، وعليه ، عزمت عليه وثبت عليه هي

[٢] أي مع وجودك .

[٣] القبرة واحد العبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : بضم القاف والباء ، والجمع قنابر .
صاحب القاموس : ولا تقل قبرة (كقعدة) أي هي لينة ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « وا
تقول : القبرة وقد جاء ذلك في الرجز » ورويا شاهدا عليه أنشده أبو عبيدة ، والمعمر : المنزل الكثير
والكلأ ، وهو مثل وأول من فله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ،
على ماء ، فذهب طرفة بهنيج له ، فنصبه قنابرا وتقى عامة يومه فلم يصمد شيئا ، ثم حمل نفه ورد
عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القابر يلقطن ما نثرهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في
يمكن منها صاحبها .

٢٨ - نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن الرحمن بن الحارث بن هشام^(١) على الحسين
رضي الله عنه ، فقال :

« يا بن عمِّ ، إن الرَّحِمَ يُظَاثِرُنِي^(٢) عليك ، ولا أدري كيف أنا في النصيحة
لك ، فقال يا أبا بكر : ما أنت مِمَّنْ يُسْتَعَشَّسُ ، فقال أبو بكر :

« كَانَ أبوك أَشَدَّ بَأْسًا ، والناس له أَرْجَى ، ومنهُ أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار
إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه - إلا أهل الشام - وهو أعزُّ منه ، فخذلوه
وتناقلوا عنه حرصًا على الدنيا وَضِنًا بها ، فجرَّعوه الغيظ وخالفوه ، حتى صار إلى
ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ،
وقد شهدت ذلك كله ورأيتهُ ، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك
وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ،
الناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطفوا الناس
موال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من
.. أَلَا إِلَهَ مِمَّنْ يَنْصُرُهُ ، فاذا كر الله في نفسك » .

١ . ابن عمِّ ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض

١ . عمر بن مخزوم القرشي .
٢ . وأظأرنى وظأأرنى

٢٩ - خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحُصَيْن ابن مُتَمِيمِ التميمي ، فأمره أن ينزل القادسية ، وأن يضع المَسَاحِجَ (١) ، وقدم الحرُّ ابن يزيد التميمي بين يديه ، في ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسيناً ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسْم ، ونزل به ، فسار إليه الحرُّ حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظهيرة ، وحضرت صلاة الظهر ، فخرج الحسين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إنها معذرةٌ إلى الله عز وجل وإليكم : إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ، وقدمت على رُسُلِكُمْ أَنْ أَقْدَمَ عَلَيْنَا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى . فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم ، فإن تُعْطُونِي مَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ مِنْ عَهْدِكُمْ وَمَوَاطِئِكُمْ أَقْدَمَ مِنْكُمْ ، وإن لم تفعلوا وكنتم لَمَقْدَمِي كَارِهِينَ ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فقال الحسين للحر : أتريد أن تصلي بأصحابك ؟ قال : لا بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك ، فصلى بهم الحسين .

٣٠ - خطبة أخرى له

فأما كَانَ وقت العصر ، أمر ا

مناديه ، فنادى بالعص

وأثنى عليه ، ثم قال

[١] المساح جمع مس

« أما بعد : أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أَرْضَى
لِلَّهِ ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس
لهم ، والسائرين فيكم بالجورِ والمُعدوان ، وإن أنتم كَرِهْتُمونا وجهلتم حقا ، وكان
رأيكم غير ما أتتني كتبكم ، وقَدِمْت به على رسلكم انصرفت عنكم » .
فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له
الحسين خُرُجَيْن مملوئين مُصْحَفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه
والحرُّ يسايره .

٣١ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضى الله عنه بنى حُسْم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد تروُن ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت ،
وأذبر معروفها ، واستمرت^(١) جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابَة كصُبابَة الإِناء ،
وخسيس عيشٍ كالمرعى الوَيْيل ، ألا ترون أن الحق لا يُعْمَلُ به ، وأنَّ الباطل
لا يُتْنَاهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًّا ، فإنى لا أرى الموت إلا شهادة ،
ولا الحياة مع الظالمين إلا برَمًا^(٢) » .

٣٢ - خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ الْبَجَلِيُّ ، فقال لأصحابه : تَكَلَّمُونَ أم أتكلّم ؟ قالوا : لا ،
ن تكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] في كتب اللغة : « مرّ الشيء يمرّ بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر »
لما منع منه على أنّ الهمزة والسين والتاء للصيرورة أى صارت مرّة ، ونظيره استعجر الطين ، واستحصن
ر (صار حصاناً) واستعرب القوم ، وفي الأمثال : « إنّ البغات بأرضنا يستنسر » « كان صرّاً
ستيس » « قد استنوق الجمل » . [٢] البرم : السامة والضجر برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يابن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٣ — خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً مُستجِلاًً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يَدْخِله مُدْخِله » . ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنفء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غيري ، وقد أتتني كتبكم وقدِمَت عليّ رسلكم ببيعتكم ، أنكم لا تُساموني^(١) ولا تخذلوني ، فإن تَمَمْتُمْ علي بيعتكم تُصيبوا رُشدكم ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم في أسوة ، وإن لم تفعلوا وتقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بُنْكَرٌ^(٢) ، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتربكم فحفظكم أخطائكم ، ونصبتكم ضيعتكم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغزو الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

[١] أسلمه : خذله . [٢] النكر بضم وبضمتين : المنكر .

٣٤ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كره بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجَدِّية ^(١) ، فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُه على السَّراء والضَّراء ، اللهم إني أحمدُك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقَّهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد : فإنِّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أوصلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عنى جميعاً خيراً ، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ، ليس عليكم مني ذمام ، هذا الليلُ قد غَشِيكم فاتخذوه جملاً ، ثم ليأخذُ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما البونى ، ولو قد أصابوني لهوًا عن طلب غيري »

[١] التقى عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن أجمع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن أسيره إلى أي ثمر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلاً من لعين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره وفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد تائباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنيه السلامة قاء ، ولا لتعقد له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى لما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط بل صدره وظهره فإنه طاق مشاقق قاطع ظلوم » .

٣٥ رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته : « لِمَ تَفْعَلُ ؟ لِنَبِيِّ بَعْدِكَ ؟ لا أرانا الله ذلك أبداً »
فقال الحسين : « يا بني عَقِيل حَسْبِكُم من القتل بمسلم ، اذهبوا قد أذنت لكم »
قالوا : « فما يقول الناس ؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنينا عمومتنا خير
الأعمام ، ولم نَرَم معهم بسهم ، ولم نَطْعن معهم بِرُمح ، ولم نَضرب معهم
بسيف ، ولا ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل ، ولكن تقديك أنفسنا وأموالنا
وأهلونا ، ونقاتل معك حتى نَرِدَ مَوْرِدَكَ ، فقبح الله العيش بعدك » .

٣٦ - رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الأَسَدِي فقال :
« أَنَحْنُ نُخَلِّي عَنْكَ وَلَمَّا نُعْذِرُ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْسِرَ
فِي صَدُورِهِمْ رِمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ
يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلَهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتَهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ » .
وقال سعد بن عبد الله الحنفي : « وَاللَّهِ لَا نُخَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَا -
حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ،
أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذَرَّ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى الْقَوَا
حَمَى دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامُ
الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا » .

وقال زهير بن القين : « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ (١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ

حتى أقتل كذا ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتلَ عن نفسك ، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، تقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنا وفيّنا ، وقضينا ما علينا . »

٣٧ — خطبته غداة يوم قتله

« وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجديدها بال ، ونعيمها مُضمحلّ ، وسرورها مكفهر ، والمنزل تلمعة ^(١) ، والدار قلعة ^(٢) ، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . »

٣٨ — دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صبحته الخيل رفع يديه فقال :

« اللهم أنت ثقّتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لى في كل أمرٍ نزل بي ثقةٌ وعدةٌ ، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقلّ فيه الحيلة ،

[١] التلمعة : مجرى الماء ، من أعلى الوادى الى بطون الأرض ، والنزول بالتلمعة محوف ، لأن من نزلهما فهو على خطر ان جاء السيل جرفه . [٢] الدنيا دار قلعة أى انقلاع ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومازلنا منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لانملكه أو لاندرى متى تتحول عنه .

وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَنْزَلْتُهُ بِكَ ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً
مَنِي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ
كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ .

٣٩ — خُطْبَتُهُ وَقَدْ دَنَا مِنْهُ الْقَوْمُ

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا قَوْلِي ، وَلَا تُعْجَلُونِي حَتَّى أَعْظِمَ كُمْ ، بِمَا لَحِقَ لَكُمْ
عَلَيَّ ، وَحَتَّى أَعْتَذِرَ إِلَيْكُمْ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي ، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي ،
وَأَعْطَيْتُمُونِي النِّصْفَ ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا
مَنِي الْعَذْرَ ، وَلَمْ تَعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ
لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ، إِنْ وَلىَّ اللَّهُ
الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فأما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ،
فأرسل إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنه ، وقال لهما : أَسْكِتَاهُنَّ ، فَلَعْمَرِي
لَيَكْثُرَنَّ بكاؤهن .

٤٠ — خُطْبَةٌ أُخْرَى

فأما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد
صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدُ : فَانْسِبُونِي فَاَنْظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُواهَا ،
فَاَنْظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي ، وَاتِّهَاكُ حُرْمَتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَابْنُ وَصِيَّهِ وَابْنُ عَمِّهِ ! وَأُولِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ أَوَلَيْسَ حَمْزَةُ سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ عَمِّ أَبِي ؟ أَوَلَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَنَاحِينَ عَمِّي ؟ أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُهُ مُسْتَفِيزٌ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي : هَذَا سَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ - وَهُوَ الْحَقُّ - وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كَذِبًا مَذْعَمَتٌ أَنْ اللَّهُ يَمُقَّتْ عَلَيْهِ أَهْلَهُ ، وَيَضُرُّ بِهِ مَنْ اخْتَلَقَهُ ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ : سَأَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ ، أَوْ أَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيَّ ، أَوْ سَهْلَ بْنَ سَعْدِ السَّاعِدِيَّ ، أَوْ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ ، أَوْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يُخْبِرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِي وَلِأَخِي ، أَفَمَا فِي هَذَا حَاجِزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْكَ دَمِي ؟ «
ثُمَّ قَالَ : « فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، أَفْتَشْكُونَ أَثْرًا ^(١) مَا أَنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيٍّ غَيْرِي مِنْكُمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، أَنَا ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ خَاصَّةً ، أَخْبَرُونِي أَتَطْلُبُونَنِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتَهُ ! أَوْ مَالٍ لَكُمْ اسْتَهْلَكْتَهُ ؟ أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ ؟ »

فَأَخَذُوا لَا يَكْلُمُونَهُ ، فَنَادَى يَاشَبْتُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَيَاحِجَّارُ بْنُ أَبِي جَرٍّ ، وَيَافِيَسَ ابْنَ الْأَشْعَثِ ، وَيَازَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ ، أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْنَعْتَ الثَّمَارُ ، وَأَخْضَرَ الْجَنَابُ ، وَطَمَّتِ الْجِمَامُ ، وَإِنَّمَا تَقْدَمُ عَلَيَّ جُنْدُكَ مَجْنُونًا ، فَأَقْبِلْ ؟ قَالُوا لَمْ نَفْعَلْ ، فَقَالَ : سَبِحَانَ اللَّهِ ! بَلَى ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِذْ كَرِهْتُمُونِي فَدَعُونِي أَنْصَرِفَ عَنْكُمْ إِلَى مَا أَمَنِي مِنَ الْأَرْضِ » . فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ الْأَشْعَثِ :

[١] أثرًا منصوب على نزع الحائض ، أي أفتشكون في أثر ، وما زائدة ، وأى ابن بنت نبيكم بدل من أثرًا .

أولا تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يُرُوك إلا ما تحبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه ، فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم يدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ إقرار العبيد ، عباد الله ، إني عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرُجُونِ ، أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فأقبلوا يرحفون نحوه .

٤١ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبّله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذنوب^(١) شاك^(٢)

في السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نذاري لكم من عذاب الله نذاري ، إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، مالم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة^(٣) ، وكنا أمة وأنتم أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخذلان الطاغية عبّيد الله ابن زياد ، فإنكم لا تُدرّكون منها إلا بسوء ، عُمر سلطانهما كله ، ليدمّلان^(٤)

[١] الذنوب : الفرس الوافر الذنب . [٢] يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أي دخل ، شكّ فيه (كرد) شكاً أي لبسه تماماً لم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شاك السلاح ، وشاكي السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشائك : من شك الرجل يشاك شوكاً (كلام نوياً) أي ظهرت شوكته وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكي مقلوب من شاك ، ويقال أيضاً رجل شاك ، السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرح) قلت شك (بضم الكاف) وهو مثل حرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل أمال ونل (بالضم) من المال والنوال واما هو مائل ونائل . [٣] العِصمة : الفلادة ، أي تفرّيت وحدتها ، وانقرط عقد جماعتنا . [٤] سمل عينه : فقأها بمحديدة محماة .

أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، وَيُمَثِّلَانِ بِكُمْ ، ويرفعانكم على جذوع النخل ،
ويقتلان أمثالكم وقرءاءكم ، أمثال حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ^(١) وأصحابه ، وهانئ بن عروة
وأشباهه .

فسبوه ، وأثنوا على عبيد الله بن زياد ، ودعوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى
نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سِلَماً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر
من ابن سُمَيَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأعيدكم بالله أن تقتلوهم ، نخلوا بين هذا الرجل
وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمري إن يزيدَ أيرضى من طاعتكم بدون
قتل الحسين » .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال : « اسكت أسكت الله نَأْمَتَكَ^(٢) ،
أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البوال على غقبه ، ما إياك
أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِر
بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك

[١] هو حجر بن عدى بن جيلة الكندي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما
جمعت له الكوفة والبصرة بلعه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى
معاوية في أمره ، فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ،
وأشهد عليه شهوداً أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه
الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل
معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم ثلثي سبيلهم ، وقال
رسول معاوية للباقيين : إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عليّ له ، فإن دعتم تركناكم ، وإن أبيتم
قتلناكم ، فإرءوا من هذا رجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل تتولاه وتبترأ ممن تبترأ منه ، فقتلوا وقتل
حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . [٢] الأمانة : الصوت

عن ساعة « قال : « أفبالموت تخوِّفني ؟ فوالله ألموت معه أحبُّ إليَّ من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله، لا يَغُرُّنكم مِن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعتهُ محمد صلى الله عليه وسلم قوماً هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .
فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أُقْبِل ، فلعمري لئن كان مؤمناً آل فرعون نصح لقومه ، وأبلغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

٤٢ - خطبة الحرِّ بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحرُّ بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتلٌ أنت هذا الرجل ؟ » قال : « إي والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرءوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلىَّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .
ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربه وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكأتمه فكأتمه بمثل ما كُله به من قبل ، وبمثل ما كُلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَرِصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « يَأْهَلِ الْكُوفَةَ : لِأُمَّكُمْ الْهَبْلَ وَالْعَبْرَ ^(١) إِذْ دَعَوْتُمُوهُ ، حَتَّى إِذَا
 أَنَاكُمْ أَسْلَمْتُمُوهُ ^(٢) ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ قَاتَلُوا أَنْفُسَكُمْ دُونَهُ ، ثُمَّ عَدَوْتُمْ عَلَيْهِ لِتَقْتُلُوهُ ،
 أَمْسَكْتُمْ بِنَفْسِهِ ، وَأَخَذْتُمْ بِكَطْمِهِ ^(٣) ، وَأَحْطَمْتُمْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَنَعَمْتُمُوهُ
 التَّوْجَةَ فِي بِلَادِ اللَّهِ الْعَرِيضَةَ ، حَتَّى يَأْمَنَ وَيَأْمَنَ أَهْلُ بَيْتِهِ ، وَأَصْبَحَ فِي أَيْدِيكُمْ
 كَالْأَسِيرِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ، وَلَا يَدْفَعُ ضَرًّا ، وَحَلَّاتُمُوهُ ^(٤) وَنَسَاءَهُ ^(٥) وَأَصَيْبِيَّتَهُ ^(٥)
 وَأَصْحَابَهُ عَنِ مَاءِ الْفِرَاتِ الْجَارِي ، الَّذِي يَشْرَبُهُ الْيَهُودِيُّ وَالْمَجُوسِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ،
 وَتَمَرَّغُ فِيهِ خَنَازِيرُ السَّوَادِ وَكَلَابُهُ ، وَهَامُّ قَدْ صَرَعَهُمُ الْعَطَشُ ، بِنَسَاءِ خَلْفَتُمْ مُحَمَّدًا
 فِي ذَرِيَّتِهِ ، لَا أَسْقَاكُمْ اللَّهُ يَوْمَ الظَّمِّ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا ، وَتَنْزِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، مِنْ
 يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي سَاعَتِكُمْ هَذِهِ . »

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين في القتال ، حتى
 قُتِلُوا ، وَقَتَلَ الْحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قَتَلَهُ سِنَانُ بْنُ أَنَسٍ (وَكَانَ قَتَلَهُ بِالطَّفِّ ^(٦)
 يَوْمَ عَاشُورَاءَ سَنَةَ ٦١ هـ) وَأَمْرُ ابْنِ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ أَنْ يُوْطِئُوا خِيْلَهُمُ الْحُسَيْنِ ،
 فَوْطِئُوهُ بِخِيْلِهِمْ ، ثُمَّ حَمَلَ النِّسَاءَ وَرَأْسَهُ إِلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بِدِمَشْقٍ .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٨ الى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١)

[١] الهبل : الشكل ، هبلته أمه كفرح تركته وفقدته ، والبر والعبر (كسبب وقفل) سحنة في العين
 تبكيها ، عبرت العين كفرح حرى دمعا ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاء عليه .
 [٢] خذلتموه . [٣] الكطم : مخرج النفس . [٤] حلاه عن الماء تحليفاً وتحشة طرده ومعه .
 [٥] مصير صبية على غير قياس . [٦] الطف : أرض من صاحبة الكوفة في طارق البرية ، وقال
 عبد الله بن الأحرر من قصيدة :

فأضحى «حسين» للرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
 ديايقتي إذ ذاك كنت شهيدته فصارت عنه الشاشين الأعاديا
 سقى الله قبراً ضمن المجد والنقى بعريسة الذاب الغمام الغواديا

طلب التوايين بدم الحسين رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة واتفقوا الاجتماع بالنخيلة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن عليّ رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندثم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصره وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسل عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرط منهم في ذلك ، « فسموا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعيّ - وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم - وإلى المسيب بن نجبة الفزارىّ ، وإلى عبد الله بن سعد بن نقيّل الأزديّ ، وإلى عبد الله بن وال التيميّ ، وإلى رفاعه بن شداد البجليّ ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٣ - خطبة المسيب بن نجبة الفزارى

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد ، فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فترغبُ إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً : « أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ الدَّيْرُ » فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرّمين بتزكية أنفسنا ، وتقرّيط شيعتنا ، حتى بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين في مواطن من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبته ،

وَقَدِمْتُ عَلَيْنَا رَسَلَهُ ، وَأَعْذَرْنَا إِيْنَا يَسْأَلُنَا نَصْرَهُ ، عَوْدًا وَبَدْءًا ، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا ، فَبَخَلْنَا عَنْهُ بِأَنْفُسِنَا ، حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا ، لَا نَحْنُ نَصْرُنَاهُ بِأَيْدِينَا ، وَلَا جَادُنَا عَنْهُ بِأَلْسِنَتِنَا ، وَلَا قَوَّيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا ، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النُّصْرَةَ إِلَى عَشَائِرِنَا ، فَمَا عَظُرْنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَعِنْدَ لِقَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَقَدْ قُتِلَ فِينَا وَلَدُهُ وَحَبِيبُهُ وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ ، لَا وَاللَّهِ لَا عُذْرَ دُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمُؤَالِينَ عَلَيْهِ ، أَوْ تُقْتَلُوا فِي طَلْبِ ذَلِكَ ، فَعَسَى رَبَّنَا أَنْ يَرْضَى عَنَّا عِنْدَ ذَلِكَ ، وَمَا أَنَا بَعْدَ لِقَائِهِ لِعَقُوبَتِهِ بِآمِنٍ ، أَيُّهَا الْقَوْمُ وَثُّوْا عَلَيْكُمْ رِجَالًا مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكُمْ مِنْ أَمِيرٍ تَفَزَعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَايَةَ تَحْفُونَ بِهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

فَبَدَرَ^(١) الْقَوْمَ رِفَاعَةَ بْنَ شَدَّادٍ بَعْدَ الْمَسِيَّبِ الْكَلَامَ .

٤٤ - خطبة رفاعة بن شداد

فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَاكَ لِأَصْوَابِ الْقَوْلِ ، وَدَعَوْتَ إِلَى أَرْشَادِ الْأُمُورِ ،
بَدَأْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالشَّاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَوْتَ إِلَى
جِهَادِ الْفَاسِقِينَ ، وَإِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، فَسَمِعْتُ مِنْكَ ، مُسْتَجَابٌ
لَكَ ، مَقْبُولٌ قَوْلُكَ ، قُلْتَ وَثُّوْا أَمْرَكُمْ رِجَالًا مِنْكُمْ تَفَزَعُونَ إِلَيْهِ ، وَتَحْفُونَ بِرَايَتِهِ ،
وَذَلِكَ رَأْيٌ ، قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلَ تَكُنْ عِنْدَنَا
مَرْضِيًّا ، وَفِينَا مُتَنَصِّجًا ، وَفِي جَمَاعَتِنَا مُحِبًّا ، وَإِنْ رَأَيْتَ (وَرَأَى أَصْحَابُنَا ذَلِكَ)
وَأَيْنَا هَذَا الْأَمْرَ شَيْخَ الشَّيْعَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَا
السَّابِقَةَ وَالْقَدَمَ سَلِيمَانَ بْنَ صُرْدٍ ، الْحَمُودَ فِي بَأْسِهِ وَدِينِهِ ، وَالْمَوْثُوقَ بِحُزْمِهِ ،

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

ثم تكلم عبد الله بن وائل ، وعبد الله بن سعد ، فحمدا ربهما وأثنيا عليه ،
وتكاما بنحو من كلام رفاعة بن شداد ، فذكر المسيب بن نجبة بفضله ، وذكر
سليمان بن سرد بسابقته ورضاها بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم
ووفقتم ، وأنا أرى مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٥ - خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولوا سليمان بن سرد^(١)
وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم في داره ، قال
فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ،
بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله ، أما بعد : فإنى والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا
الدهر (الذى نكبدت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور
أولى الفضل من هذه الشيعة) لما هو خير ، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل
نبينا ، وننمئهم النصر ، ونحتمهم على القدوم ، فلما قدموا ونيدنا وعجزنا وأذهنا
وتربصنا ، وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولدنا ، ولد نبينا وسلالته وعصارتها
وبضعة^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف^(٣) فلا يعطاه ،
اتخذوه الفاسقون غرضاً للنبيل ، ودريئة^(٤) للرماح ، حتى أقصدوه^(٥) ، وعدوا

[١] وقد سمي أمير التوابين . [٢] البضعة بالفتح وقد تكرر : القطعة من اللحم .

[٣] الإصاف . [٤] مهمل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها .

[٥] أقصد السوم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلاناً : طعنه فلم يخطئه .

عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(١) والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا من قتله أو تَبِيرُوا ^(٢) ، ألا لاتهابوا الموت ، فوالله ماها به امرؤ قطُّ إلا ذلٌّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : « إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » فما فعل القوم ؟ جثوا على الرُّكَبِ والله ، ومدُّوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعِيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ اشخذوا السيوف ، وركبوا الأَسنة « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ^(٣) » حتى تُدْعُوا وَتُسْتَنْفَرُوا .

٤٦ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يُخرجنى من ذنبي ، وَيُرضى عني ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمرٌ به قومٌ كانوا قبلنا ونهيننا عنه ، فَأَشْهَدُ اللهَ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ كُلَّ مَا أَصْبَحْتَ أَمْلِكُكَ سِوَى سِلَاحِي الَّذِي أَقَاتِلُ بِهِ عَدُوِّي صَدَقَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقْوِيَهُمْ بِهِ عَلَى قِتَالِ الْقَاسِطِينَ ^(٤) » .

وقام أبو المعتمرِ حَنْشُ بْنُ رِبِيعَةَ الْكِنَانِي ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حَسْبُكُمْ ، مَنْ أَرَادَ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِمَالِهِ

[١] جمع حليلة وهي الزوجة . [٢] بار يبور بواراً : هلك .

[٣] اسم للخيل التي تربط في سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمراطة ، أو جمع ربيط

فمبيل بمعنى مفعول . [٤] الجائر ، قسط بكس قسوطاً جارٍ وعدل عن الحق .

عبد الله بن وال التيمي تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجهُ من أموالكم ، جهّزنا به ذوى الخَلَّة^(١) والمسكنة من أشياعكم .

٤٧ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن سرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه همهم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يجثوا ويستعدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن سرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمعين على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتله ، وَاللهُ مُثِيبُكُمْ على حُسنِ النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المَثُوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضلَ الأجرِ والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ »

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم . »

٤٨ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد

رأوا ، فسَرَّخْنِي إليهم في الخيل . »

فقال له : « رويدا لا تعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير

[١] الخلة : الحاجة والفقر ، وفي المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والسرقه .

وتاسيرون» وكتب سعد إلى ابن سرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٤٩ - خطبة عبيد الله بن عبد الله المري

وحدث رجل من مُزَيِّنَة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبْلَغَ من عُبيد الله بن عبد الله المُرِّيِّ في منطِق ولا عِظَة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان بن سرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

« أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصَّه بالفضل كله ، وأعزَّكم باتِّباعه ، وأكرمكم بالايان به ، فحقن به دماءكم المسفوكَة ، وآمن به سبُلُكم المَخوْفَة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا ^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأوّلين والآخريّن أعظم حقّاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرساين أو غيرهم أعظم حقّاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ، ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم ترّوا ويبلغكم ما أجترم ^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرّمته ، واستضعافهم وخذّته ، وترميلهم ^(٣) إياه بالدم ، وتجرّارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزّرا ^(٤) ، فالله عيناً من رأى مثله ! والله حسين بن عليّ ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب

* [١] الشفا : حرف كلّ شيء . [٢] ارتكب وانترف . [٣] دمله : لطمه بالدم . [٤] قتلماً .

العالمين ، قَلَّتْ مُحَمَّاتُهُ ، وَكَثُرَتْ عُدَاتُهُ ^(١) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليُّهُ ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجةً ، ولا لخاذله معذرةً ، إلا أن يُنصَحَ لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ، وَيُقِيلَ الْعَثْرَةَ ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُجِلِّين والمارقين ، فَإِنْ قُتِلْنَا فما عند الله خير الأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا »

قال : « وَكَانَ يَعِيدُ هَذَا الْكَلَامَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ حَتَّى حَفِظَهُ عَامَّتَنَا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُونَ فِي جَمْعِ آلَةِ الْحَرْبِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ وَدَعَاءِ النَّاسِ فِي السَّرِّ مِنَ الشَّيْعَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ حَتَّى كَثُرَ تَبَعَهُمْ ، وَكَانَ النَّاسُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ (فِي ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) أَسْرَعَ مِنْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ . وَقَدِمَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدِ الثَّقَفِيِّ الْكُوفَةَ فِي النِّصْفِ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٦٤ ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ رِءُوسُ الشَّيْعَةِ وَوُجُوهُهَا مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ ، فَلَيْسَ يَعْدِلُونَهُ بِهِ ، فَكَانَ الْمُخْتَارُ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ الْحُسَيْنِ ، قَالَتْ لَهُ الشَّيْعَةُ : « هَذَا سُلَيْمَانُ بْنُ صَرْدٍ شَيْخُ الشَّيْعَةِ قَدْ انْقَادُوا لَهُ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ » فَأَخَذَ يَقُولُ لِلشَّيْعَةِ : « إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَهْدِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ (ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ) مُؤْتَمِنًا مَأْمُونًا ، مُنْتَجِبًا ^(٢) وَوَزِيرًا » فَزَالَ بِهِمْ حَتَّى انشعبت إِلَيْهِ طَائِفَةٌ تُعْظِمُهُ وَتُجِيبُهُ وَتَنْتَظِرُ أَمْرَهُ ، وَعَظُمُ الشَّيْعَةُ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ .

[١] العداة جمع عاد ، وهو المدوّ . [٢] المنتجب : المختار .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبيل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وَثَغْرَهَا ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها ، (وذلك بعد مَقْدَمِ المختار بثمانية أيام) ، وكان سليمان ابن سرد وأصحابه يريدون أن يَثْبُوهَا بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم قام في الناس .

٥٠ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله ذُلِّتْ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصِبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فلْيُخْرِجُوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ^(١) ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به ^(٢) على مسيرة ليلة من جسر مَنبِج ^(٣) ، فقتاله والاستعداد له

[١] معين . [٢] وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشأم ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قریش وسيدها تصنع ما تصنمه ! وشدت من عزيمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فبوجع بها ، فلما استوتقت له الشأم بالطاعة بعث جيشاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظهر بأهلها ثلاثاً . [٣] بين حلب والفرات .

أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضهم بعضاً ، وَيَسْفِكَ بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رَقَّعْتُمْ ^(١) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وَلىَ عليكم هو وأبوه سبع سنين لَا يُقْلِعَان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أُتَيْتُمْ ، والذى قتل من تَثَارُون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحاً ^(٢) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

٥١ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة ^(٣)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يغررْكم من السيف وَالْعَشْم ^(٤) مقالةٌ هذا المداهن المودع ، والله لئن خرج علينا خارجٌ لقتلنه ، ولئن استيقننا أن قومًا يريدون الخروج علينا ، لَنَاخُذَنَّ الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن الحميم ^(٥) بالحميم ، والعريف ^(٦) بما فى عرافته ، حتى يَدِينُوا للحق ، وَيَذِلُّوا للطاعة . »

٥٢ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين ^(٧) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذلُّ

من ذلك ، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك ^(٨) وجدك ، والله إني لأرجو

[١] ضعتم . [٢] أى لم أقصر في نصحكم . [٣] مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش . [٤] الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدّة .
[٥] حميمك : قريك الذى تهتمّ لأمره . [٦] العريف : رئيس القوم ، سمي لأنه عرف بذلك ، أو النقيب ، وهو دون الرئيس ، عرف ككرم وضرب عرافة صار عريفاً . [٧] يشير إلى ما كان من جدّه طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام علياً ثم نكث ببعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عقبه . [٨] قتل محمد بن طلحة يوم الجبل مع أبيه وصربه على ، فقال هذا رجل قتل به أباه وطاعته .

أن لا يُخرجك الله من بين ظَهْرَانِي أهل مصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك ،
وأما أنت أيها الأمير ، فقد قلت قولاً سديداً ، إني والله لأظن من يريد هذا
الأمر ^(١) مستنصحاً لك ، وقابلاً قولك »

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إِي وَاللَّهِ لِيَقْتَتَنَّ وَقَدْ أذْهَنَ ثُمَّ أَعْلَنَ » .

٥٣ - ردّ عبد الله بن وال التيمي ،

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعتراضك يا أخا بني تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ؟ فوالله ما أنت
علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ،
فلعمر الله لئن كنت مفسداً ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك
الناكثان ، فكانت بهما اليَدَانِ ^(٢) ، وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة . وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :
« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنترجو أن تكون به عند العامة محموداً ،
وأن تكون عند الذي عَنَيْتَ واعتريت مقبولاً » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَّصَ سليمان بن سرد في
وجوه أصحابه ، وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمعسكر
بالثخيلة ، وأقام بها ثلاثاً يبعث ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله
وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب بن نجبة ، فقال : « رحمك الله إنه

[١] أي الطلب بدم الحسين رضي الله عنه . [٢] تهول العرب : كانت به اليَدَانِ ، أي فعل الله
به ما يقول لي ، ومرقوم من الحوارج يقوم من أصحاب عليّ وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليَدَانِ أي
حاق بكم ماتدعون به وتبسطون أيديكم .

لا ينفك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، فلا تنتظرن أحدًا ،
واكش^(١) في أمرك » قال : « فَإِنَّكَ وَاللَّهِ لَنِعِمًّا رَأَيْتَ » فقام سليمان بن سرد
في الناس متوكئًا على قوس له عربية فقال :

٥٤ — خطبة سليمان بن سرد

« أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ كَانَ إِنَّمَا أَخْرَجْتُهُ إِرَادَةً وَجَهَ اللَّهُ وَثَوَابُ الْآخِرَةِ ، فَذَلِكَ
مَنَا وَنَحْنُ مِنْهُ ، فَرَحِمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَرِيدُ الدُّنْيَا وَحَرَمَهَا^(٢)
فَوَاللَّهِ مَا نَأْتِي فَيَمُتًا نَسْتَفِيئُهُ ، وَلَا غَنِيمَةً نَعْنَمُهَا ، مَا خَلَا رِضْوَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
وَمَا مَعْنَا مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَا فِضَّةٍ ، وَلَا خَزٍّ ، وَلَا حَرِيرٍ ، وَمَا هُوَ إِلَّا سَيُوفُنَا فِي
عَوَاتِقِنَا ، وَرِمَاحِنَا فِي أَكْفُنَا ، وَزَادُ قَدْرِ الْبُلْغَةِ^(٣) إِلَى لِقَاءِ عَدُونَا ، فَمَنْ كَانَ غَيْرَ
هَذَا يَنْوِي فَلَا يَصْحَبْنَا » .

٥٥ — خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صُخَيْرُ بْنُ حُدَيْفَةَ بْنِ هَلَالِ بْنِ مَالِكِ الْمُرَزِيِّ فَقَالَ :
« آتَاكَ اللَّهُ رَشْدَكَ ، وَلَقَاكَ حُجَّتَكَ ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَالَنَا خَيْرٌ فِي
صِحْبَةٍ ، مَنِ الدُّنْيَا هِمَّتْهُ وَنَيْتُهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَخْرَجْتَنَا التَّوْبَةَ مِنْ ذُنُوبِنَا ،
وَالطَّلَبُ بِدَمِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَيْسَ مَعْنَا دِينَارٌ وَلَا دَرَاهِمٌ ، إِنَّمَا
نَقْدَمُ عَلَى حَدِّ السُّيُوفِ وَأَطْرَافِ الرِّمَاحِ »
فتنادى الناس من كل جانب : « إِنَّا لَا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهَا خَرَجُنَا »

[١] أسرع ، كش ككرم كحاشة فهو كش (كشهم) وكبش ، أى سريع .

[٢] أى كسبها ومتاعها . [٣] ما يبلغ به .

٥٦ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأى بادئ الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله ابن سعد ، وعنده رءوس أصحابه جُلوسٌ حوله :
« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفقَّ ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نُضحاً ، خطأ كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلته الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورءوس الأرباع^(١) وأشرف القبائل ، فأتى نذهب ها هنا ونُدع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ »

فقال سليمان بن سرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلقى من قتلة الحسين ، إن نحن مضينا نحو الشام غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا ها هنا بالمصر » .

٥٧ - رأى ابن سرد

فقال سليمان بن سرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأَمْضِي فيه حكمي ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظهِرَكم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعده أهونَ

[١] كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتنسب المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وحرقت في المائة فماتوا «تمن» ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويعمن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب » .

[٢] الأقتال جمع قتل بالسكر وهو المدوّ والمقاتل ، والأوتار جمع وتر : الجناية والتأر ، أي ونُدع أعداءنا وذري ثاراتنا .

شوكته منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ،
فتنظرون إلى كل من شريك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشيموا^(١) ، وإن
تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلّين ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب
أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل
مصركم ، ما عديم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن
يريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا » قتهياً الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد
وأصحابه فرأيا أن يأتيهم ، فخرجا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهىا إلى
ابن سرد دخلا عليه .

٥٨ - خطبة عبد الله بن يزيد

فحمد الله عبد الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يَغشُهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ،
وأحبُّ أهل مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تَفْجَعُونَا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا
برأيكم ، ولا تنقضوا عدونا بخرؤجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيأسر ونتهيأ ،
فإذا عامنا أن عدونا قد شارف بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .
وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٥٩ - خطبة سليمان بن سرد

فحمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لهما :
« إني قد علمت أنكما قد تحضمتما^(٢) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ،

[١] غشه : كضرب ظلمه . [٢] محضه الود ومحضه : أخلمه .

فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نمي معكم جيشاً كشيفاً فتلقوا عدوكم بكثف^(١) ، وجمع وحدٍ » فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتيكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخوص ، واستقبال ابن زياد .

٦٠ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا ثجاراً ، وللآخرة تجاراً ، فأما تاجر الآخرة فساع إليها متنصب^(٢) بتطلابها ، لا يشتري بها ثمناً ، لا يرى إلا قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، لا يطلب ذهباً ولا فضة ، ولا ديناً ولا لذة ، وأما تاجر الدنيا ، فكيب عليها ، راتع فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ، فعليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قد رزتم عليه ، حتى تلتقوا هذا العدو ، والمحلّ القاسط فتجاهدوه ، فإنكم إن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنام العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين

[١] الكثيف : الجماعة . [٢] أي قد نصب نفسه طالباً لها ، نصب الشيء رفعه فانتصب وتنصب .

على اللأواء^(١) وإنا مُدْجُون^(٢) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلجوا .
فأدِلج عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال
يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردة^(٣) فنزل في غريبها .

٦١ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة ، قال
عبد الله بن غزيرة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم
ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله
ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم
أُحصيه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء^(٤) الليل
والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله مُعْذِرِينَ ، فقد جاءوكم
بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله
مع الصابرين ، ولا يوليئهم امرؤ دُبره إلا مُتَحَرِّفًا^(٥) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا^(٦) إلى
إلى فِئَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ
دَعْوَتِكُمْ^(٧) إِلَّا أَنْ يِقَاتِلَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْسِرُوهُ ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قِتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ
رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ
هَذِهِ الدَّعْوَةِ » .

[١] الشدة . [٢] أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فأدِلج بالتشديد .
[٣] هي رأس العين : بلد في وسط الجزيرة . [٤] آناء الليل : ساطئه واحدها لاني (كليل)
أولاني (كليل) أو لاني كذلك . [٥] أي منمطفاً يريد الكفر بعد الفر وتفرير العدو ، فإنه من
مكايد الحرب . [٦] أي منحاذاً إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم . [٧] ملنكم .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رءوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نضيل، وعبد الله بن وائل، فلما رأى من بقي من التوآيين أن لا طاقة لهم بمن يازأهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم رفاة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ) (١) .

٦٢ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق مُلَقِحَ (٢) فتنة ، ورأسَ ضلالةٍ ، سليمانَ بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريِفَ (٣) ، ألا وقد قتل من رءوسهم رأسين عظيمين ضالَّين مُضِلَّين : عبد الله بن سعد أبا الأزدي ، وعبد الله بن وائل أبا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دِفَاعٌ ولا امتناع . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

[١] وقال السعدي في مروج الذهب : « وقيل إن وتعة الوردية كانت في سنة ٦٦ » .

[٢] أصله : من ألقح النحلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . [٣] تركت السيوف رأسه

خذاريِف : أي قطعاً كل قطعة كالحذروف ، والحذروف : كصفر شيء يدوره الصبي بخصفه في يديه فيسمع له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٣ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلاً ، فسأهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُنْتَجَباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحدن ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

[١] هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع النبي بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام ، فلا يندب أحداً من فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول مندب أبو عبيد بن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في تشييعه لآل علي بالخلمس ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه في أمر الحسن بن علي رضى الله عنه يوم طعن في ظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد بن مسعود عاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الفنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أئب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بثس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلى سبيله ، فشفعه فيه ، وخلى ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد - وكان تحت إمرة الحسين بن نمير السكوني - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة في منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

وأقبل يبعث إلى الشيعة، فيقول لهم: «إني قد جئتكم من قبل وليّ الأمر، ومعدن الفضل، ووصي الوصي، والإمام المهدي، بأمرٍ فيه الشفاء، وكشف الغطاء، وقتل الأعداء، وتعمام النعماء، إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه، إنما هو عَشَمَة^(١) من العشم، وحَفَش^(٢) بال، ليس بذى تجربة للأمر، ولا له علم بالحروب، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم، إني إنما أعمل على مثالٍ قد مثّل لي، وأمرٍ قد ميّن لي، فيه عزٌ وليكم، وقتلٌ عدوكم، وشفاءٌ صدوركم، فاسمعوا مني قولي، وأطيعوا أمري، ثم أبشروا وتباشروا، فإنني لكم بكل ما تأملون خيرٌ زعيم».

فما زال بهذا القول ونحوه، حتى استمال طائفة من الشيعة، وعظّمهم يومئذ مع سليمان بن صرد، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري - أمير الكوفة من قبل ابن الزبير - أن يثب المختار عليه، فزجّه في السجن.

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٤ - ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

«أما وربّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهامه^(٣) والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفيين الأخيار، لأقتلنّ كلّ جبّار، بكلّ لدنٍ خطّار^(٤)،

[١] المشمة: الشيخ الثاني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحى الظهر، وكان عمر ابن صرد حين قتل ٩٣ سنة. [٢] احفش: الشيء البالي، والجواني العظيم البالي، وما كان من أسقاط الآنية كالقوارير وغيرها، وأحفاش البيت: رذال متاعه.

[٣] المهامه: جمع مهمه كجمفر، وهو البلد المنقر، والغازة البعيدة. [٤] الرمح اللدن: اللين، وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف، وقد لدن ككرم لدانة ولدونة، والرمح: الخطار أي المهتز خطر كضرب خطرانا.

وَمُهَنْدٍ بَتَّارٍ^(١) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمَيْلٍ أُنْغَمَارٍ^(٢) ، ولا بِعُزْلِ^(٣) أشرار ، حتى إذا أقتت عمود الدين ، ورأبتُ شَعْبَ^(٤) صدع المسلمين ، وشَفَيْتُ غليلَ صدور المؤمنين ، وأدركت بئار النبیین ، لم يكبرُ عَلَيَّ زوايا الدنيا ، ولم أَحْفَلْ بالموت إذا أتى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيلَهُ ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله ابن يزيد عن الكوفة ، وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوى .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٦٥)

٦٥ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوى حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع العدوى الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مِصْرِكُمْ وَتُغُورِكُمْ ، وَأَمَرَنِي بِجَبَايَةِ فَيْتِكُمْ ، وَأَنْ لَا أُحْمِلَ فَضْلَ^(٥) فَيْتِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيَّةِ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ الَّتِي أَوْصَى بِهَا عِنْدَ وَفَاتِهِ^(٦) ، وَبِسِيرَةِ عُمَانَ بْنِ عَفَّانِ الَّتِي سَارَ بِهَا فِي الْمَسَامِينِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَخَذُوا عَلَيَّ أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ ،

[١] المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، والبتار : القطاع .

[٢] ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن لاترس معه أو لاسيف أولارم ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور . [٣] العزل : جمع أعزل ، وهو من لاسلاح معه . [٤] الشعب : الصدع أى الشق ، ومن معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصله . [٥] الفضل : الزيادة . [٦] انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٩٥

وإلا تفعلوا فلو موا أنفسكم ولا تلوموني ، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي ، ولأقيمن
دراً^(١) الأصغر^(٢) المرتاب .

٦٦ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رءوس أصحاب
المختار - فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشهدك
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُسارَ فينا
إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلكَ رحمةُ الله
عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت
أثرةً وهوىً ، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين
علينا ضرراً ، وقد كان لا يألو الناسَ خيراً » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وبرّ ، رأينا
مثلُ رأيه ، وقولنا مثل قوله ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها
وهو يتموها ، ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها ياسائب ،
لا يعمدك المسلمون ! (تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

٦٧ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب

[١] الدرأ : الميل والعوج في القناة ونحوها . [٢] الصعر محرّكة : ميل في العنق وانقلاب في الوجه
إلى أحد الشقين ، صعر كفرح فهو أصعر ، وربما كان الانسان أصعر خافقاً ، وصعر خده بالتشديد : أماله
عن الناس إعراضاً وتكبراً .

بالكوفة في المحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووفقتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٨ - خطبة أخرى له

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإنكم أهل بيتٍ خصكم الله بالفضيلة ، وشرّفكم بالنبوة ، وعظّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يبجلُ حقكم إلا مغبونُ الرأي ، مخسوس النّصيب ، قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه ، عظمت مصيبة ! ما قد خصكم بها ، فقد عمّ بها المسلمون ، وقد قدّم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكركم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتية
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكركم من مصيبتنا
بمحسين ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحمة ^(٢) كتبت عليه ،
وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضع بها
آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكركم من
دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا
بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

نخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله
انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لا تفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٠ - خطبة المختار

و بلغ المختار نخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذل الشيعة
عنه ، فكان يقول :

« إن نفيراً منكم ارتابوا ، وتحيروا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنابوا ، وإن هم
كبروا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا ^(٣) ، فقد تبرأوا ^(٤) وحابوا ^(٥) » وأقبل القوم

[١] يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . [٢] الملحمة : الواقعة العظيمة القتل .

[٣] انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسأخوا منا وانشقوا علينا . [٤] تبر ، كقعد

تبوراً : هلك . [٥] حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل خابوا ، وأرى أن
تكون بالحاء لتقديم كلمة خابوا في أول قوله .

فدخلوا على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتنتم وارتبتم ، فقالوا له : قد أمرنا بنصرتك ، فقال : الله أكبر ! أنا أبو إسحق ! اجمعوا إلى الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال :

« يا معشر الشيعة : إن نفرًا منكم أحبوا أن يعلموا مِصْدَاقَ ما جئت به ، فَرَحَلُوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضى ، ابن خير من طَشَى^(١) ومشى ، حاشا النبي المُجْتَبَى^(٢) ، فسألوه عما قَدِمْتُ به عليكم ، فنبأهم أني وزيره وظهيره ، ورسوله وخليته ، وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه ، من قتال المُحِلِّين ، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين » . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإننا قد كنا أحيدينا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدي بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعمادعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة ، وإجابته إلى مادعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا منسرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والغل والرئب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

[١] هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « تطشى المريض برى » وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه لا يتبع للفعل قبله لتقويته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفریت ، وعطشان نطشان ، وشحيج بحيج ، وكثير بشير ، وحيالك الله وبيالك - وإن قيل إن الإتياع لا يكاد يكون بالواو - انظر باب الإتياع في المزهري للسيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأملاني (٢ : ٢١١) .

[٢] المختار .

وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه فاستجمعت له الشيعة
وحدّبت^(١) عليه . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ - خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم
ابن الأشتر^(٢) يدعوهم أن يناصروه ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسأئد
فجلسوا عليها ، وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :
« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ،
أما بعد : فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو
خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله
ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل
فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغني الله المهدي محمدًا وأولياءه عنك^(٣) »
فبايعه إبراهيم .

[١] عطف . [٢] وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إليهم فقال : إني قد أحببتكم إلى
مادعوتوني إليه على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالتقاتل وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رآه عليهم .
[٣] ثم دمع إليه الكتاب ففرض حاتمته وقرأه ، فإذا هو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى إبراهيم
ابن مالك الأشتر ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : إني قد بعثت إليكم
بوزير ، وأميني ، ونجيب الذي ارتضيت له نفسي ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فأنهض معي بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فأنت إن نصرتني وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيرى كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمة الحيل ، وكل جيش غار ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما
بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نك به عند الله أفضل
الكرامة ، وإن أبيت ملكك هلاكاً لانتقبله أبداً ، والسلام عليك » . لما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ،
قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلي إلا باسمه واسم أبيه ، قال
له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من
معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : بسط يدك أبايكم فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

— وجعل المختار وأصحابه يدبرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٣ - خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حملت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار ، خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً ، فقال :

« يا معشر الشيعة : قد كنتم تُقتلون وتُقَطَّع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمَّل أعينكم ، وترُفعون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنُّكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عيناً تطرف ^(١) ، وليقتلنَّكم صبراً ^(٢) ، وتترَوْن منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدَّراك على هامهم ، فتيسروا للشدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رأيتي مرتين فاحملوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٤ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحمل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عجَزكم عن غضبةٍ منكم ، قليلٍ عددها ، خبيثٍ دينها ، ضالةٍ مضلَّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوهم عن

[١] طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضاً) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

[٢] قتل صبراً : هو أن يجلس ويرى حتى يموت .

مصركم ، وامنعوا منهم فيثكم ، وإلا ليشارككنكم في فيثكم من لا حق له فيه ، والله لقد بلغنى أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم ، وتغير دينكم حين يكثرون . ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٦)

٧٥ - تحريض ابن الأشر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدده ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه فقال لهم :

« قربوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُصْلِتِينَ ^(١) السيوف ، ولا يهولنكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بن رِبْعِي ، وآل عَتَيْبَةَ بن النَّهَّاس ، وآل الأشعث ، وآل يزيد بن الحارث ، وآل فلان - فسمي بيوتات من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال : إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا ^(٢) عن ابن مطيع انصفاق المعزى عن الذئب » ثم قال لأصحابه شدوا عليهم ، فبدأ لكم عمى وخالى .

فما لبثهم أن هزمهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٧)

٧٦ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بن رِبْعِي أن يخرج من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عندهم يستنصحه ، ويثق به ، ولا يعلم بمكانه إلى أن يخرج فيلحق بصاحبه (ابن الزبير) .

[١] أصوات السيوف : جرده من عمده [٢] انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم من هُم ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسُفهاؤكم وطغامكم وأخسأؤكم ، ماعدا الرجل أو الرجلين ، وأن أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبلغ ذلك صاحبي ، ومُعالمه طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » فقال له شَبَث : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَقَتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقك أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاكم الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٧ - خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشرف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : « الحمد لله الذى وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من اقترى ، أيها الناس : إنه رُفعت لنا رايةٌ ، ومُدَّت لنا غاية ، فقيل لنا فى الراية أن ارفعوها ولا تَضَعُوهَا ، وفى الغاية أن اَجْرُوا إليها ولا تَعْدُوهَا ، فسمعنا دعوة الداعى ، ومقالة الواعى ، فكم

من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتْلِي فِي الْوَاعِيَةِ (١) ، وَبُعْدًا لِمَنْ طَفَى ، وَأَدْبِرْ وَعَصَى ،
وَكَذَّبْ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَبَايَعُوا بَيْعَةَ هَدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَعَلَ
السَّمَاءَ سَقْفًا مَكْفُوفًا (٢) ، وَالْأَرْضَ جِجَاجًا (٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ عَلِيٍّ
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل فدخل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس
فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء
أهل البيت ، وجهاد المحلّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من
سالمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا تُقِيلُكُمْ وَلَا نُسْتَقِيلُكُمْ « فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ نَعَمْ : بَايَعَهُ .
ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايخين
على قتله ، فقتل من قدّر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ،
وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه . وبعث برأسيهما إلى محمد
ابن الحنفية . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن
معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له (٤)

[١] الواعية : الصراخ على الميب ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب
نعيهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الدار من أعدائهم الذين لم تكفهم
ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من هم هؤلاء الشهداء وبكم .
[٢] الكفة بالكسر ويضم : حباله الصائد ، وكل مستدير . [٣] الفجاج : جمع فح ، وهو
الطريق الواسع .

[٤] وذلك أن محمد بن الحنفية كان عد أي أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيهقي لم تجتمع عليه الأمة —
وكان ابن الزبير يبغيه ويحسده على أيده وقوته — حبسه مع أربعة عشر رجلا من بني هاشم في سجن عارم
وقال : لتبايعن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ بهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في

نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

« هذا كتاب مهديكم ، وصریح ^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا
مَحْظُوراً ^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار، في آناء
الليل وتارات ^(٣) النهار، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مُؤَزَّراً ^(٤) ، وإن لم
أسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحُلُّ بابن
الكاهلية ^(٥) الويلُ » . (تاريخ الطبري ٧ : ١٣٦)

ذلك أجلا ، وكتب ابن الحمية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسرون الليل
ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقي من الأجل
يومان . فكسروا سحن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وفالوا له : خل بيننا وبين عدو الله
ابن الزبير ، فقال لهم : إني لأستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .
[١] الصريح : الحالس من كل شيء . [٢] حطر الشيء وتلوه (كقتل) منه وحجر ، ويقال لما
حطر به على العم وغيرها ليمسها ويحفظها حطيرة . [٣] جمع تارة وهي هنا الحين .
[٤] نصر : مؤزر أى بالغ شديد من التأزير وهو التقوية .

[٥] ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، وهو عبد الله بن الزبير بن العوام
ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت
عمرو بن خنثر بن رويبة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك
الوالي الأسدي - من بني أسد بن خزيمه - أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتي ، ونفقت راحلتي
(نفق الحف كفتح رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها فعل ، فقال : « ارفعها
بسبت ، واخصفها برب ، وأخذ بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ
والهلب كقفل الشعر أو ماغلظ منه أو شعر الدف أو شعر الخنثير الذي يخرز به ، والبردان بفتح الباء
وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشى) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مسحلا ، ولم آتتك مستوصفاً
فلعن الله ناقة حملتني إليك (مستحلا أى طالباً أن تحملني على ناقة أخرى تعطينيها) قال ابن الزبير : « إن
وراكبها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد صلا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فانصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعراً مه قوله :

أقول لعلني شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد

فقال حين أقطع دات عرق إلى ابن الكاهلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهاتي فعيرني بها وهي خير صماته » - انظر الأغانى
« ١ : ٨ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » وجمع الأمثال للبيداني (١ : ٧٥) وفيه

٧٩ — خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣)

فقال للناس :

« فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما الأم من عمته لسبى بها » وبهذه المناسبة قول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، رووا أنه كان يطعم جنده تمرأ ويأمرهم بالحرب ، فإذا فروا من وقع السيوف لامهم وقال لهم : أكتمتمى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم :

ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يغي الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده حمة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رعباً أعطاه رعباً ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا ، وجاءه أعرابي سائل فردده ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قديمي فقال : بل عليهما يردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة ، فأنزله دار الصيفان — وكان ينزلها الغرباء وأثناء السبيل والصيفان — فأقام يومه لم يطعم شيئاً ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهم نيب وسبعون رجلاً ، فعضب معن وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرساه ، وأقام عنده ثلاثاً حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رما أبو بكر (وقد طال يومنا) بيس من الساء الحجارى أعفر
وقال : اطعوا منه « ونحن ثلاثة وسبعون إنساناً » فبالؤم محبر !
فقلنا له : لا تقربا ، فأماننا جعان ابن عباس العسلا وابن جعفر
وكى آماً وارفق بتيسك إنه له أعز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ »

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائماً » « تاريخ الطبرى ج ٨ : ص ٥٨ »

[١] قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشاً عليه عبيد الله بن زياد ، وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردية من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . [٢] وقد خرج يشيمه ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمى في نصره آل محمد صلى الله عليه وسلم مشيعة فرسحين .

[٣] وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حمماً بيضاً ضحماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا ودعوهما ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة وأول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فنصيح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الدلام ، وأسرع القتل في أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأشتر : لقد صربت رجلاً على شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداماً وجرأة نصرته ، فدهبت يده قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروه فالتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٦٧ هـ .

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصتم حيصة ^(١) فإنى أجد فى مُحكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتى فى صور الحمام دوين ^(٢) السحاب » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٦٩)

٨٠ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مُصعب بن الزبير إليه من البصرة ^(٣) ، قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة الرسول ، وآل الرسول ، إن قرأكم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغفروهم عليكم ، ليمنصح ^(٤) الحق ، وينتمش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالفري ^(٥) على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ، أتدبوا ^(٦) مع أحر بن شميظ : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد ^(٧) وإرم » .

وتزاحف الجندان ، وانهمز أصحاب المختار ، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧) ^(٨)
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٨)

[١] خاص يجمع حيصاً : عدل وهرب . [٢] مصغر دون : أى قريباً منه .

[٣] وكان أخوه عبد الله بن الزبير معه تلما (سنة ٦٧ هـ) بعد عزل التابع عنها (والقباع كشجاع هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي أخو صهر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب سبث بن ريمي ، وجاءه أشرف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب عبيدوم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

[٤] منصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولّى لون زدره ، والغل قصر .

[٥] فري الكذب كرمى : اختلقه كفتراه . [٦] اتدب إليه : أسرع .

[٧] أى أبتدوهم كما باد هؤلاء .

[٨] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجياً ، ثم صار رافضياً فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون ، ثم يجتال فيوقعها ،

٨١ - خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

« خطب ابن الزبير فنال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه

فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَتَنْزِلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ ، نَارٌ دَهْمَاءٌ ، فَتَحْرِقَنَّ دَارَ أَسْمَاءِ » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أوقد سبع أبو إسحق ؟ هو والله مرقق داري ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَا وَالَّذِي شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لِأَقْتَانِ أَزْدِ دُعْمَانَ ، وَجُلِّ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وَتَمَيَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبِ ظَبْيَانَ » وكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار أتقلب آمناً .

وقال ابن عبد ربه في المقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وصر ابن سعد جعل يفتن قتلة الحسين بن علي ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أدناهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك نغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن حبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي ، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعني مصعباً) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البدء على الله تعالى ، والبدء له معان ، البدء في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدء في الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء في الأمر وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بسده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبدء ، لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال ، لما يوحى يوحى إليه ، ولما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدئها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهمة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسي قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : فاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسي محل فيكم محل التابوت في بني إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم يرلون مدداً لكم (أخذاً من

محمد بن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضِعَ لَهُ كُرْسِيٌّ قَدَامَهُ ، فعلاه وقال :
 « يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ^(١) ، أَيُنْتَقَصُ عَلَيَّ وَأَنْتُمْ حُضُورٌ؟ إِنْ عَلِيًّا كَانَ
 مَهْمًا صَادِقًا ، أَحَدًا مَرَامِي اللهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، يَقْتُلُهُمْ لِكْفَرِهِمْ ، وَيُهَوِّعُهُمْ ^(٢)
 مَا كَلِمَتُهُمْ ، فَتَقْتُلُ عَلَيْهِمْ ، فَرَمَوْهُ بِصِرْفَةٍ ^(٣) الْأَبَاطِيلِ ، وَإِنَّا مَعْشَرٌ لَهُ عَلَى نَهْجِ ^(٤)
 مِنْ أَمْرِهِ بِنَوَالِحِيبَةِ ^(٥) مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِنْ تَكُنْ لَنَا الْأَيَّامُ دَوْلَةً نَشْرُ عِظَامَهُمْ ،
 وَنَحْسِرُ ^(٦) عَنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَالْأَبْدَانُ يَوْمُئِذٍ بِأَلِيَّةٍ : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ
 يَنْقَلِبُونَ » .

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما
 بال بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(٧) ، ومالي لا أتكلم ؟ أليست
 فاطمة بنت محمد حليّة ^(٨) أبي وأمّ إخوتي ؟ أليست فاطمة ^(٩) بنت أسد

قوله تعالى : « وَفَالْهَلْمُ نَبِيَّهُمْ إِنْ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنْ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته في تاريخ
 الطبري (٧ : ١٤٠)

[١] شاه وجهه : فيج . [٢] هو عه ما أكل : قيام إياه . [٣] مؤنث صرف ، والصرف :
 الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أطولة بضم الهزرة أو
 إبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . [٤] النهج : الطريق الواضح .

[٥] الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات دو البدار إلى
 طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً
 للثواب المرجو بها . [٦] حصره كنصر وضرب : كشفه . [٧] أم رومان بنت عامر هي زوج
 أبي بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . [٨] زوجته .

[٩] هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام عليّ كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد
 عشر من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

ابن هاشم جدّتي؟ أو ليست فاطمة^(١) بنت عمرو بن عائذ جدّة أبي؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد^(٢) ما تركت في بني أسد عظماً إلا هشمته، وإن نالتني فيه المصائب صبرت». (مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٢ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فلما سلم وجلس، قال له معاوية: «إني أريد أن أسألك عن مسائل» قال: «سل عما بدالك». قال: «ما تقول في أبي بكر؟» قال: «رحم الله أبا بكر، كان والله للقرآن تالياً، وعن المنكر ناهياً، وبذنبه عارفاً، ومن الله خائفاً، وعن الشبهات زاجراً، وبالمعروف آمراً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً^(٣)، وسادهم زهداً وعفافاً، فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه». قال معاوية: «إيهاً^(٤) يابن عباس، فما تقول في عمر بن الخطاب؟» قال: «رحم الله أبا حفص عمر، كان والله حليف الإسلام، وماوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف^(٥) الضعفاء، ومعتقل الحنفاء^(٦)، قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً^(٧)، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد، وأمن العباد، فأعقب الله على من ينقضه اللعنة إلى يوم الدين». قال: «فما تقول في عثمان؟» قال: «رحم الله أبا عمرو وكان والله أكرم الجعدة^(٨)، وأفضل البرّة، هجّاداً^(٩)

[١] هي فاطمة بنت عمرو بن عمران بن مخزوم أمّ أبي طالب، وهي أمّ عبد الله والد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. [٢] هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمّة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد.
[٣] أي رضا بالكفاف، والكفاف من الرزق ما كفى عن الناس وأغنى.
[٤] أمر بالسكوت أي حسبك. [٥] الكهف: الملجأ، وكذا المعتقل. [٦] جمع خنيف، وهو الصحيح الليل إلى الإسلام الثابت عليه. [٧] احتسب بكذا أجراً عند الله: اعتده ينوي به وجه الله. [٨] الكرام، يقال للكرام: جسد بفتح فسكون، فأما إذا قيل فلان جعد السيدين أو جعد الأنامل فهو البخيل، وربما لم يذكروا معه اليد. [٩] الهجّاد والهجود: بفتح الهاء، والتهجد: المصلى بالليل.

بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهائاً عند كل مكرمة ، سباقاً إلى كل منحة ، حياً أياً وفيها ، صاحب جيش العسرة^(١) ، وختن^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال : « فما تقول في علي ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله علم الهدى ، وكهف الثقي ، وتحمل الحجا^(٣) ، وبحر الندى ، وطود النهى^(٤) ، وكهف العلا ، للورى داعياً إلى المحجة^(٥) ، متمسكا بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتنى ، وأبر من اتعل وسعى^(٦) ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبطين ، فهل يوازيه أحد ؟ وأبوالسبطين^(٧) فهل يقارنه بشر ؟ ، وزوج خير النسوان^(٨) ، فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأسود قتال ، وفي الحروب ختال^(٩) ، لم ترعيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد ، إلى يوم التناد^(١٠) » قال : « إيهما يا بن عباس ، لقد أكثرت في ابن عمك . قال : « فما تقول في أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباس - أبا الفضل ، كان صنو^(١١) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقرّة عين صفي الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباءه الأجواد ، وأحلام أجداده الأعجاد ، تباعدت

[١] تقدم شرحه في خطبة ذي الكلاع الجبرى . راجع الجزء الأول ص ١٦٤

[٢] أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة أم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٣] الحمل في الأصل : شقان على البير يحمل فيهما العديلان ، والحجا : العقل والفتنة .

[٤] الطود : الجبل ، والنهى العقل . [٥] الطريق الواضح . [٦] فى الأصل « واسعا »

وهو تحريف . [٧] الحسن والحسين رضى الله عنهما وهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(والسبط ولد الولد) . [٨] السيدة فاطمة رضى الله عنها . [٩] خداع من الحمل وهو الخداع

والمراد أنه ذو بصير بالحروب . [١٠] يوم القيامة .

[١١] الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنتان

صنوان والجمع صنوان برفع النون .

الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسّاقية والمّشاعر^(١) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دبّ^(٢) ؟ فقال معاوية : « ابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلَمَانِي^(٣) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقّههُ في الدين ، وعَلَّمهُ التّأويل . »

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، خصّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابةٍ آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : « رَحْمَاءٌ يَنْبَهُمُ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقة ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء^(٤) الله ، واستقرّ دينه ، ووضّحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أصحياء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إِيهًا ابن عباس ، حديثاً في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

[١] شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشعارة بالفتح ، والشعر : موضعها ، والمشعر الحرام بالمزدلفة . [٢] في الأصل : « من دبّ » أي مشى والمعنى عليه صحيح ، ولكنني أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . [٣] رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشدد اللام ، وبكسرتين مشدد الميم ، وتكلام وتكلامه بكسرتين وتشدد لهما : جيد الكلام فصيح . [٤] الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وألى (بفتح ثانيه وفتح أوله او كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له ^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٣ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كأننا صَفِيَّينِ ^(٢) دون الناس ، خَفِظْتُ المِيتَ في الحى ، والحى في الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عُبَيْدُ اللهِ أَخَاكَ على اليمن ، واستعمل أَخَاكَ ^(٣) على المدينة ، فلما كَانَ مِنَ الأَمْرِ مَا كَانَ ، هَنَأْتِكُمْ ^(٤) ما فى أَيْدِيكُمْ ، ولم أَكشِفِكُمْ عما وَعَتَ غرَائِرُكُمْ ^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذاتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وطار بتمونى بصيفين ، ولعمري لَبِنُوا تَيْمَ وَعَدِيَّ ^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنؤا فيكم هذه السنّة ، فحتى متى أَغْضَى الجفون على القَدَى ^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعلّ الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

[١] أى كثير التحقير له . [٢] الصقّ : الحبيب المصافى . [٣] لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أُمّر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة فثم بن العباس (ثم كعمر) وخرج لايهم [٤] هنأه كنع وصرب : أطعمه وأعطاه . [٥] جمع غرارة بالكسر وهى الجوائق (التوال) . [٦] يعنى يبنى تيم أبابكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى يبنى عدى صمر بن الحطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . [٧] القذى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٤ — مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

« رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين ^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فَضَلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكنَّ من هتأ أباك بإخاء أبي أكثرُ ممن هتأ أبي بإخاء أبيك ، نصرأبي أباك في الجاهليَّة ، وَحَقَنَ دمه في الإسلام ^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرميّ على البصرة فقتل ، وبُسْر بن أرطاة على اليمن نغان ، وحبیب بن مرة على الحجاز قرُد ، والضَّحَّاك بن قيس الفهري على الكوفة فحُصِبَ ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وُضِعَ أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمَحَقَّها ، ولو وُضِعَ أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحَسَنَّاها ، وأما خذلنا عثمانَ فلو لَزِمْنَا نَصْرَهُ لَنَصَرْنَاه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحقَّ وادِّعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيمة وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها » وسكت . (العقد الفريد ٢ : ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٥ — مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوماً على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أتيتم إيانا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم

[١] التفاوض : الاشتراك في كل شيء والمساواة . [٢] يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صَبَرْت عليه منكم ، إني لا أريد أمراً إلا أظمأتم صدره^(١) ، ولا آتى معروفاً إلا صغرتم خطره^(٢) ، وأعطيتكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نَقَصَ الحَقَّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم ، ثم أكون أسراً بإعطائها ، منه بأخذها؟ والله لئن انخدعت لكم في مالى ، وذَلَّتْ لكم في عرضي ، أرى انخداعى كرماً ، وذَلَّى حِلماً ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ، ولا نسألكم أموالكم لعلمنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبعضها إلينا أحبها إليكم أن نُعْفِيكم .

٨٦ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو وَلِينَا أحسنًا المِوَاَسَاةَ ، وَاَمْتَنْنَا بِالْأَثَرَةِ^(٣) ، ثُمَّ لَمْ نَعْشِمِ^(٤) الحى ، وَلَمْ نَشْتَمِ المِيتَ^(٥) ، فَلَسْتُمْ بِأَجْوَدَ مِنَّا كُفًّا ، وَلَا أَكْرَمَ أَنفُسًا ، وَلَا أَصْوَنَ لِأَعْرَاضِ المِروءَةِ ، وَنَحْنُ وَاللَّهِ أَعْطَى لِلاَخِرَةِ مِنْكُمْ لِلدُّنْيَا ، وَأَعْطَى فِي الحَقِّ مِنْكُمْ فِي البَاطِلِ ، وَأَعْطَى عَلَى التَّقْوَى مِنْكُمْ عَلَى الهَوَى ، وَالْقَسَمَ بِالسُّوِيَّةِ وَالعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ يَا تِيَانُ عَلَى المَنَى وَالْأَمَلِ ، مَا أَرْضَاكُمْ مِنَّا بِالكِفَافِ ، فَلَوْ رَضِيْتُمْ مِنَّا لَمْ نَرْضَ بِأَنفُسِنَا بِهِ لَكُمْ ، وَالْكَفَافُ رِضًا مِنْ لَاحِقٍ لَهُ ، فَلَا تُبَخِّلُونَا^(٦) حَتَّى تَسْأَلُونَا ، وَلَا تَلْفِظُونَا حَتَّى تَدُوقُونَا . »

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

[١] يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه أى رجع ، صدرأ « يسكون الدال » وصدوراً والاسم منه الصدر « بفتحين » أى أصدرتم ورددتم واردة ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . [٢] قدره وشأه . [٣] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتتنا أى وفضلنا وأنعنا بما نستأثر به . [٤] ششمه غشياً : ظلمه . [٥] يعرض به فى سبه عليا على المنابر . [٦] لازمونا بالبخل (بجمله بالنشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجدته بخيلاً) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٧ - مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيري لكم لمنوح ، وإن بابي لكم لفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علةٌ ، ولا يُوصدُ^(١) بابي دونكم مسألةً ، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً ، إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتُم أعطانا دون حقنا ، وقصّر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم »

٨٨ - مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفرن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسامين ، ولنا في كتاب الله حَقٌّ : حق في الغنيمة ، وحق في النية . فالغنيمة : ما غلبنا عليه ، والنية : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خُفٌ ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفاني فإنك لا تُعزُّ^(٢) ، ولا تُشجُّ^(٣) . »

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

[١] أي ولا يفتق « وفي الأصل ولا يوجد » وهو تحريف . [٢] لا تعز أي لا تغلب ، عزه

يعزه (كنصره) عزه (بالفتح) غلبه « وفي الأصل لا تعز » وهو مصحف .

[٣] شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٩ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديعها وحدثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بوافدها وديانها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجابتها ولوائها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدى ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهائها ، وبنو جحج ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر ابن لؤى بفارسها وقريعتها ^(١١) فمن ذا يحمل مضارها ، ويجرى إلى غايتها ، ما تقول يا ابن عباس ؟

[١] بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . [٢] بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

[٣] بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب .

[٤] بنو عبد الدار بن قصي ، والحجاية سدانة البيت الشريف أى تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاثلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنى داراً بها وهى دار الندوة ، وكانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، مال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضعيفاً ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ، وعد العزى ، وعبد - « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحرب إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أموراً إلا في دارك ، فأعطاء داره دار الندوة ، وأعطاء الحجابة ، واللواء والندوة ، والسقاية ، والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به فيصنع طعاماً للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . [٥] بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى . [٦] بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى .

[٧] بنو عدى بن كعب بن لؤى . [٨] بنو سهم بن هميم (كزير) بن كعب بن لؤى ، وسهم

صمرو بن العاص السهمي . [٩] بنو جحج بن هميم بن كعب . [١٠] جمع أنف وهو السيد .

[١١] القريع : المقارع .

٩٠ - مقال ابن عباس

قال : « لا أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمر إلا وإلى جنبهم من يَشْرَكُهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفخرون بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُسَاوُونَ بها ، ولا يُدفعون عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إنَّ بنا فُتِحَ الأمر و بنا يُنْتَمِ ، ولك مُلْكٌ مُعْجَلٌ ، ولنا ملكٌ مُوَجَّلٌ ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأنَّ أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين . (المقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩١ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نعى الحسن بن علي رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن ابن علي ، فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجيعاً مكرراً ، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ماسد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِبتنا به لقد أُصبتنا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجبر الله مصيبتَه ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة » ثم شهق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية . (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عُتْبَةُ بن أبي سَفِيَّانَ لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحَكَمين ؟ » قال : « منعهُ والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مَدَارِجِ نَفْسِهِ ، نَاقِضًا لما أبرم ، ومبرمًا لما نقض ، أُسِفٌ ^(١) إِذَا طَارَ ، وَأَطِيرُ إِذَا أَسَفَ ، ولكن مضى قدر ، وبقى أسف ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » . (عجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٠٧)

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزيد بن سُمَيَّةَ . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومروان بن الحكم . وعمرو بن العاص . والمغيرة بن شُعْبَةَ . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرٌ ^(٢) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدُفِعَ عنه ^(٣) ، فخرَّ كوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته ، ونقفَ على كنهه معرفته ، ونعرف ما صُرفَ عنا من شَبَابٍ ^(٤) حدّه . ووُورِيَ عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأُعْطِيَ من النعت والاسم ما لا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله ابن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأه ابن أبي سفيان فقال : يا ابن عباس ما منع عليا أن يُوجَّهَ بك حكما ؟

[١] أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

[٢] شجر بينهم الأمر : تنازعوا فيه . [٣] لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم

قبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكماً من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

[٤] الشبا جمع شبابة ، وهي حد كل شيء .

٩٣ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرن عمرًا بصعبة من الإبل ، يُوجع كتفيه
مِرأسها^(١) ، ولأذهلت عقله ، وأجرضته بريقه^(٢) ، وقدحنت في سويداء قلبه ،
فلم يُبرم أمرًا ، ولم ينفض ترابًا إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نكته
أرمت^(٣) قواه ، وإن أرمه فصمت^(٤) عراه ، بغرب^(٥) مقول لا يفل حده ،
وأصالة رأي كمتاح^(٦) الأجل لا وزرمنه ، أصدع^(٧) به أديمه ، وأفل به
شبا حده ، وأشحد به عزائم المعتز^(٨) ، وأزيح به شبه الشاكين . »

٩٤ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم^(٩) أول الشر ،
وأفول آخر الخير ، وفي حسمه قطع مادته ، فبادره بالجملة ، وانتهز منه الفرصة ،
واردع بالتنكيل به غيره ، وشرده من خلفه . »

٩٥ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن النابغة ، ضل والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق
الشیطان على لسانك ، هلا تويت ذلك بنفسك يوم صفيين ، حين دُعيت

[١] أى علاجها وقيادتها . [٢] جرض بريقه كمرح ابتاعه بالجهد على م ، وأجرضه بريقه :
أغصه . [٣] أرم الجبل : قتله شديداً .
[٤] حلت . [٥] الغرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان . [٦] من إضافة الصفة
للموصوف أى كالأجل المتاح أى المنذر والوزر الملبأ . [٧] أشق ، والأديم : الجلد ، وهو كناية
عن غلبته إياه وانتصاره عليه . [٨] فى الأصل « انتقيز » وقد بحث فى كتب اللغة عن مادة
« قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها محرقة عنها ، ورجح لدى أنها
محرقة عن « المعتز » من اعتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين على
ومعاوية وكانوا محايدين . [٩] ظهور (مصدر نجم) .

نَزَالٍ^(١) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت
إلى أمير المؤمنين مُصَاوِلًا ، فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٢)
من الموت ، أعددت حيلة السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ،
ففتحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن
يصطامك^(٣) بسطوته ، أو يلتهمك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له
ببازرته ، وحسنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تكتفي بثوته ، وتمدم صورته ،
فعلم غلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلّك ، وعرف مقرّ سهمك في
غرضك ، فاكفّف غرّب لسانك ، واقمّع عوراء^(٤) لفظك ، فإنك بين أسد
خادر^(٥) ، وبحرٍ زاخر ، إن تبرزت للأسد اقترسك ، وإن عممت في البحر
قسك^(٦) .

٩٦ - مقال مروان بن الحكم^(٧)

فقال مروان بن الحكم : « يابن عباس إنك لتصرف^(٨) بنا بك ، وتورى
نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمّل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم
بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٩) ، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن
بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرأركم لقد يمّا ما نُسب إلى ذلك » .

[١] نزال اسم فعل بمعنى انزل أى حين قال الأبطال بعضهم لبعض نزال . [٢] جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر . [٣] اصطلمه : استأصله . [٤] العوراء : الكلمة أرفعلة الفيحة . [٥] الحدر : أجة الأسد ومنه قيل أسد خادر . [٦] غمسك وأغرنتك . [٧] هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . [٨] صرفت البكرة تصرف كضرب صرفاً : صوتت عند الاستقاء وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . [٩] الصدر : الرجوع .

٩٧ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أثباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لى : إنك لتصرف بنايبك ، وتورى نارك ، فسل معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهريير ^(٥) كيف ثباتنا للمثلات ^(٦) ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدق جلاذنا عند المصاولة ، وصبرنا

[١] يريد « وياطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « وياين طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لانسأ كنى في بلد أبدأ » لوقيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوماً فرآه وهو يتحلج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل منفياً حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم صم - رده ، وقال : « كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدنى برده » وقد توفى في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طملاً لايقل لما نبي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف لابان نبي أبيه بها .

[٢] أى في فتنه عثمان ، وذلك أن الثرار بعد أن هدا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى طامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذى كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . [٣] جمع ودج (محركة) وهو عرق الأخدع الذى يقطعه الداح ، فلا يبقى منه حياة . [٤] جمع نبيج (محركة) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر . [٥] هى ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش على أن تكرون له الغلبة . [٦] جمع مثلة (كفرة) من مثلت بالقتيل اذا نكلت به .

على اللأواء^(١) والمطاولة ، ومصأفحنا بـجبا هنا السيوف المرهفة^(٢) ، ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسنّة ، هل خمننا^(٣) عن كرائم تلك المواقف ؟ أم لم نبذل مهجنا^(٤) للمتالف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ، ولا يوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلّك ، فازبغ على ظلمك^(٥) ، ولا تتعرض لما ليس لك ، فإنك كالمغروز في صَفَد^(٦) ، لا يهبط برجل ، ولا يرفأ^(٧) بيد .

٩٨ - مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس ، إني لأعلم ، ما منع حسناً وحسبنا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سوت لهما أنفسهما ، وغرهما به من هو عند البأساء يُسئلهما^(٨) ، وايم الله لو وليتُهُما لأدأبا^(٩) في الرّحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بـكانهما كـبئُهُما » .

٩٩ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله يقصّر دونهما بأعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو رُمّت ذلك لوجدت من دونهما فِئّة صدقاً صبراً^(١٠) على البلاء ، لا يخيمون عن اللقاء ، فلعرّكوك بكلاكلهم^(١١) ووطئوك بناسمهم^(١٢) وأوجرّوك^(١٣) مشقّ رماحهم ، وشفّار^(١٤) سيوفهم ، ووخز أسننتهم ، حتى تشهد بسوء ما أتيت ،

[١] اللأواء : الشدة . [٢] المرقة . [٣] حام ٤٤ يخيم : جبن ونكس .
[٤] جمع مهجة وهي الدم أو الروح . [٥] ربح كـنح وقف وانتظر وتحبس ، وظلع ظالماً كـنح غمز و مشبه ، واربح على ظلمك أي انك ضعيف فانتبه عمالاً تطيقه واسكت على ما فيك من عيب .
[٦] الصفد : القيء ، وفي الأصل « كالمغروز في صفد » وأراه « كالمغروز في صفد » .
[٧] أي يصعد ويعلو : رفاً في الدرجة صعد : يقال رقات ورقبت (كرضيت) وترك الهمزة أكثر .
[٨] أسأله : خذله . [٩] أجهدا وأتعبا . [١٠] أي ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقاً صبراً » بضمين جمع صدوق وصبور . [١١] جمع كلكل وهو الصدر . [١٢] جمع منسم (كـجلس) وهو خف البعير . [١٣] أوجره الرمح : طعنه به في فيه ، والمشق سرعة في الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قديب ممشوق أي طويل دقيق . [١٤] جمع شفرة وهي حد السيف .

وتتبين ضياع الحزم فيما جنيت ، فحذارِ حذارٍ من سوء النية ، فإنها ترد الأمانة ،
وتكون سبباً لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما ، وسعيّاً في اختلافهما بعد
اتلافهما ، حيث لا يضرهما إيناسك^(١) ، ولا يُغني عنهما إيناسك .

١٠٠ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم :

« لله درُّ ابن مُلجَم^(٢) ، فقد بَلَغَ الأملَ ، وأَمَّنَ الوَجِلَ ، وأَحَدَ الشَّفْرَةَ ،
وَأَلَانَ المُهْرَةَ ، وأَدْرَكَ النَّارَ ، وَتَنَّى العَارَ ، وفاز بالمنزلة العليا ، وَرَقِيَ الدرجة القصوى .»

١٠١ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَعَ^(٣) كَأْسَ حَتْفِهِ يَدَهُ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بِرُوحِهِ ،
ولو أَبَدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، لَخَالَطَةُ الفحلُ القَطِيمَ^(٤) ، وَالسيفُ الحَدِيمَ ،
وَلَا لَعَقَهُ صَابًا^(٥) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا^(٦) ، وَأَلْحَقَهُ بِالوَلِيدِ وَنَثْبَةَ وَحَنْظَلَةَ^(٧) ، فَكَلِمَهُمْ
كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً^(٨) ، وَأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَفَرَى بِالسيفِ هَامَهُمْ^(٩) ،
وَرَمَلَهُمْ^(١٠) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذَّنَابَ أَشْلَاءَهُمْ^(١١) ، وَفَرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ،

[١] الإيناس : التلذذ بالنافذة وقت حلبها بأن يقال لها بس بس (بفتح فسكون) تكيناً لها .
[٢] هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله قاتل الإمام عليّ . [٣] كرع في الماء : تناوله بفيه
من مودعه . [٤] قطم الفحل كفرح فهو قطم اشتغى الضراب . [٥] عصارة شجر مرّ .
[٦] جمع سم مثلث السين . [٧] الوليد بن عتبة خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه ، وحنظلة
ابن أبي سفيان أخوه ، وقد قتلهم عليّ يوم بدر . [٨] الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة أي
أنف أبي لاسقاد . [٩] هام جمع هامة وهي الرأس .
[١٠] رمل الثوب : اطحه بالدم ، ويموز أن يكون وزم لهم أي لنهم بدمائهم (على المجاز) .
[١١] أشلاء جمع شلو وهو العضو ، وقرى الضيف قرى (بالكسر) : أضافه .

أولئك حصَّب^(١) جهنم لها واردون ، فهل تحسب منهم من أحدٍ أو تسمع لهم
ركزاً^(٢) ؟ ولا غزو إن ختل ، ولا وصمة إن قتل ، فإننا لآكما قال دُرَيْدُ
ابن الصَّمَّةِ :

فإنَّا للآخِمْ السَّيْفِ غيرَ مُكْرَهٍ وَنُدْجِمُه طوراً وليس بذي نُكْرٍ^(٣)
يفار علينا وارين فيشْتَقِي بنا إن أصبنا أو نُغِير على وترٍ^(٤)

١٠٢ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرتُ على عليّ بالنصيحة ، فأثر رأيه ، ومضى على غلوائه^(٥) ،
فكانت العاقبة عليه لاله ، وإني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه » .

١٠٣ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ،
وتصريف الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعنف عليه ، قال سبحانه
وتعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(٦) اللَّهَ

[١] الخطب وما يرمى به في النار . [٢] الصوت الخفى . [٣] ألمه : أطمعه اللحم .

[٤] الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره .

[٥] الغلواء : الغلوة ، وذلك أن المغيرة جاء علياً بهد مقل عثمان ، وقال له : ان النصح رخيص وأنت
بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان طامك هذا ، فاكتب إليهم بأنباتهم على أعمالهم
فإذا بايعوا لك ، واطمأن أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في
ديني ، ولا أعطى الرياء في أمري ، قال : فإن أبيت فاتزع من شئت وارتك معاوية فإن له جراءة وهو في
أهل الشام مسدوع منه ، ولك حجة في إنباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل
معاوية يومين أبداً . (وقد كان ابن عباس يرى إنبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعليّ : فإن بايع لك فعلىّ
أن أقلعه من منزله ، فقال عليّ : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . [٦] حاده : غاضبه وطاواه وخالفه .

وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفك على ذكر مبین ، وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » . وهل كان يسوغ له أن يُحَكِّم في دماء المسلمين ، وفِيء المؤمنين ، من ليس بأمون عنده ، ولا موثوق به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبَيِّن خلاف ما يُظْهَر إلا للتَّيَقُّة (١) ، ولات حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف المُصَلَّت (٢) في أمر الله ، مؤثِّراً لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٤ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتنطق بلسان طليق (٣) ، ينبئ عن مكنون قلب حرق (٤) ، فاطو على ما أنت عليه كشحاً (٥) ، فقد محاضوء حَقْنَا ظلمة باطلكم » .

١٠٥ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلاً يزيدُ ، فوالله ما صَفَّت القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنّت بالمحبة إليكم ، مذ نأت بالبعضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ماسخِطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِل (٦) الأيامُ نستقض ما شدنا ، ونسترجع

[١] التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين .

[٢] السلول . [٣] لسان طلق : (بسكون اللام وكسرها) ذلق .

[٤] الحرق المحروق : وفي الحديث « الحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق

النار (بفتحين) فيلتهب ، والحرق محرّكة النار ولهبها ، وفي الحديث « الحرق والمرق والشرق شهادة » وحرقت شمره كفتح تقطع ونسل :

[٥] الكشح ما بين الحاصرة إلى الضلع الخلاب ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

[٦] أداله الله بن عدوه : نصره عليه .

ما ابتز^(١) منا ، كئيلًا بكيل ، ووزنًا بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله وليًا لنا ، ووكيلا على المعتدين علينا .

١٠٦ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحزازات يابني هاشم ، وإني لخليق أن أدرك فيكم النار ، وأنفي العار ، فإن دماءنا قبلكم ، وظلامتنا فيكم . »

١٠٧ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمت ذلك يا معاوية ، لتثيرن عليك أسدًا مُخْدَرَةً^(٢) ، وأفاعى مُطْرِقَةً ، لا يفثوها^(٣) كثرة السلاح ، ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قُدْمًا قُدْمًا من ناوأهم^(٤) ، يهون عليهم تُباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، لا يفاتون بوتر ، ولا يُسبِقون إلى كريم ذكر ، قد وطئوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم ، كما قالت الأزدية .

قومٌ إذا شهدوا الهياج فلا ضربٌ مِينَهُمْ وَلَا زَجْرٌ^(٥)

وكانهم آسادٌ غِيْنَةٌ قد غرثت وبل متوتها القطر^(٦)

فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبرهمك سلامة حشاشة^(٧) نفسك ، ولولا طعام^(٨) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ،

[١] ما سلب . [٢] أخدر للأسد : لزم الأجمة ، وأخدر العرين الأسد ستره فهو مخدر (بكسر

الذال وفتحها) . [٣] فثأ الفضب كتح سكه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

[٤] القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوأم عادم .

[٥] نهيه عن الأمر : كفه وزجره . [٦] النينة : بالكسر الأجمة ، والغينة بالفتح الأشجار المنفة

في الجبال وفي السهل بلاماء ، فإذا كانت بجاء فهي غيضة ، وغرث : كفرح جاع فهو غرثان .

[٧] الحشاشة : بقية الروح في الرئس والجريح . [٨] الطعام : أوغاد الناس .

وبذلوا دونك مُهَجِّم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشُّقَار ، وأيقنوا بحلول الدِّمار ،
رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائذين بعصمتها ، لكنك شلواً مطروحاً
بالعراء ^(١) ، تسنى عليك رياحها ^(٢) ، ويعتورك ذئابها ، وما أقول هذا أريد
صرفك عن عزيمةك ، ولا إزالتك عن معقود نيّتك ، لكن الرِّحِم التي تعطف
عليك ، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك .

فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن
سيف صقيل ، ورأى أصيل ! وباللّٰه لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نقص عددكم ، ولو لم
يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم » ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى
أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهدته بصفين ، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله
ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٨ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، ومناك ما بيد
غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون
الذي أعطيته ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى ^(٣) ، فاما صارت مصر في يدك كدّرها

[١] العراء : البضاء لا يستر فيه شيء . [٢] سفت الريح الغراب تسفيه ذرته أو حمله .
[٣] وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب
لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطيني مصرأ فأرجح صفة أخذت بها شيئا يضر وينفع

عليك بالعزل والتنغيص^(١) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها ، وذكرت يومك مع أبي موسى ، فلا أراك نخرت إلا بالقدر ، ولا مَنَنْتَ إلا بالفجور والغش ، وذكرت مشاهدك بصيفين ، فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ، ولقد كشفت فيها عورتك ، وإن كنت فيها لطويل اللسان ، قصير السنان ، آخر الخيل إذا أقبلت ، وأولها إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تبسُطها إلى خير ، وأخرى لا تقبِضها عن شر ، ولسان غرور ذو وجهين : وجه مؤحش ، ووجه مؤانس ، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن يطول عليها ندمه ، لك لسان وفيك خطل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١٠٩ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : « والله ما في قریش أثقل على مسألة ، ولا أمره جواباً منك ، ولو استطعتُ ألا أجيبك لفعلت ، غير أني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله نفسي ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية

ثم إنه سنة ٣٨ في جيش لغزومصر ، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام عليّ فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميراً .

[١] روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتيديره وعنائه وسميه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، وكتب بينهما كتاباً ، وشرط فيه شروطاً لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوافقا وتماهدا على ذلك ، وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو بن العاص على مصر والياً عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين أو ثلاثاً حتى مات . »

وأعطيته فإنه لا تُعَلَّمُ الْعَوَانُ الْخِمْرَةَ^(١) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له ، وأما خفة وطأتي عليكم بصفين ، فلما استثقتكم حياتي واستبظّأتم وفاتي . وأما الجبن فقد علمت قريش أني أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لساني ، فإنني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضى الله عنه :

لساني طويل فاحترس من شدّاته عليك ، وسيفي من لساني أطول^(٢)
وأما وجهي ولساني ، فإنني ألقى كل ذي قدر بقدره ، وأرى كل ناجح بحجره ، فمن عرف قدره كفاني نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسي ، ولعمري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعني ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشمٍ مالي أراكم كأنكم	بني اليوم جهالٌ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أني جسور على الوغى	سريعٌ إلى الداعي إذا كثر القتل
وأول من يدعو «نزّالٍ» . طبيعةٌ	جُبلتُ عليها ، والطّباع هو الجبل ^(٣)
وأني فصّلتُ الأمر بعد اشتباهه	بدومةٍ إذ أعياء على الحكم الفصل ^(٤)
وأني لا أعياء بأمرٍ أريده	وأني إذا عجت بكاركم فحل ^(٥)

(المقدم الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦)

١١٠ - عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فرّاً بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من

[١] في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة » والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من

الاختمار ، واختمرت المرأة لبست الخمار بكسر الخاء (الطرحة) يضرب للرجل ا رب .

[٢] الشذاة : الحدة ، والشدا والشذا بالذال والذال حد كل شيء .

[٣] أي نازلوني أيها الأقران ، والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل .

[٤] هي دومة الجندل التي اجتمع فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري .

[٥] البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهي الناقة الفتية ، ومجت أي صاحت ورفعت صوتها .

هَيْبَةُ النَّاسِ لَهُ، وَمَوْقِعُهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ يَا بَنَ عَبَّاسِ : «مَالِكٌ إِذَا رَأَيْتَنِي وَلَيْتَنِي الْقَصْرَةَ^(١) ، وَكَأَنَّ بَيْنَ عَيْنَيْكَ دَبْرَةَ^(٢) ، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَلَأَ مِنَ النَّاسِ كُنْتُ الْهُوَاهَاةَ^(٣) الْهُمَزَةَ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : «لَأَنَّكَ مِنَ اللَّثَامِ الْفَجْرَةِ ، وَقَرِيشُ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، لَا يَنْطِقُونَ بِبَاطِلٍ جَهْلُوهُ ، وَلَا يَكْتُمُونَ حَقًّا عَلِمُوهُ ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا ، وَأَرْفَعُ النَّاسِ أَعْلَامًا . دَخَلْتَ فِي قَرِيشٍ وَلَسْتَ مِنْهَا ، فَأَنْتَ السَّاقِطُ بَيْنَ فِرَاشِينَ ، لَا فِي بَنِي هَاشِمٍ وَرَحْلِكَ ، وَلَا فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ رَاحِلَتِكَ ، فَأَنْتَ الْأَثِيمُ الزَّئِيمُ^(٤) الضَّالُّ الْمُضِلُّ ، حَمَلَكِ مَعَاوِيَةَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَنْتَ تَسْطُو بِحَمَلِهِ ، وَتَسْمُو بِكِرْمِهِ » فَقَالَ عَمْرُو : أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمَسْرُورٌ بِكَ ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي عِنْدَكَ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حَيْثُ مَالُ الْحَقِّ مِلْنَا ، وَحَيْثُ سَلَكَ قَصَدْنَا .

(القمد الفريد ٢ : ١١٢)

١١١ - مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أمَّ عمرو بنت منظور بن زَبَانَ الْقَزَارِيَّةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا قَالَ لَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ : أَتَدْرِينَ مِنْ مَعَكَ فِي حَجَلَتِكَ^(٥) ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى . قَالَ : لَيْسَ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالَتْ : فَمَا الَّذِي تَرِيدُ ؟ قَالَ : مَعَكَ مِنْ أَصْبَحٍ فِي قَرِيشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بِلَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ . قَالَتْ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ

[١] القصرة : أصل العنق في مركبه و الكاهل ، ويقال لعنق الإنسان كله قصره ، والمعنى وابتني عتقك لإعراضاً عنى . [٢] الدبيرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمة و القتال وهو اسم من الأدبار والمراد بها هنا الاغضاء وعدم الاقبال . [٣] قال صاحب اللسان ، وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهواهة الهمة » الهراهة الأحمق ، وقال أيضاً : « رجل هوهاء وهواهة وهواهة بفتح الأول ضعيف الفؤاد جبان ، ورجل هومة بضم الأول جبان أيضاً . [٤] الزئيم المستلحق في قوم ليس منهم والدعوى . [٥] الحجلة كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس .

حَضَرَكَ ، لَقَالَ لَكَ خِلَافٌ قَوْلِكَ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى أُحْضِرَكَ الْمَاشِمِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَذَلِكَ إِنكَارًا ، قَالَتْ : إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَرَأَى حَلْقَةً فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِنْهُمْ : عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَصِينِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ الزَّيْبِرِ : أَحِبُّ أَنْ تَنْطَلِقُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي ، فَقَامَ الْقَوْمُ بِأَجْمَعِهِمْ ، حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْبِرِ : يَا هَذِهِ اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، فَلَمَّا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ دَعَا بِالْمَائِدَةِ فَتَغَدَّى^(١) الْقَوْمُ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا جَمَعْتُمْ لِحَدِيثٍ رَدَّتهُ عَلَيَّ صَاحِبَةُ السِّتْرِ ، وَزَعَمْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَعْضُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَضَرَني لَمَا أَقْرَأَ لِي بِمَا قُلْتَ ، وَقَدْ حَضَرْتُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْتَ يَا بَنِي عَبَّاسٍ مَا تَقُولُ ؟ إِنِّي أَخْبَرْتَهَا أَنَّ مَعَهَا فِي خِدْرِهَا مَنْ أَصْبَحَ فِي قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا يَلُ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ ، فَردَّتْ عَلَيَّ مَقَالَتِي .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَرَأَيْكَ قَصَدْتَ قَصْدِي ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ قَلْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَكْفَّ كَفَفْتُ . قَالَ : بَلْ قُلْ ، وَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ ؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ أَبِي الزَّيْبِرَ حَوَارِيُّ^(٢) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَأَنَّ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ذَاتِ النُّطَاقَيْنِ^(٣) ؟ وَأَنَّ عَمَّتِي خَدِيجَةُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ؟

[١] تغدى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذي يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للفطر) . [٢] الحواري : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمتي ، وحواري من أمتي » .

[٣] كان يقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقا على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل في الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنهما في الغار . قال الأزهري : وهذا أصبح

وَأَنْ صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّتِي ^(١) ؟ وَأَنْ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ خَالَتِي ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ لِهَذَا إِنْكَارًا ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرت شرفاً شريفاً ، ونفراً فاخراً ، غير أنك تفاخر من يفخره نفرت ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر نفراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أوتى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئت لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارة من رامها ^(٢) ، نشدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرف أم خوَيْلد في قريش ؟ قالوا : عبدالمطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنَافِرُنِي يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

القوانين ، وقيل : إنما شقت نطاقها نصفين ، فاستعمت أحدهما وجعلت الآخر شداداً لرادهما ، وجاء في المقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير بمكة ناداه وذاك يابن ذات النطاقين ، أقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها سمعت رجلك الله ما يقول انقوم ، وما يدعوني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتهم لعنهم الله ! فما أجهلهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم نورك عندهم ، قال : وما ذلك يا أمه ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أنى بكر (وروى عن عائشة رضي الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان الرب) فهيات لها سفرة ، فطلباً شيثاً يربطانها به فما وجداه ، فقطعت من مؤزى لذلك ما احتلجاً إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي انقاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاماً لقربته . [١] هي جدته لأبيه .

[٢] القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة ، وبزعمون أن رجلين النبيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارحك ، وإن شئت سابتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتي ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من رامها إنا إذا فئسة نلقاها
نرد أولاهنا على أخراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فؤاده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته **وَلَكِنَّا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَابِلِ** ^(١)
 قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افتقرت فرقتان إلا
 كنت في خيرهما » فقد فارقتك من بعد قصى ^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة
 الخير أم لا ، إن قلت نعم خصمت ، وإن قلت لا كفرت ، فضحك بعض
 القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرثك ^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت ^(٤)
 جبينك قبل أن تقوم من مجلسك . قال ابن عباس : ولم أباطل ؟ فالباطل
 لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل .

فقال المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا
 ماترون ، فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببغلك ، فما أعظم الخطر ،
 وما أكرم الخبر ، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمى ، فقالوا : انهض أيها
 الرجل فقد أفحمتك غير مرة ، فنهض وقال :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا لغفا وناما ^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبل على ، فما كنت لتدعني حتى أقول :
 وأيم الله لقد عرّف الأقسام أنى سابق غير مسبوق ، وابن حواري وصدّيق ،
 متبجح ^(٦) في الشرف الأنيق ، خير من طليق ^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس

[١] الأصائل جمع أصيل وهو الشئ « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » .

[٢] كان من أولاده عبد العزيز بن قصى (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصى (ومن سلالة بنو هاشم) . [٣] تحرم منه بجمرة تمتع وتحمى بدمه .

[٤] أى لذكرت لك من المساوى ما يهرق له جبينك ويندى خجلا . [٥] عفا وأغنى : نام نومة خفيفة . [٦] من تبجح به إذا افتخر وتعظم ، وأرجح أنه « متبجح » من تبجح أى تمكن والمقام والمول

[٧] يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ،

وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « ويروى أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ منى البداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهونى ، فقال له صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول

إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

رُسِغْتَ بِجُرَّتِكَ^(١) فلم تُبْقَ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنتَ سابقاً فإلى من سبقتَ ؟ وإن كنتَ فاحراً فبمن نَحَرْتَ ، وإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنتَ إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكَشْكُوتُ^(٢) في فك وبيدك ، وأما ما ذكرتَ من الطَّلِيقِ ، فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وَإِنْ كَانَ وَاللهَ لَوْفِيًّا كَرِيمًا ، غيرَ نَاقِضٍ بَيِّنَةً بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأثر عليها^(٣) ، فتعال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجبين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلافَ ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لأعلم إلا أنه فرَّ وما كَرَّ ، وحارب فما صَبَرَ ، وباع فاستمَّ ، وقطع الرَّحِمَ ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرئ الكرام وبلداً

وما كان إلا كالهجين أمامه عتاق ، فجراه العتاق فأجهدا^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبقَ يابني هاشم غيرُ المشاعة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين بن الحرث ، أقناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنتَ إلا كَالسَّفِيبِ^(٦) الظمآن ، يفتح فاه

[١] الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تعيب في التراب للظي يعطاد بها ، فيها وتر ، فإذا دخلت يده في الحباله انعقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفك فمد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير شد رسغ يديه بخيط ، والمعنى وقعت في حبالك ، وعاد ما نخرت به حجة عليك لآك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزا لدفع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت » من رصعه بالرمح إذا طعنه طعنا شديداً غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجتك ، ومعناه كالأول . [٢] الكشكوت (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفنات الحجارة .

[٣] يعرض بالزبير وقد بايع الامام ثم نكث ببعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

[٤] أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نتوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منا » . [٥] فرس هجين : إذا لم يكن عتيقا ، وفرس عتيق أى كريم والجمع عتاق ، وفي الأصل « عتاق » بالون ، وهو تصحيف . [٦] الجائم .

يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَنَب^(١) ، ولا يَرَوَى مِنْ عَطَش ، فقل إن شئت أو قدَّع ، وانصرف القوم . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سيره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أُحْدِثَ تَجَاهَ^(٢) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٢ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتةً ومُغَالَبَةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ! ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقَد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجدهم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ، فأخر الله سهمهم ، وأدحض جدَّهم ، وولى الأمر عليهم من كان أحقَّ به^(٣) منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص

[١] جوع . [٢] تجاهه ووجهه مثلين : تلقاء وجهه .

[٣] يشير إلى اختيار عمر رضى الله عنه أصحاب الشورى السنة ، وفيهم الامام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضى الله عنه بالخلافة .

على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غيرة^(١) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتيلاً ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٣ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك^(٢) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدّم لعيب عيناؤه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلماتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تيناً لتيم ، وعدياً لمدى^(٣) وأمية لأمية ، ولو كامن تيمى أو عدوى أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر ، لا خبر غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ؟ فإن يكن في أسد بن العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيت تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوباً صفيّة بعدد ، والله المستعان على ما تصفون .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٤ - خطبة عبد الله بن عباس

يرد على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بغضهم وعابهم ، وهم بما هم به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ، عاتبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ،

[١] غفلة . [٢] الرسل : الرفق والتؤدة . [٣] تيم رهط أبي بكر الصديق ، وعدى رهط عمر الفاروق .

فقال : « والله ما تركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرّاً وأكثير منه ، لكنني رأيت بني هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشرباً^(١) واحمرّت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ، ثم أضرمها عليهم ناراً ، فإني لا أقتل منهم إلا أتماً كفّاراً سحاراً ، لا أنعام الله ، ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد ابن أبي وقاص فقال : « وفقك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : « والله ما قلت صواباً ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ، والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتّهم أهل بيت من الترك مسامين ، ما سوّغته الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مغضباً ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فإعجباً كلّ العجب ، لا قترأته وتكذّبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

[١] اشرباً إليه : مد عنقه لينظر أوارتفع . [٢] في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال استفرغ فلان مجهوده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا) . [٣] الناموس : الحاذق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع على باطن أمرك . [٤] تكذّب : تكاف الكذب .

[٥] روى أبو طي القالي في أماليه قال :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، إنما تقدّم عليهم الأعاجم

وَحَمَى عِيرَاتٍ^(١) قَرِيشٍ لَهَا شِمٌّ ، وَإِنْ أَوْلَ مِنْ سَقَى بِمَكَّةَ عَذْبًا ، وَجَعَلَ بَابَ

بِالسَّلْعِ ، فَيَشْتَرُونَهَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَتْبَاعُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَبِيعُونَهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، فَكَانُوا كَذَلِكَ ، حَتَّى رَكِبَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ إِلَى الشَّامِ ، فَنَزَلَ بِقَيْصَرٍ ، فَكَانَ يَذْخُ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً ، وَيَصْنَعُ جَفْنَةَ تَرِيدٍ ، وَيَجْمَعُ مِنْ حَوْلِهِ فَيَأْكُلُونَ ، وَكَانَ هَاشِمٌ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ وَأَتَمَّهُمْ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِقَيْصَرَ ، فَقِيلَ لَهُ : هَاهُنَا رَجُلٌ مِنْ قَرِيشٍ يَهْتِمُ بِالْخَبْزِ ثُمَّ يَصُبُّ عَلَيْهِ الْمُرْقَ وَيُفْرِغُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ - وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَجْمُ تَصُبُّ الْمُرْقَ فِي الصِّحَافِ ثُمَّ تَأْتِدُمُ بِالْخَبْزِ - فَدَعَا بِهِ قَيْصَرَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَلَّمَهُ أُعْجِبَ بِهِ ، فَكَانَ يَبِيعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيُحَادِثُهُ ، فَلَمَّا رَأَى نَفْسَهُ تَمَكَّنَ عِنْدَهُ ، قَالَ لَهُ : « أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ قَوَّيْتُ تِجَارَةَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَكْتُبُ لِي كِتَابًا تُؤَمِّنُ تِجَارَتَهُمْ فَيَقْدَمُوا عَلَيْكَ بِمَا يُسْتَطْرَفُ مِنْ أَدَمِ الْحَبَاذِ وَثِيَابِهِ فَتَبَاعَ عِنْدَكُمْ فَهُوَ أَرْخَصَ عَلَيْكُمْ » فَكْتُبَ لَهُ كِتَابٌ أَمَانَ لِمَنْ يَقْدَمُ مِنْهُمْ ، فَأَقْبَلَ هَاشِمٌ بِذَلِكَ الْكِتَابِ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا مَرَّ بِحَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ بِطَرِيقِ الشَّامِ أَخَذَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ إِيْلَافًا - وَالْإِيْلَافُ أَنْ يَأْمِنُوا عِنْدَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ بِغَيْرِ حِلْفٍ ، إِنَّمَا هُوَ أَمَانُ الطَّرِيقِ - وَعَلَى أَنْ قَرِيشًا تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ بَضَائِعَ ، فَيَكْفُونَهُمْ نُحْمَلَانَهَا ، وَيُؤَدُّونَ إِلَيْهِمْ رَسْمَ أَمْوَالِهِمْ وَرَبْحَتَهُمْ ، فَأَصْلَحَ هَاشِمٌ ذَلِكَ الْإِيْلَافَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَأَتَانَهُمْ بِأَعْظَمِ شَيْءٍ أُتُوا بِهِ بِرَكَّةٍ ، فَخَرَجُوا بِتِجَارَةِ عَظِيمَةٍ ، وَخَرَجَ هَاشِمٌ مَعَهُمْ بِجَوْزِهِمْ ، يُؤَوِّفُهُمْ إِيْلَافَهُمْ الَّذِي أَخَذَ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، حَتَّى أَوْرَدَهُمُ الشَّامَ ، وَأَحْلَاهُمْ قَرَاهَا ، وَمَاتَ فِي ذَلِكَ السَّفَرِ بِغَزَّةَ ، وَخَرَجَ الْمَطْلَبُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ إِلَى الْبَيْنِ ، فَأَخَذَ مِنْ مَلُوكِهِمْ عَهْدًا لِمَنْ تَجَرَّ إِلَيْهِمْ مِنْ قَرِيشٍ ، وَأَخَذَ الْإِيْلَافَ كَفَعَلَ هَاشِمٍ ، وَكَانَ الْمَطْلَبُ أَكْبَرَ وَالدُّعَى بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ ، وَكَانَ يُسَمَّى الْفَيْضَ ، وَهَلَكَ بَرْدَمَانَ مِنَ الْبَيْنِ ، وَخَرَجَ عَبْدُ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ إِلَى الْحَبَشَةِ فَأَخَذَ إِيْلَافًا كَفَعَلَ هَاشِمٍ وَالْمَطْلَبِ ، وَهَلَكَ عَبْدُ شَمْسٍ بِمَكَّةَ فَقَدَرَهُ بِالْحَجُّونِ ، وَخَرَجَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ ، وَكَانَ أَصْغَرَ وَلَدِ أَبِيهِ ، فَأَخَذَ عَهْدًا مِنْ كَسْرَى لِتِجَارَةِ قَرِيشٍ ، وَإِيْلَافًا مِنْ مَرَّ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ ، ثُمَّ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ فَمَاتَ بِسَلْمَانَ ، وَاتَّسَعَتْ قَرِيشٌ فِي التِّجَارَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهَا ، فَبَنَوْا عَبْدَ مَنْفٍ أَعْظَمَ قَرِيشٍ عَلَى قَرِيشٍ مِئَةَ

فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ » - ذَيْلُ الْأَمْثَالِ ص ٢٠٤ .

[١] الْعِيرُ بِالْكَسْرِ الْإِبِلُ تَحْمِلُ الْمِيرَةَ : بِلَا وَاحِدٍ مِنْ لَفْظِهَا ، أَوْ كَلَّ مَا امْتَرَّ عَلَيْهِ لِإِبِلٍ كَانَتْ أَوْ حَمِيرًا أَوْ بَنَالًا وَجَعَهُ كَعْنَبَاتٍ وَيَسْكُنُ .

الكعبة ذهاباً ، لَعَبْدُ الْمُطَلَبِ (١) والله لقد نشأت ناشتتنا مع ناشئة قريش ، وَإِنْ كُنَّا لَقَالَتْهُمْ (٢) إِذَا قَالُوا ، وَخَطْبَاءَهُمْ إِذَا خَطَبُوا ، وَمَا عُدَّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قَرِيشٍ مَجْدٌ لغيرنا ، لأنها في كفر ماحقٍ ، ودين فاسقٍ ، وَضِلَّةٌ (٣) وَضَلَالَةٌ ، فِي عَشْوَاءٍ (٤) عَمِيَاءٍ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَانْتَجَبَهُ (٥) طَيِّبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَمَّبُ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبَغَى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدَنَا وَوَلَدَنَا وَعَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مِنَّا وَابْنُ عَمْنَا (٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلُحْمَتُنَا (٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ نَحَى النَّاسَ بَعْدَهُ أَوْ كَرَمَهُمْ أَدْبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَجْمًا .

واعجباً كلِّ العجب لابن الزبير ! يعيب بنى هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجده بمصاهرتهم ، أما والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كان العوام بن خويلد يطمع في صفة بنت عبد المطلب ؟ قيل للبغل : من أبوك يا بغل ؟ فقال : خالى الفرس « ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٥ - خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ،

[١] قال الطبرى : « وعبد المطلب هو الذى كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدوناً ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرم دفنهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية » ومرج القلعة محرقة موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب والباب النزالين صفاً من ذهب ، فكان أول ذهب حلته فيما قيل الكعبة « تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٩ »

[٢] القالة جمع فائل . [٣] الضلالة والضلاله ضد الهدى . [٤] أى فى جهالة وفتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهى عشواء (والعشواء أيضا الناقة التى لا تبصر أمامها ففى تحيط بيدها كل شىء ، لأنها ترفع رأسها فلا تنهد . واقع أخفافها) . [٥] انتجبه : اختاره . [٦] حتى الإمام علياً كرم الله وجهه [٧] اللحمة القرابة .

فقال : « إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ . كَمَا أَعْمَى بَصَرَهُ ، يَزْعَمُ أَنَّ مُتَعَةَ النِّسَاءِ حَلَالٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيُفِيئِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمْلَةِ ، وَقَدْ احْتَمَلَ بَيْتَ مَالِ الْبَصْرَةِ ^(١) بِالْأَمْسِ ، وَتَرَكَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا يَرْضَخُونَ ^(٢) النَّوَى ، وَكَيْفَ الْوَمُءُ فِي ذَلِكَ : وَقَدْ قَاتَلَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ يَبْدَهُ ^(٣) » .

١١٦ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعد بن جبّير مولى بني أسد بن خزيمية - وكان

[١] ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ، ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً : كدت أستعملك ، ولكن أخشى أن تستحل النوى على التأويل ، فلما صار الأمر إلى عليّ استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » ، واستعمله لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت رجلاً ، ولو كنت راعياً ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته و المشى ، فكتب أبو الأسود إلى عليّ كتاباً يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه غير علمك ، فلم يسمنى كتبك ذلك ، فانظر رحمتك الله فيما هنالك » فكتب عليّ إلى ابن عباس « أن ارفع إلىّ حسابك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلك باطل » . فكتب إليه عليّ : « إنه لا يسمنى تركك ، حتى تلمنى ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » . فلما رأى أن علياً غير مقلع عنه كتب إليه « ابث إلى عمك من أحببت ، فأني ظاعن عنه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبذرت الكتب بين عليّ وبينه ثانية ، وكانت خاتمها أن كتب إليه ابن عباس : « والله إن لم تدعى من أساطيرك لأحمله إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه عليّ ، — انظر المقدم الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ —

وقال آخرون : إن ابن عباس مافارق علياً ولا يابنه ، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل عليّ وبعد مقتل عليّ حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حيثئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة — انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ .

[٢] رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يترضخون أى يكسرون الحبز فياً كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « برضح » بهذا المعنى ، وإنما الذى جاء « وهو يرضخ لكفة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى العجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة الفحط والمافة . [٣] كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

ابن عباس قد كُفَّ بصره - استقبلَ بي وجهَ ابن الزبير وارفع من صدرى ،
فاستقبل به قائدُه وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فَحَسَرَ عن ذراعيه ، ثم قال :
« يا ابن الزبير :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا مافية نلقاها

نردُّ أولها على أخواها حتى تصير حرضا دعواها (١)

يا ابن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فتىيَ في القملة والنملة ، فإن فيها
حُكْمين لا تعلمهما أنت ولا أصحابك ، وأما تحلى المال ، فإنه كان مالا جبيناه ،
فأعطينا كلَّ ذى حق حقه ، وبقيت بقيةٌ هي دون حقنا في كتاب الله ، فأخذناها
بحقنا ، وأما المتعة فسئل أمك أسماء إذ نزلت عن بُردى عوسجةً ، وأما قتالنا أمَّ
المؤمنين ، فبنا سُمِّيت أمَّ المؤمنين ، لباك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك (٢)
إلى حجابِ مدَّة الله عليها ، فهتَكَاه عنها ، ثم اتخذها فتنةً يقاتلان دونها ، وصانا
حلائلها في بيوتها ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه
وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زحفاً ، فإن كنا كفاراً فقد
كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا
مكانُ صفيةَ فيكم ، ومكان خديجةَ فينا ، لما تركتُ لبنى أسد بن عبد العزى
عظما إلا كسرتَه .

[١] المرض : الفساد في المذهب والمقل والبدن . [٢] يبنى طلحة وهو ابن عم جده أبي بكر
الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب
ابن لؤى ، وأبو بكر هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جله
خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنْهَكَ
عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فَإِنَّهُمْ كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) » فقال :
بَلَى وَعَصَيْتُكَ ، فقالت : يا بنى احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقته الإنس والجن ،
واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأسرها ، فأياك وإياه آخر الدهر .
ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِعِكْرِمَةَ : أقم وجهى نحوه
يا عكرمة ، ثم قال :

إن يأخذ الله من عَيْنِي نورَها ففي فؤادى وعقلى منهما نور
وأما قولك يا بن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ،
وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت
وأبوك علياً ، فإن كان على مؤمناً فقد ضللتهم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد
بؤتتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبي طالب
يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته
ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

[١] كم البعير كنع شد فاه لكلا يعص أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يجعل على فمه ، والجمع كعم
ككتب ، والمعنى أنهم ذور أجوبة مسكنة مخرسة تلجم أفواه مناظرهم . [٢] بدمه بأمر كنعته :
استقبله به أو بدأه به .

[٣] جاء في المصباح المنير : « المتعة اسم التمتع ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ،
ونكاح المتعة هو المؤقت في العقد ، وقال في العباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطا على شيء إلى أجل
معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرحها ، ثم يخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تعالى
« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح
المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فما استمتعتم » فما نكحتم على الصريضة التي في قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين النكاح ، واستمتعتم بكذا وتمتت : انتفعت ،
ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج ، إذا أحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من

وأول مجمر^(١) سَطَعَ فِي الْمُتَعَةِ مَجْمَرِ آلِ الزَّيْبِرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٨٩ ، والعقد المرید ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٧ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن : قد جاء

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأناهُ اليوم ، فقال معاوية :

لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تتصف منه ، ولعلك أن تُظهر لنا من منقَبته^(٣)

ما هو خفي عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه ، وغشَّيهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه

معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من علىّ عليه السلام

جهاراً غير سائر له ، وَثَلَبَهُ ثَلَباً^(٤) قبيحاً ، فامْتَقِع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أفكَل^(٦) ،

حتى أرعدت خصائله^(٧) ، ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْقِ^(٨) ، فقال عمرو : مه

يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أمّ لك ، ثم قال :

أظنّ الحلمَ دلّ علىّ قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتعا « اه وجاء في التفاسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أناحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم ، سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيعها بما تعطى ، وجوزها ابن عباس رضى الله عنهما ثم رجع عنه .

[١] الحجر : العود ، واستحمر بالحجر : تبخر بالود . [٢] قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكراً في الإسلام ، زواجه أبو بكر معلماً ، فكيف تكون متعة النساء ؟ »

[٣] المنقبة : المفخرة . [٤] ثابه : عابه . [٥] تغير لونه . [٦] الأفكَل : الرعدة .

[٧] جمع خصيلة وهي لحم الفخذين والمضدين والذراعيين أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

[٨] الفنيق : الفعل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

« يامعاوية ختَامَ نتجرِّع غيظَكَ ، وَإِلَى كَمِ الصبرِ على مكروه قولك ،
 وسيءٌ أدبكَ ، وذميمٌ أخلاقك ، هَبِلْتَكَ الهَبُولُ ^(١) ، أما يزجرك ذِمَامُ ^(٢)
 المجالسة عن القَدْعِ ^(٣) لجليسك ، إذا لم تكن لك حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما
 لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أو اصبر ^(٤) الأرحام ، أو حاميت على سهمك من
 الإسلام ، ما أرعيتَ بنى الإِماءِ المُتَكِّ ^(٥) ، والعبيدِ السُّكِّ ^(٦) أعراضَ قومك ،
 وما يجهل موضعَ الصَّفْوَةِ ^(٧) إلا أهلُ الجفوة ، وإِنَّكَ لَتَعْرِفُ وشائِجَ ^(٨) قریش ،
 وصفوة غرائزها ، فلا يدعُونَكَ تصويبَ ما فرطَ من خطئِكَ في سفكِ دماءِ
 المسامین ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذی فيما قد وضع لك الصواب في
 خلافه ، فاقصدِ لمنهج الحق فقد طال عمهك ^(٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك في
 دَیْجُورٍ ^(١٠) ظامة الغی ، فإن أبيت أن لاتتابعنا في قبج اختيارك لنفسك ، فأغفنا
 عن سوء القالة ^(١١) فينا ، إذا ضمنا وإياك الندی ^(١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ،
 والله حسيبك ، فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن
 كلَّفْتَنِي ما لم أطق ، ساءك ما سُرِّرْتَنِي من خلق . »

[١] هبلته أمه : نكته ، والهول : المرأة لا يعيش لها ولد . [٢] الذمام : الحرمة .

[٣] قذعه وأفذه رماه بالمحش وسوء أقول . [٤] جمع آصرة وهي القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الحياء . [٥] المتك جمع متكاء (كحمراء) وهي البظراء والمفصاة والتي لاتمسك البول .
 [٦] السك جمع أسك من السك (حركة) ، وهو صفر الأذن ولزوقها بالرأس أو صغر فوف الأذن
 وضيق الصماغ . [٧] أى صفوة القوم وسادتهم .

[٨] فى الأصل « وشائك » وقد بحثت فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والوشيك السريع
 والقريب ، وامرأة وشيك أى سريعة » فلما وجدنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على البأيت » لم يستقم
 معنى العبارة ، وأراه محرفاً عن « وشائج » بالجم . جمع وشيجة وهى عرق الشجرة ، فمعنى وشائج قریش
 أصولها وعروقها « والعرق أصل كل شئ » أى وإِنَّكَ يامعاوية لتعرف أصول قریش الكريمة الزاكية
 التى تأبى الضيم ولا تحتل اللب والامامة « والوشيج أصلاً شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق
 « مشتقة من رسول الله نبعته » - والبيع شجر تتخذ منه القسي والسهم .

[٩] العمه محرقة : التردد فى السلال . [١٠] الديجور : الظلام . [١١] انقرل فى الخير والقال
 والغيل والقالة فى الشر . [١٢] النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغير الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن ، لعن الله من أخرج صبب صدرك من وِجَارِهِ^(١) ، محمول لك ماقلت ، ولك عندنا ماأملت ، فلولم يكن محتدك^(٢) ومنصبك لكان خلقتك وخلقتك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لاينازعهما فى ذلك أحد ، فقال أبا جعفر : أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا فى المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكانه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخلقه وخلقه ، وإنه لمن مشكاته^(٣) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لاخفاء به عنك . قال أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنه ازدراك واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله على دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب فيما يرى اليوم ، ونهض معاوية وتفرق الناس . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١١٨ - الحسن بن على وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن على رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع

[١] جهره . [٢] أصلك . [٣] المشكاة : الكوة التى ليست بنافذة .

[٤] أفه : وصف من الفهاة وهى المي ، وفله فه كفرح ، وقياس الوصف منه أنه على أفضل لأنه يدل على خلقه « عيب » كعور وهى وعرج ، ولكن الذى فى كتب اللغة : فه كعذب وفهيه وفهفه

الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين جابرُس إلى جابلُق (١) لم تجدوه غيرى وغير أخى : وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فساء ذلك عمراً ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد ، هل تنعت الرُطَب (٢) ؟ فقال : « أَجَلٌ تُلَقِّحُهُ الشَّمَالُ ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ ، وَيُنْضِجُهُ بَرْدُ اللَّيْلِ ، بِحَرِّ النَّهَارِ (٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعت الخِزَاءة (٤) ؟ قال : « نعم ، تُبْعِدُ المَعَشَى فِي الأَرْضِ الصَّحْصَحِ (٥) ، حَتَّى تَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ ، وَلَا تَسْتَقْبِلُ الأَقْبَلَةَ ، وَلَا تَسْتَدْبِرُهَا ، وَلَا تَسْتَنْجِ بِالرَّوْثَةِ ، وَلَا العِظَمِ ، وَلَا تَبْكُنْ فِي المَاءِ الرَّاكَدِ » وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١١٩ — الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له : الحسنُ بالباب ، فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإنى أسأله ما ليس عنده فيه جَوَابٌ ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام ، وأذن له ، فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى

[١] جابرس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه بسكون اللام ، وفي الفاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها صاحب اللسان بفتح اللام ، وفي الفاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه انسى ، وفي العقد الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لابتيها » ولابتا المدينة : حرتان تكتنمانيها .

[٢] يسأله هذا وما بعده تمجيذا له . [٣] وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » .

[٤] خرى كسمع خراءة بفتح الخاء وكسرهما : سلاح . [٥] الصحصح : ما استوى من الأرض ،

وفي العقد الفريد « للصحيح » وهو تحريف .

شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك من الخرق^(١)، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكننا معشر بني هاشم، أفواهنا عذبة شفاهها، ففساؤنا يُقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن، وأنتم معشر بني أمية فيكم بخز^(٢) شديد، ففساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصدانكم، فإنما يشيب منكم موضع العذار^(٣) من أجل ذلك. قال مروان؟ إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء. قال: وما هي؟ قال: الغلظة^(٤). قال: أجل، نزع الغلظة من نساءنا، ووضعنا في رجالنا، ونزعت الغلظة من رجالكم، ووضعنا في نساءكم، فاقام لاموية إلا هاشمي، فغضب معاوية وقال: قد كنت أخبرتم، فأيتتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتم، وأفسد عليكم مجلسكم». (العقد الفريد ٢: ١١٥)

١٢٠ - عقيل بن أبي طالب ومعاوية

وكان عقيل بن أبي طالب قد خرج إلى معاوية، مغاضباً لأخيه الإمام عليّ كرم الله وجهه^(٥)، فأكرمه معاوية، وقرّبه إليه، وقضى حوائجه، وقضى عنه دينه، ثم قال له في بعض الأيام: «والله إن عليّاً غير حافظ لك، قطع قرابتك، وما وصلك، ولا اصطنعك» قال له عقيل: «والله لقد أجزل العطية وأعظمها، ووصل القرابة وحفظها، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك، وحفظ أمانته، وأصلح رعيته، إذ ختمت وأفسدتهم وجرتهم، فاكفف لأبالك، فإنه عما تقول بمعزل».

[١] الخرق كسبب: الخلق وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور والاسم الخرق كقفل.
 [٢] البخر: التبن في النمل وغيره. [٣] العذار: جانب اللحية. [٤] الغلظة: شدة الصهوة كالشبق بالتحريك.
 [٥] وكان قد قدم عليه بالكوفة، فسأله أن يقضى عنه دينه، قال: وكم دينك؟ قال: أربعون ألفاً، قال: ما هي عندي، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدعه إليك، قال: بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بعتائك؟ قال: أنا أمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتموني عليها؟ قال: فإني أت معاوية، فأذن له فقدم عليه «انظر أسد الغابة ٣: ٤٢٣ والمحرى ص ٧٦» - اقرأ أيضاً كلمة في هذا لصدد في شرح ابن أبي الحديد م ٣: ٨٢ وفي ترجمة عليّ بن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣.

وقال له معاوية يوماً : « أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك عليّ » قال : « صدقت ، إن أخى آثرَ دينَه على دنياه ، وأنت آثرتَ دنيك على دينك ، فأنت خير لي من أخى ، وأخى خير لنفسه منك ^(١) » .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » وقال له يوماً : إن علياً قد قطعك ووصلتكَ ، ولا يُرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر . قال : أفعلُ ، فأصعدُ فصعد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعنَ عليّ بن أبي طالب ، فالعنوه ، فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين - أبا يزيد - مَنْ لعنتَ بيني وبينه . قال : والله لا زدتُ حرفاً ، ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى نية المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية ، وقد كف بصره ، فأجلسه على سريرهِ ، ثم قال له : « أنتم معشرَ بني هاشم تُصابون في أبصاركم » قال : « وأنتم معشرَ بني أمية تصابون في بصائركم » .

وقال له يوماً : ما أبينَ الشَّبَقَ في رجالكم يا بني هاشم ! قال : لكنه في نسائكم أبينُ يا بني أمية .

وقال معاوية يوماً : « ي أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنَّ أبا لهب عمه ،

[١] وفي البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي » .

[٢] هو أبو لهب بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الأيذاء له ، يرمى القدر على يابه .

فقال عقيل : « فهل سمعتم قول الله عز وجل : « وَأَمْرًا تُهَيِّئُ لِمَنْ يَكْفُرُ الْكَيْدَ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم قال : « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لهب ، مفترشاً عمك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوماً : والله إن فيكم لخصلة ما تعجبني يا بني هاشم . قال : وما هي ؟ قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال : إيانا تُعَيِّرُ يا معاوية ؟ أجل والله إن فينا لليناً من غير ضعف ، وعزاً من غير جبروت ، وأما أنتم يا بني أمية ، فإن لينكم غدر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول ؟
 إني امرؤ مني التكرُّمُ شِيمةٌ إذا صاحبي يوماً على الهون أضْمِراً
 ثم قال : « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا ممدتك مهأدها ، وأظلتك بحذافير^(٢) أهلها ، ومدت عليك أطناب سلطانها ، ما ذاك بالذي يزيدك مني رغبة ، ولا تخشعاً لرهبة » قال معاوية : « لقد نعتها أبا يزيد نعتاً هس لها قلبي ، وإني لأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما رداني برداء ملكها ، وحباني بفضيلة عيشها ، إلا الكرامة أدخرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكاً ، وإنما هو المثال يُحتذى عليه ، والأمور أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريماً ، وإلينا حبيباً ، وما أصبحت أضمر لك إساءة » .

(المقدم الفرید ٢ : ١١٠ - ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

[١] هي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل الشرك والسعدان وتلقيه في طريق النبي عليه الصلاة والسلام إيذاء له وكانت جارته ، أو هو النيمة ، إذ كانت تسمى عليه بالنائم وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل زوجها على إيذائه . [٢] الحذافير جمع حذفور أو حذفار (كصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢١ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأدخِلَ النَّسوةَ من كَرْبَلَاءَ إلى الكوفة ، جعلت نساؤها يلتدمن^(١) ، وَيَهْتِكُنَ الْجُيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ^(٢) من المرض - :
يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا، فَمَنْ قَتَلَنَا غَيْرَكُمْ ؟ وَأومأت أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَّأتِ الأجراس^(٣) ، قالت :

« أبدأ بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى أَبِيهِ^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة ، يا أهلَ الخَرِّ^(٥) وَالخَذَلِ ، لا ، فلا رَقَاتٍ^(٦) العَبْرَةَ ، ولا هَدَّأتِ الرِّئَةَ^(٧) ، إنما مَثَلَكُمْ كَمَثَلِ الَّتِي تَقْضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَائِ^(٨) ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا^(٩) يَبْنِيكُمْ ، أَلَا وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصَّلَفُ^(١٠) وَالشَّنْفُ^(١١) ، وَمَلَقُ^(١٢)

[١] لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وصربت صدرها في النياحة ، ويهتك : يمزق ، والجيوب جمع حيب : وهو طرق الفميص . [٢] كنع وعلم وصر وكرم .
[٣] الأجراس جمع حرس كشمس : وهو الصوت . [٤] تريد جدما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . [٥] الغدر والحديمة ، أو أُنْبِج الغدر . [٦] رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض .
[٧] الرنة : الصوت . [٨] أنكائاً جمع مكث كحمل وهو ما تفض ليغزل ثانية - حال من غزلها ، أو مفعول ثانٍ لقصت لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم انقرشية ، وكانت خرقاء تهزل طول يومها ثم تنقصه . [٩] الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخل من فساد في دقل أو جسم ، والغدر والمكر والحديمة . [١٠] الصاف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . [١١] الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمترض عليه ، أو كالمعجب منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتكره .
[١٢] ملق الجارية : مجامعتها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التلق .

الإماء ، ونمز الأعداء ، وهل أنتم إلا كمرعى على دمنة ^(١) ، وكفصة على ملحودة ^(٢) ، ألا ساء ما قدمت أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون ، أتبكون؟ إى والله فابكوا ، وإنكم والله أحرى بيا ^(٣) بالبكاء ، فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلا ، فلقد فزتم بعارها وسنارها ^(٤) ، ولن ترحضوها ^(٥) بغسل بعدها أبداً ، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، وسيد شبان أهل الجنة ، ومنار محجتكم ، ومدره ^(٦) حجتكم ، ومفرخ ^(٧) نازلتكم ، فتعسا ونكسا ^(٨) ، لقد خاب السعى ، وخسرت الصفقة ^(٩) ، وبؤتم ^(١٠) بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، لقد جئتم شيئا إدا ^(١١) ، تكاد السموات يتفطرن ^(١٢) منه ، وتنشق الأرض ، وتخز الجبال هذا ، أتدرون أى كبد لرسول الله فريتم ، وأى كريمة له أبرتم ، وأى دم له سفكتم ؟ لقد جئتم بها شوها خرقاء ^(١٣) ، شرها طلاع ^(١٤) الأرض والسماء ، أفعجبتكم أن قطرت السماء دما ، وأمداب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفنكم المهل ، فإنه لا تحفره المبادرة ^(١٥) ، ولا يخاف عليه فوت النار ،

[١] الدمنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرهما ، أخذت هذا القول من قول جدها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهى المرأة الحسنة فى منبت السوء .
 [٢] ملحودة : مدفونة فى لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . [٣] جديرون .
 [٤] السنار : أقبح العيب . [٥] رحضه كمنه وأرحضه : غسله . [٦] دره عن انقوم كنع إذا تكلم عنه ودفع فهر مدره . [٧] أى مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر وبضم الراء من روعك - أى اسكن وأمن ، والروع : القلب . [٨] التمس : الهلاك ، ونكسه نكسا : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بسد النقه ، ويقال : تعسا له ونكسا ، بضم النون وقد يفتح ازدواجا . [٩] البيعة . [١٠] رجعتهم . [١١] أى فظيما منكرا .
 [١٢] ينشقن ، وتخز : تسقط ، هذا : أى تهد هذا . [١٣] بيا أى بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الحرق : وهو ألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . [١٤] طلاع الشيء : ملؤه .
 [١٥] أى لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى .

كلا ، إن ربك لنا ولهم لبايرصاد^(١) « ثم ولت عنهم ، فظل الناس حيارى ، وقد ردوا أيديهم إلى أفواههم ، وقال شيخ كبير من بني جُفنيّ - وقد أخضلت^(٢) لحيته من دموع عينيه - :

كُوهلهم خير الكهول ، ونسلهم إذا عدّ ، نسل لا يبور ولا يخزى

(بلاغات النساء : ص ٢٧)

١٢٢ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد ولما وجه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طست ، فجعل ينكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو يقول من أبيات^(٣) :

ليت أشياخي بيذر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل^(٤)

لأهلوا وأستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا يزيد لا تشل^(٥)

فجزيناهم بيذر مثلها وأقمنا ميل بدر فاعتدل^(٦)

فقالت زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! « ثم كان عاقبة الذين أساءوا والشؤى أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون » أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا

[١] المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شيء . [٢] ابتلت . [٣] تمثل يزيد بهذه الأبيات وهي لعبد الله بن الزعري ، قالها في غزوة أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة . [٤] كانت العلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخرج قبيلة من الأنصار . [٥] كل من رفع صوته فقد أهل إهلالا واستهل استهلالا ، وشلت يده تشل كتمب يتعب ، وأشلت وشلت مبذين المجهول : يبست وهي جملة دطائية ، يقال في الداء : لا تشل يدك ولا تشل . - والبيت من قول يزيد - [٦] لانفس ما قدناه لك من أن عليا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان بيذر ، فقل حنظلة بن أبي سفيان أبا معاوية ، والوليد بن عتبة خله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

نَسَاقٌ كَمَا يَسَاقُ الْأُسَارَى ، أَنْ بِنَا هَوَانًا عَلَى اللَّهِ ، وَبِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةٌ ؟ وَأَنْ هَذَا
لِعَظِيمِ خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، وَنَظَرْتَ فِي عِطْفَيْكَ ^(١) ، جَذَلَانَ فَرَحًا ، حِينَ
رَأَيْتَ الدُّنْيَا مُسْتَوْسِقَةً لَكَ ^(٢) ، وَالْأُمُورَ مُتَّسِقَةً عَلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِّهَلْتَ وَنُقِسْتَ ^(٣)
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نِعْمَتِي ^(٤) لَهُمْ خَيْرٌ
لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نِعْمَتِي لَهُمْ لِيَزِدُوا إِيمَانًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » أَمِنْ الْعَدْلِ ، يَا بِنَا
الطُّلُقَاءَ تَخْدِيرُكَ ^(٥) نِسَاءً كَ وَإِمَاءً كَ ، وَسَوَقُكَ بِنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
قَدْ هَتَكَتَ سِتُورَهُنَّ ، وَأَصْحَلْتَ ^(٦) صَوْتَهُنَّ ، مَكْتَبَاتِ تَخْدِي ^(٧) بِهِنَّ الْأَبَاعِرُ ،
وَيَحْدُو ^(٨) بِهِنَّ الْأَعَادِي ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، لَا يُرَاقِبُنَّ وَلَا يُؤَوِّدُنَّ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ ^(٩)
الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ ، لَيْسَ مَعَهُنَّ وِلْيٌ ^(١٠) مِنْ رَجَالِهِنَّ ، وَكَيْفَ يُسْتَبْطَأُ فِي بَغِضَتِنَا
مَنْ نَظَرَ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ ^(١١) وَالشَّنَّانَ ، وَالْإِخْنَ وَالْأَضْغَانَ ؟ أَتَقُولُ :
« لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدَاؤًا غَيْرَ مُتَأَمِّمٍ وَلَا مُسْتَعْظِمٍ ؟ وَأَنْتَ تَنَكَّتْ ثَنَائِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
بِمِخْصَرَتِكَ ^(١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ ^(١٣) الْقَرْحَةَ ، وَاسْتَأْصَلْتَ
الشَّافَةَ ^(١٤) ، يَا هَرَاقَكَ دِمَاءَ ذَرِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَنُجُومِ الْأَرْضِ

[١] أَى جَابِيكَ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ إِجْمَاعِهِ بِنَفْسِهِ . [٢] مِنْ اسْتَوْسَقَتْ الْإِبِلُ : أَى اجْتَمَعَتْ ،
وَمُتَّسِقَةٌ : مُنْتَظِمَةٌ . [٣] أَى أَسْجَحَ لَكَ فِي أَمْرِكَ ، مِنْ نَفْسِ اللَّهِ كَرِيهَةً : فَرَّجَهَا .
[٤] نِعْمَتِي . [٥] صَوْتَهُنَّ فِي خَدُورِهِنَّ . [٦] أَبْجَحْتَهُ ، صَحَلَّ صَوْتُهُ كَفَرَحٍ : مَجَّ .
[٧] خَدِي الْبَعِيرِ وَالنَّهْرَسِ كَجَرِي : أَسْرَعَ وَزَجَّ بِقَوَائِمِهِ ، أَوْ هُوَ صَرَبٌ مِنْ سِيرِهِمَا .
[٨] يَسُوقُ . [٩] يَتَطَاوَلُ وَيَنْظُرُ لِإِبْنِهِ وَيَشْرَفُ عَلَيْهِ . [١٠] قَرِيبٌ أَوْ نَصِيرٌ .
[١١] سَبَقَ تَفْسِيرُهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « بِالشَّنْقِ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ (وَالشَّنْقُ : أَنْ تَكْفُفَ الْبَعِيرَ بِرِزَامِهِ حَتَّى
تَلْزُقَ ذَنْوَاهُ بِقَادِمَةِ الرَّحْلِ ، وَالذَّنْفَرِيُّ بِكَسْرِ الدَّالِ : الْعَظْمُ الشَّاحِسُ خَلْفَ الْأُذُنِ) ، وَالشَّنَّانُ : الْكِرَاهِيَةُ ،
وَالْإِخْنُ : الْأَحْقَادُ . [١٢] الْمِخْصَرَةُ : مَا يَأْخُذُهُ الْمَلِكُ يَشِيرُ بِهِ إِذَا خَاطَبَ . [١٣] نَكَاتُ الْقَرْحَةِ ،
كَنَحٍ : قَشَرَهَا قَبْلَ أَنْ تَبْرَأَ فَنَدِيَتْ ، كِنَايَةٌ عَنِ نَبَشِهِ حَمَّا كَادَ يَنْبَسِي مِنَ الْعِدَاوَةِ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمِيَّةٍ .
[١٤] الشَّافَةُ : قَرْحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ فَتُكْوَى فَتُذَهَبُ ، وَاسْتَأْصَلْتُ اللَّهَ شَافَتَهُ : أَذْهَبَهُ كَمَا تُذْهَبُ
تِلْكَ الْقَرْحَةُ

من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكَاً^(١) مَوْرِدَهُمْ ، وَلتودنَّ أنك عميت
وَبَكِمْتِ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فاستهلوا وأهلوا فرحاً » اللهم خذ بحقنا ، وانتقم
لنا ممن ظلمنا ، والله ما فرّيت إلا في جلدك ، ولا حَزَزْتَ إلا في لحمك ،
وسترد على رسول الله صلى الله عليه برغمك^(٢) ، وَعِثْرَتُهُ وَلُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ
الْقُدُسِ^(٣) ، يوم يجمع الله شملهم مأمومين من الشَّعْتِ^(٤) ، وهو قول الله تبارك
وتعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ » وسيعلم من بوأك^(٥) ومكّنك من رقاب المؤمنين - إذا كان الحكم
الله ، والخصم محمد صلى الله عليه ، وجوارحك شاهدة عليك ، فبئس
للظالمين بدلاً - أيكم شر مكاناً وأضعف جنداً ، مع أنى والله يا عدو الله
وابن عدوه ، أستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعتك^(٦) ، غير أن العيون عبرى^(٧) ،
والصدر حرّى ، وما يجزى ذلك أو يُعْنِي عنا ، وقد قتل الحسين عليه السلام ،
وحزب الشيطان^(٨) يقرّبنا إلى حزب السفهاء^(٩) ، ليعطوهم أموال الله على انتهاك
محارم الله ، فهذه الأيدي تنطيف^(١٠) من دماننا ، وهذه الأفواه تتحلب^(١١) من
لحومنا ، وتلك الجثث الزواكى^(١٢) ، يعتامها غسلان الفلوات ، فلئن اتخذتنا
مَعْتَمًا لَتَتَّخِذَنَّ مَعْرَمًا ، حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك ، تستصرخ^(١٣) :

[١] سريعاً . [٢] الرعم : الدل . [٣] العترة : رهط الرجل وشيرته الأذنون ، واللحمة :
القرابة ، والقدس : الطهر ، - أى فى الجنة - . [٤] التفرق . [٥] أى أهلك فى كرسى
الخلافة وهو معاوية . [٦] التفرغ : التأنيب . [٧] عين عبرى : حرت عبرتها ، والصدر حرّى :
شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . [٨] تريد عبيد الله بن زياد ورجله .
[٩] أى إلى يزيد وشيعته . [١٠] نطف الماء كنعصر وضرب : سال ، ونطف كفرح وعنى :
تلتطح ببعب . [١١] تحلب العرق : سال ، وتحلب بدنه عرقاً : سال عرقه . [١٢] الزواكى جمع
زواكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهى خيار المال ، وغسل الذئب غسلًا يجرى
جرياناً : أعنى وأسرع ، والماسل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والراد هنا معنى الجمع لا المصدر ، أى
ذؤبان الفلوات ، ولم أجد فى كتب اللغة لماسل جمعاً غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
[١٣] تستعيت .

يابن مرجانة ، وَيَسْتَصْرخ بك ، وتتعَاوَى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضلَ زَادٍ زوَدَكَ معاويةُ قَتَلَكَ ذريةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، فوالله ما اتقيتُ^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكَذِّكِيكَ ، وَأَسْعِ سَعِيكَ ، وَنَاصِبِ جُهْدِكَ^(٢) ، فوالله لا يُرْحَضُ عَنْكَ عَارٌ ما أَتَيْتَ إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة لساداتِ شَبَّانِ الجِنَانِ ، فأوجِبَ لَهُمُ الجنةَ ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجاتِ ، وأن يوجب لهم المَزِيدَ من فضله ، فإنه ولىّ قديرٌ .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٣ — رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن عليّ عند قبر أخيه الحسن ، عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصرِ الحَقِّ مَظَانَهُ^(٣) ، وَتُوَثِّرُ اللهُ عِنْدَ تَدَاخُضِ^(٤) الباطل ، فى مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الرويَّةِ ، وَتَسْتَشِفُّ^(٥) جليلِ مَعَاطِمِ الدنيا بعينٍ لها حاقِرَةٌ ، وَتُفِيضُ عليها يداً طاهرةَ الأطرافِ ، نقيَّةَ الأَسِرَّةِ^(٦) ، وَتَرْدَعُ بِادِرَّةِ غَرَبِ أعدائكِ ، بأيسرِ المِثُونَةِ عليكِ ، ولا غَرَوَ وَأَنْتِ ابنُ سُلالةِ النبوةِ ، وَرَضِيْعُ لِبَإَنِ الحِكْمَةِ ، فَإِلى رَوْحِ وَرَيْحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمِ ، أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم السَّلْوةَ وَحُسْنَ الأَسَى^(٧) عنه .

(عيون الأخبار م ٢٠ : ص ٣١٤)

[١] أى لا أخاف إلا الله . [٢] ناصبه العدو : أظهرها له .

[٣] فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراء بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

[٤] هى تفاعل من الدخض ، دحض برجله كنع : خص بها ، ودحضت رجله : زلفت ، والمعنى : عند تطاحن

الباطل ومخالفة بعضه بعضاً . [٥] استشفه : نظر ما وراءه . [٦] الأسرة جمع سرار ككتاب :

الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والوجهة . [٧] الأسى بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة بالضم والكسر أيضاً : بما يتعزى به .

١٢٤ — عبدالله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ على كَرَمِ اللهِ وجهه ، كَانَ في نفس معاوية من يوم صِفِّين على هاشم بن عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصِ المِرْقَالِ وولده عبد الله بن هاشمٍ إِحْنًا ، فَمَا اسْتَعْمَلَ معاويةُ زيادًا على العراق ، كَتَبَ إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم ابن عُتْبَةَ فشدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعث به إلى » ؛ فحمله زياد من البصرة مُقَيَّدًا مَغْلُولًا إلى دِمَشْقِ ، وقد كَانَ زيادٌ طَرَقَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صفين ^(١) :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لِمَا اعْتَلَّأُ وَأَكْثَرَ اللَّوْمِ وَمَا أَقْلَأُ ^(٢)

أَعُورٌ يَبْنِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الحَيَاةَ حَتَّى مَلَأَ ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يَقْلُ أَوْ يُفْلَأَ يَتْلَهُمُ بِنْدِي الكُؤُوبِ تَلًّا ^(٤)

لا خيرَ عندي في كريمٍ ولى

[١] وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور ، فقمت عينه يوم اليرموك بالشأم) فقال : يا هاشم ، أعورا وجننا لا خير في أعور لا يغشى البأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ . وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه . [٢] شريت النفس : أي بستها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أي ادعى ذنبا لم يفعله) ، وفاقله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتلأ أي لما رمانى عمار بالجبن .

[٣] يبنى أهله محلا أي يبنى مثل أهله أي يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبنى إمامهم والاجتماع بهم هنالك . [٤] يقل : يهزم ويغلب ، وتله صرعه أو ألقاه على عنقه وخده (وفي الأصل : أسلمهم بندي الكعوب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبري ، وابن الأثير يتلهم بالناء ، أو هر صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانزعها) ، وذو الكعوب : الرمح ، وكعوب الرمح : النواشر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو ومثملاً :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى وتبقى حزازاتُ النفوس كماهيا ^(١)
 « دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ » ^(٢) ، فاشخُبْ أودجَه ^(٣) على أسباجه ^(٤) ،
 ولا تردّه إلى أهل العِراق ، فإنه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غَدْرٍ وشقاق ، وحزبُ
 إبليسَ ليومِ هَيَّجَانِهِ ، وإن له هَوَى سيُودِيهِ ^(٥) ، ورأياً سيُطغِيهِ ^(٦) ، وَبِطَانَةٌ
 ستُقَوِيهِ ، وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .

فقال عبد الله : « يا عمرو وإن أُقْتِلَ فرجلٌ أسلمَه ^(٧) قومُه ، وأدركه يومُه ،

[١] الدمن جمع دمنة وهي ما اسود من آثار الدار بالبر والرماد وغيرها ، وقد تمثل بهذا البيت زفر بن الحارث الكلابي في قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راهط ، التي نشبت بعد موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من حالف على الأموية ودعا الى الزيرية من السحاك بن قيس الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر الكلابي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبري ، ومروج الذهب ، والعقد الفريد » .

[٢] الضبُّ : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بجزر الشمس كما تتلون الحرباء ، وقد صرب به المثل فقالوا : « أخذع من ضبِّ » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ، فيأتي الحارث (حرش الضبِّ واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليطه حية فيخرج ذنبه ليضربها بأحده ، ولكن الضبُّ شديد الحذر فإنه يعمد بذنبه على باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر ان جاءه ، فيجىء المحرش ، فإن كان الضبُّ مجربا أخرج ذنبه الى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء صربه والا بقي في جحره ، وهذا هو خدعه — يعنون به شدة حذره — وقيل إن معناه أن جحره فلما يخلو من تقرب ، لما بينها من الألفة والاستماعة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يده لدغته وأشدوا :

وأخذع من ضب اذا جاء حارث أعسد له عند الدنابة عقربا

ويقولون : « فلان خبِّ ضبِّ » (والخبُّ بالفتح ويكسر المحادع) فيشبهون الحقد الكامن في قلبه الذي يسرى صرره ، بخدع الضبِّ في جحره (ومن أمثالهم فيه أيضا) « أعتق من ضبِّ » — يريدون الأثني ، وعقوبتها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الصبة اذا باصت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية وغير ذلك ، فإذا نقت أولادها ، وخرجت من البيض ، ظنتها شيئا يريد بيضها ، فوثبت عليها تقاطها ، فلا ينجو منها إلا الشريد — وقالوا : « أعقد من ذنب الضبِّ » ذكروا أن فيه احدى وعشرين عقدة — « وأجن من ضبِّ » ، « وأبلد من ضبِّ » ، « وأحيا من ضبِّ » — أي أطول عمرا .

[٣] الأوداج جمع ودج بالتحريك : هرق في العنق ، وشخبت أوداج القتل دما من ناني قتل ونقع : جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : درّ وسان ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى .

[٤] الأسباج جمع سبجه « كفرصة » وسبجة القميص لبنة — بنيقته .

[٥] أي وان له ميلا الى آل علي سيهلكه . [٦] طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر

وأسرف في العاصي والظلم . [٧] خذله .

أفلا كان هذا منك إذ تَحِيدُ عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النَّزَالِ ، وأنت تَلُوذُ بِشَمَالِ النَّطَافِ ^(١) ، وعقائِقِ الرَّصَافِ ، ^(٢) كَأَلَمَةِ السَّوْدَاءِ ، والنَّعْجَةِ الْقَوْدَاءِ ^(٣) لَا تَدْفَعُ يَدَ لَأَمْسٍ .

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعت في لَهَازِمٍ ^(٤) شَدَقَمٍ لِلْأَقْرَانِ ذِي لِبَدٍ ، ولا أَحْسَبُكَ مُنْقَلِتًا مِنْ مَخَالِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

فقال عبدالله : « أما والله يابن العاص ، إنك لَبَطِرٌ فِي الرَّخَاءِ ، جبان عند اللقاء ، غَشُومٌ ^(٥) إِذَا وَلِيْتَ ، هَيَّابٌ إِذَا لَقَيْتَ ، تَهْدِيرٌ ^(٦) ، كما يَهْدِرُ الْعَوْذُ الْمَنْكُوسُ ، الْمُقَيَّدُ بَيْنَ مَجْرَى السَّوْلِ ، لا يُسْتَعْجَلُ فِي الْمُدَّةِ ، ولا يُرْتَجَى فِي الشَّدَّةِ ، أفلا كَانَ هَذَا مِنْكَ ، إِذْ غَمَرَكَ أَقْوَامٌ لَمْ يُعْنَفُوا صَغَارًا ، ولم يُعَزَّقُوا كِبَارًا . لهم أَيْدٍ شِدَادٌ ، وَالسِّنَّةُ حِدَادٌ ، يَدْعَمُونَ الْعَوْجَ ^(٧) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ ^(٨) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُونَ الْغَلِيلَ ، وَيُعَزُّونَ الذَّلِيلَ » ؟

-
- [١] الطاف جمع نطفة (كمرصة) وهي الماء الصافي ، قل أو أكثر ، وفي الحديث « قطعنا اليوم هذه النطفة » أي البحر وماءه ، وفي حديث عليّ : « وليهلها عند النطاف والأعشاب » يعني الابل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدعها لترد وترعى .
- [٢] الرصفة بالتحريك : الحجارة التي يرصف بعضها إلى بعض في مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائِقُ : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه حقيق ، والجمع أعقة وعقائِقُ ، وقيل العقائِقُ هي الرمال الحمر . [٣] مؤنث الأنود وهو اللؤلؤ المتقاد .
- [٤] جمع لَهْمٌ كجَمْرٍ وهو القاطع من الأسنه ، والشدقم الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أي أسد متلع للأقران ، واللبد جمع لبدة بالكسر ، ولبدة الأسد ما تلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبدة » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران .
- [٥] ظلوم ، عشمه كضربه غشما ظلمه . [٦] هدر البعير وهدير بالتشديد صوت ، وفي المنل « كلمهدر في العنة » والعنة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة ، يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس في الحظيرة ممنوعا من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسن من الابل ، والمنكوس الذي طوده المرض بعدالته ، والشول جمع سائلة ، وهي من الابل ما آتى عليها من حملها أو وضها سبعة أشهر نجف لبنها .
- [٧] الموج بالفتح في كل ما كان منتصبيا مثل الانسان والعصا والعود وشبهه ، والموج بالكسر ما كان في بساط أو أرض أو معاش أودين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعوه (كمنه) مال فأقلمه .
- [٨] حرج صدره كفرح حرجا ضاق .

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق^(١) أحشاؤه ، وتبُق^(٢) أمعاؤه ، وتضطرب أصلاؤه^(٣) ، كأنما انطبق عليه ضمُد^(٤) »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلونناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذُوباً غادراً ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجندٍ لا يسأمونك ، ولورمت المنطق في غير أهل الشام ، لَجَحَظ^(٥) إليه عَقْلُكَ ، وتلجلج لسانك ، ولاضطرب نَحْدَاكَ اضطراب القعود^(٦) الذي أثقله حمله » .

فقال معاوية : « إيهياً^(٧) عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :
 أَمْرُهُ تَكَّ أَمْرًا حَازِمًا فَعَصَيْتَنِي وَكَانَ مِنَ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابْنِ هَاشِمٍ
 أليس أبوه (يا معاوية) الذي أعان علياً يوم حَزِّ الغَلَّاصِمِ^(٨)
 فلم يَنْتَنِي حَتَّى جَرَّتْ مِنْ دِمَائِنَا بِصِفِّينَ أَمْثَالُ البَحُورِ الخَضَارِمِ^(٩)
 وهذا ابنه ، والمره يُشْبِهُ سِنَخَهُ وَيُوشِكُ أَنْ تَقْرَعَ بِهِ سِنَّ نَادِمِ^(١٠)
 فقال عبد الله يجيبه :

مُعَاوِيَ : إِنَّ المَرَّةَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ ضَغِينَةُ صَدْرٍ غِشْمًا غَيْرُ نَائِمِ

[١] تضطرب . [٢] تخرج ، بق البت بقوقا : طلع . [٣] جمع صلا بالفتح وهو وسط الظهر من الانسان ومن كل ذى أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . [٤] ضمد جرحه : شده بالضاد والضادة (بالكسر) أى العصابة ، والجمع ضمد ككتب .
 [٥] من جحطت العين جحوظا إذا برزت مقلتها ، والمراد اضطرب عقلاك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير .
 [٦] القعود من الإبل الذى يقتمده الراعى فى كل حاجة . [٧] أمر بالسكوت .
 [٨] الغلاصم جمع غاصمة بفتح الغين والصاد ، ومع رأس الخلقوم — الموضع الذى فى الحاق — أو أصل اللسان . [٩] الخضارم جمع خضرم بكسر الحاء والراء : البحر العظيم . واثبات الياء فى يئى مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصيل محذوف للجازم .
 [١٠] قرع فلان سنه : حرته ندما (حرق نايه — كنصر وضرب — سحقه حتى سمع له صريف) وسكن الفعل للضرورة ، والسرخ الأصل من كل شىء ، (وفى الأصل شيخه وهو تصحيف)

يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَا بَنَ هِنْدِ) وَإِنَّمَا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً^(١)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَلَيْسَ الَّذِي مَضَى
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَن ذِي قَرَابَةٍ
فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :

أَرَى الْعَفْوَةَ عَن عَلِيًّا قَرِيشٍ وَسَيْلَةَ^(٢)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنَ هَاشِمٍ
بَلِ الْعَفْوَةَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةً
إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَاطِرِ^(٣)
بِإِدْرَاكِ تَأْرِي فِي لُؤَيٍّ وَعَامِرِ^(٤)
وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاثِرِ
عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرِ^(٥)
١٢٥ — عَبْدُ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ فِي مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يُخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ » ؟ فقال عبد الله : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَمَّا الْجُودُ : فَابْتِذَالُ الْمَالِ ، وَالْعَطِيَّةُ قَبْلَ السُّؤَالِ ؛ وَأَمَّا النَّجْدَةُ : فَالْجَرَاءَةُ عَلَى

[١] نمر القوم كعب حاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونمر الرجل خالف ، وفي الأصل « نقرة » وهو تصحيف . [٢] قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاحتلاطها .

[٣] كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مارك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب .

[٤] يوم عصيب : شديد ، ويوم قاطر وقطير شديد أيضا . [٥] العداة جمع طاد وهو العدو ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن للنبي عليه الصلاة والسلام) وطامر هو ،

طامر بن لؤي . [٦] النهابر : الممالك جمع نهبرة بضم النون والباء ، وكذا النهابير جمع نهبرة .

الإقدام ، والصبر عند ازورار الأقدام^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ،
والإصلاح للحال ، والمحاماة عن الجار» . (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليٍّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٦ - مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، بيمَ تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ،
كثيراً مع عليٍّ ، ولقد فلأنتم حدّى يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تلطّى^(٢) في
أسننتكم ، وهجوتوني في أسلافي بأشدّ من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله منا
ما حاولتم ميّله ، قنم ارنع فينا وصية رسول الله^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيهات
يأبى الحقيير الغدرة » .

١٢٧ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نمت
به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك . وأما هجاؤنا
إياك فقولٌ يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كرهه كان منا .
وأما فلأنا حدّك يوم صفين ، فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعةً ، وأما وصية
رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا بى الحقيير

[١] أى عند انحرافها وترزلهما . [٢] تلطّى أى تتهب . [٣] وقد وصى عليه الصلاة والسلام
بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

الغدرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية .

فقال معاوية يمّوه : « ارفعوا حوائجكم » .

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٢٨ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودي في مروج الذهب قال :

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء اليشكري .

ورجالاً من أصحاب علي ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال :

« نشدتكم بالله إلا ما قاتم حقاً وصدقا ، أى الخلفاء رأيتموني » ؟ فقال ابن

الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله في

قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة ^(١) ،

قريب الثرى بعيد المرعى ^(٢) ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات » . فقال

معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام ، الذابئين عن بيضته ، التاركين

لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ما حرم

الله ، والمحرمين ما أحل الله » . فقال عبد الله بن الكواء : « يابن أبي سفيان ،

إن لكل كلام جواباً ، ونحن نخاف جبروتك ، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذبينا

عن أهل العراق ، بألسنة حداد ، لا يأخذها في الله لومة لائم ، وإلا فإننا صابرون

حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه » . قال : « والله لا يطلق لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبي سفيان فأبلغت ، ولم تقصّر

[١] أى لأنك ذو حظ وافر في الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

[٢] قريب الثرى : قريب الحول في الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى كناية عن أنه بعيد

الأمل ، والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمان ، مع يمينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أننى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قهراً ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك فى يوم بدر مَضْرَبٌ ولا مَرَمَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لا حُلَى ولا سِيرَى » ، ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ^(٣) ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق بن طليق ^(٤) ، أطلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأئن تصلح الخلافة لطليق ؟ ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قَابِلَتْ جَهْلَهُمْ حَامًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبٌ مِنَ الْكِرَامِ
لَقَتَلْتُمْ . (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٢٩ — صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له : « يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرنى عن أهل البصرة ، وإياك والجل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة ^(٥) العرب ، ومُنْتَهَى الشرف

[١] دانه : ملكه وأذله واستعمده . [٢] أى مالك ضرب ولا رمى .
[٣] العير الابل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عير قريش التي كان يقودها أبو سفيان بن حرب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين الصرافها من الشام — فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أنى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان بهت إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترحم ، ورحمت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل منصورين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يا بنى زهرة لا فى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترحم ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبي وأظفره الله بهم ، والنفير القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .
[٤] الطلقاء هم الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .
[٥] هو على التشبيه بواسطة النقد وهى الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه .

والسُودَدَ ، وهم أهل الحِطَطَ^(١) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات^(٢) العرب كدَوْران الرّحى على قُطْبها ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبّة الإسلام ، وَذُرْوَة الكلام ، وَمَصَانُ ذوى الأعلام - إلا أن بها أجلافاً^(٣) تمنع ذوى الأمرِ الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة - وتلك أخلاق ذوى الهيئَة والقناعة » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أسرعُ الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غناءً^(٤) فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكاً بعُرْوَة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلعون الفسقة الفُجّار » فقال معاوية : مَنْ البررة والفسقة ؟ فقال : « يابن أبي سُفيان ، ترك الخِداع ، مَنْ كَشَفَ القناع ، على أصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك » . ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القُبّة الحمراء في ديار مَضَرَ^(٥) ، قال : « أسدٌ مَضَرَ بسلاءً بين غيلين^(٦) ، إذا

[١] الحطط جمع خطة بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن يزلها نارل قبل ذلك ، ومنه خطط الكوفة والبصرة ، وقد خطها لنفسه واختطها وهو أن يلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها .
 [٢] السرو بالفتح : الروعة في شرف ، سرو فهو سرى وجمعه أسرياء وسرواء كفضلاء والسراة بالفتح اسم جمع وجمعه سروات . [٣] جمع جلف بالكسر وهو الرجل الجاني . [٤] غناء : كفاية [٥] ذكروا أن نزار بن ممد لما حضرته الوفاة جمع بينه : مضر ، وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يابني ، هذه القبة الحمراء - وكانت من آدم - وهذا الفرس الأدم والحباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شطاء - لإياد ، وهذه البدرة (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقنسمون ، فأتوا الأدهى الجرهمي ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا في ميراثه ، فاختصموا إلى الأدهى الجرهمي ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوم فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدناير والابل الجر ، فسمى مضر الحمراء لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدم والحباء الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الحيسل الدم ، فقبل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم الشطاء فهو لإياد ، فصار له المشاية البلق من الحبايق والنقد (الحلبق : بفتح الحاء والياء وتشديد اللام : غنم صفار لا تكبر ، أو قصار اللز ودمامها ، والنقد كسبب : جنس من الغنم قبيل الشكل) فسمى إياد الشطاء ، ونفى لأنمار بالدراهم وبما فضل ، فسمى أنمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠ .
 [٦] بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع والغيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير اللثف والأجمة .

أَرْسَلْتَهَا افْتَرَسَتْ، وَإِذَا تَرَكْتَهَا احْتَرَسَتْ. فقال معاوية: « هنالك يابن صوحان، العز الراسي، فهل في قومك مثل هذا؟ » قال: « هذا لأهله دونك يابن أبي سفيان، ومن أحب قوماً حُشِرَ معهم » قال: فأخبرني عن ديار ربيعة، ولا يَسْتَخْفِنُكَ الْجَهْلُ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك^(١)، قال: « والله ما أنا عنهم براص، ولكني أقول فيهم وعليهم، هم والله أعلام الليل، وأذئاب في الدين والميل، لن تُغْلَبَ رايتهَا إِذَا زُشِحَتْ، خوارج الدين، برازخ اليقين، من نصره فَلَجَ^(٢)، ومن خذلوه زَلَجَ^(٣) ». قال: فأخبرني عن مضر، قال: « كِنَانَةٌ^(٤) العرب، وَمَعْدِنُ الْعَزِّ وَالْحَسْبِ، يقذف البحر بها آذِيَهُ^(٥)، وَالْبَرْهُ رَدِيَهُ^(٦)، ثم أمسك معاوية، فقال له صعصعة: سَلْ يَا مَعَاوِيَةَ، وَإِلَّا أَخْبَرْتُكَ بِمَا تَحْمِيدُ عَنْهُ، قال: وما ذلك يابن صوحان؟ قال: « أهل الشام »، قال: « فأخبرني عنهم »، قال: « أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم للخالق، عُصَاة الْجَبَّارِ، وَخَلِيفَةُ^(٦) الْأَشْرَارِ، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار ». فقال معاوية: « والله يابن صوحان، إنك لحامل مُدَّتِكَ مِنْذُ أَرْمَانَ^(٧) » إلا أن حلم ابن أبي سفيان يردُّ عنك، فقال صعصعة: « بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كَانَ قَدَرًا مَقْدُورًا ».

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٠ — صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروي المسعودي في مروج الذهب أيضاً، قال:

« عن مصقلة بن هبيرة الشيباني قال: سمعت صعصعة بن صوحان وقد

[١] وكان صعصعة من بني عبد القيس بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .
 [٢] فلج على خصمه: ظفر وفاز . [٣] زلق وزل . [٤] الكنانة في الأصل: جمعة السهام
 [٥] الأذى: الموج . [٦] الخلفة في الأصل: ما عاق خلف الراكب، والمراد بها هنا أتباع .
 [٧] كناية عن مجاهرته بالعداوة .

سأله ابن عباس : ما السُّودَدُ (١) فيكم ؟ فقال : « إطعامُ الطعام ، ولينُ الكلام ، وَبَذْلُ النَّوَالِ ، وكفُّ المرءِ نَفْسَهُ عن السؤال ، والتودُّدُ للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شرعاً (٢) » . قال : فما المُرُوءَةُ ؟ قال : « أَخْوَانُ اجْتَمَعَا ، فَإِنْ لَقِيََا قَهْرًا (٣) ، (وإن كان) حَارِسُهُمَا قَلِيلٌ ، وصاحبهما جليل ، محتاجان (٤) إلى صيانة ، مع نزاهةٍ وديانةٍ » . قال : فهل تحفظُ في ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ قولَ مُرَّةَ بِنِ ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ حيث يقول :

إِن السِّيَادَةَ وَالْمُرُوءَةَ عُمَلَقَا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ كِ الْأَعْرَلِ (٥)

وَإِذَا تَقَابَلَ مُجْرِيَانِ لِنَايَةِ عَثَرَ الْمُهْجِينِ وَأَسَامَتَهُ الْأَرْجُلِ (٦)

وَيَجِي الصَّرِيحُ مَعَ الْعِتَاقِ مُعَوِّدَا قَرَبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجِيهِ الْأَفْكَلُ (٧)

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباطاً (٨) إبله ، مُشَرِّقًا وَمُغْرَبًا لِفَائِدَةِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ مَا عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يا ابن صُوحَانَ لَعَلَى عِلْمٍ وَحَلْمٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مَا قَدِ عَفَا (٩) مِنْ أَخْبَارِ الْعَرَبِ ، فَمَنْ الْحَلِيمُ فِيكُمْ ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُمِّيَ إِلَيْهِ بِحَقِّ أَوْ بَاطِلٍ ، فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بَنَ عَبَّاسِ » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا

[١] السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال مهموزاً والسيادة والسرد .

[٢] شرعاً بسكون الراء وفتحها أى سواء . [٣] أى أيهما قوتان عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب وقوله « وإن كان » أى وإن كان ما القيا عظيمًا ، ولله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . [٤] فى الأصل « لحاحان » وهو تحريف . [٥] السما كان الأعرل والرامح : نجبان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعرل الذى لا سلاح له . كما كان مع الرامح . [٦] فرس هجين إذا لم يكن عتيقاً كريماً ، وأسامة : خذلته . [٧] لم يعمه الأفكل أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيباً من عيوب القافية وهو الإقواء ، لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، وشمر بن أبى خازم » . [٨] آباط جمع إبط كمل . إبل : باطن المنكب . [٩] درس واحي .

قليلًا ، وإنما وصفت لك أقوامًا ، لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لله مُرِيدِينَ ، يُنِيلُونَ ولا يَنَالُونَ ، فأما الآخَرُونَ فإِنَّهُمْ سَبَقَ جَهْلُهُمْ حَامَهُمْ ، ولا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا ظَفِرَ بِبُعَيْتِهِ) حِينَ الْحَفِيظَةِ ^(١) مَنْ كَانَ ، بعد أن يُدْرِكُ زَعْمَهُ ، وَيَقْضَى بُعَيْتُهُ ، وَلَوْ وَتَرَهُ أَبُوهُ لَقَتَلَ أَبَاهُ ، وَأَخُوهُ لَقَتَلَ أَخَاهُ ، أما سمعت إلى قول رِيَّانَ ابنِ عَمْرٍو بنِ رِيَّانَ ، وَذَلِكَ أَنَّ عَمْرًا أَبَاهُ قَتَلَهُ مَالِكُ بْنُ كَوْمَةَ ، فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِكًا ، فَأَنَاهُ فِي مَائِي فَارِسٍ صَبَّاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، - وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ - وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوِرَهُمْ ، فَقِيلَ لِرِيَّانَ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتَ صَاحِبَنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمِّي تَقَفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَلَقٌ صَبِيبٌ ^(٢)
 وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةً أُخْتُ عَمْرٍو بِهَذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبٌ
 شَهَرَتْ السَّيْفَ فِي الْأَدْنَيْنِ مِنِّي وَلَمْ تَعْطِفْ أَوْاصِرِنَا قُلُوبٌ ^(٣)

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَمَنْ الْفَارِسُ فِيمَكُم ؟ حُدِّ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا يَا بَنَ صَوْحَانَ ، قَالَ : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَمَ ^(٤) عَلَى أَمَلِهِ بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ ^(٥) الْحُرُوبُ ، وَاشْتَدَّتْ بِالْأَنْفُسِ الْكُرُوبُ ، وَتَدَاعَوْا لِلنَّزَالِ ، وَتَرَاخَفُوا لِلْقِتَالِ ، وَتَخَالَسُوا الْمُهْجَ ^(٦) ، وَاقْتَحَمُوا بِالسِّيُوفِ اللَّجَجَ » ، قَالَ :

[١] الجمية والنصب . [٢] نفيه كسعه : صادفه ، والعلق : الدم أو الشديد الجرة ، وصيب : أى مصوب . [٣] أو اصرج أصرة وهي القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الحباء . [٤] ضغفه كنع عضه . [٥] وقدت النار (كوعد) توقدت . [٦] المهج جمع مهجة وهي الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاسها واستلابها .

أحسنت والله يا بن صوحان ، إنك لسليلُ أقوامٍ كرامٍ ، خُطباءُ فُصحاءٍ ، ماورِثت
 هذا عن كلالَة^(١) ، زدني ، قال : « نعم ، الفارس كثير الحذر ، مُدير النَّظَرِ ،
 يلتفت بقلبه ، ولا يدير خَرَزَاتِ صُلْبِهِ^(٢) » . قال : أحسنت والله يا بن صوحان
 الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر؟ قال : نعم ، لزهير بن جناب
 الكلابي^(٣) يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فَارِسٌ تُكَلَّلُ الصِّحَابَةُ مِنْهُ بِمُحْسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ^(٤)
 لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعْغَى فِي مَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ لَأ. وَلَا فِي مَضِيقٍ
 مَنْ يَرَاهُ يَخْلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضَلُّ الطَّرِيقِ^(٥)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يا بن صوحان ؟ صِفْهُمَا لِأَعْرِفَ
 وَرِثَتِكُمْ ، قال : أما زيد فكا قال أخو غنّى^(٦) .

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِوَجْهِهِ (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ^(٧)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا فَلَمْ يَنْطَقُوا الْعَوْرَاءَ وَهُوَ قَرِيبٌ^(٨)

[١] تقول العرب : لم يرثه كلالَة أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحماق ، قال الفرزدق :

ورثتم قناة الملك عسير كلالَة عن ابني مناف عدد شمس وهاشم

والكلالَة ما لم يكن من النسب لحا ، وبنو العم الأبعاد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالي كثير ويرثي كلالَة
 متراخ نسبه ، كل وارث ليس بوالد للبيت ولا ولده فهو كلالَة موروثه . [٢] أى فقرات ظهره .

[٣] شاعر جاهلي وهو أحد المعمرين . [٤] كلالَة : حفظه وحرسه .

[٥] الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأنباء تنمى »
 ومثل : « كأن لم ترى قلى أسيرا يمانيا » . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن لإثبات حرف العلة
 مع الجازم لمة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصلي محذوف للجازم ، وعندى أنه
 ربما كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت .

[٦] هو كعب بن سعد الغنوي (شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها
 أخاه أبا المغوار وأرلها :

تقول سليبي ما لجسمك شاحبا كأنك يحميك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٩) .

[٧] خلات جمع حلة بالفتح وهي الحصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعن شعوبا : تغير من هزال
 أو جوع أو سفر . [٨] العوراء : الكلمة القبيحة .

حَلِيفُ النَّدَى، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ (١)
يَبِيْتُ النَّدَى (يَا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيعَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمُنْقِيَّاتِ حَلُوبٌ (٢)
كَأَنَّ يُيُوتَ الْحَى (مَا لَمْ يَكُنْ بِهَا) بَسَابِسُ مَا يُبْلَفَى بِهِنَ غَرِيبٌ (٣)

في آيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة (٤) ، شريف الأخوة ، جليل
الخطر ، بعيد الأثر ، كميث (٥) العروءة ، أليف الندوة (٦) ، سليم جوانح الصدر ،
قليل وساوس الدهر ، ذا كرام الله طرفي النهار وزلفاً (٧) من الليل ، الجوع والشبع
عنده سيان ، لا ينافس في الدنيا ، وأقل أصحابه من ينافس فيها ، يطيل
السكوت ، ويحفظ الكلام ، وإن نطق نطق بعقام (٨) ، يهزب منه الدثار (٩)
الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار . قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل
الجنة ، رحم الله زيداً ، فأين كان عبد الله منه ؟ » ، قال : « كان عبد الله سيداً
شجاعاً ، مؤلفاً (١٠) مطاعاً ، خيرُهُ وساع (١١) ، وشره دُفاع ، قلبِي النَّحِيْزَةَ (١٢) ،
أَحْوَذِي (١٣) الغريزة ، لَا يُنْهَنِيهِ (١٤) مُنْهَنِيهِ عَمَّا أَرَادَهُ ، وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا

[١] الندى : الجود . [٢] المنقيات : دوات البق (بالكسر) وهو الشحم ، ناقة منقية أي
سمينة . [٣] بسابس جمع بسبس كجعفر وهو القفر الحالى (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف) .
[٤] مسهل عن المروءة . [٥] يقال رجل كميث الازار : أي مشر جاد ، ورجل كميث : عزوم
ماض سريع في أموره . [٦] الندوة والنادى والمتدى والندى : مجلس الموم ومتحدثهم ، وفي
الأصل « البدوة » وأراء مصحفاً ، أو هو فعلة من البدو وهو الظهور ، أي ذو مظهر حسن يؤلف
ولا يبعج . [٧] جمع زلفة بالضم وهي الطائفة من الليل . [٨] داء عقام : لا يبرأ ، أي نطق
بقوارص من الكلام جارحة مؤلمة لادواء لها . [٩] جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما
وهي الحبث والنسق . [١٠] ألفتة وآلفتة : أسست به فهو مألوف ومؤلف .
[١١] على التشبيه بالفرس الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ،
والشيء العظيم يدفع به مثله « وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه » . [١٢] القلب محض كل شيء ،
والنحيزة الطبيعة ، أي خالص الطبيعة صانها . [١٣] الأحوذى : الحقيف الحاذق والشمر للأمور
القاهر لها لا يشذ عليه شيء . [١٤] نهنيه كفه وزجره .

عَتَادَهُ ^(١) ، سِمَامٌ عِدَاءً ^(٢) ، وَبَازِلٌ قَرِيٌّ ^(٣) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ، جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٤) ،
أَخُو إِخْوَانَ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبُرْجُمِيُّ عَامِرُ بْنُ سَنَانَ :

سِمَامٌ عِدَاءً ، بِالنَّبْلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرُّمُوحِ الرَّذَائِيَّ يَشْعَبُ ^(٥)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مَعُوْدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ

في أبيات ، فقال له ابن عباس : أنت يابن صوحان باقر ^(٦) علم العرب .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣١ - صعصعة بن صوحان ورجل من بني فزارة

ووقف رجل من بني فزارة على صعصعة ، فأسمعه كلاماً (منه) :

«بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَتَهَيَّبُوكَ ، أَمَا لَنْ شَدْتُ لِأَكُونَنَّ

لَكَ لِصَاقًا ^(٧) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ ^(٨) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(٩) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ،

بِعَضْبٍ قَوِيٍّ ، وَلِسَانٍ عَلِيٍّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ

صَعْصَعَةُ : « لَوْ أَجِدُ غَرَضًا ^(١٠) مِنْكَ لَرَمَيْتُ ، بَلْ أَرَى شَبَجًا ، وَلَا إِخَالَ مِثَالًا

إِلَّا كَسْرَابٍ ^(١١) بَقِيْعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظُّمَّانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ،

[١] العتاد : العدة . [٢] سمَامٌ جمع سم مثلث السين ، والعدا بالكسر والضم اسم جمع عدو أى هو

للأعداء سم قاتل . [٣] قرى الصيف (كرمى) قرى : أصابه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .

[٤] رفته (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من

أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا العطية . [٥] الردينى نسبة إلى ردينة امرأة سمير ،

وكانا يقومان الرماح بخط حجر ، ويشعب : أى يبرق ويصدع . [٦] أصل البقر : الفتح والشق

والتوسعة ، وكان يقال ل محمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر : لأنه بقى العلم

وعرف أصله واستنبط فرعه .

[٧] اللصاق : ما يلصق به ، والمعنى لأكونن لك ملاصقا ملازما . [٨] جدت الشيء من باب ردت :

قطعه . [٩] أذرب : أهدت من ذرب كفرح صار حديدا ماضيا ، والظبة : حده السيف .

[١٠] الغرض الهدف . [١١] السراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع فاع وهو أرض

سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع

أَمَا لَوْ كُنْتَ كُفْتًا لَرَمَيْتُ حَصَائِكَ (١) بِأَذْرَبَ مِنْ ذَاقِ (٢) السَّنَانِ ، وَلرَشَقْتُكَ
بِنِبَالٍ ، تَرَدُّعُكَ عَنِ النَّضَالِ ، وَخَطَمْتُكَ بِخِطَامِ (٣) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ (٤) .
فَاتَّصَلَ الْكَلَامُ بِابْنِ عَبَّاسٍ ، فَاسْتَضْحَكَ (٥) مِنْ الْفَزَارِيِّ ، وَقَالَ : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ
أَخُو فَزَارَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ جَبَلِ شَمَامٍ (٦) إِلَى الْمَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلَهُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ
وَقُوَاهِ الْمَرِيَّةَ (٧) ! ثُمَّ تَمَثَّلَ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمَّمِ إِنْ الشَّقَاءُ عَلَى الْأَشْقَيْنِ مَصْنُوبٌ (٨)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٢ - رَجُلٌ مِنْ آلِ صُوحَانَ يَجِبُهُ (٩) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَهُوَ يَخْطُبُ

وَخَطَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْعِلَظَةَ ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ آلِ

صُوحَانَ ، فَقَالَ : « مَهْلًا مَهْلًا يَا بَنِي مَرْوَانَ ، تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْتِمُرُونَ ، وَتَنْهَوْنَ وَلَا

تُنْهَوْنَ ، وَتَمْعُظُونَ وَلَا تَتَمْعُظُونَ ، أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَتِكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَمْ نَطِيعُ أَمْرِكُمْ

بِالسَّنَتِكُمْ ؟ فَإِنْ قَتَمْتُمْ اقْتَدُوا بِسِيرَتِنَا ، فَأَنْتِي وَكَيْفَ ؟ وَمَا الْحِجَةُ ؟ وَمَا الْمَصِيرُ مِنْ

اللَّهِ ؟ أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَةِ الظَّلَمَةِ الْفُسَّاقَةِ ، الْجَوْرَةِ الْخَوْنَةِ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَالَ اللَّهِ

[١] الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا ، والاسم الحصيلة ، قال لبيد :

وكل امرئٌ يوماً سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : لرميت ما حصلته من العلم والمعرفة . [٢] ذاق السنان والاسان كفتح : ذرب فهو ذلق

وأذلق ، وذاق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . [٣] الخطام كل ما وضع في أنف البعير

ليقتاد به ، وخطمه بالخطام جهله على أنفه ، أو جرت أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه

حتى لا يبس . [٤] خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمام ما يزم به .

[٥] استضحك الرجل وتضاحك بمعنى . [٦] جبل بالعالية . [٧] أى القوية ، يقال رجل

مريز أى قوى ذو مرة « والمرة بالكسر القوة » . [٨] الأمم : القرب .

[٩] جبهه كقطعه لقيه بما يكره .

دُولًا^(١)، وعبيده خَوْلًا^(٢)؟ وإن قلتُم اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره مَنْ يَغُشُّ نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتُم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العِظَةَ ممن سمعتموها، فعلام وليناكم أمرنا، وحكمتناكم في دماننا وأموالنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات، وأفصح بالعظات؟ فتخلّوا عنها^(٣)، وأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يَنْتَدِب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين شرّدتموهم في البلاد، ومزقتموهم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لانقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة، إن لكل قائم قدرًا لا يعدوه، ويومًا لا يخطوه، وكتابًا بعده يتلوه: «لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». ثم التمس الرجل فلم يوجد. (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٣ - وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: «مَيِّزْ لِي أَصْحَابَ عَلِيٍّ، وابدأ بآل صوحان، فإنهم مخاريقُ الكلام^(٥)». قال: «أما صَعَصَعَةٌ فعظيم الشأن، عَضْبُ اللسان^(٦)، قَائِدُ فُرْسَانٍ، قَاتِلُ أَقْرَانٍ، يَرْتُقُ^(٧) مَا فُتِقَ، وَيَفْتُقُ مَا رُمِتِقَ، قليل النظير. وأما زيد وعبد الله، فإنهما

[١] جمع دولة بالضم، أي جعلوه متداولًا بينهم.

[٢] الحول ما أعطاك الله تعالى من النعم (محرّكة) والعبيد والاماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى، ويقال للواحد خائل. [٣] أي عن الحلاوة. [٤] انتدب إليه: أسرع.

[٥] مخاريق جمع مخراق بالكسر وهو السيف، والسيد، والمنصرف في الأمور الذي لا يقع في أمر إلا خرج منه (والثور البري يسمى مخراقًا لأن الكلاب تطلبه فيقتل منها، وفلان مخراق حرب أي صاحب حروب يخف فيها). [٦] العضب: القاطع. [٧] الرنق ضد الفتق.

هران جاريان ، يصب فيهما الخُلجان^(١) ، وَيُنْكَثُ بهما البُلدان ، رجلا جِدِّ
لَا لَعِبَ معه ، وأما بنو صُوحان فكما قال الشاعر :

إِذَا نَزَلَ الْعَدُوَّ فَإِنِ عِنْدِي أَسُودًا تَمُخِّسُ الْأَسَدَ النَّفُوسَا^(٢)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٤ — وصية محمد الباقر^(٣) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر ، محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ،

على عمر بن عبد العزيز رضی الله عنه ، فقال : يا أبا جعفر ، أوصني ، قال :

« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين وُلْدًا ، وأوسطهم أَخًا ، وكبيرهم أَبًا ،

فَارْحَمْ وَلَدَكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبَّهُ^(٤) .

(الأمال ٢ : ٣١٢)



[١] الخليج نهر في شق من النهر الأعظم . [٢] خلس الشيء كضرب خلسا استلبه .

[٣] توفي سنة ١١٣ هـ . [٤] أي أدبه ، يقال رب بالمكان وأربّ : ألام به ودام .

خطب الزبيريين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوماً على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان ، وعند معاوية جماعة من قريش ، فيهم ابن الزبير ، فرحّب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره ، وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه ليُذْرَكُ الحسد لبني عبد مناف^(٢) ، فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتُك فضل الزبير على أيك أبي سفيان فعلتُ ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

١٣٥ - مقال ذكوان

« يا ابن الزبير : إن مولاى ما يمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طَلَّقَ اللسان ، رابطاً الجَنان ، فإن نَطَقَ نطق بعلم ، وإن صَمَتَ صمت بحلم ، غير أنه كفّ الكلام ، وسبق إلى السَّنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذى أقول :

فِيمَ الكلامِ لِسَابِقِ في غايةِ والناس بين مُقَصَّرٍ ومُبَلَّدٍ^(٣)
إن الذى يَجْرِي لِيُذْرِكُ شَأْوَهُ يُنمَى لِغَيْرِ مُسَوِّدٍ ومُسَدَّدٍ^(٤)

[١] تقدم لك في باب خطب بنى هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٥٧ - ٥٨ - ٦٢ - ٦٨ - ٧٤ - ٧٥ . [٢] عبد مناف جد يجمع بنى هاشم وبنى أمية . فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير فن بنى أسد أبوه الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . [٣] بلد تبليدا : لم يتجه لشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسعاية : لم تخطر . [٤] الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب .

بل كيف يُدْرِك نورَ بَدْرِ ساطعٍ خَيْرِ الأَنامِ وَفَرَجِ آلِ مُحَمَّدٍ
فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله في موالى الكرام مثلك ، فقال
ابن الزبير : إن أبا عبد الله ^(١) سكت وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجناه ، أو
لكفّفنا عن جوابه إجلالا له ، ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد
خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي القوم منهم » ، فأنا مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأخ ،
وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني لست أجيب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٦ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يا ابن الزبير ! ما أعياك ^(٢) وأبغاك ! أتفخر بين يدي أمير المؤمنين
وأبي عبد الله ! إنك أنت المتعدى لطورك ، الذي لا تعرف قدرك ، فقس شبرك
بفترك ^(٣) ، ثم تعرّف كيف تقع بين عرائين ^(٤) بنى عبد مناف ، أما والله لئن
دفعمت في بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لتقطعنك بأمواجها ، ثم لتوهين ^(٥)
بك في أجاجها ، فما بقاؤك في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك ^(٦) ؟
هنالك تعرّف نفسك ، وتندم على ما كان من جرأتك ، وتسمى ^(٧) ما أصبحت

[١] كنية الحسين . [٢] ما أعجزك . [٣] الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة .
[٤] جمع عرين بكسر العين ، وهو السيد الشريف ، (وفي الأصل : الأنف أو ما صلب من عظامه) .
[٥] أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . [٦] بهره بهرا (بانفتح) : غلبه .
[٧] مساء تسمية : قال له كيف أمسيت ، أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ما كنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بجذف إحدى التاءين أى وتمنى ، أو الأصل « ويتمنى »
من تسمى إذا تقطع أى يحى ويندثر ما كنت فيه من أمان .

إليه من أمان ، وقد حِيلَ بين العَيْرِ وَالنَّزْوَانِ ^(١) . فَأَطْرَقَ ابْنُ الزَّيْبِرِ مَلِيًّا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

١٣٧ — مقال ابن الزبير

« أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ أَبِي حَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّ أَبَاهُ أَبُو سَفِيَانَ حَارِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ وَأَنَّ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأُمُّهُ هِنْدُ آكَلَةُ الْأَكْبَادِ ؟ وَجَدَّتِي الصِّدِّيقِ ، وَجَدَهُ الْمَشْدُوحُ ^(٢) بِيَدْرِ ، وَرَأْسَ الْكُفْرِ ، وَعَمَّتِي خَدِيجَةُ ذَاتِ الْخَطَرِ ^(٣) وَالْحَسْبُ ، وَعَمَّتَهُ أُمُّ جَمِيلِ حَمَّالَةَ الْخَطَبِ ؟ وَجَدَّتِي صَفِيَّةَ ^(٤) ، وَجَدَتَهُ حَمَامَةَ ^(٥) ؟

[١] البير : الحمار وغلب على الوحشى ، والنزوان : الثوب ، وهو مثل يضرب للثوب تخور قواه ، وأول من قله صخر بن عمرو أخو الحنساء ، وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاءهم الصريح فركبوا ، فالتقوا ، فظمن أبو ثور الأسدى صخرًا طعنة في جنبه ، وحوى منها فرض حولًا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك ؟ فقالت : لا حتى يبرحى ، ولا ميت فينمى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى فرض زمانا حتى ملته امرأته ، وكان يكرمها ، فربها رجل وهى قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكفل ؟ فقالت : نعم عما قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله لئن قدرت لأقدمنك قتل ، ثم قال لها : فاولبني السيف أنظر إليه ، هل تقله يدي ؟ فتأولته ، فاذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمانى مضجعى ومكانى
فأى امرئ ساوى بأى حليلة فلا طاش إلا فى شقا وهوان
أم بأمر الحرم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد نثأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة ، قيل له : لو قطعتما لرجونا أن تبرأ ، فقال شأ نكم ، وأشفق عليه قوم فهو فأبى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فمات .

[٢] هو حمد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتله على يوم بدر ، والمشدوخ المكسور أى المقتول .

[٣] اقدر والمنزلة ، وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية حمة أبيه ، وزوج الرسول عليه الصلاة

والسلام . [٤] هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعممة الرسول عليه الصلاة والسلام .

[٥] روى ابن أبى الحديد (م ١ : ص ١٥٧) قال :

« لما ارتحل ذقيل بن أبى طالب عن على عليه السلام أتى معاوية ، وكان فى مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد : أخبرنى عن عسكرى وعسكر أخيك ، فقد وردت عليهما ، قال : « أخبرك : مرتت والله بمسكرك أخى ، فإذا ليل قليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونهار كهزار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فى القوم ، ما رأيت إلا مصليا ، ولا سمعت إلا فارثاً ، ومررت بمسكرك ، فاستقبلنى قوم من المناقبين ممن نقر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة

وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر ولد آدم
أبو لهب ، سَيِّئِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشقى
الأشقيين ؟ وأنا عبد الله ، وهو معاوية .

١٣٨ - مقال معاوية

قال له معاوية :

« وَيُحْكُ يَا بَنَ الزَّيْبِرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي
الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قُدْنَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا
وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لِدَلَاكَ إِنْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هُوَ لَأَهْلُ الْحُضُورِ لَيَعْلَمُونَ
أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ ^(١) الْفَجَّارِ عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ

العقبه » ثم قال : من هذا عن عيبك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه
سنة نمر ، فغلب عليه جرار قريش ، فمن الآخر ؟ قال الصحاح بن قيس الفهري ، قال : أما والله لقد كان
أبوه جيد الأخذ لسب التبوس « وكان يسع نسب الفحول في الجاهلية ، والمسب كعذب : الكراء الذي
يؤخذ على ضراب الفحل ، أو ضرايه ، أو ماؤه ، وعسب الرجل كضرب أعطاه الكراء على الضراب ،
وفي الحديث : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل فإن إطارة الفحل مندوب إليها » ، فمن هذا
الآخر ؟ قال أبو موسى الأشعري ، قال : هذا ابن السراقة ، ولما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ،
علم أنه إن استجبره عن نفسه قال فيه سوء ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يلمه من سوء ، فيذهب
بذلك غضب - أسأته ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول في ؟ قال : دعني من هذا ، قال : اتقولن ، قال :
أتعرف حمارة ؟ قال : ومن حمارة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام فضي ، فأرسل معاوية إلى النسابة
فدعاه ، فقال : من حمارة ؟ قال : ولي الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمارة جدتك أم أبي سفيان ، كانت بنيا
في الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتكم وزدت عليكم . فلا تمضوا .

[١] حرب الفجار : هي حرب هاجت بين تريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس هيلان) وسبيها
أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق شكاظ في كل عام لطيفة (واللطيمة كصحيفة : المير
التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويبتري له بثمان ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل
تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض
ابن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد - وعروة الرّحال بن عتبة - وهو من بني هوازن ،
والرّحال كشداد أيضا - فقال : من يجيرها ؟ قال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له
النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرّحال : أنا أجيرها لك على أهل

وأسرتك تحت رايته ، راضون بإمارته ، غير منكرين لفضله ، ولا طامعين في عزله ، إن أمرَ أطاعوا ، وإن قال أنصتوا ، فأنزل فينا القيادة ، وعزَّ الولاية ، حتى بعث الله عزَّ وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فانتخبه من خير خلقه ، من أسرتي لا أسرتك ، وبنى أبى لا بنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشًا وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفتان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فمهدِيكم تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيمًا شأنه ، وفي الإسلام معروفًا مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعْطَ أحد من آباءك ، وإن مُنادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرَمًا ، لدارك ولا دار أيبك ، وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخبر ، وأما جدك الصديق

الشيخ والقيصوم من أهل نجد وتبامة ، فقال البراض : أعلى بنى كنانة تحجيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدما ، والقائد العام للجبيح حرب بن أمية والد أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد والد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والنجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب نجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أى فسقنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام ، وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، وهذا هو الفجار الرابع ، وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أجرة أخرى — انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والمقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، وجمع الأوثال ٢ :

فتصديق عبد مناف سُمِّيَ صديقاً ، لا بتصديق عبد العزَّى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ، ولا رَأَوْكُمْ لهم أكفاءً ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفأؤهم من بنى أبيهم ، فقضى الله مناياهم بأيديهم ، فنحن قَتَلْنَا ، ونحن قَتَلْنَا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شرفنا ، وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهي أَدَّتْكَ من الظِّلِّ ، ولولا هي لكنتَ ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أهلك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، ونفخهم وإرثهم لى دونك ، ولا نفرك فيهم ولا إرث بينك وبينهم . وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد عامت قريش أئبنا أجود في الإِزْمِ^(٣) ، وأحزم في القدم ، وأمنع للأحرم ، لا والله ما أراك منتهياً حتى تروم من بنى عبد مناف مارام أبوك ، فقد طألهم الذُّحُولَ^(٤) ، وقدم إليهم الخيول ، وخذعتهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السُّجُوفَ^(٥) ، وأبرزتم زوجته للْحُتُوفِ ، ومُقَارَعَةِ السُّيُوفِ ، فاما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم يُنْجِهْ ذلك أن طَحَنَهُ أبو الحسين بِكُلِّ كَلِّهِ طَحْنِ الحَصِيدِ^(٦) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأفلت بعد أن

[١] ضحا كسى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العزّ والنعمة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة العوام لبني هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . [٢] ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد . [٣] الأزمة (بالفتح ويحرك) الشدة ، وجمعها أزم (كشمس وعب) . [٣] جمع ذحل (بالفتح) وهو الثأر ، والعداوة ، والحقد : أى كشفهم بذلك . [٥] جمع سبغ (بالفتح ويكسر) الستر . [٦] الحصيد : الزرع المحصود .

خَمَشْتِكَ^(١) بِرَأْيِنَهُ ، ونالتك مخاليبه ، وإيم الله ليقومنك بنوعبد مناف بِثِقَافِهَا^(٢) ،
أولتُصْبِحَنَّ منها صباح أيبك بوادي السَّبَاعِ^(٣) ، وما كَانَ أبوك المذْهَنَ حَدَّهُ^(٤) ،
ولكنه كما قال الشاعر :

تناول سِرْحَانَ فريسةً ضَيْغَمٍ فقضقضه بالكف منه وحطماً^(٥)

(العقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٣٩ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تَدَعَنَّ مَرْوَانَ يرمى جَاهِرَ قريش بمشاقصه^(٦) ،
ويضرب صفاتهم بِمِعْوَلِهِ ، أما والله لو لا مكانك ، لكان أخفَّ على رقابنا من فَرَّاشَةٍ ،
وأقلَّ في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(٧) ، وإيمُ الله لئن ملَّك أعنة خيل تنقاد له ، لَتَرَ كَبْنَ^(٨)
منه طبَقاً^(٩) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد
طَمِعَ فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهَيْنَ حتى
يبعث الله عليكم من لا يعطِفُ عليكم بقراية ، ولا يذُكُرُكم عند مُلِمَّةٍ ، يسومكم
خَسَفاً^(٩) ، ويسوقكم عَسْفاً^(١٠) » . فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطَلِّقُ عِقَالُ الحرب

[١] خمشه : خدشه . [٢] الثفاف : مانسوى به الرماح . [٣] مقتل أبيه الزبير .

[٤] حدّه : بأسه ، والمدمن : الغشوش ، من أدهن أى غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب

بسالته شائبة خور ولسكنه . . . الخ « وفي الأصل « المدمن خده » بالخاء وأراه مصحفاً » .

[٥] السرحان : الذئب ، والضيمع : الأسد ، وقضقضه فقضقض : كسره ودقه ، والفضقضة : صوت

كسر العظام . وفي الأصل نقضقضه بالفاء ، وهو تصحيف .

[٦] المشاقص جمع مشقص كثير وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

[٧] الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخاش ، وهي حشرات الأرض والمصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . [٨] الطبقي : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرَ كَبْنَ طَبَقاً عَن طَبَقِي »

[٩] أى يوليكم ذلاً . [١٠] العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

بكتائب تَمُور^(١) كَرَجَل الجراد ، حَافَاتُهَا الأَسَلُ ، لها دوى كدوى الریح ، تتبع غِطْرِيْفًا^(٢) من قريش ، لم تكن أمه رَاعِيَةً ثَلَّةً^(٣) . فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عِقَالَ الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَةَ السَّنَامِ ، وَشَرِبْتُ عُنْفُوَانَ المَكْرَعِ^(٤) ، وليس للآكل بعدى إلا الفِلْدَةُ^(٥) ، ولا للشارب إلا الرُّنْقُ^(٦) . فسكت ابن الزبير . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٤٩٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٤٠ - عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خَبِيبٍ^(٧) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سأل غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فَيَهْمُهم ، وتحفظ وصية نبيِّ الله فيهم ، تَقْبَلُ من مُحْسِنِهِم ، وتتجاوز عن مُسِيئِهِم » فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل أَلْيَتَهَا^(٨) . » فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة لَتَدِرُ^(٩) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصانع ولده الذي خرج من صُلْبِهِ ، وما تدور الرخاء إلا بِقُطْبِهَا^(١٠) ، وَلَا تَصْلُحُ القوسُ إلا بِعَجَبِهَا^(١١) . » فقال : « يا أبا خَبِيبٍ ، لقد أجزرت الطرُوقَةَ قبل هبابِ الفحل^(١٢) ، هيهات ! وهي لا تَصْطَكُ حَيًّا مَهَا اصطكاكُ

[١] تمور : اضطرب . [٢] الفطريف : السيد الشريف .
[٣] الثلثة : جماعة الفم أو الكثرة منها . [٤] عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمكراع المورد ، مغل من كرع في الماء أو في الإثناء . [٥] الفلذة : القطعة من اللحم .
[٦] ماء رفق كعدل وكنف وجبل : كدر . [٧] هي كنية ابن الزبير كني بابنه خبيب ، وكان أسن ولده ، وبكى أيضا أبا بكر . [٨] الألية : مراكب العجز من شحم ولحم . [٩] در اللبن وغيره من بابي صرب وقتل ، ودرت الناقة بلبنها أدركته . [١٠] قطب الرخا : ماتدور عليه ، والرخاء ممدود الرخا . [١١] العجب : مؤخر كل شيء . [١٢] ناقة طروقة الفحل : بلفت أن يضرها الفحل ، وأجره رسنه : جمه يجره ، وهب الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهيبا : أراد السفاد .

الْقُرُومِ السَّوَامِي (١) . فقال ابن الزبير : « الْعَطَنُ بَعْدَ الْعَلِّ (٢) ، وَالْعَلُّ بَعْدَ التَّهْلِ ، وَلَا بَدَّ لِلرَّحَاءِ مِنَ الثَّفَالِ (٣) » . ثم نهض ابن الزبير ، فلما كَانَ الْعِشَاءَ أَخَذَتْ قَرِيشٌ مَجَالِسَهَا ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةَ عَلَى بَنِي أُمِيَّةَ ، فَوَجَدَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : وَيَحْكُمُ يَا بَنِي أُمِيَّةَ ! أَفِيكُمْ مَنْ يَكْفِينِي ابْنَ الزَّبِيرِ ؟ فَقَالَ عَمْرُو : أَنَا أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : مَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ قَالَ : « بَلَى ، وَاللَّهِ لِأَزْبِدَنَّ (٤) وَجْهَهُ ، وَلَأُخْرِسَنَّ لِسَانَهُ ، وَلَأُرْدِنَهُ أَلَيْنُ مِنْ خَمِيلَةٍ (٥) » . فَقَالَ : دُونَكَ فَاعْرِضْ لَهُ إِذَا دَخَلَ ، فَدَخَلَ ابْنُ الزَّبِيرِ - وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ كَلَامَ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو - فَجَلَسَ نُصِبَ عَيْنِي عَمْرُو ، فَتَحَدَّثُوا سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو :

وَإِنِّي لِنَارٌ مَا يُطَاقُ اصْطِلَاؤُهَا لَدَائِي كَلَامٌ مُعْضِلٌ مُتَّفَاقِمٌ (٦)

فَأَطْرَقَ ابْنَ الزَّبِيرِ سَاعَةً يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ :

وَإِنِّي لِبَحْرٌ مَا يُسَامَى عِبَابُهُ مَتَى يَلْتَقَ بِحَرِّ نَارِكَ تَحْمُدُ

فَقَالَ عَمْرُو : وَاللَّهِ يَا ابْنَ الزَّبِيرِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَمُتَّجَلِبِبٍ جَلَّابِيبَ الْفِتْنَةِ ،

مُتَّازِرٌ بِوَصَائِلِ (٧) التَّيِّهِ ، تَعَاطَى الذَّرَى الشَّاهِقَةَ ، وَالْمَعَالِي الْبَاسِقَةَ ، وَمَا أَنْتَ

مِنْ قَرِيشٍ فِي لُبَابِ جَوْهَرِهَا ، وَلَا مُؤْتَقٍ (٨) حَسَبِهَا » . فَقَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ : « أَمَا

مَا ذَكَرْتَ مِنْ تَعَاطَى الذَّرَى ، فَإِنَّهُ طَالَ بِي إِلَيْهَا وَسَمَا ، مَا لَا يَطُولُ بِكَ مِثْلُهُ :

[١] تصطك : تضطرب . والقروم جمع قرم بالفتح وهو الفحل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما

الفضل سماوة : تطاول على شؤله « والشوول كركع جمع شائل وهي الناقة تشول بذنبها لاقاح » .

[٢] العطن : مبرك الابل حول الحوض ، والعل والعلل : الشرب الثاني ، والنهل : الشرب الأول .

[٣] الثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرمح ليقع عليه الطحين . [٤] أى لأصيرنه أربد ، من

الربدة بالضم : وهي لون إلى الغبرة . [٥] الخميعة : القطيفة ، وفي الأصل : « ولأوردنه » وهو

تحريف . [٦] تفانم الأمر : عظم . [٧] الوصائل جمع وصيلة : وهي ثوب مخطط يعان .

[٨] آتقى الشيء إينافا : أعجبني ، فهو مؤتق وأتقى أى حسن معجب .

أنف حمي ، وقلب ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ^(١) ، وطريف مانع ،
 إذ قعد بك انتفاخ سحر ك ^(٢) ، ووجيب ^(٣) قلبك ، وأما ما ذكرت من أني
 لست من قريش في لباب جوهرها ، ومؤنق حسبها ، فقد حضرتني وإياك
 الأ كفاء ، العالمون بي وبك ، فاجعلهم بيني وبينك ، فقال القوم : قد أنصفك
 يا عمرو ، قال : قد فعلت ، فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكنتني الله منك فلأزبدن
 وجهك ، ولأخرسن لسانك ، ولترجعن في هذه الليلة ، وكان الذي بين
 منكيبك مشدود إلى عروق أخذعيك ^(٤) ، ثم قال : أقسمت عليكم يا معاشر
 قريش ، أنا أفضل في دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبي
 أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته ،
 قال : فأبي أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وذات
 النطاقين ، قال : فعمتي أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سأمي ابنة العوام ، صاحبة
 رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : نخالتي أفضل أم خالته ؟
 قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : فجذتي أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك
 صفية بنت عبد المطلب عممة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فجذتي أفضل
 أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :
 قَضَتِ الْعَطَارِفُ مِنْ قَرِيْشٍ بَيْنَنَا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا
 وَإِذَا جَرَيْتُ فَلَا تُجَارِ مُبْرَزًا بَدَّ الْجِيَادَ عَلَى احْتِفَالِ جِرَائِهَا ^(٥)

[١] فارع : عال . [٢] السحر وبمرك ويضم : الرثة ، وانتفخ سحره : عدا طوره وجاوز قدره .

[٣] حنقان واضطراب .

[٤] الأخدطان : عرقان في موضع الحجامة . [٥] برز تبريزا : فاق أصحابه وبدأ : فاق وغلب ،

واحتفل النوم : اجتمعوا ، والجراء والمجارات : مصدر جاري .

أَمَّا وَاللَّهِ يَا بَنَ الْعَاصِ ، لَوْ أَنَّ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا وَاجَهَنِي بِمِثْلِهِ ، لَقَصَّرتْ إِلَيْهِ مِن سَامِي
بَصْرِهِ ، وَاتْرَكَتَهُ يَتَلَجَّجُ لِسَانُهُ ، وَتَضَطَّرَمَ النَّارَ فِي جَوْفِهِ ، وَلَقَدْ اسْتَعَانَ مِنْكَ
بَغِيرِ وَافٍ ، وَجَأَ إِلَى غَيْرِ كَافٍ . ثُمَّ قَامَ نَخْرَجُ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤١ - خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَظَّمَ
مَقْتَلَهُ ، وَعَابَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ خَاصَّةً ، وَوَلَّامَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ
حَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ غَدُرُوا فُجْرًا إِقْلِيلًا ، وَإِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ شَرَّارَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،
وَإِنَّهُمْ دَعَوْا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤَلُّوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا
لَهُ : إِمَّا أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْعَتَ بَكَ إِلَى ابْنِ زِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ سَلَمًا ، فَيَمُضِيَ
فِيكَ حُكْمُهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَحَارِبَ ، فَرَأَى وَاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ -
وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى الْغَيْبِ أَحَدًا - أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ
الْمَيْتَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى الْحَيَاةِ الذَّمِيمَةَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَخْزَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ ،
لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَعَظُ وَنَاهٍ عَنْهُمْ ،
وَلَكِنَّهُ مَا حَمَّ^(١) نَازِلٌ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا لَنْ يُدْفَعَ .

أَفَبَعْدَ الْحُسَيْنِ نَطْمِئُنُّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَنُصَدِّقُ قَوْلَهُمْ ، وَتَقْبَلُ لَهُمْ عَهْدًا ؟
لَا ، وَلَا نَرَاهُمْ لِذَلِكَ أَهْلًا ، أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ قَتَلُوهُ ، طَوِيلًا بِاللَّيْلِ قِيَامُهُ ، كَثِيرًا فِي
النَّهَارِ صِيَامُهُ ، أَحَقُّ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْهُمْ ، وَأَوْلَى بِهِ فِي الدِّينِ وَالْفَضْلِ ، أَمَّا وَاللَّهِ

ما كَانَ يبدلُ بالقرآنِ الغِنَاءَ ، ولا بالبكاءِ من خشيةِ الله الحُدَاءَ ، ولا بالصيامِ شربَ الحرامِ ، ولا بالمجالسِ في حَلَقِ الذِكرِ الرِفضَ في تَطَلُّبِ الصيدِ (يعرض يزيد) فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَا (١) .

فتار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائد بالبيت . (تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٢ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم بن عقبة المرسي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسروا بمقدمهم وتبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم لقي بعضهم بعضا فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما

[١] أي شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف أي جراء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام الإثم أي يلحق جزاء لإثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم)

كَانَ أَمِيسَ يِقَاتِلُكُمْ هُوَ وَأَبُوهُ ، يِنَادِي بِالنَّارَاتِ عِثْمَانَ ، نَدَخِلُ إِلَيْهِ فَنَنْظُرُ مَا عِنْدَهُ
فَإِنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ ، وَبَرِيٌّ مِنْ عِثْمَانَ وَعَلِيٌّ ، وَكَفَّرَ أَبَاهُ وَطَلْحَةَ بَايَعْنَاهُ ، وَإِنْ
تَكُنِ الْآخِرَى ، ظَهَرَ لَنَا مَا عِنْدَهُ ، فَتَشَاغَلْنَا بِمَا يُجَدِّي عَلَيْنَا .

فَدَخَلُوا عَلَيَّ ابْنَ الزَّيْبِرِ وَهُوَ مُبْتَدِلٌ ، ^(١) وَأَصْحَابُهُ مَتَفَرِّقُونَ عَنْهُ ، فَقَالُوا : إِنَّا
جِئْنَاكَ لِتَجْبِرَنَا رَأْيَكَ ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الصَّوَابِ بَايَعْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى غَيْرِهِ
دَعَوْنَاكَ إِلَى الْحَقِّ ، مَا تَقُولُ فِي الشَّيْخَيْنِ ؟ قَالَ : خَيْرًا . قَالُوا : مَا تَقُولُ فِي عِثْمَانَ
الَّذِي أَحْمَى ^(٢) الْحِمَى ، وَأَوَى الطَّرِيدَ ^(٣) ، وَأَظْهَرَ لِأَهْلِ مِصْرٍ شَيْئًا وَكَتَبَ
بِخِلَافِهِ ، وَأَوْطَأَ آلَ أَبِي مُعَيْطٍ ^(٤) رِقَابَ النَّاسِ ، وَأَثَرَهُمْ بَنِيَّ الْمَسَامِينِ ، وَفِي
الَّذِي بَعْدَهُ ، الَّذِي حَكَّمَ فِي دِينِ اللَّهِ الرَّجَالَ ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ تَائِبٍ وَلَا نَادِمٍ ،
وَفِي أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ ، وَقَدْ بَايَعَا عَلِيًّا وَهُوَ إِمَامٌ عَادِلٌ مَرْضِيٌّ لَمْ يَظْهَرِ مِنْهُ كُفْرٌ ،
ثُمَّ نَكَا بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ، وَأَخْرَجَا عَائِشَةَ تَقَاتِلَ ، وَقَدْ أَمَرَهَا اللَّهُ وَصَوَّاحِبَهَا
أَنْ يَقْرَأَ ^(٥) فِي بَيْوتِهِنَّ ، وَكَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُوكَ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَإِنْ أَنْتَ
قُلْتَ كَمَا يَقُولُ فَلَكَ الزُّلْفَى ^(٦) عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّصْرُ عَلَى أَيْدِينَا ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ لَكَ التَّوْفِيقَ ،
وَإِنْ أُيِّدْتَ إِلَّا نَصَرَ رَأْيَكَ الْأَوَّلَ ، وَتَصَوَّبَ أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ ، وَالتَّحْقِيقَ بِعِثْمَانَ
وَالتَّوَلَّى فِي السَّنِينَ السَّتِّ الَّتِي أَحَلَّتْ دَمَهُ ، وَتَقَضَّتْ أَحْكَامَهُ ، وَأَفْسَدَتْ إِمَامَتَهُ ،
خَذَلَكَ اللَّهُ وَاتَّصَرَ مِنْكَ بِأَيْدِينَا ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْبِرِ : « إِنْ اللَّهُ أَمَرَ (وَهُوَ الْعَزَّةُ

[١] المبتدل لابس البذلة (بالكسر) أو المبتذلة وهي الثوب الخلق وما لا يصاب من الثياب .

[٢] أحمى المكان جعله حمى لا يقرب - انظر تفسير الحمى الجزء الأول ص ١٢٦ .

[٣] هو الحكم بن أبي العاص - انظر ص ٩٥ . [٤] ممن ولام عثمان الوليد بن عقبة بن أبي

معيط ولام الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . [٥] من قرأ بالمكان يقر (بالكسر والفتح) قرأ

أى استقر . أصله يقرن حذف الأولى من الرءين وقلت حركتها إلى القاف .

[٦] الزلفة والزلى : التربة والمنزلة .

والقدرة) في مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العتاة ، بأرأف من هذا القول فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما : « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى » . فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد في المحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبًا ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا: « أتبرأ من الظالمين ؟ » فإن كنا منهم دخلا في غمار^(١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُحفظوني^(٢) بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبيه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وقال جل ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصريح^(٣) ، ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فرُوحوا^(٤) إلى من عشيتكم هذه ، أكشِف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشي راحوا إليه ، نخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة^(٥) . قال : هذا خروج منا بذي^(٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد

[١] بالضم وينتج جماعتهم . [٢] تفضوني . [٣] تبين الأمر . [٤] الروح العسى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم رواحا . [٥] هو نجدة بن عامر الحنفي من كبار زعمائهم . [٦] نابذه : كاشفه بالمداوة .

الله، وأثنى عليه، وصلى نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته، ثم وصلهن بالسنين التي أنكروا سيرته فيها، فجعلها كالماضية، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعتبوه من أمور، وكان له أن يفعلها أولاً مُصيباً، ثم أعتبهم بعد ذلك محسناً، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه، بعد أن ضمن لهم العتيبي^(١)، ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم، فدفَعُوا الكتاب إليه، حلف بالله أنه لم يكتبه، ولم يأمر به، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله، ومكانه من الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢)، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين، لو حلف عليها لحلف على حق، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض». فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه، وأنا وليُّ وليِّه، وعدوُّ عدوِّه، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ يوم أُحُد، لما قُطِعَتْ إصْبَعُ طَلْحَةَ: «سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ»، وقال: «أَوْجَبَ طَلْحَةَ^(٣)»، وكان الصديق إذا ذكر يوم أُحُد قال: «ذاك يومٌ كله أَوْجُلُهُ لَطَلْحَةَ». والزبير حواريٌّ

[١] العتيبي: الرضا.

[٢] وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اخار عثمان بن عفان رسولا من قبله إلى قريش، يعلمهم بمقصده، وأنه أنى مكة معتمراً، فقالوا: إن محمداً: لا يدخلها علينا غزوة أبداً، ثم لأنهم حبسوه. فشاع عند المسلمين أنه قتل. فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع بذلك: لا تبرح حتى نأجزم الحرب. ودعا المسلمين إلى البيعة على التناك وبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان.

[٣] الموجبة من الحسنات التي توجب الجنة. وأوجب: أنى بها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، وقال جل وعز :
« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد
أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقًا ، فأهل ذلك هُم ، وإن يكن زلة
ففي عفو الله تحيُّصُها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ،
ومهما ذكرتموها فقد بدأتُم بأمر عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى أب أن تكون
له أمًا نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جل ذكره ، وقوله الحق : « النَّبِيُّ أَوْلىٰ
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم
انصرفوا عنه . (الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والقدر لزيد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٣ - أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي ، في
هُذَيْل ، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفًا بهَوَاهِ في بني أمية ، فمنعه
عطاءه ، فقال : عَلَامَ تَمْنَعُنِي حَقًا لِي ؟ وأنا امرؤ مُسْلِمٌ ما أحدثتُ في الإسلام
حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعة يَدًا . قال : عليك بني أمية ، فاطلب عندهم
عَطَاءَكَ . قال :

« إذن أجدهم سِبَاطًا ^(١) أكفهم ، سَمْحَةً أَنفُسُهُمْ ، بُدْلَاءَ لَأَمْوَالِهِمْ ،
وَهَائِينَ لِمُجْتَدِيهِمْ ^(٢) ، كَرِيمَةَ أَعْرَاقِهِمْ ، شَرِيفَةَ أَصْوَلِهِمْ ، زَاكِيَةَ فُرُوعِهِمْ ،

[١] رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) .

[٢] المجتدي : طالب الجدوى وهي العطية .

قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَبَهُمْ وَسَبَّيَهُمْ ، ليسوا إذا نُسبوا بأذنان ولا وشائظ^(١) ولا أتباع ، ولا هم في قريش كفقعة^(٢) القاع ، لهم السؤدد في الجاهلية، والملك في الإسلام ، لا كمن لا يُعَدُّ في غيرها ولا تَقِيرُهَا^(٣) ، ولا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي تَقِيرِهَا وَلَا قَطْمِيرِهَا^(٤) ، ليس من أحلافِها^(٥) المُطَيِّبِينَ ، ولا من ساداتها المُطْعَمِينَ ، ولا من جُودَائِهَا^(٦) الوهَّابِينَ ، ولا من هاشمها المنتخبين ، ولا عبد شمسها المسوِّدين ، وكيف تقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النَّصْلُ من الجَفْنِ^(٧) ، والسنان من الزَّجِّجِ^(٨) ، والذَّنَابِيُّ^(٩) من القُدَامَى^(١٠) وكيف يُفَضَّلُ الشَّحِيحُ عَلَى الْجَوَادِ ، والسُّوقَةُ عَلَى الْمَلِكِ ، والجامع بُخْلًا عَلَى الْمُطْعِمِ فَضلاً ؟ .

فغضب ابن الزبير ، حتى ارتعدت فرائضه^(١١) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرنه إلى قدمه ، وأمتقع لونه ، ثم قال له : يا ابن البوالة على عقبيها ، ويا جلف^(١٢) ، يا جاهل ، أما والله لولا الحُرُمَاتُ الثَّلاثُ : حُرْمَةُ الْإِسْلَامِ ، وَحُرْمَةُ الْحَرَمِ ، وَحُرْمَةُ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، لأخذت الذي فيه عينك ، ثم أمر به إلى سجن « عَارِمِ »

[١] وشائظ جمع وشيطة ، يقال : هم وشيطة في قومهم أي حشودهم ، وفي الأصل : « وشائظ » وهو تصحيف . [٢] الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من السكامة وجمعه فقعة كمة ، والقاع : أرض سهلة مطبوءة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويصرب المثل بالفقع في التل ، لأنه لا عتنع على من احتماه ، أو لأنه بوطاً بالأرجل . [٣] أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في الفير » وأول من قاله أبو سريان بن حرب ، يصرب للرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه . [٤] الفير : الكتنة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والنمرة .

[٥] الأحلاف في قريش ست قبائل : عبد الدار ، وكنة ، وجمح ، وسهم ، ومخزوم ، وعدي ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، عقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتعاضدوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند الكعبة ، ففمسوا أيديهم فيها وتعاضدوا ، وتعاضدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفاً آخر مؤكداً فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : نفس أيديهم في الطيب .

[٦] جوداء جمع جواد : وهو السخى ، ويجمع أيضاً على أجواد وأجاود . [٧] نهد السيف .

[٨] الحديدية في أسفل الرمح . [٩] الذئب . [١٠] أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح .

[١١] جمع فريضة وهي اللحمية بين الجنب والسكتف . [١٢] الجلف : الرجل الجاني .

فجُبِسَ به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خُثُولَةٌ في هذيل ، فأطلقه بعد سنة ، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً .

فلما وليَ عبد الملك ، أمر له بما فاتَه من العطاء ، ومثله صِلَةٌ من ماله ، وكساه وحمله . (الاغانى ٢١ : ٩٤)

١٤٤ - خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قَدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأَتَوْهُ في المسجد الحرام ، في يوم الجمعة ، فسأموا عليه ، فسألهم عن مُصْعَبِ أخيه ، وعن سيرته فيهم ، فقالوا : أحسنُ الناس سيرةً ، وأقضاه بحق ، وأعدله في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

قد جرَّبوني ثم جرَّبوني من غلوتين ومن المئين^(١)

حتى إذا شابوا وشيَّبوني خلوا عِنائي ثم سيَّبوني^(٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب ابن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب ، ألا إن مصعباً أطبى^(٣) القلوب ، حتى ما تعدل به ، والأهواء حتى ما تحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ، والقلوب بنصحتها ، والنفوس بمحبتها ، فهو المحبوب في خاصته ، المحمود في عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسَطَ يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ، والأمالى ١ : ٢٨٦)

١٤٥ - خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبدُ الملك بن مروان مُصْعَبَ بن الزبير (سنة ٧١ هـ) ، وانتهى

[١] الغلوة : العاية : وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة .
[٢] تركوني . [٣] أطبى : استمال .

خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما ، حتى تحدّث به إماء مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مليّا لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يرشح عرقا ، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه لليبب الخطباء . قال : اعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه وغير مألوم ، ثم تكلم فقال .

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومُلك الدنيا والآخرة ، يُؤثقي الملك من يشاء ، وَيَنْزِع الملك ممن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، أما بعد : فإنه لم يُعِزَّ اللهُ مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طُرَا (١) ، ولم يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مُفْرَدًا ضَعِيفًا ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد العذر والشقاق ، فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرتة ، فأما الذي أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأي والدين ، إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء ، وأما الذي سرنا منه فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الحيرة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغّام (٢) ، الضم الآذان ، أهل العراق ، إسلام النعم المخطمة (٣) ، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه ، فإن يُقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه (٤) ،

[١] جميعا . [٢] الأوغاد . [٣] خطم البعير بالحطام : جعله على أنفه ، والحطام ككباب : ما وضع في أنف البعير ليقناده به .

[٤] بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز وقتله في الصلاة ، ويعني بعمة عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة

وكانوا الخييار الصالحين ، إنا والله لانموت حَتَفَ آنَافِنَا^(١) ، ولكن قَعَصَا^(٢) بالرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطُّ ، ألا وإنما الدنيا عَارِيَةٌ من الملك القَهَّار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقْبِلَ الدنيا على لم آخذها أخذَ الأشر البَطْر^(٣) ، وإن تُدْبِرْ عنى لم أبكِ عليها بكاء الخرق المهين^(٤) . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » ثم نزل .

(الأغانى ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٦ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة فى وقعة الحرة كما قدمنا ، سار إلى مكة لنزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدع هؤلاء القوم غيرى وغيرك - وكان أخوه المنذر ممن شهد الحرة . ثم لحق به - مجرد إليهم أخاء فى الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرت صاحبه لها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ - تاريخ الطبرى ٧ : ١٤ - .

[١] الحنف : الموت ، ويقال مات حنف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخسف الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بقتاع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . [٢] القعص : الموت الوحى (أى السريع كفى) ومات بعضا : أصابته ضربة ، أو رمية ، فمات مكانه ، وفى الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ما نموت جبجا » وزاد الكامل « كهيئة آل أبى العاص » والحجج محرمة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء المرفج (كجعفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض ببى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالثخمة . [٣] الأشر : البطر . [٤] من الحرق محرمة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فاتحا عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الحرف المهتر » والحرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من المهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (بضم الميم وفتح التاء) : شاذ .

« إن مصعباً قَدَّمَ أَيْرَه ، وأخْرَ خَيْرَه ، وتشاغلَ بِنِكَاحِ فِلاَنَة وفِلاَنَة (١) ،
وتركَ حَلْبَة (٢) أهلَ الشَّامِ ، حتَّى غَشِيَتْه في داره ، ولئنْ هلكَ مُصْعَبُ إنْ في آلِ
الزبيرِ خَلْفًا مِنْه » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٧ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو والأشديق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتلُ عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد
الأشديق ، قام خطيباً فقال :

« إن أبا ذِبَّان (٣) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ (٤) ، كَذَلِكَ نُؤَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ
بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٨ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد
رأى من الناس ما رأى من خِذْلَانِهِمْ ، فقال :

يا أمه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وُلِدِي (٥) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِمَّنْ
لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أُرِدْتُ مِنْ
الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟ فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ

[١] كان تحته عقيلنا قريش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين .

[٢] الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب لانصرة . [٣] الذبان : الذباب ، والعرب تكنو
الأبخر « أبا ذباب » وبعضهم يكنيه « أبا ذبان » وقد علب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في
فه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب . [٤] هو عمرو بن سعيد الأشديق ، سمي بذلك
لميل كان في فه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان » قال اوزير الكاتب ابن عبدون في مرثيته
المشهورة لدولة بني الأمطس بالأندلس التي مطلعها :

« الدهر ينجع بعد المين بالأثر فا البكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبان فاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمتصر

[٥] وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حمرة وخبيب فأخذها منه لأنفسهما أمانا .

على حق وإليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلمّب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قُتل معك ، وإن قلتَ كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتلُ أحسن ، والله لَضَرْبَةٌ بالسيف في عزٍّ ، أحبُّ إلىَّ من ضربة بسوطٍ في ذلٍّ ، قال : إني أخاف إن قتلوني أن يُعْتَلُوا بي ، قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها سنخها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قتت به داعياً إلى يومي هذا ، ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُستحل حُرْمُهُ ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرةً مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإنني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسأمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان مُنْكَرٍ ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يعُدِر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثرَ عندي من رضا ربي ، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي - أنت أعلم بي - ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني ، فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني ، وإن تقدمتك ففي نفسي حرجٌ حتى أنظر إلام يصير أمرك . قال : يا أمه جزاك الله خيراً ! فلا تدعى الدعاء لي قبلُ وبعْدُ ، فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قُتل على باطل فقد قُتلت على حق ، ثم قالت : « اللهم ارحمه طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النجيب والظما في هواجر المدينة

ومكة ، وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين . ثم ودّعها وخرج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ ، والفجرى ١١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٤٩ — خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الموت قد تَفَشَّأَ كم سحابه ، وأحدقَ بكم رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد تفرُّق ، وارجحنَّ بعد تَمَشُّق ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَعْدُهُ ، وهو مُفْرِغٌ عليكم وَدَقَّهُ ^(٤) ، وقائد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غَرَضًا ، واستعينوا عليها بالصبر . » وتمثل بأبيات ، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساقٍ ^(٥)

(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٠ — خطبة أخرى

وروى الطبرى قال :

« لما كان يوم الثلاثاء صَبِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَبَّتم لى نفساً عن أنفسكم ، كننا أهل بيتٍ من العرب اصْطَلَمْنَا ^(٦) فى الله ، لم تُصَبْنَا زَبَاءً بَتَّةً ^(٧) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يرغبكم

[١] الرباب : السحاب الأبيض . [٢] ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

[٣] رجست السماء : رعدت شديدا وتمحضت . [٤] الودق : المطر .

[٥] هو من مشطور السريع الموقوف . [٦] أى استؤصلنا . [٧] الزباء من الدوامى :

الشديدة ، ويقال لا أفعله ألبتة ، وبتة لكل أمر لارجمة فيه .

وقع السيوف ، فإنني لم أحضر موطنًا قط إلا ارتثمت^(١) فيه من القتل ، وما أجد من دواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقمها ، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرأ كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غصوا أبصاركم عن البارقة^(٢) ، وليدشغل كل امرئ قرنه ، ولا يلهينكم السؤال عني ، ولا تقولن : أين عبد الله بن الزبير ، إلا من كان سائلاً عني فإنني في الرعيل^(٣) الأول :

أبي لابن سلمى أنه غير خالد ملاقى المنايا أي صرف تيمماً
فلست بمتاع الحياة بسببة ولا مرتقى من خشية الموت سائماً

احملوا على بركة الله . ثم قاتل حتى أثنى بالجراحات وقتل . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥١ — خطبة مصعب بن الزبير

بعث عبد الله بن الزبير أخاه مضعباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسيم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » وأشار بيده نحو الشام « وتريد أن تمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » وأشار بيده نحو الحجاز « وتمكن لهم في الأرض وترى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأشار بيده نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

[١] ارتث (مبني المجهول) حمل من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رمق .
[٢] البارقة : السيوف . [٣] الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، أو مقدمتها .

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفى سنة ٦٠ هـ)

١٥٢ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فارد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنى والله ما وليتها بحجة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدةً ، ولقد رُضت^(١) لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَات^(٢) عثمان ، فأبت علىّ ، فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم ، فإنى خير لكم ولايةً ، والله لا أحمل السيف على من لاسيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ،

[١] من راض المهر إذا ذلّه . [٢] سانية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

فقد جعلت ذلك له دَبْرًا^(١) أذنى ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة ، وتكدر النعمة . ثم نزل .
(القدر الفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٣ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت محمدة ، فلا بد من مدممة ، فلو ما هوناً إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أوبقت ، وإن ذكرت أوثقت » . ثم نزل .
(القدر الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٤ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعته نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرثق خير من الفثق ، وفي كلِّ بلاغٍ ، ولا مقام على الرزية » .
(القدر الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] حمل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يرجع عليه .

١٥٥ - خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة ٤١ هـ دعاه ،

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

«أما بعد : فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا^(١) ، وقد قال المتلمس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا وما عَلِمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

وقد يُجْزَى^(٢) عنك الحكيمُ بغير التعليم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ،

فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يُرضيني ، ويُسعد سلطاني ، وتصلح به رعيتي ،

ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتحَمَّ^(٣) عن شتمِ عليّ وذمه ، والترحمِ على

عثمان ، والاستغفار له ، والعيبِ على أصحابِ عليّ ، والإيصاءِ لهم ، وترك الاستماع

منهم ، وإيطراء شيعَةِ عثمان رضوانُ الله عليه ، والإيدناء لهم ، والاستماع منهم .

فقال المغيرة : « قد جَرَّبْتُ وجرَّبْتُ ، وعمِلتُ قبلك لغيرك ، فلم يُذمَّ

بِي دَفْعٌ ، ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فسَتَبَلُّو^(٤) فتحمّد ، أو تذمّ . » قال : « بل

تحمّد إن شاء الله . » (تاريخ الطبري ٦ : ١٤١)

١٥٦ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على

[١] من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لذي الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ، وأول من قرعت له العصا عاصم بن الطرب العدواني ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ، وقيل عمرو بن حمزة الدوسي ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عاصم بن الطرب كان أحد حكام العرب المشهورين ، لا تعدل بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكماً ، فلما طعن في السن أنكسر من عقله شيئاً ، فقال لبيته : إنه قد كبرت سني ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي ، وأخذت في غيره ، فافرعوا لي

المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريد : لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا البيت .

[٢] يجزى مسهل عن يجزى أي يفنى ، يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان : أي أغنيت دنك مقناه .

[٣] احتسى وتحسى : امتنع . [٤] أي تختبر .

رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا

(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

إلى صلاتكم .

١٥٧ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ،

حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وإنه لا يأتكم بعدى إلا من

هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله

أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحبب لقاءى » . ثم نزل ، فسا

صعد المنبر حتى مات^(٢) . (الأمالى ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٥٨ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش

يتباشرون بموتك ، فقال : ويحك ! ولم ؟ قال : لا أدرى . قال فوالله ما لهم بعدى إلا

الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وأوجز ، ثم قال :

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا فى دهر عنود^(٣) ، وزمن شديد^(٤) ، يُعدّ فيه

المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوًّا ، لا تنتفع بما عامناه ، ولا نسأل عما جهلناه ،

ولا نتخوف قارعة^(٥) حتى تحل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من

[١] استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . [٢] سيرد عليك بقية خطبه بعد فى موضعها .

[٣] جائر . من عند من الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . [٤] وفى نهج البلاغة :

وزمن كنود وهو الكفور . [٥] الداهية التى تفرغ أى تصيب .

لا يمنع من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره،^(١) ومنهم المصلت^(٢) لسيفه، المجلب بخيله ورجله، المعلن بشره، قد أشرط^(٣) نفسه، وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنّب^(٤) يقوده، أو منبر يفرّعه^(٥)، ولبئس المتجرأن تراها لنفسك ثمنًا، وممالك عند الله عوضًا، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة للمعصية، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرت به الحال عن أمه، فتجلى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهاد، وليس من ذلك في مراح ولا مغدّي، وبقي رجال غصّ أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نافر، وخائف منقيع^(٦)، وساكت مكعوم^(٧)، وداع مخلص، وموجع تكلان، قد أخلتهم التقيّة^(٨)، وشملتهم الذلة، فهم بحراجاج^(٩)، أفواههم ضامزة^(١٠)، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملّوا، وقهروا حتى ذلّوا، وقتلوا حتى قَلّوا، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من خثالة القرظ^(١١) وقراضة الجّامين، واتعضوا بمن كان قبلكم، قبل أن

[١] أى قلة ماله . [٢] أصلت السيف : سله . [٣] هيأها وأعدّها (من الشرط (محرّكة) وهو العلامة) أى هيأها للفساد في الأرض . وأوبقته : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس . [٤] القنّب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثمائة . [٥] يعلوه . [٦] مقهور . [٧] من كعم البعير كنع : شدّ فاه لثلا بعض أو يأكل . وفي البيان والتبيين مكعوم من عكم الماع يعكمه شدّه بثوب . [٨] التقيّة : المداراة . [٩] الأجاج : الملح . [١٠] ساكنة من ضحز كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة في فيه ولم يجترّ . [١١] القرظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة : ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبتاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب

مظ بكم من بعدكم، فرفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم». .
البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤١ ، ونهج البلاغة ١ : ٤٠ ، وإيجاز القرآن ١٢٣

١٥٩ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةَ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسْلِمَ بن عُقْبَةَ
المرِّيَّ ، والضَّحَّاكَ بن قيسِ الفِهْرِيَّ ، فقال : أبلغا عني يزيدَ وقولا له :
« يا بني ، إني قد كفتك الشَّدَّ والرزَّحَال ، ووطأت لك الأمور ، وذللَّت لك الأعداء ،
وأخضعت لك رِقَابَ العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهلَ الحجاز ،
فإنهم أصلك وَعِترَتك^(١) ، فمن أتاك منهم فأكرِّمه ، ومن قعد عنك فتعهده ، وانظر
أهلَ العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإنَّ عَزَلَ عاملٍ ،
أهونُ عليك من سلِّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم
انظر أهلَ الشَّامِ ، فاجعلهم الشعار^(٢) دون الدُّنَّار ، فإن رآبك من عدوك رَيْبٌ ،
فازمهم^(٣) بهم ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهلَ الشَّامِ إلى بلادهم ، ولا يُتَمِّموا
في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

الذي من أجله دعا معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الأخبار عنهم ، وعمام عليه
من القهر والإدلال ، ومن التقية والخوف - أشبه بكلام علي وبعثانيه ، وبماله منه بحال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب
لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم .
ونسبها الفريز الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

[١] عترة الرجل : عشيرته الأديون . [٢] الشعار : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدُّنَّار :
الذي يلبس فوق الشعار . [٣] الازمير : العدو ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يبنى
ويجمع ويؤنث .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَدَهُ^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُه بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ ، فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيناك الله بمن قَتَلَ أباه ،
وخذَل أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه ، فإن خرج وظفرت
به ، فاصفح عنه ، فإن له رَحِمًا^(٢) ماسّة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله
عليه وسلامه ؛ وأما ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ،
ليست له همّةٌ إلا في النساء واللّهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ^(٣) ، فإن
ظفرت به فقطعته إربًا إربًا^(٤) . « أو قال » : وأما الذي يجثم لك جثوم
الأسد ، ويراوذك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ،
فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعته إربًا إربًا ، واحقن دماء قومك
ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، المقدالفرید ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ ، البخري ص ١٠٢)

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٠ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء
خفّض ، ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبَلًا من حبال الله ، مدّه ما شاء
أن يمدّه ، ثم قطعهُ حين أراد أن يقطعه ، وكان دون من قَبَله ، وخيرًا ممن يأتي
بعده ، ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه ، فإن يعفُ فبرحمته ، وإن يماقبهُ فبذنبه ،
وقد وَايَت بعده الأمر ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(٥) بطلب علم ،

[١] وقده : صرعه وغلبه ، وتركه عديلا كأوقده . [٢] قرابة .

[٣] الظار تفسيرها في صفحة ١٣١ . [٤] أي تضوا عسوا .

[٥] في العقد الفرید : ولا آسى على طلب علم ، ولا أشتغل^(٥) بطلب علم .

وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيرَه ، وإذا أحب شيئاً يسره .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦١ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحمدَه وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فصله وفضله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحلل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعداراً وإنذاراً ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين ^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، واقطاع مدتها ، وتصرّم دارها ، ثم إني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ^(٢) ، حُفّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفاني ، وتحببت بالعاجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غوالة غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . ان تعدوا الدنيا إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عزّ وجلّ : « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً » نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزيع يومئذ آمين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعدة كتاب الله ، يقول الله : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(١) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » . (النقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٢ - خطبة معاوية بن يزيد ^(٢) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فرغ إليه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتهم ، فما كنت لأتزوّدّها ميتاً ، وما استمتعت بها حياً .
ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات ^(٣) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والنخري ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ١٦ هـ)

١٦٣ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان)

[١] أي عنتكم (مشقتكم) . [٢] استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، ولم يلبث في الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقبل أربعين يوماً . [٣] قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١)
(يريد يزيد بن معاوية) فن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا . ثم نزل^(٢) .
(المقدم الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣)

١٦٤ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فما زلتم تزدادون في
الذنب ، وتزدادون في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » .

(المقدم الفريد ٢ : ٢٦٣)

١٦٥ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(٣)

« ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبر^(٤) منكم عظة ،
ولا تكونوا أغفلاً من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٥) السطوات ، وتجوس

[١] المأمون : الضعيف الرأي والعقل . [٢] قال أبو إسحق الظناني : « أما والله لولا ناسك من
هذا المستضعف وسبك من هذا المداهن لكانت منها أبعاد من العيوق (افتتح العين وتشدد الاء نحم أحم
مضى ، يتلو الزما) والله مأخذتها بوراثة ، ولا ساقفة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوسية » .
[٣] وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحجار السجك بن قيس الفهري عن مروان بن
الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، اتقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد
ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : دلك فيما
أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن
تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، مرض الأشدق بذلك ودعا الناس
إلى بيعة مروان فأجابوا ، وباع مروان بعده لخالد بن يزيد ، واعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه
ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو :
إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك حامدت معه ، وقد كان
من بلائي معه ما لم يحف عليك ، فأجعل لي هذا الأمر من بعدك ، ولم يحبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان
من دمشق على ثلاث مراحل أعلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى
صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتلته سنة ٦٩ .
[٤] بقي ، وأغفال جمع غفل كقفل . [٥] الجوح والاجتياح : الأهلاك والاستئصال .

خلالكم بوادرُ التَّقَمَاتِ ، وتطأ رقابكم بِثِقَلِهَا العَتُوبَةُ ، فتجعلكم هَمْدًا ^(١) رُفَاتًا ،
وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ، فإيأي من قول قائل ، وَرَشَقَةٌ جاهل ،
فإعما بيني وبينكم أن أسمع النِّغْوَةَ ^(٢) ، فأصمّم تصميم الحُسَامِ المطرور ^(٣) ،
وأصول صِيَالِ الحَنْقِ الموتور ^(٤) ، وإنما هي المصاحفة والمكافخة ، بظُّبَاتِ
السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصَّبَاحِ ، فتاب تائب ، وهَدِلِ
خائب ^(٥) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبدول ، لمن عرف رُشْدَهُ ، وأبصر حظه ،
فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يدًا على أهل
الجهل من سفهائكم ، واستدعيوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس
زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخَفْضِ والدَّعَةِ ، وآجل الجزاء
والمثُوبَةِ ، عصمكم الله من الشيطان وقتته ونزغهُ ^(٦) ، وأمدكم بحسن معونته
وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبضِ أُعْطِيَاتِكُمْ ، غيرَ مقطوعةٍ عنكم ، ولا
مكْدَرَةٍ عليكم . (صح الأعمى ١ : ٢١٨)

١٦٦ - خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير ^(٧)

لما قتل عبد الملك مُصْعَبُ بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

[١] الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الحطام . [٢] النغوة والنغية : أول الخبر قبل أن
تسندته . [٣] المشحوذ ، من الطرّ وهو تحديد السكين وغيرها . [٤] صاحب الوتر وهو الثأر .
[٥] هدله يهدله كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أي ضف الحائب وخاره ، وامله حائب
من الحوب بفتح الحاء وضمها وهو الائم . حاب بكذا أئم حوباً أي ضعف الأئيم المذنب .
[٦] نزع بينهم : أسد وأعرى .

[٧] نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصفين (صح الأعمى ١ : ٢١٥)
وعزاها القالي في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجمه لما يدل عليه سياق الخطبة .

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السّلم آمنٌ ومسرّة ، وقد زبنتنا^(١) الحرب وزبناها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المرذية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأوّابين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تردادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن نرداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعد مثلها فليعد ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري :

من يَصِلَ نارِي بلا ذنب ولا تِرّة	يَصِلَ بنار كريمٍ غير غدار ^(٢)
أنا النذير لكم مني مجاهرةً	كي لا ألام على نهى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيًا ظاهر العار
لترجعن أحاديثًا مُلعنةً	لهو المقيم وهو المذلج الساري ^(٣)
من كان في نفسه حوجاء يطلبها	عندى فإنى له رهفٌ بإصهار ^(٤)
أقيم عوجته إن كان ذا عوج	كما يقوم قِدَح النبعة الباري ^(٥)
وصاحب الوتر ليس الدهر مدرّكه	عندى ، وإنى لدراك بأوتار

(الأمالى ١ : ١٢)

[١] أى دفعتنا ودفعتها ، والزبن : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبنة أو زبى بكسر الزاى وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون بفتح الزاى .
 [٢] الترة والوتر : الثأر . [٣] أدلج : سار من أول الليل فان سار من آخره فقد ادلج بالقتل والتشديد والسارى : الذى يسير بالليل . [٤] الحوجاء : الحاجة . وقوله بإصهار : أى لا أستتر عنه ، ولا أمتنع فى الأماكن الحصينة من أسحر القوم : برزوا إلى الصحراء . [٥] العوج بالفتح فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والمصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والقِدَح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه فداح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسي والسهم .

١٦٧ - خطبته عام حججه

وحجج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بَدْرَة ^(١) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفء ، فقتل عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مثَلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فزلا في ظل شجرة تحت صفاة ^(٢) ، فلما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لمن كَنز، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج إليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفِر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال : ماتدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأسأ معة ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة ، جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلتها ، ورجعت إلى جحرها ، فقام أخوه ، فدفننه وأقام حتى إذا كان من الغد ، خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء ، فقتال لها : ياهذه ، إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضرينى ولا أضرك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً ، وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً ، وأنا أذكر هذه الشجّة ^(٣) ، وأنشدهم شعر النابنة :

فقلت أرى قبراً تراه مُقابلي وضربةً فأس فوق رأسى فاغره

[١] البدره : كيس فيه ألف أو عدره آلاف درم أو سبعة آلاف دينار .

[٢] الصفاة : الحجر الصلب الضخم . [٣] راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في اللؤلؤ :

« كيف أعادرك وهذا أثر فاسك » .

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسيغتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَّوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم « مساماً » ^(١) يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .
(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٦٨ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج ينبئُهُ بخروج ابن الأشعث ، خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قدّرى ، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك ، لم يجاوزوا إلى سخطك » .
ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لمعباده ، فكن كاللضارب الكيس الذى إن وجد ربّماً اتجر ، وإلا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب النسيئة حتى تُحزّز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك ، أشدّ حذراً من احتيال عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

[١] هو مسلم بن عقبة المرّى صاحب وقعة الحرّة ، وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد بن معاوية وخلصوه وحصروا من كان بها من بنى أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرهما من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودحاها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : قتل ، ونهب ، وسبي . قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعالمها افتصت فى وقعة الحرّة . « وكانت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

١٧٠ - وصيته للشعبي

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تأقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشعبى ، فلما حُمل إليه ونادمه ، قال له :

« يا شعبي ، لا تساعِدني على ما قُبِح ، ولا ترُدَّ على الخِطأ فى مجلسى ، ولا تكلفنى جوابَ التشميت ^(١) والتهنئة ، ولا جوابَ السؤالِ والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى) . وكلنى بقدر ما أستطعمك ، واجعل بدل المدح لى ، صوابَ الاستماعِ منى ، واعلم أنَّ صوابَ الاستماعِ أكثر من صواب القول ، وإذا سمعتنى أتحدث ، فلا يفوتك منه شيء ، وأرِنى فهمك من طرفك وسمعتك ، ولا تُجهد نفسك فى نظر ^(٢) صوابى ، ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ، فإن أسوأ الناس حالا من استكدَّ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حقَّ الحرمة ، فإن الصمت فى موضعه ، ربما كان أبلغ من النطق فى موضعه ، وعند أصابته وفرصته » . (مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧١ - وصيته لآخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابسط بِشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق فى الأمور ، فإنه أبلغ بك ،

[١] التشميت : الداء للمطس . [٢] فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراء محرفا ، والنظر : الانتظار .

وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَقِفَنَّ أحد
بيابك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له أو تُرُدّه ، وإذا خرجت إلى
مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتنبئت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك
مُشْكِل ، فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق ^(١) الأمور ، وإذا
سَخِطت على أحد فأخّر عقوبته ، فإنك على العتوبة بعد التوقف عنه ، أقدرُ منك
على رُدّها بعد إمضائها . (البخارى ١١٣)

١٧٢ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه ، فقال :
« يا هذا أحنين الحمامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واترر ، والبسْ جلدَ نمر ، وضع
سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات
بدائه ، ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلكِ لتقصير ، وإن كثيرك
لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم
بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجُنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ،
وهي أحسن كهف ، وليعطفِ الكبير منكم على الصغير ، ويعرف الصغير حق
الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذِ بجميل الأمور ، وإياكم والبغى والتحاسد ،
فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز الماكين . يا بني : أخوكم مسلمة نابكم الذى
تقرءون ^(٢) عنه ، ومجنّكم ^(٣) الذى تستجئون به ، اصدرؤوا عن رأيه ، وأكرموا

[١] جمع مفلق بكسر الميم وهو ما يفلق به الباب . [٢] فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر

ما سنها . [٣] المجن : الترس .

الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفى الحروب
أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام . (مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٣ - خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفى سنة ٩٦ هـ)
لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى

فى الناس : الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان
من قضاء الله ، وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وخملة عرشه من الموت
موتٌ ولىّ هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، للذى كان عليه
من الشدة على الأريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار
الإسلام وأعلامه ، وحجّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الغارات على
أعداء الله ، فلم يكن فيها عاجزاً ، ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعايكم أيها الناس
بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا
أنه من أبدى لنا ذات نفسه ، ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه .»

ثم نزل . (العقد الفردي ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

١٧٤ - خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفى سنة ٩٩ هـ)

الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، تُضحك باكيًا ، وتُبكي
صاحكًا ، وتُخيف آمنًا ، وتؤمن خائفًا ، وتُفقر مثرًا ، وتُثري مُقتِرًا ^(١) ، مَيّالة
غرّارة ، لعابة بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إمامًا ، وارتضوا به حكمًا ،
واجعلوه لكم قائدًا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده ، واعلموا

[١] من أقت ، أى اشقر .

عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفّس ، ظلام الليل إذا عَسَسَ (١) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٥ - أولى خطبه

قال المُتَّبِيّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصلحوا سرائركم ، تصلح لكم علائبتكم ، وأصلحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِقٍ فى الموت » .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٦ - خطبة أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول
خطبة خطب الناس بها أن قال :
« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد
أصله ؟ وإنما الناس فى هذه الدنيا أغراض (٢) تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب
المصائب ، مع كل جرعة شَرَق (٣) ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة
إلا بفراق أخرى ، ولا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا بهَدْمٍ آخر من أجله » .
وأورد القالى فى الأمالى هذه الخطبة بصورة أطول ، وهى :
« ما الجزع مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرْجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟

[١] تنفّس المبيح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) . [٢] جمع غرض وهو الهدف واحتضت : تاضلت وتبارت فى الرمى . [٣] شرق بريقه : غص .

وإنما الشيء من أصله ، فقد مَضَّتْ قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب للمصائب ، مع كل جرعة شَرَق ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمّر مُعَمَّر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأتم أعوان الحتوف على أنفسكم ، فأين المهزّب مما هو كائن ؟ وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالى ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن العزيز لابن الجوزى ص ٢١٣)

١٧٧ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأرض رَجَّةً ، فتال : ما هذه ؟ فتَمِيلُ : هذه مَرَاكِبُ الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِبَتْ إليك لتركبها ، فتال : مَالِي وَلَهَا ؟ نَحْوَهَا عَنِي ، قَرُبُوا إِلَيَّ بَعْلَتِي ، فقربت إليه فركبها ، وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تَنَحَّ عَنِي ، مَالِي وَلَكَ ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابتليتُ بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم . »

فصاح الناس صيحةً واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فَلَ أَمْرُنَا بِالْيَمْنِ وَالْبِرْكَه ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ،

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلفت من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائرهم ، يصلاح الله الكريم علائبتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آباءه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباحياً لمعرق في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلا ، ولا أمتع أحداً حقاً ، إني لست بخازن ، ولكني أضع حيث أمرت . أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاة تجترئون^(١) مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٧٨ - خطبة أخرى

وروي أنه لما ولي الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله

وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة

من لا يستطيع رفعها ، ويؤمننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي

إليه ، ولا يفتان عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

فانتشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٧٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكني منفذ لله ، ولست بمتبّع ، ولكني متبّع ، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً . يا أيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٨ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٠ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلمعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيب أرض يأتيه ، فأجملوا في

الطلب » . (إجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨١ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كَتَبَ اللهُ عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظَّمَنَ ، فكم عابِرٍ مُؤَثَّقٍ عما قليلٍ يَخْرَبُ ، وكم مُقِيمٍ مُغْتَبِطٍ عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرِّحْلَةَ ، بأحسنِ ما يحضركم من النُّقْلَةِ : وَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . إنما الدنيا كَفَيْهِ ^(١) ظِلَالٌ قَلَصَ فَذَهَبَ ، بينا ابنُ آدمَ في الدنيا منافِسٌ ، وبها قَرِيرُ عَيْنٍ ، إذ دعاه اللهُ بِقَدَرِهِ ، وورماه يومَ حَتْفِهِ ، فسلبه آثاره ودياره وديناه ، وصيرَ لقومٍ آخِرِينَ مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ ^(٢) ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضرُّ ، إنها تسر قليلا ، وتجرُّ حزنا طويلا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٧ و ص ٢٢١)

١٨٢ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ ، ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَعْبُرُ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَعَمْرِي - وَإِنْ لِعَمْرِي مَنِي لِحَقًّا ^(٣) - لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتُلِيَ بِسَعَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْعَلُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بَدَأَتْ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلِي بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

[١] الوء : ما كان شمسا فيفسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : اقتبس . [٢] المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمغنى : المنزل . [٣] العبر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح في القسم خاصة تخفيفاً ، لكثرة استعماله فيه .

ثم كَانَ آخر كلمة تكلم بها حين نزل : « لولا سُنَّةٌ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدَعَةٌ أَمَتْهَا ،
لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا فُؤَادًا ^(١) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فلا يَطْوَلَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ ، ولا يَبْعُدَنَّ عَنْكُمْ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّ مِنْ زَافَتٍ ^(٢) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتَهُ ، لَا يَسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئٍ ،
وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنٍ ، أَلَا لِسَلَامَةٍ لِمَرِيٍّ فِي خِلَافِ السُّنَّةِ ، وَلَا طَاعَةِ لِمَخْلُوقٍ
فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، أَلَا وَإِنَّكُمْ تَعُدُّونَ الْمَهَارِبَ مِنْ ظُلْمِ إِمَامِهِ عَاصِيًا ، أَلَا وَإِنْ أَوْلَاهُمَا
بِالْمَعْصِيَةِ الْإِمَامَ الظَّالِمَ ، أَلَا وَإِنِّي أَعَالِجُ أَمْرًا لَا يُعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ، قَدْ فَنِي عَلَيْهِ
الْكَبِيرُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ ، وَفُصِّحَ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ ، حَتَّى
حَسِبُوهُ دِينًا ، لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ غَيْرَهُ » . ثم قال : « إِنَّهُ لِحَبِيبٌ إِلَى أَنْ أَوْفَرَ أَمْوَالِكُمْ
وَأَعْرَاضَكُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، و لابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٤ - خطبة أخرى ✓

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إِنَّمَا يُرَادُ الطَّيِّبُ لِلْوَجَعِ الشَّدِيدِ ، أَلَا فَلَا وَجَعَ أَشَدُّ مِنْ
الْجَهْلِ ، وَلَا دَاءٌ أَخْبَثُ مِنَ الذَّنُوبِ ، وَلَا خَوْفٌ أَخْوَفُ مِنَ الْمَوْتِ » . ثم نزل .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

[١] الفواق كغراب ويفتح : ما بين الحليتين من اوقت أو ما بين فنتح يدك وقبضها على الضرع .

[٢] من زافت الامة : إذا نمرت جناحيها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته »

١٨٥ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ^(١) ، والله ما كان لهم أن يُعْطُونَاهَا ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسبٌ ، إلا وإني قد رَدَدْتُهَا ، وبدأت بنفسي وأهل بيتي » اقرأ يا مُزَاحِم - وكان مولاه -

وقد جيء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلم ^(٢) ، فجعل يقصّه ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودي بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٠٨)

١٨٦ - خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من ألمّ بذنب فليستغفر الله عزّ وجلّ وليتُب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨٧ - خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرون ، فوجدت المصدّق به أحق ^(٣) ، والمكذّب به هالكاً . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

[١] يريد آباءه وما ورثوه إياه . [٢] مقص . [٣] أي أحق بثواب الله ونعيم جنته .

١٨٨ - خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيصَ ما سَلَفَ منها بالتوبة منها ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا عَزَّوَجَلَّ : «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .
(المقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٨٩ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سَفَرٍ زاداً لا محالة ، فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد ، فتقشروا قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بُسِطَ أمل من لا يدرى لعله لا يُصبح بعد إمسائه ، ولا يُمسي بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفَاتِ المنايا ، فكم رأينا ورأيتم مَنْ كَانَ بالدنيا مغترباً ، فأصبح في حبالِ خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تقرَّ عين^(١) من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ آمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ من كَلِمٍ إلا أصابه جارح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مسكنتى ، في يوم يبدو فيه الغني والفقير ، والموازين منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عنيتم بأمر لو عنيت

[١] قرت عينه : بردت واقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه .

به النجوم لا تكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لا تقطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداهما ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٩٠ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح ديناه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأجبلوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعة وبلغة ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعالينتم تعجيل إخراجهم ، وقسمة ثرائهم ، ووجهه مفقود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور ، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه مثقال ذرة في الموازين » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩١ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ومن لم يعدد

[١] وفي رواية : « فلن يغدر » ، أغدره وصادره : تركه . [٢] الفروع : الرضا بالقسم (وهو أيضا السؤال والتذلل) . [٣] ساق المريض : شرع في نزع الروح . [٤] أي الملاحظة على وده .

كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه مما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُؤَوِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٣)

١٩٢ - خطبة له

وحدث شبيب بن شيببة ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى يوم عيد ، وعليه قيص كتان ، وعمامة على قلنسوة لاطئة^(١) ، فثلنا بين يديه ، وسامنا عليه . فقال : مَهْ أَنْتُمْ جَمَاعَةٌ وَأَنَا وَاحِدٌ ، السَّلَامُ عَلَيَّ ، وَالرَّدُّ عَلَيْكُمْ ، وَسَلِّمْ فَرَدَدْنَا ، وَقُرَّبْتُ لَهُ دَابَّتَهُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَمَشَى وَمَشِينَا ، حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : « وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَى فَقَرَاءَتِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِي نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونُ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثُمَّ قَالَ : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَكَلَّمُ فَأَرْقُ : حَتَّى بَكَى النَّاسُ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثُمَّ قَطَعَ كَلَامَهُ وَنَزَلَ ، فَدَنَا مِنْهُ رَجَاءُ ابْنِ حَيَّوَةَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَلَّمْتَ النَّاسَ بِمَا أَرْقَى قُلُوبَهُمْ وَأَبْكَاهُمْ ، ثُمَّ قَطَعْتَهُ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَارَجَاءُ إِنِّي أَكْرَهُ الْمِبَاهَاةَ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٣ - آخر خطبة له

وخطب بمُخَاصِرَةٍ^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ! رحمه الله تعالى

[١] لاطئة : لازقة . [٢] مُخَاصِرَةٌ : بلد بالشَّام من عمل حلب .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم لم تُخلَقوا عَبَثًا ، ولم تُتْرَكوا مُدَى ، وإن لكم مَعَادًا
يُحْكَمُ اللهُ فِيهِ بَيْنَكُمْ ، نَخَابٌ وَخَسِيرٌ مِنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ،
وَحُرْمَ الْجَنَّةِ الَّتِي عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ نَدَاءٌ لِمَنْ خَافَ
رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بكَثِيرٍ ، وَفَانِيًا بِيَاقٍ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ فِي أَسْلَابٍ ^(١) الْمَهَالِكِينَ ،
وَسَيُخَلِّفُهَا مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقُونَ ، كَذَلِكَ حَتَّى تُرَدُّوا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ
تَشِيعُونَ غَادِيًا وَرَأْمًا إِلَى اللهِ ، قَدْ قَضَى نَجْبُهُ ^(٢) ، وَبَلَغَ أَجْلُهُ ، ثُمَّ تَغَيَّبُونَهُ فِي صَدْعٍ ^(٣)
مِنَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ غَيْرَ مُؤَسَّدٍ وَلَا مُمَهَّدٍ ، قَدْ خَلَعَ الْأَسْبَابَ ، وَفَارَقَ
الْأَحْبَابَ ، وَوَجَّهَ الْحِسَابَ ، مَرْتَهِنًا بِعَمَلِهِ ، غَنِيًا عَمَّا تَرَكَ ، فَقِيرًا إِلَى مَا قَدَّمَ ،
وَإِيْمُ اللهُ إِنِّي لَأَقُولُ لَكُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَمَا أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا
عِنْدِي ، فَاسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ ، وَمَا تَبَلَّغْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ حَاجَةً ، يَتَسَعُّ لَهَا مَا عِنْدَنَا
إِلَّا سَدَدْنَا ، وَلَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وُجِدَتْ أَنْ يَدَهُ مَعَ يَدِي ، وَلُحْمَتِي ^(٤) الَّذِينَ يُلُونَنِي ،
حَتَّى يَسْتَوِيَ عَيْشُنَا وَعَيْشُكُمْ ، وَإِيْمُ اللهُ أَنِّي لَوَأْرَدْتُ غَيْرَ هَذَا مِنْ عَيْشٍ أَوْ غَضَارَةٍ ، ^(٥)
لَكَانَ اللِّسَانُ مَنِي نَاطِقًا ذَلُولًا ، عَالِمًا بِأَسْبَابِهِ ، لَكِنَّهُ مَضَى مِنْ اللهِ كِتَابَ نَاطِقٍ ،
وَسُنَّةَ عَادِلَةٍ ، دَلَّ فِيهَا عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنَهَى فِيهَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ » ، ثُمَّ بَكَى ، فَتَلَقَى
دُمُوعَ عَيْنَيْهِ بِطَرْفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَلَمْ يُرَّ عَلَى تِلْكَ الْأَعْوَادِ حَتَّى قَبِضَهُ اللهُ .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولان عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

[١] جمع سلب بالتحريك وهو ما يسلب . [٢] الحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .

[٣] شق . [٤] اللحمة : القرابة . [٥] الغضارة : النعمة ، والسمة ، والحصب .

١٩٤ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : الحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا
وإني قد استعملت عليكم رجالا ، لا أقولُ مُخَيَّارُكُمْ ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ
منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلَمَةٍ فَلَا إِذْنَ لَهُ عَلَيَّ ^(١) ، ألا وإني مَنَعْتُ نَفْسِي
وأهل بيتي هذا المالَ ، فَإِنْ صَنَعْتُمْ بِهِ عَلَيَّكُمْ إِنْ أِذْنَ لَضَنِينَ ، والله لولا أن
أَنْعَشَ ^(٢) سُنَّةً ، أو أسير بحق ، ما أحيت أن أعيش فُوقًا » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٥ - كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مَسْئِمَةُ بن عبد الملك في المَرَضَةِ التي مات فيها ، فقال له : يا أمير
المؤمنين : « إِنَّكَ فَطَمْتَ أَفْوَاهَ وَلَدِكَ عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ^(٣) ، وَلَا
بَدَّ مِنْ شَيْءٍ يَصْلِحُهُمْ ، فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى نَظَرَاتِكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ،
لَكَفَيْتُكَ مَثْوَوْتَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَبَالِغُ تَخَوُّفِي يَا مَسَامَةَ ! أَمَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنِّي فَطَمْتُ أَفْوَاهَ
وَلَدِي عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ، فَإِنِّي لَمْ أَمْنَعُهُمْ حَقًّا هَوْلَهُمْ ، وَلَمْ أُعْطِهِمْ
حَقًّا هَوْلَ لَغْوِهِمْ ؛ وَأَمَا مَا سَأَلْتَ مِنَ الْوَصَاةِ إِلَيْكَ ، أَوْ إِلَى نَظَرَاتِكَ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِي ، فَإِنْ وَصَيْتِي بِهِمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّمَا
بَنُو عَمْرٍ أَجْدُ رَجُلِينَ : رَجُلٌ اتَّقَى اللَّهَ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ

[١] أي يدخل على بلا إذن ، لا يجوز بيني وبينه حاجب . [٢] نعشه كنعش وأنعشه : رضه .

[٣] قراء جمع عائل من حال يعيل عيلة (بفتح العين) أي افتقر .

حيث لا يَحْتَسِبُ ، ورجل غَيْرٌ وَفَجَّرَ ، فلا يكون عمرٌ أولَ من أعانه على ارتكابه ، ادعُوا لى بِنِيَّ ، فدَعَوْهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعدُ بصره فيهم ويصوبُ به ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسي فتيّة تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بِنِيَّ : إني قد تركتكم من الله بخيرٍ ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حقٌّ واجبٌ إن شاء الله ، يا بِنِيَّ مَيَّلْتُ ^(١) رأبي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بِنِيَّ عَصَمَكُم اللهُ ورزقكم . » قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ، ولا افتقر .

(العقد المفرد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

١٩٦ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذبُ الخارجيَّ - واسمه بسطام ، من بني يشكر - فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أُولَى بذلك مني ، فهلمَّ إلىَّ أناظرك ، فإن كان الحقُّ بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حَبَشِيًّا اسمه عاصم ، ورجلا من بني يشكر ، فقدمَا على عمر بِمُخَاصِرَةٍ ، فأخبر بِمَكَانِهِمَا ، فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ، فلما دخلا قالوا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبراني ، ما الذي أخرجكم مُخْرَجَكُم هذا ؟ وما نَقَمْتُم علينا ؟ فقال عاصم : ما تقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والإحسان ،

[١] التميل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما أيها آتى .

فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومَشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ماسألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وَعَهْدٌ إِلَى رَجُلٍ كَانَ قَبْلِي ، فَقَمْتُ وَلَمْ يَنْكَرْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ ، وَلَمْ يَكْرَهُهُ غَيْرِكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ الرِّضَا بِكُلِّ مَنْ عَدَلَ وَأَنْصَفَ ، مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ ، فَاتْرَكُونِي ذَلِكَ الرَّجُلَ ، فَإِنْ خَالَفتَ الْحَقَّ وَرَغِبْتَ عَنْهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ ، فَقَالَا : بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَمْرٌ ، إِنْ أَنْتَ أَعْطَيْتَنَا ، فَنَحْنُ مِنْكَ وَأَنْتَ مِنَّا ، وَإِنْ مَنَعْتَنَا ، فَلَسْتَ مِنَّا وَلَسْنَا مِنْكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَا : رَأَيْتَ خَالَفتَ أَعْمَالَ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَسَمَيْتَهَا مَظَالِمًا ، وَسَلَكْتَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ عَلَى هَدًى وَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ، فَالْعَنْتَهُمْ وَتَبَرَأْتَ مِنْهُمْ ، فَهَذَا الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَوْ يُفَرِّقُ ، فَتَكَلَّمْ عُمَرَ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَمْ تَخْرُجُوا تَخْرُجُكُمْ هَذَا لَطَبٌ دُنْيَا وَمَتَاعِهَا ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَرَدْتُمْ الْآخِرَةَ ، فَأَخْطَأْتُمْ سَبِيلَهَا ، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَانًا ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمُ اقْتَدَى » . وَقَدْ سَمِيتَ أَعْمَالَهُمْ ظَالِمًا ، وَكُنِيَ بِذَلِكَ ذِمًّا وَنَقْصًا ، وَلَيْسَ لِعَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ فَرِيضَةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا ، فَإِنْ قَلْتُمْ إِنَّهَا فَرِيضَةٌ ، فَأَخْبِرْنِي مَتَى لَعَنْتَ فِرْعَوْنَ ؟ قَالَ : مَا أَذْكَرَ مَتَى لَعَنْتَهُ ، قَالَ : أَفَيْسَعُكَ أَنْ لَا تَلْعَنَ فِرْعَوْنَ وَهُوَ أَخْبَثُ الْخَلْقِ وَشَرُّهُمْ ، وَلَا يَسْمَعُنِي أَنْ لَا أَلْعَنَ أَهْلَ بَيْتِي وَهُمْ مَصْلُونٌ صَائِعُونَ . قَالَ : أَمَا هُمْ كَفَّارٌ بِظُلْمِهِمْ ؟ قَالَ : لَا ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَكَانَ مَنْ أَقْرَبَ بِهِ وَبِشَرَائِعِهِ قَبْلَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحُدُ ، فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا نَزَلَ مِنْ

عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورُدَّ أحكامهم . قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تتوليان . وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردَّ تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قال : نعم . قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهروان ، أليسوا من صالحى أسلافكم ، ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفؤاً أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قديك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، واقتوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا حيًا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط^(١) ، وهي تفور ؟ قال : قد كان ذلك . قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قال : لا . قال : فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قال : لا . قال : أرايتم الدين واحدًا أم اثنين ؟ قال : بل واحدًا . قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف

[١] الأقط بفتح الهزرة وكسرهما : شئ ، يتخذ من الخبيض الغنمى .

وسِعِمَ أَنْ تَوَلَّيْتُمْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَتَوَلَّيْتُمْ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ ، وَتَوَلَّيْتُمْ أَهْلَ الْبَصْرَةِ
وَأَهْلَ الْكُوفَةِ ، وَتَوَلَّيْتُمْ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ ، فِي الدَّمَاءِ
وَالْفُرُوجِ وَالْأَمْوَالِ ، وَلَا يَسْعُنِي فِيمَا زَعَمْتُمْ إِلَّا لَعْنُ أَهْلِ بَيْتِي وَالتَّبَرُّؤُ مِنْهُمْ ؟
وَيُنَحِّكُم ! إِنَّكُمْ قَوْمٌ جُهَالٌ ، أَرَدْتُمْ أَمْرًا فَأَخْطَأْتُمُوهُ ، فَأَنْتُمْ تَرُدُّونَ عَلَى النَّاسِ مَا قَبِلَ
مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ مَنْ خَافَ عِنْدَهُ ، وَيَخَافُ
عِنْدَكُمْ مَنْ أَمِنَ عِنْدَهُ . قَالَا : مَا نَحْنُ كَذَلِكَ . قَالَ عُمَرُ : بَلْ سَوْفَ تُقَرِّونَ بِذَلِكَ
الْآنَ ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ عِبْدَةٌ
أَوْثَانٌ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى خَلْعِ الْأَوْثَانِ ، وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ،
فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَقَّنَ دَمَهُ ، وَأَحْرَزَ مَالَهُ ، وَوَجِبَتْ حُرْمَتُهُ ، وَكَانَتْ لَهُ أُسْوَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ ؟
قَالَا : نَعَمْ . قَالَ : أَفَلَسْتُمْ أَنْتُمْ تَلْقَوْنَ مَنْ يَخْلَعُ الْأَوْثَانَ ، وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَتَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ وَمَالَهُ ، وَتَلْقَوْنَ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ وَأَبَاهُ مِنَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارِيِّ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ ، فَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ وَتَحْرَمُونَ دَمَهُ ؟ فَقَالَ الْيَشْكُرِيُّ : أَرَأَيْتَ
رَجُلًا وَوَلِيَّ قَوْمًا وَأَمْوَالَهُمْ فَعَدَلَ فِيهَا ، ثُمَّ صَيَّرَهَا بَعْدَهُ إِلَى رَجُلٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ ، أَتَرَاهُ
أَدَّى الْحَقَّ الَّذِي يَلْزِمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟ أَوْ تَرَاهُ قَدْ سَلِمَ ؟ قَالَ عُمَرُ : لَا . قَالَ : أَفَتَسَلِّمُ هَذَا
الْأَمْرَ إِلَى يَزِيدٍ ^(١) مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَقُومُ فِيهِ بِالْحَقِّ ؟ قَالَ : إِنَّمَا وَلاهُ
غَيْرِي ، وَالْمُسْلِمُونَ أَوْلَى بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِيهِ بَعْدِي . قَالَ : أَقْتَرِي ذَلِكَ مِنْ صُنْعِ
مَنْ وَلاهُ حَقًّا ؟ فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ : أَنْظِرْ أُنِي ^(٢) ثَلَاثًا ، نَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ عَادَا
إِلَيْهِ ، فَقَالَ عَاصِمٌ : أَشْهَدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْيَشْكُرِيِّ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟

[١] هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولى الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

[٢] أمهاني .

قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفئات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما حاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكني أمر يزيد وخصيت فيه ، فاستغفر الله ، يخاف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سماً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والمعقد المرید ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبری ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولان الجوزي ٧٧)

١٩٧ - تأيينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجله ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال :

« رحمك الله يا مَبْنِيَّ ، فقد كنت بَرًّا بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لي بك مسروراً ، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ سروراً بك ، ولا أَرَجَى لَحْظِي من الله فيك ، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليهِ ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسنِ عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٦٤)

١٩٨ - خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا
رغبةً في الملك ، وما بي إطرأ نفسي ، وإني لظالم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن
خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدمت معالمُ
الهدى ، وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد^(٢) ، المستحل لكل
حرمة ، والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في
النسب ، وكفيتي^(٣) في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ،
وسألته ألا يكلمني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ،
حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .
أيها الناس : إن لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنةً على لبنة ، ولا
أكرى^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيه زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أثقله
من بلد إلى بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة^(٥) أهله ، فإن فضل فضل ،

[١] قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اليلتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة
منهمكا في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهاك حرمة الله ، فلما أمست إليه الخلافة ، لم يزد إلا اغتاسا في
اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكبر أهله ، والإساءة إليهم ، وتميرهم ، فاحتتموا
عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي
الخلافة بعده ، وتوفى هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ . [٢] يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه
استفتح فألقى المصحف نخرج « وَأُسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فصبه غرضا للشباب
وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

[٣] كفيته وكفؤه بضم الكاف وكفؤه بكسرهما : مثله . [٤] كرى النهر : استحدث حفره

[٥] الفقر والحاجة .

نقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أُجْرِمُ^(١) في بعوثكم ، فأفْتِنَكُمُ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ ،
ولا أُغْلِقُ بابي دونكم ، فإِذَا كَلَّ قَوْثُكُمْ ضَعِيفُكُمْ ، ولا أَحْمَلُ على أهل جزيتكم
ما أُجْلِيهِمْ به عن بلادهم ، وأَقْطَعُ به نسلهم ، ولكم على إِذْرَارِ العطاء في كل سنة ،
والرزق في كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكونَ أَفْضَلُكُمْ كَأَدْنَاهُمْ ، فإن
أنا وفيت لكم ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكاثفة^(٢) ، وإن لم أف
لكم ، فلكم أن تخلموني إلا أن تستتيبوني ، فإن أنا تبت قبلتم مني ، وإن عرفتم
أحدًا يقوم مقامي ، ممن يُعْرَفُ بالصلاح ، يُعْطِيكُمْ من نفسه مثل الذي أعطيتكم ،
فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من بايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأقول قولي هذا ،
وأستعصر الله العظيم لي ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،
المعري ص ١٢٠)

١٩٩ لا وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له :

« إن أباك كفى أخاه (يعني معاوية) عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً ، فلا

تسكن على عذر مني لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك مني قبل أن

أقول إياي منك ، فإن الظن إذا أخلف منك أخلف مني فيك ، وأنت في أدنى

حظك فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك ، فلا تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وكن لنفسك

تكن لك ، واذكر في يومك أحاديث غَدِكَ تَسَعِدُ إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

[١] جمر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم . [٢] المعاونة .

خطبة عتبة بن أبي سفيان ^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٠ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عُتْبَةُ بن أبي سفيان عن أهل مصر شيئاً فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً ^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعثمان ، أرجو أن يوليني نُسكته ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بحُطَّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة ^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نَجْمٌ ^(٤) قولٍ ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة الشنن ، فأطأكم لله وطأة ، لا رمق ^(٥) معها ، حتى تُنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشِنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذي يعلمُ خائنة الأعين ، ^(٦) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . (العقد الفريد ٢ : ١٥٨)

٢٠١ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

[١] ولاء أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقدمت عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام عتبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : «أه توفى سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣» ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ «واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الوافدي : أمم الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان» . [٢] أصله الزرع المحصود .

[٣] هكذا في الأصل وقد يكون «ومنة» . [٤] من نجم الشيء إذا ظهر وطلع .

[٥] الرمي : بقية الحياة . [٦] بمسارقتها النظر إلى المحرم .

« يا حاملي الأم أنوفٍ رُكبت بين أعين، إنما قلّمت أظفارى عنكم، ليلين مسّى إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم، إذ كان فسادكم راجعاً عليكم، فأما إذا أيدتم إلا الطعن على الأراء، والعتب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطعن بطون السّيّاط على ظهوركم، فإن حسّمت مُسْتَشْرِي^(١) دانكم، وإلا فالسيف من ورائكم، فكم من عظة لنا قد صمّت عنها آذانكم، وزجرّة منا قد محّبتها قلوبكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة، إذا جدتم علينا بالمعصية، ولا مؤثراً لكم من المراجعة إلى الحسنى، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٦ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمالى ١ : ٢٤٥)

٢٠٢ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أرّجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يا أهل مصر : قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظبّات السيوف ، حتى صرنا شجّى^(٢) في لهواتكم ، ما نسيغنا حلوقكم ، وأقذاء^(٣) في أعينكم ، ما تطرف عليها جفونكم ، أخين أشدت عرّى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عتد الباطل منكم حلاً ، أرّجفتم بالخليفة ، وأردتم توهين^(٤) السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدّم عهدكم به حديث ؟ فازبحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السارّ عنه ، والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على

[١] استشرى الداء : دظم وتناقم . [٢] هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، واللاهوات جمع لاهة وهي الاحمة المشرفة على الخلق ، وأساغ : ابتاعه . [٣] جمع قذى وهو ما يقع في العين والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بيمينه : حرك جفنيها . [٤] إضعاف .

أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر ، نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أسررتهم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله تتوكل وبه نستعين . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٣ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد وليتكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمّل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عتمدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز^(٢) ، ومن حذر كمن بشر » فنادوه سمعاً وطاعة ، فناداهم عدلاً عدلاً . (العقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٤ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويعيبون السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتون به ، كالجمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإيم الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني

[١] يقان : ترادى البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . [٢] الناجز والنجيز : الحاضر ، ومن أمثالهم : ناجزاً بناجز ، أى حاضراً بمحاضر ، كقولك يدا بيد ، وطاجلاً بماجل ، وقالوا أبيعك الساعة ناجزاً بناجز : أى معجلاً .

الدِّرَّةَ ، ولا أبطى عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوس سهماً بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب .
(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٢٩ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٥ — خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمنٍ حَتْفُهُ فى أمنيته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوا ، فإن لوّا قد أتعبت من كان قبلكم ، وإن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابى : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان منا فإولاكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم بالخشولة ، وقد كثر عياله ^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ، قد أمرنا لك بغناك ، فليت إسرأنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

(الأمالي ١ : ٢٤٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

[١] العيال جمع عيل كجيد : وهو من يلزم الاتفاق عليه .

٢٠٦ - خطبته في علقته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاته التي مات فيها تحامل إلى المنبر ، فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهزّب من ذنب ، إنه قد تقدّمت
منى إليكم عقوباتٌ كنت أرجو يومئذ الأجرَ فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزرَ
منها ، فليتني لا أكون اخترت دنيأى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا
أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ،
ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعفوه ،
والسلام عليكم سلام من لا ترّونه عائداً إليكم » ، فلم يعد .

(النقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم
معمودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ،
وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكْرِهِم عليه فيمَلَوْه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم
روّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى
يُحْكَموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم ، وتهدّذهم بى ، وأدّبهم
دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يمَجَل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة
النساء ، وروّهم سيرَ الحكماء ، واستزدنى بزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تتكل
على عذرمنى لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزدّ فى تأديبهم أزدك فى برى
إن شاء الله تعالى » . (البياد والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢٠٨ - وصية سعيد بن العاص^(١) لبنيه

لما وُلِد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلّه على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يا بنيّ ، قد عرفتم خبيرة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذوهمّة واعدّة^(٣) ، يسمو جدّه ، ويبعد صيته^(٤) ، وتشدّد شكيمته^(٥) ، وإني أمركم إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه ، أن تظاهروه وتوازرّوه وتعمّروه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللئام ، ويؤدبكم عزًا لا تنهجه^(٧) الأيام . فتالوا جميعاً : « إنك تؤثره علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ما ستره البغي عنكم » ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهبوا عما كان ، وراهق^(٨) عمرو والبلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم ترّوا إلى أخيكم عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلجِفُ^(٩) في مسألتى مالي ، فأحشُ عَيْله^(١٠) »

[١] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، وكان يوليه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ويولي مروان إذا عزله ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

[٢] شب وانتقل عن حد الصفر . [٣] من قولهم شجرة واعدة إذا ظهر لرائبها أن قدحان لإثمارها ، وأرض واعدة إذا رحى خيرها من البيت ، وظهر لرائبها أن قد قرب لإمكان المرعي بها ، وفرس واعد : يمدك جرياً بعد جرى ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، وبوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أردله .

[٤] الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . [٥] الشكيمة : الأيفة وفي اللجام : الحديد الممرضة في فم الفرس ، وهو مثل بصرت للفرامة في الأمور والمضاء فيها .

[٦] أي يبعد ويترد . من خسأ الكلب كنع طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد .

[٧] أي لا تبليه . أنهج اثوب ونهجه (كنعته) : أخاقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهـ ، وأنهج : بلى . [٨] راهق الفلام : قارب الحلم (بضمّتين) . [٩] يلج : [١٠] الميل والميلة : الانتقار والفاتة ، وأحش أي أقطع وأمحو من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفي الأصل فأحسن بالنون أي أجعل فقره حسناً وأزيل قبحه بعطائي إياه والأول أحسن) .

لصغره ، وَأَحْسَبُهُ ^(١) بالشئء دون الشئء من مالى ، إلى أن اسْتَمْتَبْتُ أَنَّ أُمَّه
بِأَعْيَتِهِ ^(٢) على ذلك ، فزجرتها فلم تكفف ، وهذا تَحْرَجُهُ الآن من عندى ، جاء
يسألنى الصَّمَصَامَةَ ^(٣) ، كَأَنَّ لَا وَلَدَ لى غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَزَمْتُ على أن أقسم مالى
فيكم دونه، لتعلم أُمَّهُ من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا،
وَإِخْتِصَاصِكَ إِيَّاهِ دُونَنا ، فقال : « يا بنى ، وَالله ما آثرته دونكم بشئء من مالى
قَطُّ ، وَلَا كَانَ ما قَلْتَهُ لَكُمْ إِلَّا اِخْتِلاَقًا تَسَاهَلْتُ فِيهِ ، لما أَمَّانْتَهُ من صلاح
أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المِخْدَع ^(٤) ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو
فأحضره ، فلما حضر قال :

« يَا بُنَى : إني عليك حَدِبٌ ^(٥) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٦) إخوتك
على مكانك منى ، وإني لا آمَنُ بَعْتَةَ الأجل ، ولى كَنزاً ادَّخَرْتَهُ لك دون إخوتك ،
وهأنا مُطْلَعٌ عليه ، فاكتم أمره . »

فقال : « يا أبت ، طال تُحْمَرُك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهُ

[١] حسبه (بالشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى .

[٢] ساء الشئء : أذانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أُمَّه بادنته على ذلك ») .

[٣] الصمصامة : سيف عمرو بن معديكرب الريدى وكان قد صار إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد
ابن الوليد لما عزا بهى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة
أمرائه ، أوقع بهم وأمر ربحانة أخت عمرو بن معديكرب ، فقداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل
ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بنحو مئتين ألف درهم ، ووهبه
المهدي لابنه الهادي فدعا به بعد ماولى الحلاوة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا
فى السيف شعرا ، فبذهم ابن ياهن البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ،
وقال : دخلتم معى ، وحرهتم من أحلى ، وفى السيف عوض ، ثم بعث لى الهادى ، فاشترى منه السيف
بنحو مئتين ألفاً ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى خلافة باغزا الركي ، وقتله به ، ومن عند باغزا اتقطع خبره .

« اقرأ خبر الصمصامة فى سرح الميرون ص ٣١٢ ، والأغانى ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣
ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ . [٤] المخدع بضم الميم وكسرهما : الحراثة - بيت صغير يحرز فيه الشئء -

[٥] متعطف شقيق . [٦] نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشئء نفاسة : لم يره
أهله .

عنك الدفاع ، ويُطيل بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعجبني أن أقطع دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا^(١) .

فقال : « انصرف يا بني ، فإدك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكنني أردت أن أبلو رأيك في إخوتك وبنى أهلك » ، فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَقَهُم على اتباع مشورته . (أبناء نجباء الأبناء ص ١٠٠)

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(٢)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢٠٩ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعده عليه وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ وَعَلِيهِ جُبَّةٌ خَزْرَ قَرْمِزٍ^(٣) ، وَمُطْرَفٌ^(٤) خَزْرَ قَرْمِزٍ ، وعمامة خزقرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليَّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرَّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فحفونا عنكم ؟ أما إنه لو أُبْثِمْتُمْ^(٥) بالأولى

[١] العر محركة والغر بكسر الفين : الحند والضم .

[٢] لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداته (جمع شدق بالكسر ويهتج وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (بفتح السين وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدقين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
أشادق حتى مال بالقول شدقه وكلَّ خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أفقم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى » . وقد ولى لماوية مكة ولايته يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله .

[٣] القرمز : صبغ أحمر . [٤] المطرف : رداء من خزّ مربع ذو أعلام .

[٥] الثواب : الجزاء .

ما كانت الثانية ، أغرَّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأثرنا^(١) منا رفيقاً ، قد فني غضبه وبقى حمله ، اغتتموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبل ، البعيد الأمل ، الطويل الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(٢) ، لين شديد ، رقيق كشيء ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ، واستقبله بأشره ، فهو إن عَضَّ نَهَس^(٣) ، وإن سطا فَرَس^(٤) ، لا يُقَلِّقُ له الحصى ، ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٥) ، ولا يمشى السَّمْهَى^(٦) « فما بقي بعد ذلك إلا ثلاث سنين وثمانية أشهر ، حتى قَصَمَهُ اللهُ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٠ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد واليا على مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحرث بن نوفل ، فلما لقيه قال له : يا حَارِ ، ما الذي منع قومك أن يلقوني كما لقيتني ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتني به ، والله ما كنتني ، ولا أتممت اسمي ، وإنما أنك عن التشذُر^(٧) على أكفائك ، فإن ذلك لا يرفمك عليهم ، ولا يضعهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعدة ، ولا أتهمك على النصيحة ، وإن الذي رأيت مني لَخَاق^(٨) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] الثأر : الآخذ بالتأر ، ووافقتم أي وجدتم .

[٢] رجل حديد يكون في اللسان والفهم والغضب ، وحداً عليه : غضب .

[٣] نهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه وتنه . [٤] فرس فريسته : دق عقها .

[٥] يشير إلى المثل المشهور « إن العصا قرعت لذي الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٧٤ .

[٦] السمهى والسمهى : الباطل والكذب ، يقل : ذهب في السمهى أي في الباطل ، وجري فلان

السمهى أي جرى إلى غير أمر يعرفه . [٧] تشذر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر

والمراد هنا التكبر . [٨] الخلق البالي ، والمراد أنه لا يعود إليه .

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكننا غيبة ، وخرجنا عنها رغبة ،
ولذلك كنا إذا رفعت لنا اللهوة ^(١) بعد اللهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ،
ثم شرح ^(٢) أمر بين أمرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى
شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحمًا ، وقرع العظم عظمًا ، فوالى رسول الله صلى
الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولى أبو بكر إيسابته وفضله ، ثم
ولى عمر ، ثم أجيبات قداح نزعنا من شعاب ^(٣) جولة سعة ، ففاز بحظيها ^(٤)
أصلبها وأعتقها ، فكنا بعض قداحها ، ثم شرح أمر بين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله
ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحمًا ، وقرع العظم
عظمًا ، وعاد الحرام حلالًا ، وأسكت كل ذى حس عن ضرب مهند ، عز كًا
عز كًا ، وعسفًا عسفًا ، وخزًا ونهسًا ، حتى طابوا عن حقنا نفسًا ، والله ما أعطوه
عن هواده ، ولا رضوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حقتنا غلبنا عليه ، فجزينا
هذا بهذا ، وهذا فى هذا . يأهل مكة : أنفسكم أنفسكم ، وسفهاكم سفهاكم ،
فإن معنى سوطًا ^(٥) نكالًا ، وسيفًا وبالًا ، وكل منصوب على أهله ، ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١١ - ملاحاة الوليد بن عقبة معه فى مجلس معاوية

تلاحي ^(٦) الوليد بن عقبة ، وعمرو بن سعيد بن العاص فى مجلس معاوية ،
فتكلم الوليد فقال له عمرو : كذبت أو كذبت ^(٧) ، فقال له الوليد : اسكت
يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، ويا ألام أهل بيته ، فلعمري لقد بلغ بك البخل

[١] اللهوة بالصم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجرها . [٢] من الشرح بالتحريك : وهو
انشقاق الفوس ، قوس شريح : فيها شق ، والمراد حدث ومجم . [٣] الشامب جمع شعبة بالضم : وهى
ما بين النصنين وطرف العصن ، يشير إلى أصحاب الشورى الستة . [٤] الخطى : ذو الخطوة أى
المكانة . [٥] أى سوما ذا نكال . وسيفًا ذا وبال . [٦] تنازع .
[٧] كذب الرجل أخبر بالكذب .

الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فسادت خلائقك لبخلك ، فننعت الحقوق ، ولزمت العقوق ، فأنت غير مشيدِ البنيان ، ولا زفيح المكان ، فقال له عمرو : والله إن قريشاً لتعلم أني غير حلو المذاقة ، ولا لذيذ الملاكَةِ (١) ، وإني لك الشجاء (٢) في الحلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية النهار ، لا أتبع الأفياء ، ولا أتمى إلى غير أبي ، ولا يُجهل حسبي ، حامٍ لحقائق الدمار (٣) ، غير هَيُوب عند الوعيد ، ولا خائف رِعْدِيد (٤) ، فإلمَّ تَعَيَّرَ بالبخل وقد جُبلت عليه ، فلعمري لقد أورثتك الضرورة لوَمَا ، والبخل فُحْشاً ، فقطعت رحمتك ، وجُرَّت في قضيتك ، وأضعت حق من وليت أمره ، فلست تُرجى للعظام ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا تستعف عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحكَم منك التديير ، فأفجِم الوليد ، فقال معاوية : — وساءه ذلك — كُفَّالاً أبا لك ، لا يرتفع بك القول إلى ما لا تريد ، ثم أنشأ عمرو يقول :

وليدُ إذا ما كنتُ في القوم جالساً فكن ساكناً منك الوقارُ على بال
ولا يبدرن الدهر من فيك منطِق بلا نظر قد كان منك وإغفال (٥)

(الأملال ٢ : ٤٠) :

٢١٢ — خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشق ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر ، إلا زعم أن له جنة ونارا ، يُدخِل الجنة من أطاعه ، والنار من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة

[١] اللوك : أهون المضع أو مضع صلب . [٢] ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .
[٣] ماتج حايته . [٤] جان . [٥] يبدر : يفرط ويسبق .

والنار يريد الله ، وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حُسنِ المؤاساة
والعطية . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٧٦)

٢١٣ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام
عبد الملك فقال : لقد هَمَّمتُ اليوم يا أخى أن أفكِّك بالوليد بن عبد الملك ، فقال
له خالد : بئس والله ما هَمَّمتَ به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ،
فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرَّتْ به فعبثَ بها وأصغرنى ، فقال له خالد : أنا
أكفِّيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليدُ عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن
الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيلُ ابن عمه عبد الله
ابن يزيد فعبثَ بها وأصغره ، وكان عبد الملك مُطرقاً فرفع رأسه وقال :
« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَمَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ » فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » . فقال عبد الملك : أفى عبد الله
تكلمنى ؟ والله لقد دخل أمسِ علىّ فما أقام لسانه لِحَنًا ، فقال خالد : أفعلى الوليد
تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمانُ ،
فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ،
وقال له : اسكت وَيْحَكَ يا خالد ! فوالله ما تُعدُّ فى العير ولا فى النفير ، فقال
خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب
العير والنفير غير جدِّي أبى سفيان صاحب العير ، وجدى غتبة صاحب النفير^(١) ؟

ولكن لوقلت : غُنِيَّاتٌ وَحُبَيْلَاتٌ وَالطَّائِفُ ، وَرَحِمَ اللهُ عُمَانَ لَقَلْنَا صَدَقْتَ^(١) .

(فرح ابن أبي الحديد م : ١ ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

٢١٤ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(٢) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من قِبَلِ الحجاج ، حتى وُضِعَتْ بين يديه ، فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لاما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد)

استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٣) فاسق ، فأذوا إليه العشرة واحداً ،

وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٤))

فأهدى إلى بَرْدَوَيْنِ حَطَمَيْنِ^(٥) ، فإن استعملتكم ضيَّعتم ، وإن عزاتكم قلتم

استخف بنا ، وقطع أرحامنا »

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهله رجلان : سامع

مطيع مُنَاصِح ، وعدو مُبْغِضٍ مُكَاشِحٍ^(٦) ، فأما السامع المطيع المناصح فإننا

جَزَيْنَاهُ ، ليزداد وُداً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضِغْنَهُ ،

[١] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص « جدَّ عبد الملك »

إلى الطائف — انظر ص ٦٧ — أفام بها ، فكان يرعي غنيمات اغتدما يشرب من لبنها ، ويأري إلى حيلة

« مصفر حبله كفرصة رمى الكرمة » وقوله رحم الله عثمان : أي لرده إياه ، وقد أبي أبوبكر وعمر أن يرداه .

[٢] هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد

ولاه عبد الملك بن مروان بعد نزل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وهزله عنها سنة ٧٤

وولاه أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه .

[٣] لَطَّ حَقَهُ وَالطَّه : جعده . [٤] هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولناه عبد الملك على

خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فهزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها .

[٥] فرس حطم ككثف : إذا هزل وأسن فضعب وتهدم .

[٦] الكاشح : الذي يصمر لك البداوة ، كشح له بالبداوة وكاشحه بمعنى .

وَسَلَّمْنَا حِقْدَهُ ، وَكَثَّرْنَا لَكَ الْمَوْدَةَ فِي صَدُورِ رَعِيَّتِكَ ، وَإِنْ هَذَا جَبَى الْأَمْوَالِ ،
وَزَرَعَ لَكَ الْبَغْضَاءَ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَنْبُتَ الْبَغْضَاءُ فَلَا أَمْوَالَ
وَلَا رِجَالَ .

فلما خرج ابن الأشعث . قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(القدر الفريد ٢ : ١١٧)

٢١٥ - نصيحة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عُتْبَةَ بن أبي سفيان رجلاً يشتم رجلاً ، وآخر يسمع منه

فقال للمستمع :

« نَزَّهَ سَمْعُكَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَا ، كَمَا تَنَزَّهُ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ

شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرَ إِلَى شَرِّ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةٌ

جَاهِلٌ فِي فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢١٦ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ -

فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَجَلَسَ بَيْنَ

مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا

يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ

نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا نَمْلِكُ أُمُورَكُمْ ، نَمْلِكُ تَأْدِيبَكُمْ ، فَأُرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُهُ

مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كُمْ كُرْهًا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢١٧ - كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثنيتًا معاوية لَفَّ وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس ، فقال :
« لئن ابتليتُ لقد ابتلي الصالحون قبلي ، وإني لأرجو أن أكون منهم .
ولئن عُوقبتُ لقد عوقب الخاطئون قبلي ، وما آمن أن أكون منهم . ولئن سقط
عُضوان مني ، لما بقي أكثر . ولو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيارٌ تبارك
وتعالى ، فَرَحِمَ اللهُ عبداً دعا بالعافية ، فوالله لئن كان عتَبَ عليَّ بعضُ خاصَّتكم ،
لقد كنتُ حَدِيباً^(١) على عامَّتكم » . (البيان والنبين ٣ : ٢٢١)

٢١٨ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال .

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة ، كثير التعاهد
لولاته ، فبلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل
عليه قال له : « أقبِلت هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك
عامرة ، وخرَاجك موفور ، ورَعيتك على أفضل حال » قال : « أجب فيما سألتك
عنه ، أقبِلت هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : نعم . قال : « لئن كنت قبِلت ولم
تعوِّض إنك لَلَّيِّم ، ولئن أنلت مُهديك لا من مالك ، أو استكفيتَه ما لم يكن
يُسْتَكْفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوِّض المُهدى إليك من
مالك ، وقبِلت ما اتهمك به عند من استكفأك ، وبَسَطَ لسان قَائِبِكَ ، وأطمع
فيك أهلَ عمالك ، إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يَخْلُ فيه من دناءة ، أو
خيانة ، أو جهل ، مُصْطَنَع ، نَحْيَاهُ عن عمله » . (البيان والنبين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُقْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعطى الأقراب ، ويُداني الأبعاد ، حتى استوثق له من أكثر الناس . فقال لعبد الله بن الزبير : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك ^(١) ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعامت السَّجَاعَةُ ^(٢) عند الكبر ، فى دون ما سَجَعْتَ به على ابن أخيك ما يكفيك » .

ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلى رشدًا من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، وَسَطًا فى الحَسَبِ ، وإن الله سائلٌ كلِّ راعٍ عن رعيته ، فاتق الله ، وانظر من تولى أمرَ أمة محمد » فأخذ

[١] ناجيته : ساررتة . [٢] وفى العقد « السجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد فى كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » [٣] هكذا ورد فى العقد الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان سنة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد فى الامامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد تولى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

معاويةَ بهز^(١) حتى تنفس الصعداء^(٢) ، وذلك في يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحبُّ إليَّ من أبناؤهم ، اخرج عني . »
ثم دعا الضحاک بن قيس الفهريّ ، فقال له : « إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى . واذكر يزيد . وقل فيه الذي يَحِقُّ له من حسن الثناء عليه . ثم ادعني إلى توليته من بعدى . فإنني قد رأيت وأجمعتُ على توليته . فأسألُ الله في ذلك وفي غيره الحيرة^(٣) وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِيّ ، وعبد الله بن مسعدة الفزاريّ ، وثور بن معن السَّامِيّ ، وعبد الله بن عصام الأشعريّ ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاک ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .
وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته - وهؤلاء النَّفَرُ في المجلس قد قعدوا للكلام - قام الضحاک بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢١٩ - خطبة الضحاک بن قيس الفهري

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ، إنا قد بلوْنَا^(٤) الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقنَ للدماء ، وآمنَ للسُّبُل ، وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُتْرِكَ سُدِّي ، والأيام عُوْج^(٥) رواجع ، والأَنْفُسُ يُغْدَى عليها وَيُرَاحُ ،

[١] البهر بالفتح : العجب . [٢] تنفس طويل . [٣] أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ، خارهُ على غيره خيرة بكسر الحاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له في الأمر : جعل له فيه الخير .
[٤] خبرنا . [٥] بمعنى رواجع جمع طائفة اسم فاعل من عاج إذا رجع أى أن الأيام تموج على الإنسان فنسلبه ما أعطى من الحياة وتمتع العيش .

والله يقول : « كَلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندرى ما يختلف به العَصْرَان (١) ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك المتاع ، وقد رأينا من دَعَا يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحُسن مذهبه ، وقصد (٢) سيرته ، ويُمن تَقِيْبَتَهُ (٣) ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشبّه بأمر المؤمنين ، في عقله وسياسته وشيمته المرصِيَّة ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في الولاية علينا ، فلدَيُوْلَهُ أمير المؤمنين - أكرمهم الله - عهدَه ، وليجعله لنا ملجأ ومفزعًا بعده ، نأوى إليه إن كان كَوْن (٤) ، فإنه ليس أحد أحقُّ بها منه ، فاعزم على ذلك ، عزم الله لك في رشدك ، ووقفك في أمورنا .

٢٢٠ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمانٍ مختلفةٍ أهواؤُه ، قد اُحْدُوْدَبَت علينا سيِّسَاؤُه (٥) ، واقطوْطَبَت (٦) علينا أذْوَاؤُه ، وأناخت علينا أنباؤُه ، ونحن نُشِير عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السِّداد ، وأنت يا أمير المؤمنين

[١] العصر : اليوم والليلة والعشى إلى احمرار الشمس والغداة . [٢] القصد : استقامة الطريق .

[٣] القيه : النفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، وفضا الرأي ، والطبيعة .

[٤] أي إن حدث حدث . [٥] السيِّء : منتظم فقار الطاهر ، وحمله على سيِّء الحق أي على

حده ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا على يابس السيِّء بدود الطاهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسيِّء الحمار ، أي حملناهم على مالا يثبت على مثله .

[٦] اقطوطب : انوعل من قطب ، وقطب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيهِ : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكت علينا أذواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها « اقطوطي »

أي قارب في مشيه إسراطا .

أَحَدُنَا نَظْرًا ، وَأَبْدُنَا ^(١) بَصْرًا ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَرَفْنَا سِيرَتَهُ ، وَبَلَوْنَا عَلاَنِيتَهُ ، وَرَضِينَا وَلايَتَهُ ، وَزَادَنَا بِذَلِكَ انْبِساطًا ، وَبِهِ اغْتِبَاطًا ^(٢) ، مَعَ مَا مَنَعَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَحَبَّةِ فِي الْمَسالِمِينَ ، فَاعْزِمِ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَضِقْ بِهِ ذَرْعًا ^(٣) ، فَاللهُ تَعَالَى يُقِيمُ بِهِ الْأَوْدَ ^(٤) ، وَيُرَدِّعُ بِهِ الْأَلْدَ ^(٥) ، وَيُؤْمِنُ بِهِ السَّيْلُ ، وَيَجْمَعُ بِهِ الشَّئْلُ ، وَيُعْظِمُ بِهِ الْأَجْرُ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ . « ثم جلس .

٢٢١ — خطبة ثور بن معن السلمي

فَقَامَ ثُورُ بْنُ مَعْنِ السَّامِيِّ ، فَحَمِدَ اللهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَصْلَحَ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَدْنَا أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ ، صَاحِبُهُ مُشَاغِبٌ ^(٦) ، وَظِلُّهُ ذَاهِبٌ ^(٧) ، مَكْتُوبٌ عَلَيْنَا فِيهِ الشَّقَاءُ وَالسَّعَادَةُ ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، نَسَأَلُ اللهُ بِكَ الْمَتَاعَ ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَقْدَمُنَا شَرَفًا ، وَأَبْدُنَا عُرْفًا ^(٨) ، وَقَدْ دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ ، وَالقَنُوعِ بِوِلايَتِهِ ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ ، وَالاخْتِيَارِ لَهُ ، مَا قَدْ عَرَفْنَا مِنْ صِدْقِ لِسَانِهِ وَوَفَاءِهِ ، وَحُسْنِ بِلَائِهِ ، فَاجْعَلْهُ لَنَا بَعْدَكَ خَلْفًا ، فَإِنَّهُ أَوْسَمُنَا كَنَفًا ^(٩) ، وَأَقْدَمُنَا سَلَفًا ، وَهُوَ رَثِقٌ لِمَا فَتِقَ ، وَزِمَامٌ لِمَا سَمِعَ ^(١٠) ، وَنَكَالٌ لِمَنْ فَارَقَ وَنَافِقٌ ، وَسَلِيمٌ لِمَنْ وَاطَبَ . وَحَافِظٌ لِلْحَقِّ . أَسْأَلُ اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ الْبَقَاءِ وَالسَّعَادَةِ ، وَالْخَيْرَةِ فِيمَا أَرَادَ ، وَالتَّوَطُّنَ فِي الْبِلَادِ ، وَصَلَاحَ أَمْرِ جَمِيعِ الْعِبَادِ . « ثم جلس .

[١] لعله « وأنتنا » . [٢] سبط فلانا فانبسط : سره والافتباط : المرة .

[٣] ضاق بالأمر ذرعا : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . [٤] الاعوجاج .

[٥] الألد : الحصم الشحيح الذي لا يريغ إلى الحق .

[٦] صاحبه يعنى به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم مفعول من الشغب : وهو تهيج الشر .

[٧] كناية عن دنو أجله . [٨] المعروف . [٩] الكنف : الظل والجانب .

[١٠] شعث الأمر ، كفرح شعنا : انتشر وتفرق .

٢٢٢ - خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ،
وأهواءٍ منجذمة ^(١) ، نخاف حدّها ، وننتظر جدّها ، شديدٍ مُنْحَدَرُهَا ، كثيرٍ
وعزّها ، شائخةٍ مَرَّاقِبُهَا ^(٢) ، ثابتةٍ مراتبها ، صعبةٍ مراكبها ، فالموتُ يا أمير
المؤمنين وراءك ووراء العباد ، لا يخلد في الدنيا أحد ، ولا يبقى لنا أمد ^(٣) ،
وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر
الجماعة ، وأعلى عيناً بحسُنِ الرأى لأهل الطاعة ، وقد هُديت ليزيدَ في أكمل
الأمور ، وأفضلها رأياً ، وأجمعها رِضاً ، فاقطع بيزيدِ قالة ^(٤) الكلام ، ونخوة ^(٥)
المبطل ، وشعثَ المنافق ، واكبت ^(٦) به الباذخ ^(٧) المعادي ، فإن ذلك ألمٌ
للشعث ، وأسهل للوعث ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراحمي بك الظنون » .

٢٢٣ - خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آثرك بخلافته ، واختصك
بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايَةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأَنُعمِهِ
جَدِلاً ، ولِمَا حَمَلَكَ مُحْتَمِلاً ، يكشف الله تعالى بك العمى ^(٩) ، وَيَهْدِي بك

[١] جذمه فانجذم : قطعه . [٢] المراقب : جمع مرقب (كجمعفر) المكان المشرف ، يقف
عليه الرقيب . [٣] الأمد : الغاية والمنتهى .
[٤] قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقال ، والقيل . [٥] الكبر والعظمة .
[٦] كبتة : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه ، وأذله . [٧] بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ،
وشرف باذخ : حال . [٨] وعث الطريق من بابي تمب وقرب إداشق على السالك ، فهو وعث
(بسكون العين وكسرهما) . [٩] العمى هنا : ذهاب بصر القلب .

العِدَا ، ويزيدُ ابنُ أمير المؤمنين أحسنُ الناس برعيتك رأفةً ، وأحقُّهم بالخلافة بعدك ، قد ساسَ الأمورَ ، وأحكمته الدهورُ ، ليس بالصغير الفهية^(١) ، ولا بالكبير السفية ، قد احتجن^(٢) المكارم ، وارتجى لجل العظام ، وأشد الناس في العدو نكايَةً ، وأحسنهم صنماً في الولاية ، وأنت أغنى بأمرك ، وأحفظ لوصيتك ، وأحرزُ لنفسك ، أسأل الله لأمير المؤمنين العافية في غير جهدي^(٣) ، والنعمة في غير تغييرٍ .

٢٢٤ — خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فقال معاوية لعمر بن سعيد الأشدق : قم يا أبا أمية ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن يزيد بن معاوية أملٌ تأملونه ، وأجلٌ تأمنونه ، طويل الباع ، رَحْب الذراع ، إن استضعفتم إلى حامه وسِعِم ، وإن أحتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، جَدَعٌ^(٤) قَارِحٌ^(٥) ، سُوْبَقٌ فَسْبَقٌ ، وَمُوجِدٌ فَجَجِدٌ ، وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمُهُ ، فهو خَلَفُ أمير المؤمنين ، ولا خَلَفَ منه . » فقال له معاوية : « اجلس أبا أمية . فلقد أوسعت وأحسننت . »

قال معاوية : « أَوْ كَلُّكُمْ قَدْ أَجْمَعَ عَلَى هَذَا رَأْيِهِ ؟ » فقالوا : « كَلُّنَا قَدْ

[١] الفهية والفة : البهي ، فهه كفرح هامة . [٢] احتجن المال : ضمه واحتواء .

[٣] المشقة . [٤] الجذع : الشاب الحدث .

[٥] أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف للفرس ، قرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه (وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا — وذلك إذا كان في السنة الثانية — ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » — في السنة الثالثة — ثم رباعياً « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » — إذا سقطت رباعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة — ثم قارحا — إذا سقطت السن التي تلي رباعيته ونبت مكانها ثاب ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ، ولا نبت سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

أجمع رأيه على ما ذكرنا « قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٥ — خطبة الأحنف بن قيس

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنْكَرِ زمانٍ قد
سَلَفَ ، ومعروفِ زمانٍ مُؤْتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ الخَلَفِ ،
فإن تُوَلَّهَ عهدك ، فمن غيرِ كِبَرٍ مُفْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضِنٍ ، وقد حَلَبَتِ الدهور ^(٢) ،
وجرَّبتِ الأمورَ ، فأعرف من تُسَنِّدُ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ،
واعصِ رأى من يأمرك ، ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت
أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون
بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن ^(٣) حيا .

٢٢٦ — خطبة الضحاک بن قيس

فغضب الضحاک بن قيس ، فقام الثانية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفاق ، من أهل العراق ، مُرُوئِهم في
أنفسهم الشقاق ، وألْفِهم في دينهم النِّفاق ، يَرَوْنَ الحق على أهوائهم ^(٤) ،
كأنما ينظرون بأقفأهم . اختالوا جهلا وبطراً . لا يرقبون من الله راقبةً ، ولا
يخافون وبأل عاقبةً ، اتخذوا إبليسَ لهم رَبًّا ، واتخذهم إبليسَ حِزْبًا ، فمن يُقاربوه

[١] مستأف . [٢] هكذا في مروج الذهب ، وفي الامامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر أشطره »
وأصله من حلب شطرى الناقة (بفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الحاء) والشطركل خلفين
من أخلافها ، والخلف (بكسر الحاء) لها كالضرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره بدل من
الدهر منصوب . [٣] هذا وما ورد في كلام الضحاک والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت
في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . [٤] أى على أغراضهم وميولهم .

لا يَسْرُوهُ . ومن يفارقوه لا يَضْرُوهُ . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ،
وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن في سلطان الله الذى استخلفَ
به معاوية في أرضه ؟ هيهات لا تُورث الخِلافةُ عن كِلالة . ولا يحجُب غيرُ
الذِّكْرِ العَصَبَةَ . فوطنوا أنفسكم يا أهلَ العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتبِ
نبيكم ^(١) وَصِهْرِهِ ^(٢) ، يَسْلَمْ لَكُمْ العاجلُ ، وترَبِّحُوا من الآجلِ » .

٢٢٧ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : إنا قد فررنا ^(٣) عنك قريشاً ، فوجدناك أكرمها زناداً ،
وأشدها عقداً ، وأوفاهها عهداً ، وقد عامت أنك لم تفتح العراق عنوة ^(٤) ، ولم
تظهر عليها قمعاً ^(٥) ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليٍّ من عهد الله ما قد
عامت ، ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تَفِ فأنت أهلُ الوفاء ، وإن تغدر ^(٦)
تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً جيداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن
تدنُّ له شبراً من غدْر ، تجدُّ وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق
ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علينا وحسناً منذ أحبوا ، وما نزل عليهم
في ذلك خبر من السماء ، وإن السيوف التى شهروها عليك مع عليٍّ يوم صفين ،
لعلَّ عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها ، لبينَ جوانحهم ، وإيم الله إن الحسن
لأحبُّ إلى أهل العراق من عليٍّ » .

[١] وكان معارية من كتاب الوحي . [٢] وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي عليه

الصلاة والسلام .

[٣] فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .

[٤] فتح البلد عنوة أى قهراً . [٥] مات قمعاً : أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

[٦] غدره وغدر به كعصر وضرب وسمع .

٢٢٨ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
«أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلفين ، وكثير منهم منحرف ،
لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ،
مخالفون لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت أيزيد في أحسن القضية ، وأرضاها
لِحَمَلِ الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا
حِماً وعاماً ، وأوسعنا كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به
سُبل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ،
من هو شاسع^(١) عاصي ، ينوص^(٢) للفتنة كل مناصي ، اسائه ملتوي ، وفي
صدره داء دوي ، إن قال فشره قائل ، وإن سكت فداؤه غائل^(٣) ، قد عرفنا من
هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبة للتوفيق ، والتكاف للتفريق ، فاجل بييعته
عنا النعمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تجد عنه إذ هديت له ، ولا تنبش عنه إذ
وُفقت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا وعليك . أسأل الله العون
وحسن العاقبة لنا ولك بمنه .»

٢٢٩ - خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

«أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخُلَافاً ، بهم يستعدُّ ، وإياهم
يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أوجفوا^(٤) وإن استغنى عنهم

[١] من شسع المنزل كنع : بد . [٢] ناص مناصا : تحرك . [٣] من غاله أي أهلكه .

[٤] أسرعوا ، وجف البير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أعدته ، قال تعالى :

«فَأَوْجَعْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» أي ما أعلمتم .

أرْجِفُوا^(١) ، ثم يُلْقِحُونَ^(٢) الفتنَ بالفُجُورِ ، ويشققون لها حَطَبَ النفاقِ ، عيَّابون مرتابون ، إن لَوُوا عُرْوَةَ أَمْرٍ حَنَفُوا ، وإن دُعُوا إلى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وِلِيسُوا أولئك بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلِعِينَ وَلَا مَتَّعِينَ ، حتى تصيبهم صواعقُ^(٣) خزيٍ وَيَلُّوا ، وتَحُلُّ بهم قَوَارِعُ^(٤) أمرِ جليلٍ ، تجتثُ^(٥) أصولهم كاجتثاثِ أصولِ الفُقَعِ ، فأُولَى لِأُولَئِكَ ثم أُولَى ، فَإِنَا قَدْ قَدَّمْنَا وَأَنْذَرْنَا ، إنْ أَعْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النُّذُرُ^(٦) .

٢٣٠ - خطبة يزيد بن المقنن

ثم قام يزيد بن المقنن ، فقال :

« أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - ، فإن هلك فهذا - وأشار إلى يزيد - ، فمن أبى فهذا - وأشار إلى سيفه » ، فقال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

٢٣١ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلما يزيد في إلهه ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعامه لله رضا ولهذه الأمة ، فلاتشاور الناس فيه ،

[١] أرجف القوم : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى : « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

[٢] في الأصل « يلحقون » وهو تحريف ، وصوابه : « يلحقون » من ألقح الناقة والنحلة .

[٣] جمع صاعقة ، وهي الموت وكل عذاب مهلك . وأرض وبيلة : وخيمة المرتع . [٤] جمع قارعة ،

وهي الدامية الفاجئة . قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » .

[٥] تقتلع ، والفتح بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من الكدأة .

[٦] النذر الانذار . قال تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي » أي إنذارى ، وفي الإمامة

والسياسة عقب هذه الخطبة : « فدعا معاوية الضحاك فولاه الكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة » .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلَا تَزُوذُهُ الدُّنْيَا وَأَنْتِ صَائِرٌ إِلَى الآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الآخِرَةِ إِلَّا مَا طَابَ ، وَاعْلَمْ أَنَّه لَا حِجَّةَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قَدَّمْتَ يَزِيدَ عَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَأَنْتِ تَعْلَمُ مَنْ هُمَا ، وَإِلَى مَا هُمَا ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتنفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إِلَى الْبَيْعَةِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَعَاوِيَةَ » . فقال له معاوية : « تَعُوذُ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْكَ وَبَايِعْ » فقال : « إِنِّي أَبَايِعُ وَأَنَا كَارِهٌ لِلْبَيْعَةِ » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُهُوَ شَيْئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .
أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرَّ في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٢ — خطبة معاوية

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِحَمْدِهِ ، وَوَعَدَنَا عَلَيْهِ ثَوَابَهُ ، نَحْمَدُهُ كَثِيرًا ، كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا كَثِيرًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ كَبِرَ سِنِّي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وَأَوْشَكَتُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُسْتَخْلَفَ عَلَيْكُمْ بَعْدِي يَزِيدُ ، وَرَأَيْتَهُ لَكُمْ

رِضًا ، وَأَنْتُمْ عِبَادَةٌ قَرِيشٌ وَخِيَارُهَا وَأَبْنَاءُ خِيَارِهَا ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُحْضِرَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا إِلَّا أَنْهُمَا أَوْلَادُ أَبِيهِمَا ، عَلَى حُسْنِ رَأْيِي فِيهِمَا ، وَشَدِيدِ مَحَبَّتِي لَهُمَا ، فَرُدُّوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا ، يَرْحَمُكَ اللَّهُ .

٢٣٣ - خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَلْهَمَنَا أَنْ نَحْمَدَهُ ، وَاسْتَوْجِبَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ عَلَى آيَاتِهِ ، وَحُسْنِ بَلَاءِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ . أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَنْصِتْنَا . وَقُلْتَ فَسَمِعْنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، اخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتَارَهُ لَوْحِيهِ ، وَشَرَّفَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، فَأَشْرَفُ النَّاسِ مَنْ تَشَرَّفَ بِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِالْأَمْرِ أَخْصَهُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا عَلَى الْأُمَّةِ التَّسْلِيمُ لِنَبِيِّهَا إِذْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اخْتَارَ مُحَمَّدًا بِعِامِهِ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ . »

٢٣٤ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلِ الْحَمْدِ وَمُنْتَهَاهَا ، نَحْمَدُهُ عَلَى إِلهَامِنَا حَمْدَهُ ، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا صَمَدًا ^(١) ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ إِنْ أُخِذَ فِيهَا بِالْقُرْآنِ : فَ« أَوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ، وَإِنْ أُخِذَ فِيهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَأَوْلُو رَسُولِ اللَّهِ ، وَإِنْ أُخِذَ بِسُنَّةِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ

[١] الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وعمر، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وإيم الله لو ولوه بعد نبينهم، لوضعوا الأمر موضعَه، لحقَه وصدقَه، ولأطيع الله، وعصى الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية، فانظر لرعتك، فإنك مَسْتُول عنها غداً، وأما ما ذكرت من ابني عمي، وتركك أن تُحْضِرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم، فقل أودع، وأستغفر الله لي ولكم».

٢٣٥ — خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه، وأكرمنا برسوله، أحمدَه على ما أبلى وأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة، تتناولها بآثرها السنيّة، وأفعالها المرصّية، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية، وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليّ خلف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

٢٣٦ — خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

« الحمد لله الذي أكرمنا بدينه، وشرّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، أما بعد: فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كسروية، يتوارثها الأبناء

عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائمَ بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصةً ، لِمَن كَانَ لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، مَن كَانَ أتقى وأرضى ، فإن كنتَ تريدُ الفتيانَ من قريش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يُعْنِي عنك من الله شيئاً .

٢٣٧ — خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إنْ قاوَلتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى الناسُ أبا بكر وعمر ، من غير معَدِنِ الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمرَ منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله . ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلواتهم وأعطياتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمة الله (سنة ٥١) إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب يبيعه إلى الآفاق ، وكان عامه على

[١] قائل : فاعل من القول ، كحادث وخاطب وكالم . [٢] أعطيات جمع أعطية وهو جمع عطاء .

المدينة مروان بن الحكم ، فكتب إليه بذلك وأمره أن يجمع مَنْ قَبْلَهُ من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبن من ذلك وَأَبْتَهُ قريش ، وكتب إلى معاوية: إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابْنَك ، فَأَرِنِي رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، وَيخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، نخرج مروان مُغاضِبًا في أهل بيته وَأَحواله من بنى كِنَانَةَ حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

٢٣٨ — خطبة مروان بن الحكم

«إن الله عظيمٌ خَطَرُهُ ، لَا يَقْدِرُ^(١) قَادِرٌ قَدْرُهُ ، خَلَقَ من خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم لدعائهم دينه أوتادًا ، هم رُقْبَاؤُهُ على البلاد ، وَخَلَفَاؤُهُ على العباد ، أَسْفَرَ^(٢) بهم الظلم ، وَأَلْفَ بهم الدين ، وَشَدَّدَ بهم اليقين ، وَمَنَعَ بهم الظفر ، وَوَضَعَ بهم من استكبر ، فَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ من خلفائنا ، يعرفون ذلك في سالف زماننا ، وَكُنَّا نكون لهم على الطاعة إخوانًا ، وَعَلَى من خالف عنها أعوانًا ، يُشَدُّ بنا العَضُدُ ، وَيُقَامُ بنا الأود ، وَنُسْتَشَارُ في القضية ، وَنُسْتَأْزَرُ^(٣) في أمر الرعية ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا اليوم في أهور مستحيرة^(٤) ، ذات وجوه مستديرة ، تُفْتَحُ بأزوة الضلال ، وَتُحْلَسُ^(٥) بأسوأ الرجال ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا^(٦) ، وَتُتَمَقُّ أَحْلَامُهَا^(٧) ، فإنا

[١] قدره من بابى نصر وضرب وقدره تقديرا: عطيه ، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»

أى ما عطاوه حتى تعظييه . [٢] سفر الصبح وأسفر: أضاء وأشرق ، أو هو متد من سفرت الحرب أى ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالعنى كشف بهم الظلم . [٣] الاستئثار المشاورة . [٤] فى الأصل «مستحيرة» أى مستحير صاحبها من استئثار الله فى أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ، وأرى أنها «مستحيرة» بالحاء أى مستحير صاحبها أى متحير ، من استحار إذا نظر إلى الشيء ، دعشى عليه ولم يمتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أى مستغلقة مبهمه ليست مسقيمة .

[٥] حلس البعير كضربه : غشاه بحلس (بكسر الحاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة « وفى الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال « بجمعين وهو تصحيف » . [٦] الجزور : البعير أو خاص بالناقة المجزورة . [٧] امتق الفصيل ماى الضرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتحين) وهو اللبن المحلوب .

لا نَسْتَأْمَرُ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْلَا عَهْدُ مُوَكَّدَةٍ ، وَمَوَائِقُ مُعَقَّدَةٍ ^(١) ، لَأَقَمْتُ أَوَدَ وَوَلِيَّهَا ، فَأَقَمَ الْأَمْرَ يَابْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدَلْ عَنِ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظَرَآءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَآءَ .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ بيد مروان ، ثم قال :

٢٣٩ — خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعلك في الكرم مني محمداً ^(٢) ، والعزير مني والداً ، اخترت من قُرُومٍ ^(٣) قادة ، ثم استللت سيّد سادة ، فأنت ابن ينابيع الكرم ، فمرّحباً بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نعت ، وكنت لهم كما ذكرت . وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلولة ^(٤) صعوبتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ ^(٥) جسيمها ، ويتركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعُدته في كل شديدة وعضده ، والثاني بعد ولي عهده ، فقد وليتكم قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ، ومحسن رفدك ^(٦) ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ^(٧) . »

[١] اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد إذا شده .

[٢] المخذ : الأصل . [٣] جمع قرم بالفتح وهو السيد . [٤] هكذا في الأصل ، وفي كتب

اللغة : « اللد بالكسر والضم اللين وهو ضد الصعوبة ، ذلّ فهو ذلول ، يكون في الانسان والداية » .

[٥] طأطأ رأسه خفضه فتطأطأ . [٦] الرغد : العطاء والصلة .

[٧] قال المسعودي : « وجعله ولي عهد يزيد ورده إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاهها الوليد بن

عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف مروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول

مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة » .

٢٤٠ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
 « إن أمير المؤمنين قد كبر سنّه ، ودَقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله
 تعالى ، فيدَع الناس كالغنم لاراعي لها ، وقد أحب أن يُعَلِّمَ عَلمًا ، ويُقيمَ إمامًا » ،
 فقالوا: وَفَقَّ اللهُ أمير المؤمنين وسدَّده ، لِيَفْعَلَ ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب
 إليه أن سمَّ يزيدَ ، فقرأ الكتاب عليهم وسمَّى يزيد ، وخطبهم فخصَّهم على الطاعة ،
 وحذَّهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنَّة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام
 عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ،
 إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وباع لرجل من بني عديّ رضى دينه وأماتته ،
 واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تُحَدِّثُوا علينا سنَّة
 الروم ، كلما مات هرقلُ قام مكانه هرقل » ، فقال مروان : « أيها الناس : إن
 هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا ، أَتَعِدَانِي
 أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

[١] أخرج : أبث ، قال صاحب الأمالي : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : ألأبن الصديق يقول هذا ؟ استروني فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسيه » ، وقال المنسرون في هذه الآية : « والمراد (بالذي قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : بعث عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأف بهما ، وقال : ابعثوا إلى حدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألها عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم ، وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليريد ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبناكم ، فقال مروان : بأيها الناس هو الذي قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ... الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اهـ

«يا ابن الزرقاء^(١)، أفينا تناول القرآن؟» وتكلم الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأنكروا بيعة يزيد، وتفرق الناس، فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

قال ابن قتيبة: فقدم معاوية المدينة حاجباً، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله بن عباس فحضر، وابتدأ معاوية فتال:

٢٤١ — خطبة معاوية

«أما بعد: فالحمد لله وليّ النعم، ومُنزل النقم، وأشهد أن لا إله إلا الله، المتعالي عما يقول الملحّدون علواً كبيراً، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافةً، ليُنذِرهم بقرآن: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، فأدّى عن الله، وصدّع^(٢) بأمره، وصبر على

(وقولها بعض كجبل ويروى كعتق وغراب أي قطعة منها).

وجاء في السيرة الحلبية (١: ٣٠٢): «عن الواقدي، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرف صوته، فقال: «أندنوا له لعله الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منهم — ونليل ما هم — دوو مكر وخديعة، يعطون الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق»، وكان لا يولد لأحد ولد مالمديه إلا أنى به النبي صلى الله عليه وسلم، فأتى إليه بمروان لما ولد، فقال: «هو الوزغ بن الوزغ، للمعون بن للمعون» وعن جبير بن مطعم: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الحكم بن أبي العاص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وبل لأمتي مما في صلب هذا».

وجاء في أسد الغابة في ترجمته: «ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، في هجائه لعبد الرحمن بن الحكم، فقال:

إن اللعين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلصنا مجنوناً

وقد روى في لعمري ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم، مع حله وإغصائه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ «ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص، ولعنة من في صلبه، وضعفها قوم».

[١] في الفخرى ص ١٠٨ «وكان من أراد ذم مروان وعييه يقول له «يا ابن الزرقاء» قالوا: وكانت

الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية، فلذلك كانوا يذمون بها».

[٢] قوله تعالى: «فأصدع بما تؤمر» أي شقّ جماعاتهم بالتوحيد أو أجهر بالقرآن أو أظهر

أو احكم بالحق واصل بالأمر أو اقصد بما تؤمر أو افرق به بين الحق والباطل.

الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ، وأعزَّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فمضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بُدِّل له ، واختار منها الترك لما سُخِّر له ، زهادةً واختياراً لله ، وأنفةً واقتداراً على الصبر ، وبغياً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفه رجلاً محفوظان ، وثالثٌ مشكوك ، وبين ذلك خوَضٌ طالما عاجناه ، مشاهدةً ومكافأةً ، ومعاينةً وسماعاً ، وما أعلم منهُ فوق ماتعلمان ، وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية ، من سدِّ الخلل ، ولمَّ الصدع ، بولاية يزيد ، بما أيقظ العين ، وأحمد الفعل ، هذا معنای في يزيد ، وفيكافضل القرابة ، وحِظوة العلم ، وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ما أعيانى مثله عندك ، وعند غيرك ، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن ، والحلم الذي يرجح بالصم^(١) الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة ، قدّم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السلاسل^(٢) ، من لم يقارب

[١] الصم جمع أصم ، وهو الحجر الصلب المصمت .

[٢] غزوة ذات السلاسل وهي وراء وادي الفري من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض حذام ، يقال له السلسل — وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل — خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أنا عبيدة بن الجراح والمهاجر بن الأوابين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي قال أبو عبيدة : لا ، ولكني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه — وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا — فقال له عمرو : بل أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي لا تختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوتك ، فصلى عمرو بالناس .

القوم ، ولم يماندْهم^(١) ، برتبةٍ في قرابةٍ موصولة ، ولا سُنَّةَ مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صَلَاتِهِمْ ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فِيهِمْ ، وقال ولم يُقَلِّمْهُ ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فهلا بنى عبد المطلب ، فإننا وأنتم شَعْبًا نَفَعِ وَجِدْ ، ومازلت أرجو الإِنصافَ في اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بِفَضْلِ قَوْلِكَما ، فَرُدَّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ ، ما يحمَدُ به البصيرةَ في عِتَابِكَما ، وأستغفر الله لي ولكما .

فتيسَّرَ ابن عباس للكلام ، ونَصَبَ يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال : على رِسْمِكَ ، فَأَنَا الْمُرَادُ ، وَنَصِيبِي فِي التُّهْمَةِ أَوْفَرُ ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين :

٢٤٢ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤَدِّيَ الْقَائِلُ - وإن أظنَبَ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءِها ، قد فهمتُ مَا أَبَسَّتَ^(٢) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إنجاز الصفة ، والتنكُّبَ عن استبلاغ البيعة ، وهيئات هيات يا معاوية ! فضع الصبحُ فحمة الدُّجى ، وَبَهَّرَتْ^(٣) الشمسُ أنوارَ الشُّرْجِ ، ولقد فضلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجنحتَ ، ومنعتَ حتى بخلتَ ، وجزتَ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لذي حقٍّ مِنْ أُمَّ حَقِّهِ بنصيبٍ ، حتى أخذ الشيطانُ حظه الأوفر ، ونصيبه الأَكْمَلُ ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ،

[١] المعاندة : المفارقة ، أي ولم يمتز عليهم برتبة .

[٢] ألسه : غطاه . [٣] يقال بهر القمر كمنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسراج جمع

سراج ، وهو المصباح .

من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصيف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تُخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، نغذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه^(١) الكلاب المتهارشة^(٢) عند التحارش، والحمام السبّاق لأترابهن، والقيينات^(٣) ذوات المعازيف، وضروب الملاهي، تجذّه ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدّم باطلا في جور، وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقيّة، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدّم على عمل محفوظ. في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعنا عن آباءنا ثراثاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام، فأذعن للحجة بذلك. وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقتلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يامعاوية، من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك^(٤)، فاعتبروا يا أولى الأبصار، وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأميره له، وقد كان ذلك، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة، بصحبة الرسول وبيعت له، وما صار لعمر يومئذ حتى أنف القوم إثرته، وكرهوا تقديمه، وعدّوا عليه أفعاله، فقال صلى الله عليه وسلم: «لاجرم^(٥) معشر المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري».

[١] استقرأ الأشياء : تتبع أفرادها . [٢] المهارشة : تحريش بعضها على بعض .

[٣] جمع قينة : وهي الجارية المنية أو أعم ، والمعارف الآلات التي يضرب بها كالمود، جمع معزف كبير .

[٤] مسهل من هنا ، يقال هنا الطعام إذا ساع ولد ، أى فهنيئاً لك ما نلت من الخلافة .

[٥] لاجرم : قال الفراء « هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا عمالة ، فخرت على ذلك وكثرت حتى

فكيف يُحْتَجَّ بالمنسوخ من فعل الرسول ، في أوْ كَد الأحوال ، وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعاً ، وحوالك مَنْ لا يُؤْمَنُ في صحبته ، ولا يُعْتَمَدُ في دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ ؟ تريد أن تلبس الناسَ شُبُهَةً ، يَسْعُدُ بها الباقي في دنياه ، وَتَشْقَى بها في آخرتك ، إن هذا هو الخُسران المبين ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلِكُمْ .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ؟ وَلِمَا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرٌ ! فقال ابن عباس : لعمرُ الله ، إنها لَدُرِّيَّةُ الرسولِ عليه الصلاة والسلام ، وأحد أصحاب الكِساء^(١) ، ومن البيت المُطَهَّر ، فالهُ عَمَّا تريد ، فإن لك في الناس مَفْنَعًا ، حتى يحكم الله بأمره ، وهو خير الحاكمين ، فقال معاوية : أَعُوذُ^(٢) الحليم التحلُّم ، وخيرُهُ التحلُّمُ عن الأهل . انصرفا في حفظ الله .
ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

٢٤٣ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدِّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعةٍ ، وَأَنَّ لك الدنيا وما فيها . وإني أحذرك أن تشقَّ عَصَا المسامين ، وتسمى في تفريق مَلَتَهُمْ^(٣) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قَضَاءً من القضاء ، وليس للعباد خيرةً من أمرهم ، وقد وَكَّدَ الناسُ

تحوط إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا ترام يقولون : « لا جرم لأبيك » . [١] انظر ص ٢٥ . [٢] أعود : أنعم ، والعائدة : المنفعة . [٣] اللأ : الجماعة .

يَعْتَمَهُمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ . وَأَعْطَوْا عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ » . ثُمَّ سَكَتَ .

٢٤٤ - خطبة عبد الله بن عمر

فَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : يَا مَعَاوِيَةَ ، لَقَدْ كَانَ قَبْلَكَ خَلْفَاءُ ، وَكَانَ لَهُمْ بَنُونَ ، لَيْسَ ابْنُكَ بِخَيْرٍ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، فَلَمْ يَرَوْا فِي أَبْنَائِهِمْ مَا رَأَيْتَ فِي ابْنِكَ ، فَلَمْ يُحَابُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ أَحَدًا ، وَلَكِنْ اخْتَارُوا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ عَلِمُوهُمْ ، وَأَنْتَ تَحْذَرُنِي أَنْ أَشُقَّ عَصَا الْمَسَامِينِ ، وَأُفَرِّقَ مَلَأَهُمْ ، وَأَسْفِكَ دِمَاءَهُمْ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَفْعَلِ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَقَامَ النَّاسُ ، فَسَادَ خُلُوفِي صَالِحٌ مَا تَدْخُلُ فِيهِ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ » .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، لَيْسَ عِنْدَكَ خِلَافٌ ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ نَحْوَمَا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنْ نَكَلِّكَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا جَمَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَجْعَلَنَّهَا سُورِي ، أَوْ لِأَعِيدَنَّهَا جَذَعَةً ، ثُمَّ قَامَ لِيُخْرِجَ ، فَتَعَلَّقَ مَعَاوِيَةُ بِطَرْفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى رِسْلِكَ ، اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ ، لَا تَظْهَرَنَّ لِأَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ نَحْوَمَا قَالَ لِبْنِ عُمَرَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ تَعْلَبُ رَوَافِعَ ، كَمَا أَخْرَجْتَ مِنْ جُحْرٍ أَنْجَحَرْتَ^(١) فِي آخِرِ ، أَنْتَ أَلْبَيْتَ^(٢) هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، وَأَخْرَجْتَهُمَا إِلَى مَا خَرَجَا إِلَيْهِ . فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : أَتُرِيدُ أَنْ تَبَايِعَ لِيَزِيدَ ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ بَايَعَنَاهُ أَيُّكُمْ نَطِيعٌ ؟ أَنْطِيعُكَ أَمْ نَطِيعُهُ ، إِنْ كُنْتَ مَلَيْتَ الْخِلَافَةَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ، وَبَايِعْ لِيَزِيدَ ، فَنَحْنُ نَبَايِعُهُ ، فَكَثُرَ كَلَامُهُ وَكَلَامُ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، حَتَّى قَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ

[١] أَى دَخَلْتُ ، جَعَرَ الضَّبَّ كَنَع : دَخَلَ الْجَعْر ، وَجَعَرَ فُلَانٌ الضَّبَّ : أَدَخَلَهُ فِيهِ ، فَانْجَعَرَ .

[٢] التَّأَلَيْبُ : التَّعْرِيفُ وَالْإِسَادُ .

في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، وآكأني بك قد تخبّطت في الجبال . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادى في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٥ - خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال :
« ي أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة ^(١) إلا بعثت إليها ببيعتته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت بيضته ^(٢) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له .
فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً !
فقال معاوية : « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله !
فتال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خير منه أما ، فاعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لكان نساء قريش أفضلهن ، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه ^(٣) ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، ففرضي لأبيه على أهلك » . فقال الحسين : « حسبيك جهلك . آثرت العاجل على الآجل » .
فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيد شارب الخمر .

[١] المدرة : المدينة . [٢] جماعته وأصله . [٣] وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية .

ومشترى اللهو . خبرني « فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو
ذُكرت عنده بسوء لم يشتمك » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :
« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف
أحدًا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعه هُدًى ، فعمل
بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر
بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر
اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت
أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بعين الانصاف .

* *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله
أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن بن علي ، وعبد الرحمن
ابن أبي بكر ؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك
ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بدنة^(١)
يترقق دمه والله مهريقه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ،
ضب تلمعة ، مدخل رأسه تحت ذنبه » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً
بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال : « إني لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ،
ولما هوشتها منها » ، فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط
معتمرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، فأقبل بعضهم على بعض ،

[١] البدنة من الابل والبقير كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى .

[٢] التلمعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها .

فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فاما دخل ابن عمر ، قال : « مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحباً يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحباً يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرّبوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أظافهُ^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحَسِّنُ إِذْتَمَّهِمْ وَشَفَاعَتَهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ ، وَخَرَجَ حَتَّى آتَى مَكَّةَ ، فَقَضَى حَجَّهُ ، وَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْوَصَ أَمْرَ بِأَثْقَالِهِ فَقَدَّمَتْ ، وَأَمَرَ بِالْمِنْبَرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَاجْتَمَعُوا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ يَكَلِّمُهُ ؟ فَأَقْبَلُوا عَلَى الْحُسَيْنِ فَأَبَى ، فَقَالُوا لابن الزبير : هات ، فَأَنْتَ صَاحِبِنَا . قَالَ : عَلَى أَنْ تَعْطُونِي عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَا أَقُولَ شَيْئًا إِلَّا تَابَعْتُمُونِي عَلَيْهِ . قَالُوا : لَكَ ذَلِكَ ، فَأَخَذَ عَهْدَهُمْ رِجَالًا رِجَالًا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ ، وَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُمْ نَظْرِي لَكُمْ ، وَتَعَطْفِي عَلَيْكُمْ ، وَصَلَّتِي أَرْحَامَكُمْ ، وَزَيْدَ أَخْوَكُمْ وَابْنَ عَمِّكُمْ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ تَأْمُرُونَ وَتَنْهَوْنَ ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : لَابْنِ الزَّبِيرِ : هَاتِ فَأَنْتَ صَاحِبُهُمْ . قَالَ :

٢٤٦ - خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ لَكَ رَغْبَةً ، وَفِيهَا خِيَارٌ ، إِنْ شَدَّتْ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَةَ اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ

[١] الأظلاف جمع لطفة بالتحريك وهي الهدية .

أحدًا ، فرأى المسامون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقائل مقالة ، فأياكم أن تعترضوا علي حتى أئتمها ، فإن صدقت فعلي صدقي ، وإن كذبت فعلي كذبي ، وأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٤٧ خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه ، إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا يزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسامين وخيارهم ، لا نُبرِمُ أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وساموا وأطاعوا « فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ،

[١] العوار : مثلة العيب .

لا نرضى حتى يبايعوا علانيةً ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دُعيتم وأرضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خيفنا القتل وكأدكم بنا وكأدنا بكم .

(المقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ، والأمالى ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمالى ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، والبيان والبيان ١ : ١٦٣ - ١٦٤)

تهنئة وتعزية

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفي معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :

« يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئت عظيمًا ، وأعطيت جسيمًا ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رُزيت ، فقد فتدت خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقت جليلًا ، ووُهبت جزيلاً ، إذ قضى معاوية نَحْبَه ، فغفر الله ذنبه ، ووُلّيت الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ووفّقك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقةٍ واشكر حِبَاءَ الذى بالملك أصفاكا^(١)

لا رُزءٌ أصبح في الأقوام نعامه كما رُزئت ، ولا عُقبى كعقبى كما
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكما
وفي معاويةَ الباقي لنا خلفٌ إذا نُعيتَ ، ولا نسمعُ بمنعاً كما (١)
» وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية ، فولجّه
الناس ، كما روى من غير وجه .

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١)
- ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٦)

٢٤٩ - خطبة عطاء بن أبي صيفى الثقفى

وروى المسعودى أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون
أيهنثونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صيفى ، فقال :
« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت
خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاويةَ نحبّه ،
فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب (٢) عند
الله أعظم الرزية ، وأحمدّه على أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، البيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،
وصحح الأعتى ٩ : ٢٧٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٠ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ؟ رُزئت خير الآباء ، وسُميت خير الأسماء ،
ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت

[١] هو أبو لى معاوية بن يزيد . [٢] احتسب به أجراً عند الله : اعتدّه ينوى به وجه الله
(واحتسب ابنه إذا مات كبيراً ، فإن مات صغيراً قبل افتراطه) .

قريش مَفْجُوعَةً يَبْعُدُ سَاسَتَهَا ، مَسْرُورَةٌ بِمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهَا مِنْ الْخِلَافَةِ بِكَ ،
وَأَلْعُقَبِي مِنْ بَعْدِهِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا وَقَدْ أَرَادَ الْمُلْحِدُونَ عَوَقَهَا
عَنْكَ فَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا سَوَقَهَا إِلَيْكَ ، حَتَّى قَلَدْتُوكَ طَوَقَهَا

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

٢٥١ — خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنة الوليد دخل عليه
الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسامة الثقفي ، فسلم
عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئت خير الآباء ، وُسِّمِيتَ خَيْرَ الْأَسْمَاءِ ،
وَأَعْطَيْتَ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ ، فَعَظَمَ اللَّهُ لَكَ عَلَى الرَّزِيَةِ الصَّبْرَ ، وَأَعْطَاكَ فِي ذَلِكَ
نَوَافِلَ ^(١) الْأَجْرِ ، وَأَعَانَكَ عَلَى حَسَنِ الْوَلَايَةِ وَالشُّكْرِ ، ثُمَّ قَضَى عَبْدَ الْمَلِكِ ^(٢)
بِخَيْرِ الْقَضِيَةِ ، وَأَنْزَلَهُ بِأَشْرَفِ الْمَنَازِلِ الْمَرْضِيَةِ ، وَأَعَانَكَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الرَّعِيَةِ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)



خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أييه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٢ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زياداً فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبّ خراجها وحماها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من ممالأته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده ^(١) ، فغضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجب من ابن آكلة الأكباد ^(٢) ، وقاتلة أسد الله ، ومُظهر الخلاف ، ومُسرّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إليّ يُرعد ويبرق ^(٣) عن سحابة جفل ^(٤) لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيرها الرياح قزعا ^(٥) ، والذي يدثنى عليّ ضعفه تهّدده قبل القدرة ، أفمن إشفاق عليّ تُنذر

[١] ومما ورد في كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية ، وإذا أتاك كتابي هذا ، فخذ اللبس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن فعلت فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سمي ، وأقسم قسما مبرورا أن لا أوتى بك إلا في زمارة ، تسمى حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيماك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه » . [٢] هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاها سيده وقال له اخرج مع اللبس ، فإن أنت قتلت حمزة بعني طييمة فأنت حرّ . [٣] رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهّدّد وتوعد . [٤] الجفل : السحاب هراق ماءه وهضى . [٥] النزع : قطع من السحاب رقيقة .

وَتُعَذِّرُ؟ كلا ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وَقَمَعَ^(١) لمن رَوَى بين صواعق تِهَامَةَ^(٢) ، كيف أَرَهَبُهُ وبيني وبينه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، وَأَبْنُ ابْنِ عَمِّهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ وَاللَّهُ لَوْ أَدْنَى لِي فِيهِ أَوْ نَدَبِي إِلَيْهِ ، لِأُرِيَنَّهُ الْكُؤُوبَ نَهَارًا ، وَالْأَسْعِطَنَةَ^(٣) مَاءَ الْخُرْدِ لِدُونِهِ ، الْكَلَامُ الْيَوْمَ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٣ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(٤) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ، وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ، ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه أبي سفيان^(٥) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله

[١] انقمعة صوت للعد ، وتحرك النوى الياس الصلب مع صوت ، ومه « مايقمع له بالشان » وسيأتي تفسيره في خطبة الحجاج . [٢] روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (ربي) وذكروا أنه لما نصب الحجاج الخليفة لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأرقت وأرسلت الصواعق ، ومرع الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام بهيم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لاهولكم هذا فأني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصبح لربي ، فلو ركبنا عظيمًا لحال بيننا وبينه ، ولكننا حبال تِهَامَةَ لم نزل الصواعق نزل بنا » . [٣] سعطه الدواء كدمه ونصره وأسعطه إياه : أدخله في أمه .

[٤] ونس كتابه إليه : « أما بعد ، بعد وصل إلى كتابك يا معاوية ، وهمت مامه ، فوجدتك كالمريق يمطيه الموح فيتثبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة ، إنما يكفر العم ويستدعي النقم من حادّ الله ورسوله ، وسمى في الأرس فساداً . فأما سنك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وحوي أب أدعى سفيهاً لأثرت لك محازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة وأما رعمك أمك تختطفني بأصمف ريش وتتناوأي بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يمرعه صغير القنابر ؟ أم هل سميت بدئ أكله خروف ؟ فامص الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فليست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أحتهد إلا فيما يسوءك ، وستعلم أيما الحاضع لصاحبه الظالم إليه والسلام » .

[٥] وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وبه يقول : « وحلاك سوء ظلك بي ، ونفضك لي على أن عقت قرابتي ، وقطعت رحمي ، وبقت نسي وحرمتي ، كأنت است أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ا » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جاني ووثقت بي ، فأمره بإمرة ، وإن كرهت جاني ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لاعلى ولا لي والسلام » .

بجبله ، ولا يقطع رِحمه ، فترثت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصيفين ما يُنيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكل الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لأمريَّ بِسلامةِ دينه ؟ وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أُحمدَ العاقبتين العافيةً ، وسأعملُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغيبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه ^(١) ، فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٦٩)

٢٥٤ - خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زياداً معه ، فأجلسه بين يديه على المرقة ^(٢) التي تحت مرقاته ،

[١] وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا من عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فسزغ في قلبي مودة وقبولاً ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكراً وفسادية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مقاماً يعابُ به الخطيب المدره ، فتركت من حضر ، لا أهل ورد ، ولا صدر ، كالمحيرين بجهله ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

[٢] المرقة بفتح الميم وتكسر : الدرجة .

وحمد الله ، وأثني عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد ، فمن كان عنده شهادة فليقيم بها » ، فقام ناس ، فشهدوا أنه ابن أبي سفيان ، وأنهم سمعوا ما أقر به قبل موته (١) ، فلما انقضى كلام معاوية ومنأشدته ، قام زياد وأنصت الناس ، فحمد الله ، وأثني عليه ، ثم قال :

[١] فقام أبو مریم السلولی — وكان خواراً في الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأثاني ، فاشتريت له لحماً وحمراً وطعاماً ، فلما أكل قال يا أبا مریم : أصب لي نبياً ، فخرحت فأثيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شره وجوده ، وقد أمرني أن أصيب له نبياً ، فهل لك ؟ فقلت : نعم يحيى ، الآن عبيد معه — وكان راعياً — فإذا تعشى ووضع رأسه أثيتته ، فرحمت إلى أبي سفيان فقلت لم أحد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، يقال : اثني بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا مریم ، إنما بعثت شاهداً ، ولم تمت شاهداً ، فقال أبو مریم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأعافت الالب عليهما ، فلم ألبث أن خرج عليّ يسبح حبيبه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، يقال : ما أصبت مثلها يا أبا مریم لولا استترخاء من ثديها ، وذو في إاطيها » — والدور بالتحريك ويسكن : التن ، والذفر بالتحريك : كل ريش ذكية من طيب أو تن ، أو يخلص رائحة الإبط للتنة — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخبر بن عمرو السكندی للحارث بن كلدة — وكان طيباً يعالجه — فولدت له علي فراشه نافعاً ، ثم ولدت أبا بكره ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جارينك بنى ، فأتى من أبي بكره ومن نافع ، وزوجها عبداً وكان لابته ، فولدت علي فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا في إصلاح نساء واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر غظة لم يسمع بمثها ، وهو ثلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعليّ عليه السلام ، وعمرو ابن الناص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام لو كان قرشياً أساق العرب بمصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، يقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت في رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قل : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق علي إمامي » .

ومن كتاب لعليّ عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديمته باستلحاقه : « وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فتنة من حديث النمس ، ونزعة من نزعات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الكعبة ، ولم تزل في نفسه حتى ادطاه معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل » .

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمَ لى بآخِرِه ، وقد قال أمير المؤمنين ، ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع مِنّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنّا ما ضيعوا ، فأما عِيْدُهُ فَإِنَّمَا هو والد مَبْرُور ، أَوْ رَيْبٌ^(١) مشكور» ثم نزل . (شرح ابن أبى الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل ١٨٩ ص)

٢٥٥ - خطبته حين ولى البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » والياً لمعاوية ابن أبى سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والفسق بالبصرة كثير فاشي ظاهر ، فخطب خطبةً بتراء لم يحمده الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نِعَمه وإكرامه . اللهم كما زِدْتَنَا نِعَمًا ، فَالْهَمْنَا شُكْرًا » أما بعدُ : فَإِنَّ الْجَهَالََةَ الْجَهْلَاءَ^(٢) ، وَالضَّلَالََةَ الْعَمِيَاءَ ، وَالغَىَّ الْمُوفَى بِأَهْلِهِ عَلَى النَّارِ ، مَا فِيهِ سَفَهَاؤُكُمْ ، وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ حَامَاؤُكُمْ^(٣) ، مِنَ الْأُمُورِ الْعُظْمَاءِ ، يَنْبُتُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَلَا يَتَحَاشَى عَنْهَا الْكَبِيرُ ، كَأَنَّكُمْ لَمْ تَقْرَأُوا كِتَابَ اللَّهِ ، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ، فِي الزَّمَنِ السَّرْمَدِيِّ^(٤) الَّذِي لَا يَزُولُ ، أَتَكُونُونَ كَمَنْ طَرَفَتْ^(٥) عَيْنِيهِ الدُّنْيَا ، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتُ ، وَاخْتَارَ الْفَآئِنَةَ عَلَى الْبَاقِيَةِ ، وَلَا تَذَكُرُونَ أَنَّكُمْ أَحَدْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ الْحَدَّثَ الَّذِي لَمْ

[١] الريب هنا : روج الأم .

[٢] هذا الوصف تأكيد للبالغة ، ومثله : وتد واتد ، ومهج هامج ، ولبلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) . [٣] عقلاؤكم . [٤] الدائم . [٥] طرف عينه : أصابه بشئ فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه وردده .

تَسْبِقُوا إِلَيْهِ ، مِنْ تَرَكَكُمْ الضَّعِيفَ يُقَهَّرُ وَيؤْخَذُ مَالُهُ ، هَذِهِ الْمَوَاقِيرَ ^(١)
 المنصوبة ، والضعيفة المسلووبة في النهار المُبْصِر ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن
 منكم مُهَيَّأٌ ^(٢) ، تمنع الغَوَاةَ عن دَلَجِ ^(٣) الليل ، وغارة النهار؟ قرَّبتم القَرَابَةَ ،
 وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وَتُغْضُونَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ ، كلُّ أمرئٍ منكم
 يَذُبُّ ^(٤) عن سفيهه ، صَنِيعٌ من لا يخاف عاقبةً ، ولا يرجو معاداً ، ما أنتم
 بِالْحَمَاءِ ، ولقد اتبعم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ من قيامكم دونهم ، حتى
 انتهكوا حُرْمَ ^(٥) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كُنُوسًا ^(٦) في مَكَائِسِ الرِّيبِ ،
 حرامٌ على الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حتى أَسْوَيْهَا بِالْأَرْضِ هَدْمًا وَإِحْرَاقًا .
 إني رأيت آخرَ هذا الأمرِ لا يصُحُّ إلا بما صلُحَ به أوله ، لين في غير ضعف ،
 وشدة في غير عُنف ، وإني أقسم بالله لا أخذنَّ الوَلِيَّ ^(٧) بِالْمَوْلى ، والمُقيمَ بِالظَّاعِنِ ،
 والمُقبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، والمطيعَ بِالْعَاصِي ، والصحيحَ منكم في نفسه بالسَّقيمِ ، حتى يَلْقَى
 الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فيقول : « أَنْجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ ^(٨) » أو تستقيم لي

[١] جمع ماخور : وهو بيت الرية معرب أو عرز من محرت السفينة لتردد الناس إليه .
 [٢] جمع ناه ، وغواة جمع طاو . [٣] السير من أول الليل . وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره
 فادلجوا بالتشديد . [٤] يدوم . [٥] جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكها ، روى الشعبي قال :
 « لما خطب زياد خلبته التراء بالصررة ونزل ، سمع تلك الميللة أصوات الناس يسبحون ، فقال :
 ما هذا ؟ قالوا : إن البلد مغير ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها العتيان الفساق ، ويقال لها : زدى
 ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » [٦] كنوس جمع كأس أى
 مستتر كعود وجلس جمع فاعد وجالس ، وأصله من كئس الطي كضرب : دخل في كئاسه (ككئاس) .
 وهو مستتره من الشجر ، ويجمع كأس أيضا على كئس (كركع) ومنه الجوارى الكئس (وهي الحفص)
 وهي الكراك السيارة ، أو النجوم الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها
 تكئس في المغرب كالظباء في الكئس (ككئس) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتغوى نهاراً (وخومها أنها
 تغيب كما يخفى الشيطان إذا ذكر الله عز وجل) ومكاس الريب : مكانها المستتر جمع مكئس ككئس .
 [٧] الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد .
 [٨] سعد وسعيد هما ابنا صبة بن أدّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ،
 فكان صبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟ .

قَنَاتُكُمْ، إِنْ كَذِبَ الْمِنْبَرُ بِلِقَاءِ^(١) مشهورة ، فإذا تعلقتم على كذبة فقد حلت لكم معصيتي^(٢) ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها^(٣) في ، واعلموا أن عندي أمثالها ، من ثقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه^(٤) ، فأبى ودأج الليل ، فأني لا أوتى بمذبح إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم^(٥) ، وإبى ودعوى الجاهلية^(٦) ، فأني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن ثقب بيتنا ثقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفنناه حيا فيه ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم ، أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف^(٧) ما عليه عامتكم ، إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(٨) ، فجعلت ذلك

[١] من اللق بالتحريك وهزارتماع التحجيل في الفرس إلى المحدثين (والجحيل : باس و قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتغيرها عما سواها بيلها . [٢] في الطبري « قال الشعبي : فوالله ما تعلمنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنه » . [٣] عدوها من عيوي ، واعتمره : طعن عليه . [٤] في الطبري : « وكان زياد أول من سد أمر السلطان ، وأكدم الملك معاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وحرّد السيف ، وأخذ بالطننة ، وعاب على الشبهة ، ووجه الناس في سلطانته خوفا شديدًا ، حتى أمّ الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء سقط من الرجل أو المرأة ، ولا يعرض له أحد . حتى يأتيه صاحبه ، فأخذه ، وتبيت الرأس . ولا تعلق عليها لها ، وساس الناس سياسة لم يرمثها ، وهابه الناس هبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو صاع جبل يبي وبين خراسان حلت من أخذه » . [٥] في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، وأمهل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وذن يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يسلي ، ثم يسلي ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنسانا يبالغ الحربية (كجينة موضع بالبصرة يسمى البصيرة الصعري) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أعرايا ، وأتى به زياد ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وعشيتي الليل ، فأظطرتهم إلى موضع ، فأقت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في فنك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . [٦] قولهم : يا فلان ، والفرس مناصرة العصبية . [٧] أي تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . [٨] جمع إحمة ، وهي الحقد والضيئة .

دَبَّرَ أذْنِي ^(١) وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنِ إِسَاءَتِهِ ، إِنِّي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السُّلَّ مِنْ بَعْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٢) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ، وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبَّ مُبْتَلِئٍ سَيُدْخِلُهُ اللَّهُ فِي سَيِّئَاتِهِ ، وَمَسْرُورٍ بِقُدُومِنَا سَيَبْتَلِيهِ .

— أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةٌ ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا ، وَنَذُودُ عَنْكُمْ بِقِيَّةِ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ^(٣) ، فَلَنَا عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصَرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ ، وَلَوْ أَتَانِي طَارِقًا بَلِيلًا ، وَلَا حَاسِبًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنِ إِبَانِهِ ^(٤) ، وَلَا مُجْمَرًا ^(٥) لَكُمْ بَعَثًا ، فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لِأَعْمَتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمُ الْمُؤَدَّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفَكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى يَصْلِحُوا تَصْلِحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُدْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَنِي كُلًّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ ^(٦) ، وَإِيْمُ اللَّهُ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصْرَعِي كَثِيرَةٌ ، فَلْيَحْذَرِ كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرَعَائِي .

[١] أى خلف أذنى وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك .
[٢] أى يجاهرني بالعداوة . [٣] ملكنا ، والوء ما كان شمسا فينسخه الظل ، والحراج ، أى تدفع عنكم بطل الله ونعمته التى وهبنا أو ندفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الحراج .
[٤] وقته وموعده . [٥] جمر الجهد : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم .
[٦] أى وحومه وطرقه جمع ذل بالكسرا ، وذلك الطريق : محجته ، وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريها .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : « أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَقَدْ أُوتِيَتْ الْحِكْمَةُ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ » ، فقال له : « كَذَبْتَ . ذَاكَ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ »
 فقام الأحنف بن قيس ، فقال : « إِنَّمَا الشَّاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ ، وَالْحَمْدُ بَعْدَ الْعَطَاءِ ، وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِ حَتَّى نَبْتَلِيَّ » ، فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مرْدَاس (١)
 ابن أَدِيَّةٍ وَهُوَ يَهْمِسُ وَيَقُولُ : أَنبَأْنَا اللَّهُ بِغَيْرِ مَا قُلْتِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، الْأَتْرُورُ وَازِرَّةٌ وَزِرٌّ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »
 وَأَنْتِ تَرَعَمِ أَنْكَ تَأْخُذِ الْبِرِّءَ بِالسَّقِيمِ ، وَالْمَطِيعَ بِالْعَاصِي ، وَالْمَقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، فَسَمِعَهَا زِيَادٌ ، فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَبْلُغُ مَا نُرِيدُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ حَتَّى نَخْوُضَ إِلَيْكُمْ الْبَاطِلَ خَوْضًا » .

(البيان والنبين ٢ : ٢٩ ، والعقد القربد ٢ : ١٥٠ ، وصحح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
 وتاريخ الطبرى ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
 م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وديل الأمالي ١٨٨)

٢٥٦ — خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المغيرة بن شُعْبَةَ أمير الكوفة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة (٢) ، فاستخلفَ على البصرة ، وشَخَّصَ إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « إِنْ هَذَا الْأَمْرُ أَتَانِي وَأَنَا بِالْبَصْرَةِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشَخَّصَ إِلَيْكُمْ فِي الْفَيْنِ مِنْ شُرْطَةِ الْبَصْرَةِ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنْكُمْ أَهْلُ حَقِّ ، وَأَنْ حَقَّكُمْ طَالَمَا دَفَعَ الْبَاطِلُ ، فَأَتَيْتُكُمْ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ مِنِّي مَا وَضَعَ لِلنَّاسِ ، وَحَفِظَ مِنِّي مَا ضَيَّعُوا حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْخُطْبَةِ (٣) » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٣١)

[١] وهو من رؤساء الحوارج .

[٢] وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة . [٣] قال الطبرى : خصب على المنبر ، (أى رى بالحسب ، وهى الحصى) جلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم ، فأخذوا أبواب

٢٥٧ - خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبرى أيضاً قال :

« جُمِعَت الكوفة والبصرة لزياد بن أبى سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر

بالكوفة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُرِّبنا وجرَّبنا ، وسُنِّنا وسأسَدنا السائسون ، فوجدنا

هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة سرِّها

بعلانياتها ، وغيب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم

إلا لين في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا

أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من

كذبة إمام على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قتلته واعنهم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤٢)

٢٥٨ - خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه

أن حُجْر بن عدى يجتمع إليه شيعة على ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ،

وأنهم حصَّبوا عمرو بن الحرث ، فشخص إلى الكوفة ، حتى دخلها ، فأتى

القصر ، ثم خرج فصعد المنبر ، وعليه قباء سُندُس ، ومُطْرَف خَزٍّ أخضر ، قد

فرَّق شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله ،

وأثنى عليه ، ثم قال :

المسجد ، ثم قال : يأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقولان لا أرى من جالسى ، ثم أس ، بكرسى فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حصبك ، فن حاب خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعرله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

« أما بعد : فَإِنَّ غَيْبَ الْبَغِيِّ وَالنَّغْيَ وَخَيْمٌ ، إِنَّ هُوَ لَأَمْ جَمُوعٌ ^(١) فَأَشِيرُوا ،
وَأَمِنُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِيْنَكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ :
مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ أَمْنَعْ بِأَحَاةٍ ^(٢) الْكُوفَةَ مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدْعُهُ نَكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ ،
وَيَلُّ أُمَّكَ يَا حَجْرٌ ، سَقَطَ الْعَشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٣) » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٥٩ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصُوا بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ خَيْرًا : الشَّرِيفَ وَالْعَالِمَ وَالشَّيْخَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِينِي
شَيْخٌ بِشَابٍ قَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ ، وَلَا يَأْتِينِي عَالِمٌ بِجَاهِلٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا
نَكَلْتُ بِهِ ، وَلَا يَأْتِينِي شَرِيفٌ بِوَضِيعٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا انْتَقَمْتُ لَهُ مِنْهُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥١ ، شرح ابن أبي عمير ٤ ص ٧٤)

٢٦٠ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا يَمْنَعُكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ مِنْ أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ
مِنَّا ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصُرْتُ فِي عَمَلِي يَنْفَعُكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

٢٦١ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان
وصية زياد بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبُّر معانيها وهي :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِعِبَادِهِ عَقُولًا ، عَاقَبَهُمْ بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ ، وَأَثَابَهُمْ

[١] من جم الماء جوما : كثر واجتمع . [٢] الباحة : الساحة . [٣] هو مثل : وأصله أن
رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله ، يضرب و طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى الف .

بها على طاعته ، فالناس بين مُحْسِنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسِيءٍ بِخِذْلَانِ الله إياه ، والله
النعمةُ على المحسن ، والحجّةُ على المسيء ، فما أولى مَنْ تَمَّتْ عليه النعمةُ في نفسه
ورأى العِبْرَةَ في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ،
ولا يتكثّر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من
لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجَزَةُ ،
قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقديرون على توبة ، وليس لكم
منها أَوْبَةٌ ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم .

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادةً أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٢ — ما كان يقوله لمن ولاه عملاً

وكان زياداً إذا ولى رجلاً عملاً قال له :

« خذ عهدك ، وسير إلى عمالك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنتك
تصير إلى أربع خلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا
بك لضعفك ، وسلمتكم من معرتنا أمانتكم ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا
بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرْمك ، وإن جمعت علينا الجرْمين ، جمعنا
عليك المصرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عمالك ، ورفعنا ذكرك ،
وكثرنا مالك ، وأوطأنا عقيبك » . (الأمل ٢ : ٨٢)

٢٦٣ — خطبة الضحّاح بن قيس الفهري بالكوفة^(١) (قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحّاح بن قيس الفهريّ على منبر الكوفة — وقد كان بلغه أن

[١] ولاه معاوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بايعه
أهل دمشق على أن يعلى بهم ، ويقم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ،

قوماً من أهلها يشتمون عثمان وَيَبْرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجلاً منكم ضللاً يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعنَّ فيكم سيفَ زياد ، ثم لا تجدونني ضعيفَ السَّورة (١) ، ولا كليلَ الشِّفرة (٢) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرتُ على بلادكم (٣) ، فكنتُ أولَ من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الشَّعَلَبِيَّةِ ومن شاطئ الفُرات ، أعافب من شدتُ ، وأعفو عن شدت ، لقد ذعرتُ المُخَدَّرَاتِ في خُدُورهن ، وإن كانت المرأةُ ليبيكي أبناً فلا تُرهبُه ولا تُسكِّته إلا بذكر اسمي ، فاتقوا الله يا أهلَ العراق ، أنا الضحَّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو بن مُحمَّس . »

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعزَّفنا والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بعربيٍّ تدمُر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً (٤) ! » ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أول ما قدم ؟

ويبعه من إظهار ذلك أن بي أمية كانوا يحصرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودائرة الدائرة على جيش الضحَّاك وول منتصف دي الحجة سنة ٦٤ هـ .

[١] سورة السلطان : سطوته واعتداؤه . [٢] الشفرة : حد السيف ، وكليل : عر فاطم .

[٣] وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دماه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة عليّ وأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً وأغر عليها فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحَّاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأطار على مسالح عليّ وأخذ أمتعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى النطفانة ، وأتى عمرو بن عميس ابن مسعود - وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود - وكان في خيل عليّ ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناساً من أصحابه ، لما بلغ ذلك علياً سرح حجر بن عدى الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مغداً في أثر الضحَّاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقعه ، فاقتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحَّاك تسعة عشر رجلاً ، وقتل من أصحاب حجر رجلاً ، وحجز الليل بينهم ، بهرب الضحَّاك وأصحابه ، فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثراً - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .

[٤] هذا القول تهكم به كما ترى .

وايمُ الله لأذْكَرَنَّه أبغضَ مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خزي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان ذلك اليوم بأخرة^(١) - بكلام ثقيل - ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٤ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب شُرطته - حتى صعد المنبر ، وأكفان معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمودَ العرب ، وحدَّ العرب ، قطع الله عزَّ وجلَّ به الفتنة ، ومأككه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفانُهُ ، فنحن مُدرِّجوه فيها ، ومُدْخِلوه قبره ، ومُخَلِّون بينه وبين عمله . ثم هو في البرزخ^(٢) إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضره عند الأولى^(٣) » .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

٢٦٥ - خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(٤) (قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

[١] يقال : جاء أخرة وبأخرة بالجرم : أى آخر كل شيء .
[٢] البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .
[٣] وفي العقد « فمن أراد حضوره صلاة الطهر فليحضره » .
[٤] ولي الكوفة وحصن لمعاوية وبزبد ، وكان هراة معهما ، وميله لإنهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلىبيعة عند الله بن الزبير بالنشأ ، وكان أول من حالف من أمراء الأجناد - وكان والياً على حمص - وانضم إلى الصحاك بن قيس الفهري ، وأمدته بحيش من أهل حمص عليه شرحبيل بن ذى الكلاع ونسبت الحرب بين الصحاك ، وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الصحاك وقيل كما قدما ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا ليلا ومعه امرأته وولده ونقله ، فسار ليلته جمعا متعبراً لا يدري أين يأخذ ، فاتبعه خالد بن عدى الكلاعي فيمن خف معه من أهل حمص ، فلققه وقلة وامت رأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذى الحجة سنة ٦٤ هـ .

« يَأْهَلُ الْكُوفَةَ : إِنْى وَاللهَ مَا وَجَدْتِ مَثَلِي وَمِثْلَكُمْ إِلَّا الضَّبْعَ وَالثَّعْلَبَ ،
أْتِيَ الضَّبَّ فِي جُجْرِهِ ، فَقَالَا : أْبَا الْحِسْلِ (١) . قَالَ : أَجْبَيْتُكُمْ . قَالَا : جِئْنَاكَ
نَحْتَصِمُ . قَالَ : فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمَ . قَالَتِ الضَّبْعُ : فَتَحَتْ عَيْنِي . قَالَ : فِعْلًا
النِّسَاءُ فَعَلَتْ . قَالَتْ : فَلَقَطْتُ تُمْرَةً . قَالَ : حُلُوا اجْتَنِبْتِ . قَالَتْ : فَاخْتَطَفَهَا
ثُعَالَةٌ (٢) . قَالَ : لِنَفْسِهِ بَعَى الْخَيْرَ . قَالَتْ : فَطَمَتَهُ لَطْمَةً . قَالَ : حَقًّا قَضَيْتِ .
قَالَتْ : فَلَطَمَنِي أُخْرَى . قَالَ : كَانَ حَرًّا فَاتَّصَرَ . قَالَتْ : فَافْضِ الْآنَ بَيْنَنَا . قَالَ :
حَدَّثْتُ حَدِيثَيْنِ امْرَأَةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْبَعَةٌ (٣) . »

(المعجم المرید ١ : ٢٦٩ - ٢ : ١٥٨ ، مجمع الأئمة الیعدانی ٢ : ١٣)

٢٦٦ - خطبة عبید الله بن زیاد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عبید الله بن زیاد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدى منه
بخلوة ، ليدبر من رأيه ما كره أن يُشرك في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع
الطلاب ، واشتغال الخاصة ، واقتراق العامة ، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو
فيه بنفسه ، ففطن معاوية لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم
وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا
مجالسهم أذن له ، فسلم ، ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم ثم قال :

[١] أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأئمة أن المتعاصمين : الأرنب والثعلب .
[٢] ثعالة : اسم الثعلب الذكر والأنثى . [٣] وقد ذهب أفعال السب كلها أمالاً ، قال الميداني في
شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أى زد ، وأراد بالحدثين حديثاً واحداً تكرره مرتين ، فكأنك
حدثتها بحديثين ، والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلها أربعة ، وقال أبو
سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة ، فالربعة (والربعة كككنسه : العصا) وبروى : فاربع « أمر من ربع
دنع » أى كفى ، يضرب في سوء السمع والإجابة . »

« صَرِيحِ الْعُقُوقِ مُكَاتِمَةُ الْأَذْنَيْنِ ، لِأَخِيرِ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَقَرَ ،
 أَحْمَدُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى اللَّأْوَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ عَمِّي
 مُجْهِدٍ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُنْقِذِ بِالْأَمِينِ
 الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفِ هَارٍ ^(٤) ، وَمِنْ بَدِّ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ
 الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَاظِنٍ
 فَرَعٍ ^(٦) ، وَقَذَعٍ ^(٧) صَدَّعٍ ، حَتَّى طَمِعَ السَّحِيقُ ^(٨) ، وَيَتَسَّى الرَّفِيقُ ، وَدَبَّ
 الْوُشَاهُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلَّهْمُ مُسْتَحْقِرٍ ^(٩) لِلْعِدَاوَةِ ، وَقَدْ قَلَّصَ الْآزِرَةَ ^(١٠) ، وَشَمَّرَ
 عَنْ عِطَافِهِ ^(١١) لِيَقُولَ : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتُلْحِقَ بِهِ ، وَدَلَّ عَلَى الْأَنَاءَةِ ^(١٢) مِنْ
 مُسْتُلْحِقِهِ ، فَلَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعْتِهِ ^(١٣) ، وَأَسْلَمَ ^(١٤) زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ،
 فَكَانَ تَرَبًا ^(١٥) عَامَّتَهُ ، وَأَحَدَ رَعِيَّتِهِ ، فَلَا تَشْخَصَ ^(١٦) إِلَيْهِ عَيْنُ نَاطِرٍ ، وَلَا إِصْبَعُ

[١] العم . [٢] الشدة . [٣] ارضدت له : أعددت . [٤] الشبا : حرف كل شيء ،
 والجرف كعق وقفل ما تحرقه السيول وأكاته من الأرس ، وهار الجرف اصدع ولم يسقط فهو هار
 كقاش ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور . [٥] البد : السب ، والعارى :
 الملازم التامل ، من عرا السمن قابه لرق به وعطاه . [٦] فرع بين العزم وفرق بمعنى واحد ، أى
 أن هذا الظن فرق بيننا وبينك خافيتنا . [٧] هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن ودع وهى
 التى تناسب المقام . ودعه ودعا (بالسكون) رماه بالفحش وسوء العول كأودعه ، والفزع محرقة الحنا
 والفحش والفذر ، وصدع شقق وفرق أى أن مارمانا به الوساة لديك من سوء العول فرق بيننا وبينك .
 [٨] البعيد . [٩] فى الأصل هكذا بمعنى محقر ، أى محقر لما لمعادناه إيانا ، أو أنه لا يزال
 بمعادتنا لما تابنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « متحقر للعداوة » أى متوثب مستوفر أو « مسحفر
 للعداوة » من اسحفر إذا مضى مسرعا . [١٠] الآزره والأزر بضمين جمع إزار وهو الماحه .
 [١١] العطاف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا المطف بالكسر ، وهو مل إزار ،
 ومثزر ، ولحاف ، وملحف .

[١٢] فى الأصل « الأبيه » وأراه محرفا عن « الأناءة » وهى الحلم . [١٣] الدعة الحفض .

[١٤] أسله : خذله أى وليته ترك زيادا ضائع النسب مغمورا ولم يستلحقه .

[١٥] الترب : من ولد معك . أى فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا يقدرك فدر

[١٦] أى فلا ترتفع .

مُشِير، وَلَا تَنْدَلِقِ^(١) عَلَيْهِ أَلْسُنُ كَلِمَتِهِ حَيًّا ، وَنَبَشْتَهُ مَيْتًا ، فَإِنْ تَكُنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَائِدًا زِيَادًا بِأَوَّلِ رُفَاتٍ ، وَدِعْوَةِ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَكَ زِيَادٌ بِجِدِّ هَصُورٍ ، وَعَزَمَ جَسُورٍ ، حَتَّى لَأَنْتَ شَكَاؤُ الشَّرْسِ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشُوسِ^(٢) ، وَبَدَّلَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمَنِيْعَ ، وَتَقَهَّرُ بِهِمَا الْبَدِيْعَ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِدَالَةِ الرَّحِمِ ، وَقِرَابَةِ الْحَمِيمِ ، فَهَلَا لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَعْمَى الضَّرَاءِ^(٣) ، وَنُشْتَفُّ النُّضَارَ^(٤) ؟ وَلَكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْمَلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا^(٥) أَثْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمَ ، وَمَا سَاءَ نِي فَرَبِّهِمْ لِيُقَرَّرُوا حَقًّا ، وَيُرَدُّوا بَاطِلًا ، فَإِنْ لَلْحَقِّ مَنَارًا وَاضِحًا ، وَسَبِيلًا قَصْدًا^(٦) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ أَمْرٍ يَكُ شَيْئٌ ، فَهَلَا نَأْرِزُ^(٧) إِلَى غَيْرِ جُحْرِنَا ، وَلَا نَسْتَكْثِرُ بِغَيْرِ حَقِّنَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

٢٦٧ - رَدِّ مَعَاوِيَةَ عَلَى ابْنِ زِيَادٍ

فَنظَرَ مَعَاوِيَةَ فِي وَجْهِ الْقَوْمِ كَمَا لَمْتَعَجَبٌ ، فَتَصَفَّحَهُمْ بِلِحْظِهِ رَجُلًا رَجُلًا وَهُوَ يَبْتَسِمُ ، ثُمَّ أَتَجَّهُ تِلْقَاءَهُ ، وَعَقَدَ حُبُوتَهُ^(٨) ، وَحَسَرَ عَنِ يَدِهِ ، وَجَعَلَ يُومِئُ بِهَا ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةَ :

-
- [١] اندلق السيل : اندفع ، والسف اسلّ بلاسل أو شق جمع نخرج منه ، وكلته جرحته وآده .
 [٢] وصف من السوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تغيظا .
 [٣] الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . [٤] اشتف ما في الإماء : شربه كله ، والنصار : الذهب أو الفضة ، والمراد : تمنع منه ، ولا تمكن من أحده ، أي يحال بيننا وبين الولاية .
 [٥] الحوب بضم الحاء وفتحها : الإثم ، أي وهلك من آثامنا التي ارتكبناها في سبيل تأييد سلطانك اتقلها ، وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا للمولى عما أتينا من أخذ الناس بالسف والإرهاق لتمكين ملكك [٦] القصد : استقامة الطريق .
 [٧] من أرزت الحية أي لاذت بجحرها ورجعت إليه . [٨] احتى بالثوب : اشتغل ، أو جمع بين بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوقة ، وحسر : كشف .

« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلُّ خيرٍ منه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكلُّ شيءٍ خاضعٌ له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، ذلك على نفسه بما بانَ عن عجزِ الخلق أن يأتوا بمثله ، فهو خاتمُ النبيين ، ومُصدِّقُ المرسلين ، وحجَّةُ ربِّ العالمين ، صلوات الله عليه وبركاته ، أما بعد : فرُبُّ خيرٍ مستور ، وشرٌّ مذكور ، وما هو إلاَّ السَّهمُ الأخببُ لمن طار به ، والحظُّ المرغِبُ لمن فاز به ، وفيهما التفاضلُ وفيهما التغايبُ ، وقد صَفَقَتْ ^(١) يداي في أيك صَفَقَةً ذى الخَلَّة من رواضع الفُصْلان ، عامِلَ اصطناعى ^(٢) له بالكفر لما أوليته ، فما رهيتُ به إلا اتصل ^(٣) ، ولا اتضيتُه ^(٤) إلا غلَّقَ جَفْنُهُ ، ولزَّت ^(٥) لَسَعْتُهُ ، ولا قُلْتُ إلاَّ عانَدَ ، ولا قمتُ إلاَّ قعد ، حتى اختَرَمَه ^(٦) الموت ، وقد أُوْفِعَ بِخِخْتِرِهِ ^(٧) ، ودَلَّ على حِقْدِهِ ، وقد كنت رأيتُ في أيك رأياً حَضَرَهُ الخَطَل ، والتبس به الزَّلَل ، فأخذ منى بحِظِّ الغَفَاة ، وما أُرِيئُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوء ، فما بَرِحَتْ هَنَاتُ ^(٨) أيك تَحْطِبُ فى جبل القَطِيعَةِ ، حتى انتكثت ^(٩) المُبْرَم ، وأنحَلَّ عِقْدُ الوداد ، فيالها تَوْبَةٌ تُؤْتِنَف ^(١٠) من حَوْبَةٍ أُوْرَثَتْ نَدْمًا ، أَسْمَعُ بِهَا الهَاتِفُ ، وشاعتُ للشامت ، فليهنأ ^(١١) الواشِمَ ما به احتقَر ، وأراك تحمَد من أيك جدًّا

[١] صفق له بالبيع ، وصفتى يده ، وعلى يده صفقا وصفقه : صرب يده على يده ، وذلك عند وجوب

البيع ، والفصلان جمع فصيل : وهو ولد الباقة إذا فصل عن أمه ، والخَلَّة : الحاجة .

[٢] اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه لِيَا . [٣] انصل السهم : سقط لصله .

[٤] انتضى السيف : استله ، والجفن : عمدة السيف . [٥] لزت : طعه .

[٦] أهلكه . [٧] الحتر : العدر والحديعة ، أو أوجع العدر ، وأوجع به : أهلكه .

[٨] أعماله وسبائنه جمع مه . [٩] انحل وانقص . [١٠] تؤتنب : تستأنب ، والحوبة :

الإثم والذنب . [١١] من ماء الطعام أى ساغ ولد ، والواشم فاعل من الوشم ، وشم يده إذا غرزاها

بإبرة ثم در عليها النيلج ، والمراد به هنا المعادى — والوشيمة : العداوة — أى فهيمًا لأعدائه الذين حفروه

ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل : « ولا تتدلق عليه

أسن كلته حيا ، ونبشه ميتا » .

وجسورا^(١) هما أوقياً به على شرف التَّقَحُّمِ^(٢) ، وغَبَطِ النعمة ، فدَعَمَها فقد
أذكرتَنا منه مازهدنا فيك من بعده ، وبهما مشيتَ الضراء ، واشتفتت النضار ،
فاذهب ، إليك ، فأنت نَجَلُ الدَّغَلِ^(٣) ، ونَثْرُ النَّغْلِ^(٤) ، والأجر شَرٌّ .

٢٦٨ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يا أمير المؤمنين إن للشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضركَ
زياد ، وله مواطنٌ معدودةٌ بخير ، لا يُفسِدُها التظنُّ^(٥) ، ولا تنيرُها التَّهَمُّ ، وأهلوه
أهلوك التحقوا بك ، وتوسطوا شأنك ، فسافرتَ به الرُّكبانُ ، وسمعتَ به أهل
البلدان ، حتى اعتقده الجاهلُ ، وشكَّ فيه العالمُ ، فلا تتَجَجَّرْ^(٦) يا أمير المؤمنين
ما قد اتسم ، وكثرتَ فيه الشهاداتُ ، وأعانك عليه قوم آخرون .

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هذا وَقَدْ^(٧) نفسه يبيعه ، وطعن في إمرته ،
يعلم ذلك كما أعامه ، يا للرجال من آل أبي سفيان ! لقد حَكَمُوا وبَدَّهم^(٨) يزيدُ
وحده ، ثم نظر إلى عبيد الله . فقال : يا بن أخى ، إني لأَعْرِفُ بك من أبيك ،
وكأني بك في غَمْرَةٍ لا يَخْطُوها^(٩) السابح ، فالزَمَ ابن عمك . فإن لِمَا قال حقاً ،
نخرجوا ولزم عبيد الله يزيدَ يَرِدُ مجلسه ، وَيَطَأُ عَقْبَهُ أياما ، حتى رَمَى به معاوية
إلى البصرة والياً عليها^(١٠) .

(العدد الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] الجسور : الجسارة . [٢] تقحمت به دابته : نددت به وربما طوحت به في وهدة أو وقصت
به ، والفحمة كمرقة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرض للهلاك .
[٣] الدخول والفساد . [٤] نمل الأدم نعلا : فسد في الدباع ، والجرح فسد .
[٥] التظننى : إعمال الظن ، وأصله الظنن . [٦] أى فلا تصيق ، محجر عليه : ضيق ، ونحجر
ما وسعه الله : حرته وضيقه ، وفى الحديث : « امرئ تجرت واسعا » أى صيقت ما وسعه الله ، وفى
الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . [٧] فى الأصل « وود » وأعله وقد ، يقال وقده أى عليه
وسكنه . [٨] فامهم . [٩] فى الأصل « لا يحطرها » وأراء « لا يخطوها » .
[١٠] قال الطبرى : « ولى معاوية عبيد الله بن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » .

٢٦٩ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته (١)

روى الطَّبْرِيُّ قال :

لما كَانَ الْمُهَلَّبُ بن أَبِي صُفْرَةَ بَزَاغُولَ من مَرَوِ الرُّوذِ (من خُرَاسَانَ) أصَابته الشَّوْصَةُ (٢) (وقوم يقولون الشَّوْكَة (٣)) فدعا حَبِيبًا ومن حضره من ولده ، ودعا بِسِهَامٍ فَحُزِمَتْ ، وقال : أترَوْنِكُمْ كَأَسْرِيهَا مجتمعةً ؟ قالوا : لا . قال : أفترَوْنِكُمْ كَأَسْرِيهَا متفرقةً ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وِصْلَةَ الرَّحِمِ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تُنْسِي (٤) في الأجل ، وَتُثْرِي المَالَ ، وَتُكْثِرُ العَدَدَ ، وَأَنْهَاكُمْ عن القطيعة ، فَإِنَّ القَطِيعَةَ تُعْقِبُ النارَ ، وَتُورِثُ الذُّلَّةَ والقِلَّةَ ، تَبَاذَلُوا وَتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ ولا تَخْتَلِفُوا ، وَتَبَارَثُوا تجتمع أموركم ، إن بني الأم يَخْتَلِفُونَ ، فكيف بيني العَلَاتِ (٥) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فعالكم أفضل من قولكم ، فَإِنِّي أَحِبُّ للرجل أن يكون لِعَمَلِهِ فضلٌ على لسانه ، وَاتَّقُوا الجوابَ ، وَزَاةَ اللِّسَانِ ، فَإِنَّ الرجلَ تَرِلُّ قَدَمُهُ فينتعش من زَلَّتْهُ ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فيهِ سَلَكٌ ، اعْرِفُوا لمن يَغُشَاكُمْ حَقَّهُ ، فَكُنْ بِعُدُوِّ الرجلِ وَرَوَاجِهِ إِلَيْكُمْ تَذَكْرَةً لَهُ ، وَآثِرُوا الجُودَ على البخل ، وَأَحْبِبُوا العَرَبَ ، وَاصْطَنِعُوا العَرَبَ ، فَإِنَّ الرجلَ من العَرَبِ تَعِدُهُ العِدَّةَ فيموتُ دونك ، فكيف الصنِيعَةُ عنده ؟ وعليكم في الحرب بالأنانةِ وَالْمَكِيدَةِ ، فَإِنَّهَا أَنْفَعُ في الحربِ من الشجاعةِ ، وَإِذَا كانَ اللِّقَاءُ نَزَلَ القِضَاءُ ، فَإِنَّ أَخْذَ رجلٍ بِالْحِزْمِ فَظَهَرَ على عَدُوهِ . قيل : أتَى الأمر من وجهه ،

[١] سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الحوارج وما ينصل بها » وذكر الطبري أنه توفي

سنة ٨٢ هـ ، وابن خلكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاء بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم نزل واليا عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

[٢] الشوصة بالفتح وقد تصم الشين : وحم في البطن . [٣] الشوكة : حمرة تعلق الجسد .

[٤] تؤخر وتطيل . [٥] بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن وأدب الصالحين ، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجمعت حبيبا على الجند ، حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد « فقال له المفضل : لو لم تقدمه لقد مناه . (تاريخ الطبري ٨ : ١٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والبيان ٢ : ٩٨)

*
* *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فإن حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بني أحسنُ ثيابكم ما كان على غيركم » ، ومن كلماته المأثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يُعْطَه أحد ، لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يُقال في غداً إذا ميتٌ » ، وقوله : « عجبتُ لمن يشتري العبيد بماله ، ولا يشتري الأحرار بإفضاله » . (وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٠ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ، ارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أحبار ^(١) هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة

[١] جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما وهو العالم أو الصالح .

ونازع فيها ، وخلق طاعة الله ، واستكنَّ بحَرَمِ الله ، ولو كان شئٌ مانعاً للعصاة ، لمنع آدمَ حُرْمَةَ الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجهُ منها بِخَطِيئته ، وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير ، والجنةُ أعظمُ حُرْمَةً من الكعبة . (شرح العيون ص ١٢٢)

٢٧١ — خطبته حين ولي العراق (سنة ٧٥ هـ)

حدّث عبد الملك بن مُحمّر الليثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَالِيه ، إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قدّم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِلاً بِعِمَامَةٍ قد غطّى بها أكثرَ وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً ^(٢) قوساً ، يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال مُحمّر بن ضابئ البرُّجُمي : أَلَا أَحْصِيهِ لَكُمْ ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر ^(٣) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حسر اللثام عن فيه ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَنَائِيَا متى أضع العِمَامَةَ تعرفوني ^(٤) »

[١] و بروى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكبا على الجائب ، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، وبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، لحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به . [٢] تنكب قوسه : ألقاها على منكبه . [٣] قال ابن نباتة : « فلما سمعوا هذه الحطة — وكان بعضهم قد أخذ حصي أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حزنا ورجبا » . [٤] البيت لسجيم ابن وثيل الرباعي قاله الحجاج متمثلا ، وقوله « أنا ابن جلا » أي الواضح الأمر المتكشفه ، وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة ، وهو مثل يضرب المشهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى ، وكل أحد يعرفني ، ولم ينون جلا لأنه أزداد الفعل ، فخكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زِيدُ بِنَامٍ صَاحِبُهُ وَلَا يُخَالِطُ اللَّيَانَ جَانِبُهُ

ثم قال : يَأْهَلُ الْكُوفَةَ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَجْمَلُ الشَّرِّ بِحَمَلِهِ ، وَأَحْذَوْهُ بِنَعْلِهِ ، وَأَجْزِيهِ بِعَيْلِهِ ، وَإِنِّي لَأَرَى أَبْصَارًا طَامِحَةً ، وَأَعْنَاقًا مَتَطَاوِلَةً ، وَرَاءَ وَسَاءَ قَدْ أَيَّعَتْ وَحَانِ قِطَافُهَا ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعِمَائِمِ وَاللَّحَى تَتَرَقَّرُ ،
ثم قال :

هذا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطْمٍ
لَيْسَ بِرَاعِيِ إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَصَمٍّ^(١)
ثم قال : قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ^(٢)
ثم قال : قَدْ شَمَّرْتُ عَنْ سَافِهَا فَشَدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فِجْدُوا
وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّ عُرْدٌ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ^(٣)

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلا الأمور وكشفها ، وقال بعضهم : ابن جلا - وان أحلى - رحل عينه ، قال في اللسان : « وكان ابن جلا هذا صاحب منك يطلع في العارات من ثنية الجبل على أهلها » والنايا جمع ثنية : وهي الطريق في الجبل ، أراد به أنه حلد يطلع الشياخا في ارتفاعها وصعوتها ، والعمامة : المعفر واليضة قال ثعلب : العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم . [١] الشعر لرويشد بن رميص العبدي والشد : العدو ، وزيم اسم درس أو ناقة ، وفيل اسم للحرب ، والحطم ، والحطمة : الراعي اللوم الماشية يهشم بعضها بعض ، ولا يبقى من السير شيئا ، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحق فقل : « أحق من راعي ضأن ثمانين » قال الجاحظ في الديان والندبين ١ : ١٣٩ « فأما استحماق رعاة الغنم في الحلة فكيف يكون ذلك صوابا ؟ وقد رمي الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » والوصم : كل ما قطع عليه اللحم . [٢] العصلي : الشديد القوى ، والأروع : الذكي ، أو من يعجبك شجاعه ، والدو والذوية والذوية ويخفف : العلاة المنسعة التي تسمع لها دويًا بالليل « وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل ، تنفسح أصواتها فيها ، وتقول جهلة الأعراب : إن ذلك عزيز الجى » أى خراج من كل غنم شديدة ، وهجر الرجل : خرج من البدو إلى المدن ، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجربته كأهل المدن . وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة :

« إني لست أتأوتيا أعلم ، ولا بدوتيا أفهم » .

[٣] جدّبه الأمر : اشتد ، وعرد : أى شديد ، والبكر : الفقى من الإبل ، ولا بد من كذا : أى لا يحيد منه .

إني والله يا أهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالزَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ،
 مَا يَقْتَمِعُ لِي بِالشَّنَانِ (١) ، وَلَا يُعْمَزُ جَانِبِي كَتَغْمَازِ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ فُرِرْتُ (٢) عَنْ
 ذَكَاءٍ ، وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ هـ - تَرَكْنَا تَهُ (٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَجَّم (٤) عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي
 أَمْرَهَا عُودًا ، وَأَصْلِبَهَا مَكْسِرًا (٥) فَرَمَا كَمْ بِي ، لِأَنْكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ (٦) فِي الْفِتَنِ ،
 وَاضْجَطَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ الْغَىِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَلْحُو زُكْمُكُمْ (٧) لَخَوِ
 الْعَصَا ، وَلَا أَقْرَعْنِكُمْ قَرَعِ الْمَرْوَةِ (٨) ، وَلَا أَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ (٩) ، وَلَا ضَرْبِنِكُمْ
 ضَرْبَ غَرَابِ الْإِبِلِ (١٠) ، فَإِنَّكُمْ لَكَأَهْلُ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا
 رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
 وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفَيْتُ ، وَلَا أَهْمُّ إِلَّا
 أَمْضِيَّتُ ، وَلَا أَخْلُقُ (١١) ، إِلَّا فَرَيْتُ ، فَإِيَايَ وَهَذِهِ الشُّفَعَاءُ ، وَالزَّرَّافَاتِ (١٢)
 وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلَا (١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ

[١] القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشان جمع شنّ بالفتح :
 وهو العربة النالسة ، وهم يجر كونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع ، مثل يضرب لمن
 لا يروعه ما لا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله .

[٢] فر الدابة : فتح حكامها وكشف أسنانها ليظهر سننها ، وفرّ عن الأمر : بحث عنه .
 [٣] الكنانة جمع السهام ، وفي رواية : « كبّ كنانته » أي قلبها . [٤] عجم العود : عضه
 ليعرف صلابته من خوره . [٥] وفي رواية « وأصلبها عمردا » . [٦] أوسع إبصاعا : أسرع
 في سيره كوضع . [٧] لما العصا : قشرها ، وفي رواية : « لحو البود » .

[٨] المرو : حجارة بيض برّاقة توري النار . [٩] السلمة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في
 البيان والتبيين « لأن الأشجار تعصب أغصانها ، ثم تحبّط بالعصى اسقوط الورق وهشميم العيدان »
 (٣ : ٢١) . [١٠] قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهي تضرب عند الحرب ، وعند الحلاط ،
 وعند الحوض أشد الصرب » وقال الحارث بن صحر :

بضرب يريل الهام عن سسكناته كما زيد عن ماء الحياض العرايب .

[١١] أخلق : أفدر ، وفريت : قطعت . [١٢] الشفعا جمع شفيح ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان
 فيشفعون في أصحاب الجرائم ، ففهام عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاي وضمها : الجماعة من
 اللاس . [١٣] القول في الخير ، والقال ، والقال ، والقال في الشر .

على طريق الحق ، أولادَ عَنِّ لكل رجل منكم شُغلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بمد أخذ عطاءه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبته^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل المبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وسرح العيون ١١٦)

✓ ٢٧٢ — خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فزاعه ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« يا أهلَ العراق ، يا أهلَ الشقاق والنفاق ، ومساويئ الأخلاق ، وبنِي اللّٰكِيْمَةِ^(٤) ، وعبيدَ العصا ، وأولادَ الإماء ، والفقع بالقرقر^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يُراد الله به ، وإنما يُراد به الشيطان^(٦) ألا إنها عجاذةٌ تحتها قصف^(٧) ، وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمداني :

وكنْتُ إذا قومٌ غزَوْنِي غزَوْتُهُمْ فهل أنا في ذا يا لهمدانَ ظالمٌ !
متى تجمع القلبَ الذكيَّ وصارِمًا وأنفاً حميًّا تجتنبك المظالمُ

[١] أعطيات جمع أعطية ، وهي جمع عطاء . [٢] قائد الجيوش : الذي حارب الحوارج الأزارقة ، وقل شوكتهم ، وسيأتي . [٣] جعلته نهباً يفار عليه .
[٤] اللثيمة . [٥] القرقر : أرض مطمئنة لينة ، والفقع ويكسر : البيضاء الرخوة من الكدأة ، ويقال للذليل هو أذل من فقع بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .
[٦] وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في الترهيب ، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب » . [٧] العجاج : الفبار ، والقصف : شدة الريح .

أما والله لا تَقْرَعُ عَصًا عَصًا إِلَّا جَعَلْتُهَا كَأَمْسِ الذَّابِرِ ^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩٠)

٢٧٣ - خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعددهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داوؤه ، فعندي دواؤه ، ومن استطال أجله ،
فعلَى أن أُعْجَلَه ، ومن ثقل عليه رأسه . وضعتُ عنه ثِقْلَه ، ومن استطال ماضِي
عمره ، قَصَرْتُ عليه باقيه ، إن للشيطان طَيْفًا ، وللسلطان سَيْفًا ، فمن سَقِمْتُ
سريرته ، صَحَّتْ عُقُوبَتُهُ ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تَسَعْه العافية ،
لم تَضِيقْ عنه الهَلَاكَةُ ، ومن سبقته بادرَةٌ فِهَه ، سبق بدنَه بسَفْكِ دمه ، إني
أُنذِرُ ثم لا أُنْظِرُ ^(٢) ، وأحذِرُ ثم لا أعذِرُ ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إما أفسدكم
ترنيق ^(٣) وولاتكم ، ومن استرخى لبيبه ^(٤) ، ساء أدبه ، إن الحزم والعزم سلباني
سَوَاطِي ^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فَنَاءَمُهُ في يدي ، ونجاده ^(٦) في عُتْقِي ، وذُنَابُهُ ^(٧)
قِلَادَةٌ لمن عصاني ، والله لا أمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، وشرح العيون ١٢٢)

[١] وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يربح رجل منكم على ظلمه ، ويحسح حقن دمه ، ويبيع موضع
قدمه ، وأدم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » - يربح (كيمتع)
يقف ويبتظر ، والطلع (كشمس) : الغز في المشي ، ويقال : اربح على ظلمك ، أي إلك ضعيف ، فانت
عما لا تطيقه . [٢] أنظره : أمهله .

[٣] الترنيق : الصمغ في الأمر (وفي البدن والبصر أيضا) . [٤] الاب : ماشد في صدر الذابة
ليتم استئثار الرجل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية . [٥] هكذا في نهاية الأرب ،
وفي صبح الأعشى : « سكبنا في وسطى » والأول أصح ، أي أنه رأى من الحزم ، والعزم : المبالغة في
استعمال الشدة ، والقوة في النأديب ، فطرح السرط ، واستبدل به ما هو أشد منه وهو السيف .
[٦] النجاد : علافة السيف . [٧] ذباب السيف : حده .

٢٧٤ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، نغاط اللحم والدم
وَالْعَصَبَ ، وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ ، وَالْأَعْضَاءَ^(٢) وَالشَّغَافَ^(٣) ، ثم أفضى إلى
المِخَاخِ^(٤) وَالْأَصْمَاخِ ، ثم ارتفع فعمشش^(٥) ، ثم باض وفرّخ ، فَحَشَاكُمْ نَفَاقًا وَشِقَاقًا ،
وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا ، اتخذتموه دليلاً تَتَّبِعُونَهُ ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ ، وَمُؤَامِرًا^(٥)
تستشيرونه ، فكيف تنفعم تجربة ، أو تعظمم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو
ينفعمكم بيان ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ^(٦) ؟ حيث رُمْتُم المكر ، وسعيتم بالغدر ،

[١] وقعة دير الجماجم : هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث ، وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصبراً ، وهلك أكثرهم ، توجه الحجاج إلى رتبيل ابن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحارته ، فسار إليه وامتلكت بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، وينتصمهم في كل عام مائة من أرسهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصغف رأيه ويأمره بأوغول في أرسهم . وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم حلق عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فحنا الحجاج على ركبته واتصق نحو شبر من سيفه ، واستمد للقائه الموت كريماً ، فقويت بذلك قلوب حنده واستبسلا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم مريعة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وورث إلى فارس حتى نزل مدينة بست ، فسمع رتبيل بمقدمه فأرسله عنده وأكرمه ، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يبعث إليه بابن الأشعث ويتوعدده إن لم يفعل ، وأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن أتى نفسه من فوق قصر ، فقات فاحتر رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . [٢] في المقد الفريد (والأعضاء) .

[٣] الشغاف : غلاف القلب أو جفته .

[٤] رواية نهاية الأرب « المِخَاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مع يجمع على مِخَاخ ومِخَاخَة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الحطبة ، فزويها (الأَمْخَاخ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصمخ » بهذا الص ، والذي في كتب اللغة : « الصمخ من الأذن الحرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمع أصمخ وصمخ ، ومثل الصمخ الأصمخ كصمغور ، وجمه أصمخ ، فصواب الكلمة « الصمخ » أو « الأصمخ » .

[٥] أمره في كذا مؤامرة : شاوره . [٦] يعبر إلى وقعة « تستر » .

واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يَخْذُلُ دينه وخِلافته ، وأنا أرميكم بطرفي ، وأنتم تتسللون لُوِاذًا^(١) ، وتنهزمون سِرَاعًا؟ ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتحاذلكم ، وبرائة الله منكم ، ونكوص وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها^(٢) ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوي^(٣) الشيخ على بنيه ، حتى عضتكم^(٤) السلاح ، وقصمتكم الرماح ، ثم يوم دَيْرِ الجماجم ، وما يوم دير الجماجم ! بها كانت المارك والملاحم^(٥) ، بضرب يُزِيلُ الهام^(٦) ، عن مَقِيله^(٧) ، وَيُذْهِلُ الخليل عن خليله ، يأهل العراق ، وَالْكَفَرَاتِ بِعَدِ الْفَجَرَاتِ ، وَالْعَدَرَاتِ بِعَدِ الْخَتَرَاتِ^(٨) ، وَالنَزَوَاتِ^(٩) بعد النزوات ، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثُغُورِكُمْ غَلَّامًا^(١٠) وَخُتْمًا ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ ، لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً ، وَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً ، هل استخفكم ناكث ، أو استغفواكم غاوي ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم^(١١) خالع ، إِنْ لَا تَبِعْتُمُوهُ وَأَوْيْتُمُوهُ ، ونصرتُموه وزكيتُموه؟ يأهل العراق ، هل شَغِبَ شاغب ، أو نَعَبَ ناعب ، أو زفر زافر ، إِنْ لَا كُنْتُمْ أَتْبَاعَهُ وَأَنْصَارَهُ؟ يأهل العراق : أَلَمْ تَنْهَكُمُ الْمَوَاعِظَ ، أَلَمْ تَرْجُرْكُمُ الْوَقَائِعَ؟» .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال : « يأهل الشام ، إنما أنا

[١] أي يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لوذا وملاوذة . [٢] أعطان جمع عطن كسب : مبرك الابل حول الحوض كالمطن ، ونوازع : أي متناقة . [٣] لا يلوي على أحد ، أي لا يقف ولا ينتظر . [٤] في نهاية الأرب « عضتكم » بالطاء ، عظنه الحرب كعضته بالصاد . [٥] جمع ملحمة وهي الوقمة العظيمة القتل . [٦] جمع هامة ، وهي الرأس . [٧] موضعه ، أي الأعناق ، قال الشاعر :
بضرب بالسيوف رهوس قوم أزلنا هامهن عن القيل
[٨] جمع خترة ، والخترة كشمس : العدر والحديعة أو أقبج الغدر . [٩] جمع نروة من نرا نروانا أي ونب . [١٠] عل كنصر غلولا : خان . [١١] استعضده : سأله أن يعضده .

لكم كالظَّليم^(١) الرامح عن فراخه ، يَنْفِي عنها المَدْر^(٢) ، ويباعد عنها الحجر ، وَيُكْثِرُها من المطر ، وَيَحْمِيها من الضَّبَابِ^(٣) ، ويحرُسُها من الذَّنَابِ ، يأهل الشام ، أنتم الجِنَّة والرِّداء ، وأنتم العُدَّة والحذاء .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والعقد المرید ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥)

٢٧٥ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلقَح بالنَّجْوَى^(٤) ، وتُنتَج بالشكوى ، وتُحصَد بالسيف ، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني ، وإن أحببتموني لا تنفعوني ، وما أنا بالمستوحشٍ لعداوتكم ، ولا المستريح إلى موَدَّتكم ، زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفلحت ، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجُكُمْ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَلَا بَنَاؤُكُمْ أَنَسٌ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلَدِ ، وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذُبْيَانَ :

إذا حاولتَ في أسد فجورا فإنني لستُ منك ولست مني

هم دِرْعِي التي استلَّمت فيها إلى يوم النَّسَار وهم مِحْنِي^(٥)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

[١] ذكر النعام ، والرامح أي المدافع من رمح أي طعنه بالرمح . [٢] قطع الطين اليابس .

[٣] جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرباء . [٤] النجوى : المسارة .

[٥] استلام : لبس الأئمة ، وهي الدرع ، النسار : ماء لبني طامر له يوم ، والمجن : النرس .

٢٧٦ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ ^(١) ، وقال : « وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك ابن مروان ، أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(٢) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومضر لكان لي حلالا . « عذيري ^(٣) من أهل هذه الحُمَيْرَاء ، يرمي أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٤) ، والله لأجعلنهم كالرَّسَمِ ^(٥) الدَّائِرِ ، وكالأمس الغابر ، عذيري من عبد هُدَيْلٍ يقرأ القرآن كأنه رَجَزُ الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٦) - ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي » كان والله - فيما علمت - عبداً حَسُوداً بخيلاً .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ ، والعقد المرید ٢ : ١٥٢)

٢٧٧ ✓ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُوبَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَثُوبَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجُهالكم لا يتعلمون ،

[١] ثواب . [٢] وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والنصب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ، والطريق في الجبل . [٣] العذير : العاذر والنصير ، والحال التي تحاوها تمرر عليها . [٤] وفي مروج الذهب : « يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله » . [٥] الرسم : الاثر أو بقية ، والدائر : الدارس المحو . [٦] هو من بني هذيل .

وَشِرَارِكُمْ لَا يَتُوبُونَ؟ مَالِي أَرَأَيْتُمْ تَحْرُسُونَ عَلَيَّ مَا كُفَيْتُمْ ، وَتَضِيَعُونَ مَا بِهِ أُمِرْتُمْ؟
 إِنَّ الْعِلْمَ يُوْشِكُ أَنْ يُرْفَعَ ، وَرَفَعُهُ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ ، أَلَا وَإِنِّي أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنَ
 الْبَيْطَارِ بِالْفَرَسِ ، الَّذِينَ لَا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هَجْرًا ^(١) ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا
 ذُبْرًا ^(٢) ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، أَلَا وَإِنَّ
 الْآخِرَةَ ، أَجَلَ مُسْتَأْخِرٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ،
 وَاعْمَلُوا أَنْتُمْ مُلَاقُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي
 النَّارِ ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،
 وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ^(٣) . (العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٧٨ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنِّي لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لِدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبَعُوثِ ،
 لَوْلَا طَيْبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الْقَفْلِ ^(٤) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ
 أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَأَيْتُمْ إِلَّا كَارِهِينَ لِقَاتِي ، وَأَنَا
 وَاللَّهِ لَرُؤَيْتُمْ أَكْرَهُهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيذِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ
 نَفْسِي مِقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ حَسْنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ،
 ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

[١] أي هجر آله وتركها ، وبعاء أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . [٢] الدبر من كل شيء : عقبه
 ومؤخره ، أي ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .
 [٣] وذكر صاحب العقد أيضاً هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ » إلى آخرها
 وعزاها إلى شداد بن أوس الطائي . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ .
 [٤] الرجوع .

٢٧٩ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يا أهل العراق ، بلغني أنكم تَرَوُونَ عن نبيكم أنه قال : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُوبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَإِيمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَنْ أُحْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُحْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » . (النقد المرید ٣ : ١٧)

٢٨٠ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَعَى نَبِيَكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِيَّاهُمْ مَيِّتُونَ » ، وَقَالَ : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . فَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَاتَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمُهْتَدُونَ الْمَهْدِيُونَ ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، ثُمَّ عُمَانُ الشَّهِيدُ الْمَظْلُومُ ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ مَعَاوِيَةُ ، ثُمَّ وَلِيَهُمُ الْبَازِلُ ^(١) الَّذِي جَرَّبَتْهُ الْأُمُورُ ، وَأَحْكَمَتْهُ التَّجَارِبُ ، مَعَ الْفِقْهِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَالْمَرْوَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَاللِّينِ لِأَهْلِ الْحَقِّ ، وَالْوَطْءِ لِأَهْلِ الزَّيْغِ ، فَكَانَ رَابِعًا مِنَ الْوَلَاةِ الْمَهْدِيَةِ الرَّاشِدِينَ ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَلْحَقَهُ بِهِمْ ، وَعَهَّدَ إِلَى شَبِيهِ فِي الْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ وَالْحَزْمِ وَالْجَلْدِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوهُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَالزَّيْغَ ، فَإِنَّ الزَّيْغَ لَا يَحْقِيقُ إِلَّا بَأْهْلَهُ ، وَرَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ، وَعَرَفْتُمْ خِلَافَكُمْ وَطَيْبِيكُمْ ، عَلَى مَعْرِفَتِي بِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا أَقْوَى

[١] الرجل الكامل في تجربته .

عليكم منى ، أو أعزف بكم ، ما وليتكم ، فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه نغماً » ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨١ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبلَ من مُحْسِنِهِمْ ، وأن يُتَجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ ، وإني أمرته ألا يقبلَ من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإني مُعَجَّلٌ لكم الإجابة : لا أحسن الله الخِلافةَ عليكم » ثم نزل . (عبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٢ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشى أتاه برّيد من اليمن بوفاة محمد وأخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض^(١) جناحُه ، ففرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معي في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله ليوشكنَّ

[١] هاض العظم : كسره بعد الجبور .

الباقى منى ومنكم أن يَفْنَى ، والجديدُ أن يبلى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدَال (١) الأرض مِنَّا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَتُفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٢) » ثم تمثل بهذين البيتين :

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مِيْتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكِ
إِذَا مَا لَقَيْتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سَرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ

(المقدم المرید ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٣ — خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، تزغ (١) الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فمه ؟ وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى إلا أموت ، وأننى لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضىً بأتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْزِعْنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما

[١] أداله الله منه : نصره عليه . [٢] الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبات الموتى بانبات الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم : التمر قبل اطرابه) أى نفخ في صور الموتى الأرواح ، وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع حدث كسبب وهو التبر ، ونسل كغرب وانصر : أسرع . [٣] تزغ : أسد وأغرى .

عسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأني والله بكل حيٍّ منكم ميتاً ، وبكل رطبٍ يابساً ، ونُقيلٍ في ثياب أكفانه إلى ثلاث أذرع طولاً ، في ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، ومصّت صديده ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعامون ما أقول » ، ثم نزل .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ منقُوص ، وعمل محفوظ ، رُبّ دائبٍ مُضيع ، وساعٍ اغيره ، والموتُ في أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأنَّ الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترّونه فإنه ذاهب ، هذه شمسُ عادٍ وثمودٍ وقرونٍ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التّبابعة والأكاسرة ، وخزائنها السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراطُ منصوب ، وجهنم ترّفر^(١) وتتوقّد ، وأهل الجنة ينعمون ، في روضةٍ يُحَبّرون^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآياتِ ربّهم لم يخشوا عليها صماً وعمياناً . »

[١] زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . [٢] أحبره : سره ، والجبور : السرور .

فكان الحسن البصرى رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟
يَرَقِي عَتَبَاتِ الْمَنْبَرِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُنزِلُ فِيهِ فَتِكَ الْجَبَّارِينَ ، يُوَافِقُ
اللَّهَ فِي قَوْلِهِ ، وَيُخَالِفُهُ فِي فِعْلِهِ » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

وقال مالك بن دينار؟ غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمَنْبَرِ ، فَصَعِدَ
الْحِجَابُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمْرٌ وَحَاسَبَ نَفْسَهُ ، أَمْرٌ رَاقِبَ رَبِّهِ ، أَمْرٌ زَوَّرَ^(١) عَمَلَهُ ، أَمْرٌ فَكَّرَ
فِي مَا يَقْرَأُ غَدًا فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمْرٌ كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ آمِرًا ، وَعِنْدَ
هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمْرٌ أَخَذَ بِعِنَانِ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جَمَلِهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى
حَقِّ تَبِعِهِ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهَ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خُلِقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا
خُلِقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقدم المريد ٢ : ١٥٢ ، البيان والتبيين ٢ : ٨٨ ،
شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، أَقْدَعُوا^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ^(٣) شَيْءًا إِذَا أُعْطِيَتْ ،
وَأَعْصَى^(٤) شَيْءًا إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا ، فَقَادَهَا
بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ

[١] زَوَّرَهُ : حَسَنَهُ .

[٢] قَدَعَهُ كَمَعَهُ وَأَقْدَعَهُ : كَفَّهُ وَكَبَحَهُ . [٣] وَفِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، احْفَظُوا
فُرُوجَكُمْ ، وَخَدُوا الْأَنْفُسَ بِسَمِيرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسُوكُ شَيْءٍ » وَأَسُوكُ : أَضْعَفُ ، مِنْ سَاكِ
الرَّجْلِ سَوَاكًا : سَارٍ سِيرًا ضَعِيفًا . [٤] وَفِي رَوَايَةٍ « رَأَعْنِي شَيْءٌ » وَهُوَ مَحْرِيفٌ .

مَحَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(١) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ،
والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

وخطب فقال :

« اللَّهُمَّ ارِنِي النَّيَّ غِيًّا فَأَجْتَنِبَهُ ، وَارِنِي الْهُدَى هُدًى فَأَتَّبِعَهُ ، وَلَا تَكِلْنِي
إِلَى نَفْسِي فَأُضِلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ، وَاللَّهُ مَا أَحِبُّ أَنْ مَاضَى مِنَ الدُّنْيَا لِي بِعِمَامَتِي
هَذِهِ ، وَلَمَّا بَقِيَ مِنْهَا أَشْبَهُ بِمَا مَضَى مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ » .

(العقد المرید ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتدين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إِنَّ امْرَأًا أَتَتْ عَلَيْهِ سَاعَةٌ مِنْ عَمْرِهِ ، لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ ، وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ
مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَفْكُرُ فِي مَعَادِهِ ، لَجْدِيرٌ أَنْ يَطُولَ حَزْنُهُ ، وَيَتَضَاعَفَ أَسْفُهُ ، إِنْ
اللَّهُ كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ ، فَلَا بَقَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ ،
وَلَا فَنَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءَ ، فَلَا يَغُرُّ نَعْمَ شَاهِدُ ^(٢) الدُّنْيَا ، عَنْ غَائِبِ الْآخِرَةِ ،
وَاقْتَهَرُوا طُولَ الْأَمَلِ ، بِقِصَرِ الْأَجَلِ ^(٣) » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، و البيان والتبيين
٢ : ٩٩ ، شرح العيون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

[١] قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن عليّ عليه السلام » .

[٢] أي حاضرها . [٣] قال الشعبي : سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول :
« إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفي عن عمه قال
سمعت الحسن البصري يقول : لقد وقفتي كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذك ؟ قال :
نعم ، سمعته على هذه الأعواد يقول : « إن امرأة ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحرى أن
تطول عليها حسرتة » .

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٩٦ هـ)

٢٨٩ - خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طَخَارُسْتَان »

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج^(١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تهيأ لغزو أخرون وشومان - وهما من بلاد طَخَارُسْتَان^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد ، فقال :

« إن الله أحلَّكم هذا المحلَّ ليعزَّ دينه ، ويذبَّ بكم عن الحُرُمات ، ويريد بكم المال استفاضةً ، والعدوَّ وقماً^(٣) ، ووعد نبيَّه صلى الله عليه النصرَ بحديثٍ صادق ، وكتابٍ ناطق ، فقال : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ووعد المجاهدين في سبيله أحسنَ النواب ، وأعظمَ الذخر عنده ، فقال : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطَّئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حتى مرزوق ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ

[١] ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ما وراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخرارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ .

[٢] ناحية كبيرة شرقي خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ و ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء .

[٣] وقه : تهمه وأذله . [٤] مجاعة .

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » فتنجزوا موعود ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر ،
وأمضى ألم ، وإياكم والهويئني . (تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٠ — خطبته وقد تهباً لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وسار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب
الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه مُمكنٌ ، وهذه
السغدُ شاغرة^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا
صالحنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : « فَنَنْكُتْ
فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ » ، فسيروا على بركة الله ، فإنني أرجو أن يكون خوارزم
والسغد كالنضير^(٣) وقرينة^(٤) ، وقال الله تعالى : « وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا
قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

[١] وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهي بين نهري
سيحون وجيحون ، وكانت قصبتها سمرقند ، وهي بالسبب ، وربما قلت بالصاد » وأره طرخون ملك
السغد ، وسأله الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ما طاب وصالحه ، ثم نقضوا عهدهم .

[٢] شجر السكك كنع : رفع إحدى رجله ليبول . [٣] بنو النضير : حي من يهود خيبر ، وكان
بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يعوا بها حسداً
منهم ونهياً ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديارهم ، إذا ائتمر جماعة منهم على قتله
بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم بأمرهم
بالجلاء ، لما تقدم منهم من الغدر ، فتهيئوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المدايقون يقولون : لا تخرجوا من
دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظلوا أنها
ما اتهم من الله ، فحاصرهم ست ليال ، ثم أسر بقطع نخيلهم كي يسلموا ، فغذف الله في قلوبهم الرعب ،
فسألوه أن يجلبهم ويكف عن دماهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، ففعل ، وصار
اليهود يخرجون بيوتهم بأيديهم ، اثلاً يسكنها المسلمون .

[٤] كان يهود بني قريظة يساكنون المسلمين في المدينة ، فانهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصدّ جوع
الأحزاب — في غزوة الخندق — ونقضوا عهدهم معهم ، وذلك أن حي بن أخطب سيد بني النضير الذين

٢٩١ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأتى قتيبة الشغد فحصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة ^(١) «إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كُنتم أضعف وأذل ، فهما كان عندكم من قوة فابذُلوهما» ، فجمعوا جموعهم ، وولّوا عليهم ابناً لخاقان ^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبثوا عسكر قتيبة ، ونمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوكم قد رأوا بلاءً ^(٣) الله عندهم ، وتأيدته إياكم في مزاحفتكم ومكائرتكم ^(٤) ، كل ذلك يُفْلِحُكم ^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غرّتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم ^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ،

أجلوا عن ديارهم ، توجه إلى كعب بن أسد القرظي ، فحسن له نقض العهد ، ولم يزل به حتى أحابه ائتمال المسلمين ، فاشتدّ وحل المسلمين ، وزلزلوا لرلرالا شديداً ، وأرسل الله على الأعداء رجلاً بارداً في ليلة مظلمة وحبوداً لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، وكو الله المؤمنين شر الأحراب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ، وحاصرهم المسلمون حسماً وعشرين ليلة ، فلما صاقوا بالحصار ذرعاً ، طلبوا أن ينزلوا على منازل عليه بنو النضير ، من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأنى الرسول إلا أن ينزلوا على ، حكمه ففعلوا ، فتوثبت الأوس فقالوا : يارسول الله ، إنهم كانوا موالينا دون الحرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأوس ما قد فعلت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الحرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله لإيام عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الأوس : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحاً من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ، فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتسي النساء والذراري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد ، ثم أمر بتنفيذ الحكم ، فنفذ فيهم .

- [١] الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين . [٢] خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ، وقد خفّوه على أنفسهم : أي رأسوه (بالشديد) . [٣] أي نعمته . [٤] كاثروم فكثروم : غالبوم فغلبوم . [٥] أي ينصركم عليهم ، ويظفركم بهم . [٦] جمع دهاقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحي العجم ، ورئيس الاقليم . معرب .

وَقَدْ فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا^(١) لِلَّهِ بِلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ
عَنْ أَحْسَابِكُمْ . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٢ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعه
فقال للناس :

« إني قد جمعتكم من عين التَّمْرِ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَّمْتُ الْأَخَ إِلَى
أَخِيهِ ، وَالْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أَعْطِيَا تَكُم
غَيْرَ مُكَدَّرَةٍ وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْوُلَاةَ قَبْلِي ، أَتَاكُمْ أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ خَرَجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦)
فَدَوِّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةِ ، لَمْ يُجِبْ فَيَّئًا ،
وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) عَدَا ، ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ ، فَخَلَّ تَبَارَى إِلَيْهِ الْفَسَاءُ ، وَإِنَّمَا
خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ هَبْنَقَةَ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فغَضِبَ ، فَقَالَ :

- [١] الابلَاء : الإلزام والإحسان ، يقال : أبليت عنده بلاء حسباً ، وأبلاه الله بلاء حسناً ، وأبليته
معروفاً ، والمعنى : فاصدقوا القتال ، وقدموا معروفاً تبتغون به ثواب الله .
- [٢] وسبب ذلك أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبدالعزیز ولیّ عهده ، ودس في ذلك إلى
الفرّاد والشمراء ، وبإيعاضه على خلع سليمان الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد وقام سليمان بن عبد الملك ، خافه
قتيبة وخشى أن يولى سليمان يزيد بن المهلب خراسان . [٣] بلد على الفرات قرب الكوفة .
- [٤] هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عاملاً عليها
لعبد الملك بن مروان حتى كانت سنة ٧٨ فعزله وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب إليها .
- [٥] في الأصل « لا يقيم » وهو تحريف أو « لا يقيم مطبخي » . [٦] أبو سعيد كنية للمهلب
ابن أبي صفرة . [٧] من دوّمت الكلاب أي أمنت في المسير ، وفي رواية أخرى « فدوخ بكم البلاد »
وستأني . [٨] نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح .
- [٩] هو يزيد بن ثروان هبنقة ذو الودعات ، وبكى أبا ذؤانق أحد بني قيس بن ثعلبة ، يضرب به المثل في
الحق فيقال : « أحق من هبنقة » وله نوادر في الحق منها أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخرف
وهو ذو لحية طويلة ، فسئل في ذلك ، فقال : لأعرف بها نفسي ، ولولا أضل ، فبات ذات ليلة ، وأخذ

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللَّهُ لَوْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى عَزِّ مَا كَسْرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَا أَهْلَ السَّافِلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أُوبَاشَ ^(١) الصَّدَقَةَ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تُجْمَعُ إِبِلُ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أُوبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ ، يَا أَهْلَ النَّفْخِ ^(٣) وَالْكَذْبِ وَالْبَخْلِ ، يَا أَيُّ يَوْمِيَّتِكُمْ تَفْخَرُونَ : يَوْمَ حَرَبِكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلَمِكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعَزُّ مِنْكُمْ ، يَا أَصْحَابَ مُسَيِّمَةَ . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ تَمِيمٍ . يَا أَهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْعَدْرِ ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْعَدْرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ ^(٦) » يَا أَصْحَابَ سَجَّاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْفَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَّاتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ . يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَّاتُمْ بِقُلُوسٍ ^(٩) الشُّقْنِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحِصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لَبِدْعَةٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابُ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لِعِنَةِ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُنَاسَةَ الْمِصْرِينَ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْحِ وَالْقَيْصُومِ ، ^(١١) وَمَنَابِتِ الْقَلْقَلِ ^(١٢) ، تَرْكَبُونَ الْبَقْرَ

أخوه فلاديه فتقلدها ، ولما أصبح ، ورأى الفلادة في عنق أخيه ، قال يا أحمى : أنت أنا ، فمن أنا ؟ ومنها : أنه ضل له بعير ، فعمل ينادى : من وجد نيري يهر له ، فقيل له فلم تشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان ؟ ومنها : أنه اختصمت الظفاوة وبوراس في رجل ادعاه هؤلاء وهؤلاء ، ثم ولوا : رضينا بأول من يطلع علينا ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم هبقة ، فقصوا عليه قصتهم ، فقال : الحكم عندي في ذلك أن يذهب به إلى نهر الصخرة ، فيلقى فيه ، فإن كان راسباً راسب فيه ، وإن كان طفاوياً طفا ، فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين .

وقول قتيبة : « إنما خليفتم هنتة » ذلك لأن هبقة كان يحس إلى السماء من إبله ، ويرعيا في الشب ، وينحى المهازيل ، فقيل له : وحك ما تصنع ؟ فقال : إنما أكرم ما أكرم الله ، وأهين ما أهان الله ، وكذلك كان سليمان يعطى الأغنياء ، ولا يعطى الفقراء ويقول : « أصلح ما أصلح الله ، وأفسد ما أفسد الله » — انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والنبين ١ : ١٢٦ .

[١] الأوباش السفلة ، جمع وبش كسب . [٢] الطريق والجهة . [٣] الفجر والكر . [٤] الصقف . [٥] الأهو . [٦] كيسان ، علم للعدر . [٧] هي سجاج بنت الحارث ادعى الدعوة مد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجريرة في بني تغلب .

[٨] أرى الرجل أبراً : أصلحه . [٩] القلوس جمع قلنس كشمس ، وهو جبل ضخم من ليف أو خوص أرفقيرهما من قلوس سفن البحر . [١٠] جمع حصان . [١١] من نبات البادية زهره سرّجدا . [١٢] نبت له حب أسود حسن الشم .

والحمر في جزيرة ابن كاوان^(١) ، حتى إذا جمعتم كما يُجمع قزح الخريف^(٢) قلم : كيت وكيت ، أما والله إنى لأبئ أبيه^(٣) وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنكم عصب السامة ، إن حوّل الصليان الزمزمة^(٤) ، يأهل خراسان ، هل تدرون من وإيكم ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كأنى بأمر مزجاء^(٥) ، وحكم قد جاءكم ، فغلبكم على فيكم وأطالكم ، إن هاهنا ناراً ، أرموها أرم معكم ، ارموا غرضكم الأقصى ، قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام اب مكفور ، حتى متى ينبطح أهل الشام بأفئيتكم وظلال دياركم ؟ يأهل خراسان انسبونى تجدونى عراقى الأم ، عراقى الأب ، عراقى المولد ، عراقى الهوى والرأى والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما ترّون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبلكم ، فالظئينة^(٦) تخرج من مرّو إلى بلخ بغير جوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسألوه الشكر والمزيد » ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطب هذا نصها :

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين . [٢] القرع : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزح) وخرت الثمار أخرفها كنصر : احتيتها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجمع قرع الخريف » . [٣] أي ابن أبي . [٤] الصليان : نبت من أفضل المرعي بخلي (يجز) للجيل التي لا تفارق الحى ، والزمزمة : صوت خفى لا يكاد يفهم ، بهى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت الجوس عند أكلهم — يتراطنون على الأكل ، وهم صوت لا يستعملون لساناً ، ولا شفة ، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلقها ، يفهم بعضها عن بعض — وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه ، والمعنى في المثل : أن ما تسمع من الأصوات والجلب ، لطاب ما يؤكل ويتمتع به ، قال الميداني : ويروى « حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت طابديها . [٥] هو مزجاء اللطى أى كثير الإزجاء لها ، زجاء وأزجاء : سائها ودفعها : والمراد أنه قاس ظلوم . [٦] الظئينة : المرأة مادامت في الهودج .

«أتدرون من ثُبَايعُونَ؟ إنما ثُبَايعُونَ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ - يَعْنِي هَبْنَقَةَ الْقَيْسِيَّ -
كَأَنِّي بِأَمِيرِ مِزْجَاءَ، وَحَكَمَ قَدْ أَتَاكُمْ، يَحْكُمُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَدِمَائِكُمْ وَفِرْجِكُمْ
وَأَبْشَارِكُمْ»^(١)، ثُمَّ قَالَ: الْأَعْرَابُ وَمَا الْأَعْرَابُ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ، جَمَعْتُمْ
كَمَا يَجْمَعُ قَرْعَ الْخَرِيفِ^(٢) مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ، وَمَنَابِتِ الْقَلْقَلِ،
وَجَزِيرَةَ ابْنِ كَاوَانَ، تَرْكَبُونَ الْبَقْرَ، وَتَأْكُلُونَ الْهَيْبِدَ^(٣)، فَحَمَلْتُمْ عَلَى الْخَيْلِ،
وَأَلْبَسْتُمْ السِّلَاحَ، حَتَّى مَنَعَ اللَّهُ بِكُمْ الْبِلَادَ، وَأَفَاءَ بِكُمْ النَّيْءَ» قَالُوا: مَرْنَا
بَأَمْرِكَ. قَالَ: غُرُّوا غَيْرِي. (العقد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:

«يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَسْتُ أَعْلَمُ النَّاسَ بِكُمْ؟ أَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيَةِ،
فَنَعَمَ الصَّدَقَةَ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ فَمَلِجَةٌ^(٤) بَطْرَاءَ، لَا تَجْمَعُ
رَجُلِيهَا، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ عَبْدُ الْقَيْسِ فَمَا ضَرَبَ الْعَيْرَ بِذَنَبِهِ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ
الْأَزْدِ، فَمَلُوجٌ^(٥) خَلَقَ اللَّهُ وَأَنْبَاطُهُ^(٦)، وَإِيْمُ اللَّهِ لَوْ مَلَكَتُمْ أَمْرَ النَّاسِ لَنَقَشْتُمْ
أَيْدِيَهُمْ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ تَمِيمٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُونُ الْغَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَيْسَانَ»
(العقد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:

«يَا أَهْلَ خِرَاسَانَ، قَدْ جَرَّبْتُمْ الْوَلَاةَ قَبْلِي، أَتَاكُمْ أُمِيَّةٌ، فَكَانَ كَأَسْمِهِ أُمِّيَّةَ
الرَّأْيِ، وَأُمِيَّةَ الدِّينِ، فَكُتِبَ إِلَيَّ خَلِيفَتُهُ: إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسَجِسْتَانَ لَوْ كَانَ

[١] أبشار جمع شر وهو جمع بشرة وهي ظاهر الجلد . [٢] في العقد الفريد : « كما يجمع فرخ
الحريق » وفي البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا .
[٣] المنظل . [٤] مؤنث العليج ، وهو حمار الوحش السمين أقوى ، وأمة بطراء : طويلة النظر
كشمس وهو ما بين شفرى الرحم . [٥] جمع هليج (بالسكر) وهو الرجل من كفار العجم .
[٦] جيل من الناس كانوا يزلون سواد العراق ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم .

في مطبخه لم يتكفِه ، ثم أتاكم بعده أبو سعيد ، فدوَّخ بكم البلاد ، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يجب فيئا ، ولم ينكأ عدواً ، ثم أتاكم بنوه بعده ، مثل أطباء^(١) الكلبة ، منهم ابن الرحمة^(٢) ، حصان يضرب في عانة^(٣) ، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وأمن لكم السبل ، حتى إن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير جوار»
(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

٢٩٦ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم^X

وخرجت خارجةً بخراسان ، فقبل لقتيبة بن مسلم : لو وجهت إليهم وكيع ابن أبي سود^(٤) ، قال : - وكان وكيع رجلاً عظيم الكبر ، في أنفه خنزروانة^(٥) ، وفي رأسه نورة^(٦) - وإنما أنفه في أسلوب^(٧) ، ومن عظم كبره اشتد عجبته ، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيئاً^(٨) ، ولم يؤامر نصيحاً ، ومن تفرّد بالنظر لم يكمل له الصواب ، ومن تبجح^(٩) بالانفراد ، وفخر بالاستبداد ، كان من الصواب

- [١] جمع طبي كقفل والطبي : لدات الحف والطف كأيدي المرأة . [٢] يريد به يزيد بن المهلب .
[٣] العانة : الأذن ، والقطيع من حر الوحش ، والمراد بها النساء .
[٤] هو وكيع بن أبي سود التيمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .
[٥] الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : الكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .
[٦] العرة : الحيلة والكبر .
[٧] الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لو أسلوب إذا كان متكبراً ، قال الراجز :
أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاء في الجبوب
(وهو في معنى المثل للشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجبوب كصور : الأرض ، والأستاء جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بثينة :
وما أنس ملأ شيا لا أنس قولها (وقد قربت نضوى) أمصر تريد ؟
أي من الأشياء ، وقول قطري بن العجاءة :
غداة طفت علماء بكر بن وائل ومجنا صدور الحيل نحو تميم
أي على الماء) . [٨] الكفى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . [٩] تبجح به : افتخر وتباهى .

بعيدا ، ومن الخِذْلان قريبا ، والخطأ مع الجماعة ، خير من الصواب مع الفرقة ،
 وإن كانت الجماعة لا تخطئ ، والفرقة لا تُصيب ، ومن تكبر على عدوه حقره ،
 وإذا حقره تهاون بأمره ، ومن تهاون بخصمه ، ووثق بفضل قوته قل احتراسه ،
 ومن قل احتراسه كثر عثاره ، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب ، إلا كان
 منكوبا ، فلا والله حتى يكون عدوه عنده ، وخصمه فيما تغلب عليه ، أسمع من
 قرَس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قِطَاة ، وأحذر من عمق^(١) ، وأشد
 إقداً من الأسد ، وأوثب من الفهد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ،
 وأغدر من ذئب ، وأسخر من لافظة^(٢) ، وأشح من صبي ، وأجمع من ذرّة^(٣) ،
 وأحرس من كلب ، وأصبر من صبّ ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر
 الحاجة ، وتحفظ على قدر الخوف ، وتطلب على قدر الطمع ، وتطمع على
 قدر السبب .

(جهرة الامثال ١ : ١١٧)

[١] العمق : نوع من العرمان ، وهو دولوبين : أبيض وأسود طويل اللب ، يشبه صوته العين
 والقف — ولدا سمى عمقا ، وقيل لأنه يعمق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع العرمان يفعل ذلك — وقد
 ضربوا به المثل في الحذر ، فقالوا : « أحذر من عمق » — انظر جهرة الأمثال — كما قالوا : « أحذر من
 غراب » وقالوا أيضا : « ألس من عمق » لأن في طعمه شدة الاختطاف لما يراه من الخلق — وقالوا :
 « أحق من عمق » لأنه كالنعامة التي تصيح بيضا وأفراخها ، وتشتمل ببس غيرها ، ولياها
 على هدبة بقوله :

كتاركة بصها بالعرء ومليسة ببس أخرى جناحا

— انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال — .

[٢] رواه الميداني : « أسمع من لادظة » وقال : قد اختلفوا فيها فقال بعضهم : هي العنز التي تشلى
 للحلب — أشلى دابته : أراها الخجلة لتأنيه ، وأشلاها دعاها للحلب — فتعى لادظة بحرتها فرحا بالحلب ،
 وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ما في بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمقاره
 فلا يأكلها ، ولكن ياقبها إلى الدجاجة ، والهء فيها المبالغة هاهنا ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلفظ
 ما تطحنه أي تقذف ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالندرة ، قال الشاعر :

تجود تجرل قل السؤال وكفك أسمع من لادظة .

[٣] الدر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : فائل الله زيادا جمع لهم (أى لأهل الدراق)
 كما تجمع الدرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعا كما تجمع في قربتها الدر .

ومن كلماته البليغة قوله حين قَدِمَ خُرَاسَانَ :

« من كَانَ في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم ^(١) فَنَيْبُذْهُ ، وإن كَانَ

في فِيهِ فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كَانَ في صدره فَلْيَنْفُثْهُ » فَعَجِبَ النَّاسُ من حَسَنِ

(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

ما فَصَّلَ وقسم .

٢٩٧ — خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نُصَيْرٍ - وكان والياً عليها من قِبَلِ الوليد بن

عبد الملك - طَمَحَ بَصَرَهُ إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاهُ طارق بن زياد

على جيش جُلَّهُ من البربر سنة ٩٢ هـ ، فَعَبَّرَ بهم البحر ، وَتَمَيَّ خَبْرَهُ إلى لُدْرِيْق

ملك القُوط ، فأقبل لمحاربتَه بجيش جرار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده

لقلَّتْهم ، فأحرق السفن التي أَقْلَّتْهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ،

وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في

الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفرُّ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم

والله إلا الصِّدْقُ ^(٢) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضعفُ من الأيتام

[١] وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمالهم

فأخرجهم ، وعلك كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وعلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه

عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - بدعوه إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه

خراسان عشر سنين ، وأبى وحاف ألا يعطيه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يهائل بحير بن ورقاء الصرغبي

بأبرشهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، وكتب عبد الملك إلى بكير بعهدته على خراسان ، ووعدته

ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأحابه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم نخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل

مرو وأهل أبرشهر ، فترك بحيراً وأقبل إلى مرو ، فاتبعه بحير بلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم

في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ .

[٢] أي الصِّدْقُ في القتال ، والصِّدْقُ : الهدية ، يقال صدقته القتال .

في مَادِبٍ ^(١) اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته مؤفورة ،
وأنتم لا وزر ^(٢) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي
عدوكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ، ذهبت
ريحكم ، وتموّصت القلوب من رُغبتها منكم الجزأة عليكم ، فادفعوا عن
أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة ^(٣) هذا الطاغية ، فقد ألفت
به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن ، إن سمّحتم لأنفسكم
بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ^(٤) ، ولا حملتكم على خُطة أرخص
متاع فيها النفوس ، أربأ ^(٥) فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ
قليلاً ، استمتعتم بالأرقة الألدّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فيما
حظّكم فيه أوفر من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور ^(٦) الحسان ، من بنات
اليونان ، الرافلات ^(٧) في الدرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالمعقّيان ^(٨) ،
المقصورات ^(٩) في قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد
الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ^(١٠) ، ورَضِيكم لملك هذه الجزيرة
أضهاراً ^(١١) وأختاناً ^(١٢) ، ثقةً منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحكم ^(١٣) بمجالدة

[١] جمع مَأْدِبَةٌ بِالْمَتْحِ وَالضَّمِّ وَهِيَ طَعَامٌ صَنِعَ لِدَعْوَةِ أَوْ عَرَسٍ . [٢] لَا مَجْأً . [٣] أَيْ مَبَارَزَتِهِ .

[٤] النَجْوَةُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ . [٥] رَبُّاً بِنَفْسِهِ : عَلَاقَتُهَا وَارْتَمَعَ أَيْ اتَّجَمَعَ عَنْ مَشَارِكَتِكُمْ .

[٦] جَمْعُ حَوْرَاءَ مِنَ الْحَوْرِ بِالتَّحْرِيكِ وَهُوَ شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ وَبَيَاضُهَا .

[٧] رَفَلَاتٌ : جَرَتْ ذَيْلُهَا وَتَبَحَّرَتْ ، أَوْ خَطَرَتْ بِيَدَيْهَا . [٨] الذَّهَبُ . [٩] المَخْدَرَاتُ : المَخْبُوءَاتُ

[١٠] جَمْعُ عَزِيبٍ وَالعَزِيبُ وَالعَزْبُ وَالأَعَزْبُ : مَنْ لَازِجَةٌ لَهُ . [١١] جَمْعُ صِهْرِكَيْلٍ وَهُوَ زَوْجُ

بِنْتِ الرَّجُلِ ، وَزَوْجُ أُخْتِهِ . [١٢] جَمْعُ خَتْنِ كَسْبٍ ، وَهُوَ العَمِيرُ ، أَوْ كَلَّ مِنْ كَلَّنَ مِنْ قَبْلِ المَرَاةِ

كَلَابٍ وَالأَخِ . [١٣] سَمِيحٌ وَاسْمِيحٌ : جَادٌ وَكَرِيمٌ .

الأبطال والفُرسان ، ليكون حَظُّهُ منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كَلِمَتِهِ ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَنعَمُهَا خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إِنْجَادِكُمْ على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .
واعلموا أني أول محيب إلى ما دعوتكم إليه ، وَأَنِّي عند مُلتَقَى الجَمْعين ، حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لندريق ، فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كُفيتُم أمره ، ولن يُعوزَكم بَطَلٌ عاقلٌ تُسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه ، فاخلفوني في عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المَهْمُ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخَذَلون .

(نفع الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

٢٩٨ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قُتَيْبَةَ هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُئُوَ لندريق ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ، وَرَغَّبَهُمْ في الشهادة ، وَبَسَطَ لَهُمْ في آمالهم ، ثم قال :
« أيها الناس : أين المفر؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثمَّ والله إلا الصدقُ والصبر ، فإنهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تَضُرُّ معهما قِلَّةٌ ، ولا تنفع مع الخَوَرِ والكسَلِ والفَشَلِ ، والاختلافُ والعُجْبُ كَثْرَةٌ ، أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملتُ فاحملوا ، وإن وقفتُ فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامدٌ إلى طاغيتهم ، بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه ، وأُقتل دونه ، فإن قُتِلتُ فلا تهنؤا^(١) ولا تحزنوا ،

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الذُّبُرَ لَعَدُوِّكُمْ ، فَتَبَدَّدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا بِالذَّنْبِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِي مَا مُجَّلَ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمِهْنَةِ وَالذَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حُلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَلَّوْا ^(١) (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَمُعِيذُكُمْ) تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءَ الْحَدِيثِ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا نَذْرًا حَامِلًا حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَاحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . (الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٢٩٩ - خطبة عثمان بن حيان المرى بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المرى المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غَشٍّ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، وَقَدْ ضَوَى ^(٢) إِلَيْكُمْ مَنْ يَزِيدُكُمْ خَبَالًا : أَهْلُ الْعِرَاقِ ، هُمْ أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، هُمْ وَاللَّهِ عَشْرُ النِّفَاقِ ، وَيَبِيضَتُهُ الَّتِي تَفَلَّقَتْ عَنْهُ ، وَاللَّهُ مَا جَرَّبَتْ عِرَاقِيًّا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ ، الَّذِي يَقُولُ فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ مَا يَقُولُ ، وَمَا هُمْ لَهُمْ بِشِيْعَةٍ ، وَإِنَّهُمْ لَأَعْدَاءُ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ ، وَلَكِنْ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنْ سَفْكِ دِمَائِهِمْ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوتِي بِأَحَدٍ آوَى أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْرَاهَ مَنْزِلًا ، أَوْ أَنْزَلَهُ ، إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، وَأَنْزَلْتُ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ^(٣) .

ثم إن البُلْدَانَ لَمَّا مَصَّرَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ عَلَى مَا يَصْلِحُ رِعِيَّتَهُ ،

[١] إن تملبوا وتهرموا . [٢] ضوى كرمى : انضم ولجا ، والخبال : الفساد .

[٣] ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق تاجراً ، ولا غير تاجر ، وأسر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وعاقبهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف .

جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيرهُ : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْعِرَاقُ ؟
فيقول : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيَّ .

إِنِّي رَأَيْتَ الْعِرَاقَ دَاءً عَضَالًا ، وَبِهَا فَرَّخَ الشَّيْطَانُ ، وَاللَّهُ لَقَدْ أَعْضَلُوا بِي (١) ،
وَإِنِّي لَأَرَانِي سَافِرًا قَهُمَ فِي الْبُلْدَانِ ، ثُمَّ أَقُولُ : لَوْ فَرَّقْتَهُمْ لَأَفْسَدُوا مِنْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ بِمَجْدَلٍ وَحِجَاجٍ ، وَكَيْفَ ؟ وَ لِمَ ؟ وَسُرْعَةً وَجِيفٌ (٢) فِي الْفِتْنَةِ ، فَإِذَا خُبِرُوا
عِنْدَ السِّيُوفِ ، لَمْ يُخْبَرَ مِنْهُمْ طَائِلٌ (٣) ، لَمْ يَصْلُحُوا عَلَى عَثْمَانَ . فَلَقِيَ مِنْهُمْ
الْأَمْرَيْنِ (٤) ، وَكَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ فَتَقَ هَذَا الْفَتَقَ الْعَظِيمَ ، وَتَقَضُّوا عُرَا
الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً ، وَانْغَلَوْا (٥) الْبُلْدَانَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا
أَفْعَلُ بِهِمْ ، لَمَّا أَعْرِفُ مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، ثُمَّ وَلايَتِهِمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ ،
فَدَا مَجْهَمٌ (٦) فَلَمْ يَصْلِحُوا عَلَيْهِ ، وَوَلايَتِهِمْ رَجُلَ النَّاسِ (٧) جَلَدًا ، فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ
السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَقَامَ وَآلَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَرَهُمْ وَعَرَفَهُمْ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهُ مَا رَأَيْنَا شِعَارًا قَطُّ مِثْلَ الْأَمْنِ ، وَلَا رَأَيْنَا جَلْسًا (٨)
قَطُّ شَرًّا مِنَ الْخَوْفِ ، فَالزَّمُوا الطَّاعَةَ ، فَإِنِ عِنْدِي يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ خَبْرَةٌ مِنْ
الْخِلَافِ ، وَاللَّهُ مَا أَنْتُمْ بِأَصْحَابِ قِتَالٍ ، فَكُونُوا مِنْ أَحْلَاسِ بِيوتِكُمْ ، وَعَعْضُوا عَلَى
النَّوَاجِدِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ

[١] عضل به الأمر ، وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً .

[٢] وجب يجف وحيفاً : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والابل .

[٣] الطائل والطائلة والطول : العضل والقررة . [٤] الامران : الفقر والمهرم ، وهو كناية عن

اشتداد الامر . [٥] أفسدوا ، من نفل الاديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأنعه : أفسده .

[٦] المداجة مثل المداجة وداجه عليه : وافقه . [٧] يريد الحجاج بن يوسف .

[٨] المجلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد : مارأيا مركباً شراً من الخوف

وفلان جلس من أحلاس البيت : لاندى لا يبرح البيت .

كلامٍ غيرُهُ أَلْزَمُ لَكُمْ ، فَدَعُّوا عَيْبَ الْوُلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئًا شَيْئًا
حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد .
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٠ - وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

ولما ولى يزيد بن المهلب خراسان في عهد سليمان بن عبد الملك ، فتح
جُرْجَانَ^(١) وطَبْرَسْتَانَ^(٢) (سنة ٩٨) ، وقد أوصى ابنه مَخْلَدًا حين استخلفه
على جُرْجَانَ ، فقال :

« يَا بُنَيَّ ، إني قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحى من اليمن ،
فكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنت مرّتاد الرجالِ لِنَفْعِهِمْ فَرِشْ وَأَصْطَنِعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْحِي^(٣)

وانظر هذا الحى من ربيعة ، فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر
هذا الحى من تميم ، فامطرهم^(٤) ، ولا تُزَرِه^(٥) لهم ، ولا تُدْنِهِمْ فَيَطْمَعُوا ، ولا
تُقْصِهِمْ فَيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحى من قيس ، فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ،
ومُنَاصِفُوهم المنابر في الإسلام ، ورضاهم منك البشر .

يا بنى : إن لأبيك صنائع فلا تُفْسِدْهَا ، فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهدم
ما بنى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بقية معها ، وإياك وشتم الأعراس ، فإن
الحرّ لا يُرضيه عن عرضه عوض ، وإياك وضرب الأبخار ، فإنه عارٌ باق ،

[١] في الجنوبي الشرقي من بحر قزوين . [٢] جنوبي بحر قزوين .

[٣] راش المههم يرشه : ألق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله
وقعه ، واصطنع عنده صنيعه : اتخذها ، والبيت لأبي دؤاد الأيادي . [٤] مطرتهم السماء : أصابتهم
بالمطر ، ومطرهم غير : أصابهم ، وما مطر منه خيراً - وبغير - : أى ما أصابه منه خير

[٥] الزمو : الكبر والذية ، زهى كفى ، وكذا : قليلة .

وَوَثْرَةٌ مَطْلُوبٌ ، وَاسْتَعْمِلْ عَلَى النَجْدَةِ وَالْفَضْلِ دُونَ الْهَوَى ، وَلَا تَعَزِلْ إِلَّا عَنِ
عِجْزٍ أَوْ خِيَانَةٍ ، وَلَا يَمْنَعُكَ مِنْ اصْطِنَاعِ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَكَ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ ،
فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَصْطَنِعُ الرِّجَالَ لِفَضْلِهَا ، وَلِيَكُنْ صَدِيقُكَ عِنْدَ مَنْ يَكْفُتُكَ عَنْهُ ، أَحْمَلِ
النَّاسَ عَلَى أَحْسَنِ أَدَبِكَ يَكْفُوكَ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِذَا كَتَبْتَ كِتَابًا فَأَكْثِرِ النَّظَرَ
فِيهِ ، وَلِيَكُنْ رَسُولُكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَكَ مِنْ يَفْقَهُهُ عَنِّي وَعَنْكَ ، فَإِنَّ كِتَابَ الرَّجُلِ
مَوْضِعُ عَقْلِهِ ، وَرَسُولُهُ مَوْضِعُ سِرِّهِ ، وَأَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ ، فَلَا بَدَّ لِلْمَوْدَعِ أَنْ
يَسْكُتَ ، وَالْمَشِيْعُ أَنْ يَرْجِعَ ، وَمَا عَفَّ مِنَ الْمَنْطِقِ ، وَقَلَّ مِنَ الْخَطِيئَةِ أَحَبُّ
إِلَى أَيْبِكَ ، وَكَذَلِكَ سَلَكَ هَذَا الْمَسَلَكُ الْحَمُودُ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

٣٠١ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيهِ

وقال عمر بن هبيرة^(١) يؤدّب بعض بنيهِ :

« لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ ، وَإِيَّاكَ وَالْهَوَى وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ^(٢) ، وَتَجَنَّبْ
ارْتِجَالَ الْكَلَامِ ، وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبَدٍّ ، وَلَا عَلَى وَغْدٍ ، وَلَا عَلَى مَتَلَوْنٍ ، وَلَا عَلَى
لَجُوجٍ ، وَخَفِ اللَّهَ فِي مُوَافَقَةِ هَوَى الْمُسْتَشِيرِ ، فَإِنَّ التَّمَّاسَ مُوَافِقَتَهُ لُؤْمٌ ، وَسُوءُ
الاسْتِمَاعِ مِنْهُ خِيَانَةٌ . »

وقال : « مِنْ كَثَرِ كَلَامِهِ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ . »

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

[١] هو عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان عاملاً على الجريرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق
(وأضيفت إليه خراسان) ليزيد بن عبد الملك . [٢] كل شيء أجملته عن إدراكه فهو فطير —
والمعجب الفطير : ضد الخير أى الذى لم يختبر — « وكان عبد الله بن وهب الراسي أمير الحوارج يقول :
نموذ بالله من رأى الدبرى — والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشيء —
ولا تقل دبرى بضمين فإنه من لحن الحديثين »

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٢ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ الْبُلْدَانِ فَوْضَعَ بِهَا يَتَّهَ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّهَ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوتِيَ بِأَحَدٍ يَطْعَنَ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَّيْتَهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلِّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَةَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيهَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِمْنًا وَوَأَهْلًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيُقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِمَّنْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، فَانظُرُوا مَنْ تُنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ . »

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ لَمْ تُقِرَّ بِالطَّاعَةِ ، لِأَخْرَجَتْهَا مِنَ الْحَرَمِ ، إِنَّهُ لَا يَسْكُنُ حَرَمَ اللَّهِ وَأَمْنَهُ مَخَالَفَ لِلْجَمَاعَةِ زَارٍ^(٢) عَلَيْهِمْ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

[١] ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولى العراقيين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يتهم في دينه ، وهو من خطباء العرب الممدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ١٢٦ هـ . [٢] زرى عليه : عابه .

٣٠٣ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غُلُوهُ أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيُّهما أعظم ؟ أخليفةُ الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضلَ الخليفة إلا أن إبراهيم خليلَ الرحمن استسقى ربّه ، فسقاه مِلْحًا أَجَاجًا ^(١) ، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذْبًا فُرَاتًا » يعني برًّا حفرها الوليد ابن عبد الملك بالثَّنِيَّتَيْنِ : ثَنِيَّة طُوًى ^(٢) ، وثَنِيَّة الْحَجُّونِ ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حَوْضٍ من أَدَمٍ إلى جنب زمزم ، ليعرف فضله على زمزم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣٠٤ - خطبته بمكة في الحجاج

وَصَعِدَ خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج ، فحمد طاعته ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بِشْتَمِ الحجاج ، ونَشَرَ عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كَانَ مَلَكًا من الملائكة ، وَكَانَ يُظْهِرُ من طاعة الله ما كَانَتْ الملائكة تَرَى له به فَضلاً ، وَكَانَ اللهُ قد عَلِمَ من غِشِّهِ وَخُبْئِهِ مَا خَفِيَ على ملائكته ، فلما أَرَادَ اللهُ فَضِيحَتَهُ أمره بالسجود لآدَمَ ، فظهر لهم ما كَانَ يُخْفِيهِ عنهم ، فلعنوه ، وَإِنْ الحجاج كَانَ يُظْهِرُ من طاعة أمير المؤمنين ما كُنَّا تَرَى له به فَضلاً ، وَكَانَ اللهُ قد أَطْلَعَ أمير المؤمنين من غِشِّهِ وَخُبْئِهِ على مَا خَفِيَ عَلَيْنَا ، فلما أَرَادَ اللهُ فَضِيحَةَ

[١] ماء أجاج : ملح مرّ ، والفرات : الماء العذب جداً .

[٢] ذو طوى ثلاث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة ، وفي شرح العيون

أنه قال : « قد جئكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الحفاس » يعني زمزم .

أَجْرَى ذَلِكَ عَلَى يَدَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَعْنَةُ ، فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ « ثم نزل .
(المقدم التمريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣٠٥ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسطة ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« أيها الناس ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ ، وَسَارِعُوا إِلَى الْمَغَانِمِ ، وَأَشْتَرُوا الْحَمْدَ
بِالْجُودِ ، وَلَا تَكْسِبُوا بِالْمَطْلِ ذِمًّا ، وَلَا تَعْتَدُوا بِالْمَعْرُوفِ مَا لَمْ تَعْمَلُوهُ ، وَمَهْمَا
يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدَ أَحَدٍ نِعْمَةٌ فَلَمْ يَبْلُغْ شُكْرَهَا ، فَاللَّهُ أَحْسَنُ لَهَا جِزَاءً ،
وَأَجْزَلُ عَلَيْهَا عَطَاءً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، فَلَا
تَمَلُّوا النَّعْمَ فَتَحْوِلُوهَا نِقْمًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ الْمَالِ مَا أَكْسَبَ أَجْرًا ، وَأُورِثَ
ذِكْرًا ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا يَسُرُّ النَّاظِرِينَ ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ
الْبَخْلَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ مُشَوَّهًا قَبِيحًا تَنْفِرُ عَنْهُ الْقُلُوبُ ، وَتُغْضِي عَنْهُ الْأَبْصَارُ .

أيها الناس ، إِنْ أَجْوَدَ النَّاسُ مَنْ أَعْطَى مَنْ لَا يَرْجُوهُ ، وَأَعْظَمَ النَّاسُ
عَفْوًا مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ ، وَأَوْصَلَ النَّاسُ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَطِيبْ
حَرَّتَهُ ، لَمْ يَزَلْ^(١) نَبْتُهُ ، وَالْأَصُولُ عَنْ مَغَارِبِهَا تَنْمُو ، وَبِأَصُولِهَا تَسْمُو .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

(صح الأعمش ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣٠٦ - خطبة له يوم عيد

خطب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كُنْتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ

ارتأيت أن تَخْلُقَ الخَلْقَ ، فإذا جئتَ به من عجائب صنْعِكَ؟ والكبيرُ والصغيرُ
مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، من صُنُوفِ أفواجه (١) ، وأفراده
وأزواجه ، كيف أدجبتَ (٢) قوائِمَ الذَّرَّةِ والبعوضة ، إلى ما هو أعظم من ذلك ،
من الأشباح ، التي امتزجت بالأرواح . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦)

٣٠٧ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدوبة لفظه ، وبلاغة
منطقه ، فيينا هو يخطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :
«سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائِمها ، وطوقها جناحها ، ووشى (٣)
جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها» .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣٠٨ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي (٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عباد الله ، فكم من مؤمّل أملاً لا يبلغه ، وجامع مالا لا يأكله ،
ومانع عما سوف يتركه ، ولعله من باطلٍ جمعه ، ومن حقٍ منعه ، أصابه حراماً ،
وأورثه عدواً ، فاحتمل إضره (٥) ، وباء بوزره ، وورد على ربه أسفاً لاهفاً ، قد
خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والنبين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

[١] جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . [٢] من أدمج الحبل : أحكم قتله في رقة .
[٣] نقش ونعم وزين . [٤] هو ابن ابن عم الحجاج ، ولاء هشام بن عبد الملك اليميني سنة ١٠٦ هـ ،
ثم ولاء العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .
[٥] الإضر : الذنب .

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣٠٩ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلفه ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصلهم وأخافوهم ، وجه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرّي ، ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعوني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غضباً لدينكم ، فأبُلُوا إلى الله بلاءً حسناً ، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ، ويُمَجِّلَ بكم رضوانه ، واستعدُّوا بأحسنِ عدَّتكم ، وتأهبُّوا بأكل أهبتكم ، فقد أُخْبِرْت بأن القوم نزلوا بذي خُشب^(١) ومعهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مُهْلِكُهُ بنَقْضِهِ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢) . »

[١] ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . [٢] وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية عن المدينة ، وحلفوا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لننلقوا جيش يزيد ليردّونهم عنهم إن استطاعوا ، فان لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ، نصدقهم اللقاء ، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك أجانا ظهورنا » ثم نزل . (الامامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٠ - خطبة مسلم بن عقبة يثوب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يُذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقُتل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ؟ وأن يعزوا به نصر إمامهم ؟ قبّح الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجعه لقلبي ، وأغیظه لنفسي ! أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء ، وأن تجمرُوا في أقاصي الثغور ، شدوا مع هذه الراية ، ترّح^(٢) الله وجوهكم إن لم تُعتبوا^(٣) » .
(تاريخ الطبری ٧ : ٩)

٣١١ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه ، وأخذ مسلم يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا

[١] الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . [٢] ترّح : كترّح فرحاً : حزن ، وترّح تريحاً : أحزنه . [٣] أعتبه : أعطاه العتي (كقربى) وهي الرضا ، أى إن لم ترضوني بصدقكم القتال .

أَكْثَرِهَا عَدَدًا ، وَلَا أَوْسَعِيهَا بَلَدًا ، وَلَمْ يَخْصُصْكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ
النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هُوَ لَاءِ
الْقَوْمِ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرُوا ، فَغَيَّرَ اللَّهُ بِهِمْ ، فَتَمَّوْا ^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُنْتُمْ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمِ اللَّهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُنِيلِكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَلَجِ ^(٢) .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٢ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت
راياتهم ، فقال :

« يَا هُوَلَاءِ : إِنْ عَدُوَّكُمْ قَدْ أَصَابُوا وَجْهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ
بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا
لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَا إِنَّكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْهَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ
أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمَسَامِينِ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ
بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْحَطَ مِنْهُ عَلَى هُوَلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ
مَيْتَةٌ هُوَ مَيْتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مِنْ مَيْتَةٍ بِأَفْضَلَ مِنْ مَيْتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ، فَاعْتَمِمْوْهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلَّمَا أَرَدْتُمْوَهَا وَجَدْتُمْوَهَا . »

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقتل ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم
المدينة ^(٣) ، وكانت وقعة الحرّة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

[١] تمّ على الأمر وتمّ عليه كضرب أى استمر عليه .

[٢] الفلج : الظفر والنصر . [٣] انظر ص ١٨٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٣ - خطبة عبید الله بن زياد بن أبيه

قام عبید الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، انْسُبُونِي ، فوالله ما مهاجرُ أبي إلا إليكم ، وما مولدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وَايَتِكُمْ وما أَحْصَى ديوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ إلا سبعين ألفَ مُقاتِل ، ولقد أَحْصَى اليومَ ديوانُ مُقاتِلَتِكُمْ ثمانينَ ألفاً ، وما أَحْصَى ديوانُ عَمَّالِكُمْ إلا تسعينَ ألفاً ، ولقد أَحْصَى اليومَ مائةً وأربعينَ ألفاً ^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظِنَّةٍ ^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سِجْنِكُمْ هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد تُوُفِّيَ ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناسِ عَدَدًا ، وأعرضه فِنَاءً ، وأغناه عن الناسِ ، وأوسعُه بلادًا ، فاخْتاروا لأنفسِكُمْ رجلاً ترتضونه لدينِكُمْ وجماعتِكُمْ ، يُجَاهِدُ عدوكم ، وَيُنْصِفُ مظلومِكُمْ من ظالمِكُمْ ، وَيَكْفِ سُفْهَاءَكُم ، وَيَجْنِي لَكُمْ فَيْئَكُم ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينِكُمْ ، فأنا أولُ راضٍ من رَضِيتموه وتَابِعَ ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كتمت على جَدِيلَتِكُمْ ^(٣) حتى تُعْطُوا حاجتِكُمْ ، فإياكم إلى أحد من أهل البُلدانِ حاجةٌ ، وما يستغني الناس عنكم . »

[١] وفي البيان والتبيين : « والله لقد وَايَتِكُمْ أبي وما مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثر جنوداً وأبعد مقادراً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . [٢] الطنة : التهمة .
[٣] الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أى على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مقاتلتك أيها الأمير ، وإننا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك ، فقال : لاجحة لى فى ذلك ، فاختراروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون : ظن ابن مرّجانة أنا نؤايبه أمرنا فى الفرقة ! وأقام عبيد الله أسيراً غير كثير ، حتى جعل سلطانه يضعف ، ويأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الراى فيردّ عليه ، ويأمر بحبس المخطئ فيحال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣١٤ — خطبة أخرى له

وبلغه أن سامة بن ذؤيب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فنودى : الصلاة جامعة ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يقصّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى من يرتضونه ، فبايعه معهم ، وقال : « وإنكم أيتّم غيرى ، وإنه بلغنى أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإنى أمر بالأمر فلا ينفذ ، ويردّ على رأى ، وتحوّل القبائل بين أعوانى وطلبتى ^(١) ، ثم هذا سامة بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادة أن يفرّق جماعتكم ، ويضرب بعضكم جباه بعض بالسيف » .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً : نحن نأتيك بسامة ، فأتوه ، فإذا

جَمْعُهُ قَدْ كَثُفَ ، وَإِذَا الْفَتْقُ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاتِقِ ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ، فَقَعَدُوا عَنْ
ابْنِ زِيَادٍ فَلَمْ يَأْتُوهُ .

وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ : « يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ لَبِسْنَا الْخَزَّ وَالْيُمْنَةَ ^(١)
وَاللَّيْنَ مِنَ الثِّيَابِ ، حَتَّى لَقَدْ أَجَمْنَا ^(٢) ذَلِكَ ، وَأَجَمَّتْهُ جُلُودُنَا ، فَمَا بَنَا إِلَى أَنْ
نُعْقِبَهَا الْحَدِيدَ ؟ يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَوْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى ذَنْبٍ عَيْرٍ لَتَكْسِرُوهُ
مَا كَسَّرْتُمُوهُ » . (تَارِيحُ الطَّبَرِيِّ ٧ : ٢٠)

٣١٥ - خُطْبَةُ عَمْرٍو بْنِ حَرِيثٍ

وَلَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ - وَكَانَ خَلِيفَتَهُ عَلَى الْكُوفَةِ عَمْرٍو بْنُ
حُرَيْثٍ - بَعَثَ وَافِدَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى الْكُوفَةِ : عَمْرٍو بْنَ مِسْمَعٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الْقَرَّحَاءِ ^(٣)
التَّمِيمِيَّ ، لِيُعْلَمَ أَهْلَ الْكُوفَةِ مَا صَنَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، وَيَسْأَلَانِهِمُ الْبَيْعَةَ لِابْنِ زِيَادٍ ،
حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ ، فَجَمَعَ النَّاسَ عَمْرٍو بْنَ حَرِيثٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ هَذِينَ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانِكُمْ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهَ
بِهِ كَلِمَتَكُمْ ، وَيُصْلِحُ بِهِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا
بِرُّشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣١٦ - خُطْبَةُ عَمْرٍو بْنِ مِسْمَعٍ

فَقَامَ عَمْرٍو بْنُ مِسْمَعٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتِمَاعَ
رَأْيِهِمْ عَلَى تَأْمِيرِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَرَى النَّاسَ رَأْيِهِمْ ، فِيمَنْ يُولُونَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

[١] اليمنة : برد يمي . [٢] أجه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : تركه فلم يركبه ففعا من تعب ،
والجمام بالفتح : الراحة . [٣] القرهاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكونَ أميرنا وأميركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

وقام ابن القرهاء ، فتكلم نحواً من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني فحَصَبَهُمَا أولَ الناس ، ثم حصبهما الناس بعدُ ، ثم قال : أنحن نبايع لابن مرّجانة؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يخلعونه ، وأنتم توثونونه وتبايعونه ؟ فوثب به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خُفارةٍ رجال من الأزدي وبكر بن وائل . (تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣١٧ - خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابن زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على المنبر يبايع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرّحوا ، وطردهم عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دماننا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شئتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بينة أنا قتلنا صاحبكم ، فاخترنا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بينة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزد : أنتم جبرتنا في الدار ، وإخواننا عند القتال ، وقد أتيناكم في رحالكم ، لإطفاء حشيشتكم ^(١) ، وسَلَّ سَخِيمَتِكُمْ ^(٢) ، ولكم الحكمُ مُرْسَلًا ^(٣) ، فقولوا ، على أعلامنا وأموالنا ، فإنه لا يتعاضمنا ^(٤) ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا » ، فقالوا : أتدون صاحبنا عشر دياتٍ ؟ قال : هي لكم ، فانصرف الناس واصطلحوا ^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربّه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما هي ذى : قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأزد وربيعة ، أنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصّهر ، وأشقاؤنا في النّسب ، وجيراننا في الدار ، ويدنا على العدو ، والله لأزدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام ، فإن استشرف شنائكم ^(٦) ، وأبى حسدُ صدوركم ، ففي أموالنا ، وسعة أعلامنا ، انا ولكم سعة » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥٧)

٣١٨ — خطبة روح بن زنباع الجذامي بالمدينة ^(٧)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُمَيْر - وهو على حرب ابن

[١] أى زركم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد في كتب اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة الكلاء) . [٢] السخيمة : الحقد . [٣] أى مطلقا كما تشاءون . [٤] تعاضمه : عظم عليه .

[٥] واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصلى بهم حتى يجتمع الناس على امام ، جعلوا عبد الملك بن عبد الله بن طامر شهرا . ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بيته - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكث شهرًا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المدروف باقباغ ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردّوا وفد البصرة ولوا عليهم طامر بن مسعود القرشي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل ابن الزبير كما تقدم . [٦] استشرف : انتصب ، أى زاد واستحکم ، والشنائن : البغض والكرهية .

[٧] هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المرّمي ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت

الزبير بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحربة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهَيَّجَهَا ، صَعِدَ رَوْحُ بْنُ زَيْبَاعِ الْجُدَامِيُّ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان في ذلك الجيش - فقال :

بمسل في الطريق ، وولى أمر الجيش الحسين بن نعيم - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان ابن مالك بن مجدل الكلابي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستعلمه على فلسطين ، ونزل هو الأردن ، فوثب نائل بن قيس الجذامي على روح ، واخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبري ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغاني ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان ابن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستحلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الهجري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رحل بنى أمية وناس من أشرف الشام ووجههم منهم روح بن زناع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عما إلى الحجار ، لا نرضى بذلك هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فيطر في هذا الأمر ؟ فقال : استحيروا الله ، وأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا ، فأتوا إلى حلد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده فلوا : هذا حديث وأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استحيروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعد لها ، فقال له روح بن زنباع : إن ممي أربع مائة من جذام ، فأنا أتمهم أن يقدموا في المسجد غدا ، وصر أنت انك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تبادوا من حانب المسجد : صدقت صدقت ! فيطر الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه ، ثم قل :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده لقد

شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بليل ! وبايعوا مروان بن الحكم اه . ومن أجل ذلك كان روح أنيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن نباتة في سرح العيون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفجرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتهد قواعدها ، وتقرر قوانينها إلا في دولة بى العباس ، وأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بئر العباس تقرر قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير ووزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الحلال وزير السجاح » .

« ي أهل المدينة : ما هذا الإيعاد^(١) الذي توعِدُوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن »^(٢) ولا إلى رجل من « نَلَم » أو « جُذَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعنى بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فَإِنَّا نُوَعِدُون ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَأَبْنَاءُ الطَّعْنِ وَالطَّاعُونَ ، وَفَضَلَاتُ المَوْتِ وَالْمُنُون ، فاشتتم^(٣) ، ومضى القوم إلى الشام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

٣١٩ - خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأى على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زَيْبَاع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنكم تَذْكُرُونَ عبد الله بن عُمر بن الخطاب ، وَصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَأَبْنُ الزبير : حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطّاقين ، وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير

[١] يقال : وعده خيرا وبه ، ووعدته شرا وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أردد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . [٢] أصله بنو الدين كما قالوا : بلحارث في بنى الحارث ، وبلعبر في بنى العنبر . قال المبرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك (بنو) اقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعبر وبلهجم » أى بنى الهجم كزبير .

[٣] وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدعو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتهم وأطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم » .

منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنة معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافقُ ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كَانَ في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كَانَ مروان ممن يَشْعَبُ^(١) ذلك الصَّدْعُ ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان يوم الدار^(٢) ، والذي قاتل عليَّ بن أبي طالب يوم الجَمَل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشِبُّوا^(٣) الصغير — يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد ابن يزيد بن معاوية — .

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر و ابن سعيد بن العاص من بعد خالد . (تاريخ الطبرى ٧ : ٣٨)

٣٢٠ خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلِيَ الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهلَ العراق ، فقام الغضبان بن القبعثرى الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، وَيَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِنْ عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ وَلى عَلَيْكُمْ مِنْ لَا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِكُمْ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئَتِكُمْ ، الظُّلُومَ الْفُشُومَ^(٤) الْحَجَّاجَ ، أَلَا وَإِنْ لَكُمْ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ مَنْزِلَةٌ ، بِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ خِذْلَانِ مُصْعَبٍ^(٥)

[١] يصلح . [٢] يوم تسور الثوار عليه داره وقتلوه .

[٣] ينتظروه حتى يشب . [٤] الظلوم .

[٥] وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وحوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقضى يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ما عنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقاتله ، فما هو إلا أن التقوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، ونفى مصعب في شردمة قليلة ، فجاءه هيبند الله بن ظبيان — وكان مع

وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيثَ في الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يُعَدُّ منكم
خَلْعًا ، فإنه متى يعلو على مَن مِّنْكُمْ ، وصدر سَرِيرِكُمْ ، وقاعةِ قَصْرِكُمْ ، ثم قتلتموه
عُدَّ خَلْعًا ، فأطيعوني وتغدَّوا به ، قبل أن يتعشَّى بكم .

فقال له أهل الكوفة : « جَبُنْتَ يا غَضْبَانُ ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا
مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهِ » قال : ستماعون ، فلما قَدِمَ الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر
به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين . (مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل
البصرة ، لمحاربة رُتَيْلِ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن
قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها
وخطبهم فقال .

٣٢١ ... خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني تُعْرِكُمْ ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي

مصعب - فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم بأهل العراق ، فرفع عبيد الله السيف ليضرب
مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيعة ، فنش السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان
فضرب مصعبا بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب
خر ساجدا ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من ذاك العرب - ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك
ابن مروان ، إذ أتيت به برأس مصعب ، فخر ساجدا ، أن لا أكون ضربت دنقه ، أو أكون قد قتلت ملكي
العرب في يوم واحد . [١] انظر ص ٢٧٩

استباح بلادكم ، وأباد خياركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيجِلّ بنفسه العقوبة ،
أخرجوا إلى مَسْكَرِكُمْ ، فمَسَكروا به مع الناس . (تاريخ الطهري ٨ : ٤)

* * *

٣٢٢ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُبَيْلِ أرضاً عظيمةً ، وملا يديه من الغنائم والأسلاب ، حبس
الناس عن الوُغُولِ في أرضه ، وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم ، حتى نجْمِيهَا ونعْرِفَهَا
ويجتري المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقمهم في
كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج
بذلك ، فورد عليه كتاب الحجاج يضعف رأيه ، ويأمره بالوُغُولِ في أرضهم ، ويتهدده
بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم مُحِبٌّ ، ولكم - في كل ما يُحِيط
بكم نفعُهُ - ناظرٌ ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيٌ ، أَسْتَشَرْتُ فِيهِ
ذَوِي أَحْلَامِكُمْ ، وَأُولِي التَّجْرِيبَةِ لِلْحَرْبِ مِنْكُمْ ، فَرَضُوهُ لَكُمْ رَأْيًا ، وَرَأَوْهُ لَكُمْ فِي
العَاجِلِ وَالْآجِلِ صَلاَحًا ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى أَمِيرِكُمُ الحِجَاجِ ، فِجَاءَ نِي مِنْهُ كِتَابٌ
يَعْجِزُنِي وَيُضَعِّفُنِي ، وَيَأْمُرُنِي بِتَعْجِيلِ الوُغُولِ بِكُمْ فِي أَرْضِ العَدُوِّ ، وَهِيَ البِلَادُ
الَّتِي هَلَكَ إِخْوَانُكُمْ فِيهَا بِالْأَمْسِ ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، أَمْضِي إِذَا مَضَيْتُمْ ، وَآبِي
إِذَا أُبَيْتُمْ » .

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

٣٢٣ - خطبة عامر بن وائلة الكِنَانِي

فقام عامر بن وائلة الكِنَانِي - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً - فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وَالله ما يَرَى بكم إلا ما رأى القائل الأول ، إذ قال لأخيه : « احمل عَبْدَكَ على الفرس ، فإن هَلَكَ هلك ، وإن نجا فَلك » . إن الحجاج والله ما يبالي أن يُخَاطِر بكم ، فَيُقْحِمكم بلاداً كثيرةً اللُّهُوب^(١) وَاللُّصُوب^(٢) ، فإن ظفرتُم فغنمتم أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإن ظفرِ عدوكم كنتم أنتم الأعداء البُغضاء الذين لا يبالي عنتهم ، ولا يُبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإنني أشهدكم أني أولُ خالع » .
فنادى الناس من كلِّ جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٢٤ - خطبة عبد المؤمن بن شُبث بن رِبْعِي

وقام عبد المؤمن بن شُبث بن رِبْعِي التيمي ثانياً ، فقال :
« عِبَادَ الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلادَ بلادكم ما بقيتم ، وجرمكم تجميرَ فرعون الجنود ، فإنه بلامنى أنه أول من جرَّ البعوث ، ولن تعانينوا الأحيبة فيما أرى أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم » ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه . (تاريخ الطبري ٨ : ٨)

[١] اللهوب جمع لهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . [٢] جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير في الجبل أضيق من الهب وأوسع من الشعب .

٣٢٥ — خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال :
« أيها الناس : إنه لم يبقَ من عدوِّكم إلا كما يبقَى من ذنَبِ الوَزْغَةِ^(٢)
تضرب به يميناً وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت^(٣) . »

(البيان والبيان ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

٣٢٦ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
الثغور والمسالح^(٤) بدير الجاجم والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج - جمعهم عليه بفضهم وكرهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ
العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان
ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضاً على أهل العراق نزع الحجاج عنهم ، وأن
يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق
شاء ، يكون عليه والياً ما دام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضاً ذلك على أهل العراق ،
فقالوا : نرجع العشيّة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس قوم ، ولا
فارس إلا أتاه .

فحمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتم أمراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصةً ، ولا آمن أن
يكون على ذى الرأي غداً حسرةً ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا
بالزاوية ، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاه

[١] موضع بالبصرة . [٢] الوزغة : سم أبرص سميت بها لظفتها وسرعة حركتها .

[٣] قال الجاحظ : فرّ به رجل من بنى أشير فقال : « وح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس

ويعدم الأضاليل ، ويمنيهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو الحسن دون المشيرى .

[٤] جمع مسلحة بالفتح وهي الثغر .

أقوياء ، والقوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقِصُونَ ، فلا والله لازتم عليهم أجرِ ناءٍ ، ولازتم عندهم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم .

فوثب الناس من كلِّ جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل^(١) والظنك والمجاعة والقلة والدلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة ، لا والله لا تقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥)

٣٢٧ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(٢) ممن خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأمرى الجماجم ، أتى فيهم بالشعبي مؤثماً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أمرى الجماجم أن يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيتني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي الما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم بيوم شفاعة . قلت له : فما المخرج ؟ قال : يؤ^(٣) للأمير بالشرك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيتني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ أشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٤) ، وأجدب بنا الجناب ، وأستحلَسنا^(٥) الخوف ،

[١] الضيق والشدة . [٢] هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان) وهو كوفي تلميذ جليل القدر وافر العلم ، توفى سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبي جلولا . [٣] ارجع . [٤] نبأ . نزل به : لم يرافقه . [٥] أي لم يفارقنا .

واكتحلنا السهر ، وضاق المسالك ، وخبطتنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقياء ، ولا
نجرة أقوياء » قال : صدقت والله ما برزتم بخروجكم علينا ولا قويتم ، خلوا
سبيل الشيخ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٢٨ - أيوب بن القرية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القرية^(١) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين
خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له : لتقومن خطيبا ، ولتخلعن
عبد الملك ، ولتسبن الحجاج ، أو لأضربن عنقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا
رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وشتم الحجاج ،
وأقام هنالك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوما ، كتب الحجاج إلى عماله
بالرعي وأصبهان وما يليهما ، يأمرهم ألا يمر بهم أحد من قبل ابن الأشعث إلا
بعثوا به أسيرا إليه ، وأخذ ابن القرية فيمن أخذ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أخبرني عما أسألك ؟ قال : سألني عما شئت ،
قال : أخبرني عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحق وباطل ، قال : فأهل
الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأعجزهم فيها ، قال : فأهل الشام ، قال :
أطوع الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عبيد لمن غلب ، قال : فأهل
البحرين ، قال : نبط^(٢) استعربوا ، قال : فأهل عمان ، قال : عرب استنبطوا ،
قال : فأهل الموصل ، قال : أشجع فرسان ، وأقتل للأقران ، قال : فأهل اليمن ،
قال : أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأسٍ شديد ،
 وشَرٌّ عَتِيد ، ورِيف ^(١) كبير ، وقرى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
 سَلَنِي ، قال : قريش ، قال : أعظمها أحلاماً ، وأكرمها مقاماً ، قال : فبنو عامر
 ابن صعصعة ، قال : أطولها رِمَاحاً ، وأكرمها صَبَاحاً ، قال : فبنو سُلَيْم ، قال :
 أعظمها مجالِسَ ، وأكرمها مَحَابِسَ ^(٢) ، قال : فَثَقِيف ، قال : أكرمها جُدُوداً ،
 وأكثرها وُفُوداً ، قال : فبنو زُبَيْد ، قال : أكرمها للرَّايَات ، وأدركها للثَّرات ^(٣) ،
 قال : فَقُضَاعَةَ ، قال : أعظمها أخطاراً ، وأكرمها نِجاراً ^(٤) ، وأبعدها آثاراً ،
 قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاما ، وأحسنها إسلاماً ، وأكرمها أيَّاماً ، قال :
 فَتَمِيم ، قال : أظهرها جَلَداً ، وأثراها عَدَداً ، قال : فبِكُرْبِن وائل ، قال : أثبتها
 صفوفاً ، وأحدها سيوفاً ، قال : فعبد القَيْس ، قال : أسبقها إلى الغايات ،
 وأصبرُها تحت الرَّايَات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عَدَدٍ وَجَلَدٍ ، وَعُسْرٍ
 وَنَسْكَدٍ ، قال : فَلَخْم ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوكٌ ^(٥) ، قال : فَجُدَام ، قال :
 يُوقِدُونَ الحربَ وَيَسْعَرُونَها ^(٦) ، وَيُلْقِحُونها ثم يَمْرُونها ^(٧) ، قال : فبنو الحارث
 قال : رُعَاةٌ لِلقَدِيم ، وَحَمَاةٌ عَنِ الحَرِيم ، قال : فَعَمَكٌ ، قال : لُيُوثٌ جَاهِدَةٌ ، فِي
 قُلُوبٍ فَاسِدَةٍ ، قال : فَتَغْلِبُ ، قال : يَصْدُقُونَ - إِذَا لَقُوا - ضَرْباً ، وَيَسْعَرُونَ
 لِلأَعْدَاءِ حَرْباً ، قال : فَفَعَسَانٌ ، قال : أكرمُ العربِ أَحْسَاباً ، وأثبتها أَنْسَاباً ، قال :
 فَأَيُّ العربِ فِي الجَاهِلِيَّةِ كانت أَمْنَعُ مِنْ أَنْ تُضَامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المحابس جمع محبس كقعد وهو النجاعة .
 [٣] الزرات جمع ترة : وهي التار . [٤] النجار : الأصل . [٥] النوك بالضم والفتح : الحق .
 [٦] سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها . [٧] مري الناقة كرمي : مسح ضردها لتدير .

رَهْوَةٌ^(١) لَا يُسْتَطَاعُ ارْتِقَاؤُهَا ، وَهَضْبَةٌ لَا يُرَامُ انْتِزَاؤُهَا^(٢) ، فِي بَلَدَةِ حَمَى اللَّهِ ذِمَارِهَا ، وَمَنْعُ جَارِهَا ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ مَأْثَرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ : كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ : حَمِيرَ أَرْبَابِ الْمُلْكِ ، وَكِنْدَةَ لُبَابِ الْمَلُوكِ ، وَمَذْحِجَ أَهْلِ الطَّمَانِ ، وَهَمْدَانَ أَحْلَاسِ^(٣) الْخَيْلِ ، وَالْأَزْدَ آسَادِ النَّاسِ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْأَرْضَيْنِ ، قَالَ : سَلْنِي ، قَالَ : الْهِنْدُ ، قَالَ : بِحَرِّهَا دُرٌّ ، وَجِبَالُهَا يَا قُوتُ ، وَشَجَرُهَا عُودٌ ، وَوَرَقُهَا عِطْرٌ ، وَأَهْلُهَا طَغَامٌ ، كَقَطْعِ الْحَمَامِ^(٤) ، قَالَ : فَخُرَّاسَانَ ، قَالَ : مَاؤُهَا جَامِدٌ ، وَعَدْوُهَا جَاحِدٌ ، قَالَ : فَعُمَّانَ ، قَالَ : حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَصَيْدُهَا عَتِيدٌ ، قَالَ : فَالْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : كُنَّاسَةٌ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، قَالَ : فَالْيَمَنِ ، قَالَ : أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَأَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَالْحَسَبِ ، قَالَ : فَمَكَّةُ ، قَالَ : رِجَالُهَا عِلْمَاءُ جُفَاءٌ ، وَنِسَاؤُهَا كِسَاءُ عُرَاةٍ ، قَالَ : فَالْمَدِينَةَ ، قَالَ : رَسَخَ الْعِلْمُ فِيهَا ، وَظَهَرَ مِنْهَا ، قَالَ : فَالْبَصْرَةَ ، قَالَ : شِتَاؤُهَا جَلِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَمَاؤُهَا مِلْحٌ ، وَحَرِّبُهَا صُلْحٌ ، قَالَ : فَالْكُوفَةَ ، قَالَ : ارْتَفَعَتْ عَنِ حَرِّ الْبَحْرِ ، وَسَفَلَتْ عَنِ بَرْدِ الشَّامِ ، فَطَابَ لَيْلُهَا ، وَكَثُرَ خَيْرُهَا ، قَالَ : فَوَأَسْطَ ، قَالَ : جَنَّةٌ ، بَيْنَ حَمَاةٍ وَكِنَّةٍ ، قَالَ : وَمَا حَمَاتُهَا وَكِنَّتُهَا^(٥) ؟ قَالَ : الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ يُحْسِدَانِهَا ، وَمَا ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةَ وَالزَّابِ^(٦) يَتَجَارِيَانِ بِإِفَاضَةِ الْخَيْرِ عَلَيْهَا ، قَالَ : فَالشَّامُ ، قَالَ : عَرُوسٌ ، بَيْنَ نِسْوَةِ جُلُوسٍ ، قَالَ : تَمَكِّلَاتِكَ أُمَّكَ يَا بِنَ الْقَرِيَّةِ ، لَوْلَا اتِّبَاعُكَ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ ! وَقَدْ كُنْتَ أَنْهَاكَ عَنْهُمْ أَنْ تَتَّبِعَهُمْ ، فَتَأْخُذَ مِنْ تَفَاقِهِمْ ، ثُمَّ دَعَا بِالسَّيْفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى السَّيْفِ أَنْ أُمَّسِكَ ،

[١] الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض أيضاً ، ضد) . [٢] أي اعتلاؤها نزانوا ونزوا وما : وثب ، وانترى : افعل من النزو ، وفي حديث وائل بن حجر : « إن هذا انترى على أرضي فأخذها » [٣] كناية عن إدامتهم ركوبها . [٤] الطغام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقطع بالكسر : اسم ما قطع من الشيء ، ويقال : ثوب قطع وأقطع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع . [٥] الكنة : امرأة الابن أو الأخ . [٦] الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران يصبان في دجلة

فقال ابن القُرَيْبِيَّةِ : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكْبٌ وُقُوفٌ ، يَكْنَى مَثَلًا بَعْدِي ، قال : هات ، قال : لكل جَوَادٌ كَبُوتَةٌ ، ولكل صَارِمٌ نَبُوتَةٌ ، ولكل حلِيمٌ هَفُوتَةٌ ، قال الحجاج : ليس هذا وقتَ المزاح ، يا غلام أَوْجِبْ جَرْحَهُ ، فَضْرِبْ عُنُقَهُ .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجْبُ ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنُّ عند البلاء^(١) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : القُتْرَةُ ، قال : فما آفة الذهن ؟ قال : حديث النَّفْسِ ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : العُدْمُ ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفةَ لِمَنْ كَرُمَ حَسَبُهُ ، وطاب نسبه ، وزكا فرغه ، قال : امتلأت شِقَاقًا ، وأظهرت نِفَاقًا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلاً ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القُرَيْبِيَّةِ ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن رَكْبٌ وُقُوفٌ ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج مما قلت ، قال : « أفعلُ ، أما الدنيا فإلّا حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، وأما الآخرة فيزانُ عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ،

[١] الإيلاء : الإيعام والإحسان ، بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حساً ، وأبلاه الله بلاء حسناً .

وأما المعروف فإن كان على اعترفت ، وإن كان لي اعترفت^(١) قال : أمالي
فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي ، وأسغني
ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟^(٢)
قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقباد : تغدوا الجدوى قبل
أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدمه يا حرسى فاضرب
عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى
نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٢٧)

٣٢٩ - كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل :
الدين شريعته ؛ والحليم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن
نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن
تكلم مجمل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حمل على
القبیح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمته خانك ، وإن حدته شأنك ، وإن وثقت
به لم يرعك ، وإن استكثمت لم يكثم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ،
وإن فقه لم يفقه » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أى وأعطيت الناس منه . [٢] وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع
إلا له هبوة » والمبوة : النبرة . [٣] يضطرب .
[٤] وروى أبو الفرج الإصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب
صاحب قصيدة الملاحم ، وابن الفرية ، ومجنون بنى طامر » - انظر الأغانى ج ١ ص ١٦٣ .
[٥] ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب (١)

لما فرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سِجْنِ الحِجَاجِ وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوِّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقَسِّمُ أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فاما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فِداؤك ، لا تُخْفِرُ (٢) ذِمَّةَ أبي ، وأنت أحقُّ من منعها ، ولا تقطع منارجاء من رَجَا السلامةَ في جِوارنا ، لِمَكاننا منك ، ولا تُذِلَّ من رَجَا العِزَّ في الانقطاع إلينا لعِزِّنا بك . » (تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان وقد على عبد الملك ، فر في مصره بدير فتره ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً ، فدعا به وسأله : أتعلم ما إلى ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فرق في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرمه لما يرى فيه من النجابة ، وبخشي منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهومهم بأهم زبيريّة الهوى ، وبخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، دعاه يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغروهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يفيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة ، فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمشي شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أي تميز شديداً) فلما نعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلتها ، ثم إن يزيد وإخوته أعمالوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خابوا ما الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستفتح سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفاه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كضرب ، وأخفره : نقض جهده وغدره .

٣٣١ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أحسنُ البلاء ، فمن ينس ذلك فلننا ناسيه ، ومن يكفر فلننا كافر به ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم ، والطعن في أعين أعدائكم ، في المواطنِ العظام ، في المشارق والمغرب ، ما إنَّ المنَّة علينا فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٣٢ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ، ودخل على الخليفة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بانفتح إلى سليمان ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من حرس ما أفاء الله على المسلمين ، بعد أن صار لي كل ذي حق حقه من الوء والعيبة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال له كاتبه المعيرة بن أبي ترادة : لا تكتب بتسمية ما ، فإياك من ذلك بين أمرين ، إما استكبره فأمرك بحمله ، وإما سحت نفسه لك به وسوء عكك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأنني بك قد استفرقت ما سميت ، ولم يقع منه موقماً ، ويبقى المال الذي سميت محلاً عنهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده أخذك به ، وإن ولي من يتعامل عليك لم يرص منك بأضعافه ، ولا تمس كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله المدوم ، فتشاهه بما أحببت مشافهة ونقصر ، فإياك أن تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبي يزيد ، وأمضى الكتاب ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر يبعث يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء حيازة ولا أحب مثلهم - دعا يزيد وسأله عن تلك الاموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي تد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الجول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجدي وأمرك إلا حبسك ، فاق الله ، وأد ما قتلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعى تركها ، ولم يزل يزيد في حبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي

« إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحْبِسُ هذا الشيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فَصَالِحِنِي على ما إياه تسأل » فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك يَبْنَةُ نَخْدِهَا ، وإن لم تكن يَبْنَةُ فَصَدَّقْ مقالة يزيد ، وإلا فاستخلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أَخَذَهُ بجميع المال .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٣٢)

٣٣٣ - خطبة يزيد بن المهلب يحرّض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك
ومسألة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فخرّضهم ورجبهم في القتال ، فكان فيما قال :
« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيِّهم إلا الطعن في عيونهم ، والضربُ
بالمشرفية^(١) على هامهم ، ثم قال : إنه قد ذُكر لي أن هذه الجرادة الصفراء
- يعني مسألة بن عبد الملك ، وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد -

عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أختي الحجاج بن يوسف عدو يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أن لا يملكه الله من يزيد بن المهلب ، ليقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرها أي عصوا) نخشى ذلك نهرت من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فملب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدو بن أوطاة الفزاري) حنسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسألة بن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

[١] المشرفية سوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، والمهام جمع هامة وهي الرأس .

[٢] هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَتَمْتَسِجُ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَفْطِمُ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد : لا غلط ، ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لهم عاد الأولى) ويضرب به المثل في التثؤم ،

(وكان العباس أزرق^(١) أحمر، كانت أمه رومية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه، حتى كلمته فيه، فأقره على نسبه، فبلغني أنه ليس هههما إلا التماسي في الأرض، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً، وليس إلا أنا، ما برحت العرصة^(٢) حتى تكون لي أولهم»، قالوا: نخاف أن تعيننا^(٣) كما عانا عبد الرحمن بن محمد^(٤)، قال: إن عبد الرحمن فضح الدمار^(٥) وفضح حسبه، وهل كان يعدو أجله؟»، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٣٤ — خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض، وهاكها:

عن خالد بن صفوان قال: خطبنا يزيد بن المهلب بواسط، حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

«أيها الناس: إني أسمع قول الرعاع، قد جاء العباس، قد جاء مسامة، قد جاء أهل الشام! وما أهل الشام إلا تسعة أسياف، منها سبعة معي، واثان علي، وما مسامة إلا جرادة صفراء، وأما العباس فنسطوس^(٦) بن نسطوس،

يقال: «أشأم من أحر عاد» لأن الله أهلك بقله ثمود، وذلك أنهم قالوا لبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان: يا صالح إن كنت صادراً فأطهر لنا من هذه الصخرة ناقة، وصفوها له، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة (إنا نرسل الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر). فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية، ثم قال لهم: (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم، فعقروها فأصبحوا نادمين، فأخذهم العذاب). (والشرب: النصيب من الماء).

[١] أي أزرق العينين . [٢] العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

[٣] عناه: أعبه . [٤] هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر .

[٥] ما يلزمك حفظه وحايته . [٦] هو في المقدم، ومروج الذهب بالباء، وفي البيان والتبيين

بالنون، وليس من ألقاب العربية، وأقول: هو إما علم رومي، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد لأنه

أَتَاكُمْ فِي بَرَابِرَةٍ^(١) وَصَقَالِبَةٍ ، وَجَرَامِقَةٍ^(٢) وَجَرَاجِمَةٍ ، وَأَقْبَاطٍ وَأَنْبَاطٍ^(٣) ،
وَأَخْلَاطٍ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّمَا أَقْبَلُ إِلَيْكُمْ الْفَلَاحُونَ وَالْأَوْبَاشُ كَأَشْلَاءَ^(٤) اللَّحْمِ ،
وَاللَّهُ مَا لَقُوا قَطُّ حَدًّا كَحَدِّكُمْ ، وَلَا حَدِيدًا كَحَدِيدِكُمْ ، أَعِيرُونِي سِوَا عِدَّتِكُمْ سَاعَةً
مِنْ نَهَارٍ تَصْفِقُونَ^(٥) بِهَا خِرَاطِيمَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ غُدُوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، المقد العريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

٢٣٥ - خطبة أخرى له

وقال مُقَاتِلٌ : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ السَّبْقِ وَالسَّبَاقِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، إِنْ أَهْلَ
الشَّامِ فِي أَفْوَاهِهِمْ لُقْمَةٌ دَسِيمَةٌ ، قَدْ رَتَبَتْ^(٦) لَهَا الْأَشْدَاقُ ، وَقَامُوا لَهَا عَلَى سَاقٍ ،
وَهُمْ غَيْرُ تَارِكِيهَا لَكُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَالْبَسُوا لَهُمْ جُلُودَ النَّمُورِ^(٧) . »

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٢٣٦ - خطبة الحسن البصرى يثبب الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ،
ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصرى يثببب الناس عنه ، وكان يقول
في تلك الأيام :

كانت أمه رومية ، أو محرف عن « نسطورى بن نسطورى » أى نصرانى نسطورى من الساطرة
لإحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس صاحب الذهب ، وكان أسقفاً بانفسطيطية . تولى حول
سنة ٤٥٠ م . [١] البرابرة : جيل بالمغرب ، والصقالبة : جيل ببلادهم تناخم بلاد الحرر « شمالى بحر
الجزر ، وهو بحر قروين » أى جنوبى روسيا . [٢] الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل
الإسلام ، والجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام . [٣] أنباط جمع نبط كجبل
وقد تقدم . [٤] أشلاء جمع شلو كحمل ، وهو العضو ، وكل مسلوخ أكل منه شئ ، وبقيت
منه بقية . [٥] صفة بالسيف : ضربه ، والخراطيم جمع خرطوم ، وهو الأنف .
[٦] رتبت : أى ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . [٧] أى تنكروا لهم ،
واستعدوا لمناضلتهم .

« أيها الناس : الزموا رِحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دُنيا زائلةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها بياقٍ ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةً إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي ، والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفياً فَلْيَلْزِمِ الْحَقَّ ، وليجس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خلفاً ، ومن كان منكم معروفًا شريفًا ، فترك ما يتنافس فيه نُظْرَاؤُهُ من الدنيا - إرادةً الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أسعده وأرشدته ، وأعظم أجره ، واهدَى سبيله ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القَرِيرُ عينا ، الكَرِيمُ عند الله مَا بَا . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٣)

٣٣٧ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد ، ثم قال لهم :

« لقد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرأى - ولم يُسمّه - يثبط الناس ، والله لو أن جاره تزع من خُصّ داره قَصَبَةً ، لظالّ يرْعِفُ^(١) أنفه ، أينُكِرُ علينا ، وعلى أهل مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن نُنكِرَ مَظْلِمَتَنَا ؟ أمّا والله ليكفّن عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سُقَّاط^(٢) الأُبُلَّةِ ، وعُلُوجِ فُرَاتِ البصرة ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أو لَأُنْحِيَنَّ عليه مِبْرَدًا خَشِينًا .

[١] رَعَف : خرج من أنفه الدم . [٢] جمع ساقط وهو اللثيم في حسبه ونفسه ، والأبلة : موضع بالبصرة .

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : والله ما أكرهه أن يُكرمني الله بهوانه ، فقال
ناس من أصحابه : لو أردك ثم شئت لمنعناك ، فقال لهم : قد خالفتكم إذن إلى ما
مانهيتكم عنه ، أمرُّكم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل
بعضكم بعضاً دوني ؟ فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتد عليهم وأخافهم ،
وطلبهم حتى تفرقوا ، ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، وكف عنه مروان .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٣٨ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة
صفين ، فلما استقر الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله
يا أحنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حزازة^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » ،
فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم ترُّدُّ الأءور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي
أبغضناك بها لبيّن جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن

[١] هو أبو بجر الضحاك بن قيس سيدي بني تميم ، والضروب به التل في الحلم ، وهو من سادات
التابعين ، أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ، وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر
وعثمان رضي الله عنهما ، وشهد مع عليّ رضي الله عنه وقعة صفين ، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ،
وبقي إلى زمن مصعب بن الزبير ، فخرج معه إلى الكوفة ، فمات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ، لأنه
كان أحنف الرجل - مائلها - يطأ على وحشيتها) . [٢] الحزازة : وجم في القلب من غيظ ونحوه .

مَدَدَتْ بِشَبْرٍ مِنْ غَدْرٍ، لَمْ تُدَنَّ بَاعًا مِنْ خَيْرٍ^(١)، وَلَئِنْ شَدَّتْ لَتَسْتَصْفِينَّ كَدْرَ قُلُوبِنَا بِصَفْوِ حَامِكِ»، قَالَ مَعَاوِيَةَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ.

ثُمَّ قَامَ وَخَرَجَ، وَكَانَتْ أُخْتُ مَعَاوِيَةَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ؟ قَالَ: هَذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ، غَضِبَ لِعُضْبِهِ مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، لَا يَدْرُونَ فِيمَ غَضِبَ.

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١: ٢٣٠، ونهاية الأرب ٧: ٢٣٧، والعقد الفريد ٢: ١١٨)

٣٣٩ - الأحنف ومعاوية أيضا

جَلَسَ مَعَاوِيَةَ يَوْمًا، وَعِنْدَهُ وَجُوهُ النَّاسِ، وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ، فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ أَنْ لَعَنَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاطْرَقَ النَّاسُ، وَتَكَلَّمَ الْأَحْنَفُ، فَقَالَ:

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنْ هَذَا الْقَائِلِ مَا قَالَ آتِنَا، لَوْ عَلِمَ أَنَّ رِضَاكَ فِي لَعْنِ الْمُرْسَلِينَ لِلْعَنَنَّهُمْ، فَاتِنِ اللَّهُ، وَدَعِ عَلِيًّا، فَقَدْ لَقِيَ اللَّهَ، وَأُفْرِدَ فِي حُفْرَتِهِ، وَخَلَا بِعَمَلِهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ - مَا عَلِمْنَا - الْمُبْرَزَ بِشِقِّهِ^(٢)، الطَّاهِرَ فِي خُلُقِهِ: الْمَيْمُونِ النَّقِيْبَةِ^(٣) الْعَظِيمِ الْمَصِيْبَةِ.»

قَالَ مَعَاوِيَةَ: « يَا أَحْنَفُ، لَقَدْ أَغْضَيْتَ الْعَيْنَ عَلَى الْقَدَى، وَقُلْتَ بِنِيرٍ مَا تَرَى، وَإِيْمُ اللَّهِ لَتَضَعَنَّ الْمَنْبِرَ فَلَتَلْعَنَنَّهُ طَائِعًا أَوْ كَارِهًا»، فَقَالَ الْأَحْنَفُ: « إِنْ تُعْظِمْنِي فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ تَجْبِرْنِي عَلَى ذَلِكَ، فَوَاللَّهِ لَا تَجْرِي بِهِ شَفَتَايَ»، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ: قُمْ فَاصْعَدْ. قَالَ: « أَمَّا وَاللَّهِ لَا نُصِيفَنَّكَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ»، قَالَ

[١] الباع: قدر مد اليدين، والحر: أفتح الصدر.

[٢] الشق الجانب، ورواية العقد «المبرز سيفه» وبرز تبريزا فاق أصحابه فضلا أو شجاعة.

[٣] النقيبة: النفس.

معاوية : « وما أنت قائل إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أصعدُ فأحمد الله ، وأثنى عليه ، وأصلى على نبيه ، ثم أقول :

« أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعن عليا ، ألا وإن عليا ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادّعى كل واحد أنه مبغى عليه ، وعلى فنته ، فإذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله ! » ثم أقول : « اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والفئة الباغية على المبغى عليها ، اللهم العنهم لعنا كبيرا ، أمّنوا ، رحمكم الله » ، يا معاوية ، لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفا ، ولو كان فيه ذهابُ نفسى .

فقال معاوية : « إذن نُعفبك يا أبا بحر . »

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

٣٤٠ . قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال : يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وثمرَ قلوبنا ، وقرّة^(١) أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضا ذليلة ، وسما ظلميلة ، إن سألك فاعطهم ، وإن استعتبوك^(٢) فاعْتَبِهِمْ ، لا تمنعهم رِفْدك^(٣) ، فيمَلُّوا قُرْبَكَ ، ويكرهوا حياتك ، ويستبْطِئوا وفاتك . »

فقال : لله دَرَكُك يا أبا بحر ! هم كما وصفت . (الأمل ٢ : ٤٣)

[١] قرّت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه .

[٢] استعتبه : طلب إليه العتي (أى الرضا) وأعتبه : أعطاه العتي .

[٣] الرُفْد : العطاء .

٣٤١ — شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن كانوا حُبِسُوا في باطل ، فالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وإن كانوا حُبِسُوا في حَقٍّ ، فالعفو يَسَعُهُمْ » ، فغلام^(١) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٤٢ — نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بني تميم تحابُّوا تجتمع كلمتكم ، وتباذَلوا تعتدلْ أموركم ، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم ، يَصْلُحْ لكم دينكم ، ولا تَغْلُوا^(٢) يَسْلَمْ لكم جهادكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٤٣ — خطبته في قوم كانوا عنده

وحدَّث رجل من بني تميم قال : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن الكرم يمنع الحُرْم^(٣) ، ما أقرب النِّقْمَةَ من أهل البغي ، لا خير في لذة تُعقِبُ ندما ، لن يَهْلِكَ من قَصَدَ^(٤) ، ولن يفتقر من زَهَّدَ ، رُبَّ هزلٍ قد عاد جِدًّا ، من أمِنَ الزَّمانَ خانَه ، ومن تعظَّم عليه أهانه ، دعوا المِزَاحَ ، فإنه يُورَثُ^(٥) الضغائن ، وخير القول ما صدَّقه الفِعْلُ ، احتملوا لمن أدلَّ^(٦) عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم ، أطع أخاك وإن عصاك ، وصِلْهُ وإن جفأك ، أنصِفْ من نفسك قبل أن يُنصِفَ منك ، وإياكم ومشاورة النساء ، واعلم

[١] وى وفيات الأعيان لابن حلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول للشبي ، كالم به عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق . [٢] أي لا تخونوا .
[٣] الحرم جمع حرمة بالضم : وهي ما لا يجل انتهاكه . [٤] القصد والاقتصاد : ضد الافراط .
[٥] التارث : إيقاد النار . [٦] تدل .

أن كُفِرَ النعمة لؤم ، وَصُحِبَ الجاهل شوْم ، ومن الكرم الوفاء بالذَّم ، ما أقبح القطيعةَ بعد الصلّة ، والجفاء بعد اللطّف (١) ، والعداوة بعد الودّ ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مَثواك (٢) ، فأنفق في حقّ ، ولا تكونن خازناً لعيرك ، وإذا كان الغدرُ في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد تجز ، اعرف الحق لمن عرّفه لك ، واعلم أن قطيعةَ الجاهل تعدل صلّة العاقل . (الأماي ٢ : ٢٢)

٣٤٤ - كلمات حكيمة للأحنف

قال : « في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر : مادخلت بين اثنين قَطُّ حتى يُدخِلاني بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أذع إليه ، وما حللت حُبوتي (٣) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « ألا أدلكم على المَحْمَدة بلا مرزئة (٤) ؟ الخلق السَّجِيح (٥) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذوا الداء ؟ الخلقُ الدنيّ ، واللسانُ البديّ » ، وقال : « ما خان شريف . ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن . » وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرِف به . » وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أمُدحت أم ذممت . فقال له : « لقد استرحت من حيثُ تعيب الكرام » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذِكر الطعام والنساء ، فأني لا بغض الرجل يكون وصافاً لفرجه و بطنه

[١] اللطف : اسم من اللطف بالصم . [٢] آخرتك . [٣] احتبى الرجل : جمع بين طهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة بالفتح ويضم . [٤] رزأه مرزئة : أصاب منه خيراً ، والشئ قصه ، أى دون أن تغرموا في سبيلها مالا . [٥] اللب السهل .

وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيهِ . وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إني لأجد ما تجِدون ولكني صَبور » . وكان يقول : « وجدت الحِلْمَ أنصَرَ لي من الرجال » . وقال : « الكذوب لاحتيلة له ، والحسود لراحة له ، والبخيل لامروءة له ، والممول لوفاء له ، ولا يسود سيئ الأخلاق ، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل » . وقال : « أربع من كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بِخِصْلَةٍ منهن كان من صالحى قومه : دينٌ يُرشدُهُ ، أو عقلٌ يُسدِّدُهُ ، أو حسَبٌ يَصُونُهُ ، أو حياءٌ يَقْنَاهُ ^(١) . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمنٌ يحسُدُهُ ، ومنافقٌ يُبغضُهُ ، وكافرٌ يجاهدُهُ ، وشيطانٌ يفتنُهُ ؛ وأربع ليس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهمٌ حلال ، وأخٌ فى الله » . وقال : « لأن أذعَى من بعيد ، أحب إلىّ من أن أقصَى من قريب » . وكان يقول : « إياك وصدَرَ المجلس ، وإن صدَرَك صاحبه ، فإنه مجلسٌ قُلعةٌ ^(٢) » . وقال : « من لم يصبر على كلمة سمع كلمات » . وقال : « رب غيظ تجرّعتهُ تخافة ما هو أشد منه » . وقال : « من كثَرَ كلامه كثرت سقَطُهُ ، ومن طال صمته كثرت سلامته » . وقال : « ثلاث لا أناةَ فيهن عندى » . قيل : « وماهن يا أبا بحر ؟ » . قال : « المبادرة بالعمل الصالح ، وإخراج ميتك ، وأن تُسكب الكفءَ أَيْمَكَ ^(٣) » . وكان يقول : « لأفَعَى تَحَكُّكُ فى ناحية بيتى ، أحب إلىّ من أَيْمٍ رددتُ عنها كَفْتًا » . (وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، وجمع الأمثال للبيداني ١ : ١٤٨ ، والأمالى ٢٣٦ : ١ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

[١] قى الحياء كرمى ورمى : لزمه كأتى . [٢] مجلس قلعة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . [٣] الأيم : من لا زوج لها بكرا ، أو نيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطاء ، وما بعد منعهن من الأكفاء ، إلا بذهن للسفلة والعوغاء » .

٣٤٥ - صفية بنت هشام المنقرية تؤبن الأحنف

وروى أنه لما حُملت جِنَازة الأحنف، وَدُلِّيَ في قبره، أقبلت ابنة عمه صَفِيَّة بنت هشام المِنْقَرِيَّة على نَجِيب لها مُخْتَصِرَةٌ^(١)، فوقفَت على قبره، فقالت :
« لِّلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مَجْنٍ^(٢) في جُننٍ، وَمُدْرَجٌ^(٣) في كَفَنٍ ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! نسأل الله الذي جَمَعَنَا بِمَوْتِكَ، وابتَلانا بِفَقْدِكَ، أن يُوسِعَ لك في قبرك، وأن يَغْفِرَ لك يوم حَشْرِكَ، وأن يجعلَ سبيلَ الخَيْرِ سبيلَكَ، ودليلَ الرِشَادِ دليلَكَ، ثم أقبلت بوجهها على الناس، فقالت : « مَعَشَرَ النَّاسِ، إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ في بِلَادِهِ، شُهُودٌ على عِبَادِهِ، وَإِنَّا قَائِلُونَ حَقًّا، وَمُثْنُونَ صِدْقًا، وهو أَهْلُ الحُسْنِ التَّنَاءِ، وَطَيِّبِ الدُّعَاءِ، أما والذي كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ في عِدَّةٍ، وَمِنَ المِضْمَارِ^(٤) إلى غَايَةٍ، وَمِنَ الحَيَاةِ إلى نِهَايَةٍ، الذي رَفَعَ عَمَلَكَ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ، لَقَدْ عِشْتُ حَمِيدًا مَوْدُودًا، وَلَقَدْ مُتُّ قَقِيدًا سَعِيدًا، وَإِنْ كُنْتُ لِعَظِيمِ السَّلْمِ، فَاضِلَ الحِلْمِ، صَحيحَ الأَدِيمِ^(٥)، مَنِيْعَ الحَرِيمِ، وَارِيَّ الزَّيْنَادِ، رَفِيْعَ العِمَادِ، وَإِنْ كُنْتُ في المَحَافِلِ لِشَرِيفًا، وَعَلَى الأَرَامِلِ لِعَظُوفًا، وَفي العَشِيرَةِ مُسَوِّدًا، وَإِلَى الخُلَفَاءِ مُوَفِّدًا، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمْعِينَ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ » ثم انصرفت .

(ذيل الأملی ص ٢٨، وبلاغات النساء ص ٥٥، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

[١] الحبيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ، واختصر : أمسك المحصرة ، « والمحصرة ككنيسة : عصا يسكها الحطيب يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسك
وفي رواية الجاحظ : « وقامت مرعاة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة فقالت . . . » ، وفي رواية أبي علي الفالي : « جاءت امرأة من قومه من بني مفر عليها قبول من النساء ، فوقفَت على قبره فقالت . . . » - وانقبول بالفتح ويضم : الحسن - .
[٢] من أجنبته إذا ستره ، والجانب جمع جنة كقبة وهي الوقاية ، والمانن كسبب : القبر والكفن .
[٣] مطوى . [٤] في الأملی : « ومن الضمان » ، وفي بلاغات النساء : « ومن الضمار » وأرى أن صوابه « ومن الضمار » نقوله بعد : « إلى غاية » . [٥] الأديم : الجلد ، والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٤٦ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قُطْبَةَ ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّةٌ ^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةٌ ^(٢) صوف وشَمْلَةٌ ^(٣) ، فأما مثلاً بين يدي معاوية اقتَحَمَتَهُمَا ^(٤) عَيْنُهُ ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العباة لانكأتمك ، وإنما يكأتمك من فيها ، فأوَمَأَ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أهلُ البصرة عدد يسير ، وَعَظْمُ كَسِيرٍ ، مع تتابع من المَحُولِ ^(٥) ، واتصالٍ من الذُّحُولِ ^(٦) ، فأكثُرَ فيها قد أطرق ، والمُقِلِّ قداملق ، وبلغ منه المَخْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِيرَ ، ويسهِّلَ العَسِيرَ ، ويصفح عن الذُّحُولِ ، وَيُدَاوِي المَحُولِ ، ويأمر بالعطاء ، ليكشفِ البلاء ، وَيُزِيلَ الأواءَ ^(٧) ، وإن السيدَ مَنْ يَعْمُ ولا يُحْصَى ، ومن يدعو الجَفَلَى ^(٨) ولا يدعو النَّفْرَى ، إن أحسن إليه شكر ، وإن أسىء إليه غفر ،

[١] نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . [٢] المدرعة : ثوب ولا يكون إلا

من صوف . [٣] الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به . [٤] ازدرتها .

[٥] جمع محل كشمس وهو القحط والجذب . [٦] جمع ذحل كشمس أيضاً وهو الثأر .

[٧] الشدة . [٨] الدعوة العامة ، والنقري : الدعوة الخاصة .

ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم
المعضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بجر ، ثم تلا : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١) » . (زمر الآداب ١ : ٥٧)

٣٤٧ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قدم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ،
فقال : إن أمير المؤمنين يعزّم عليكم ألاّ يتكلم أحد إلاّ لنفسه ، فاما وصلوا إليه
قال الأحنف :

« لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافة ^(٢) دفت ، ونازلة نزلت ، ونايبة
نابت ، ونايبة نبتت ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال :

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ،
فقال زياد :

٣٤٨ - خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أشخصت إليك أقواماً الرغبة ، وأفعدت عنك آخرين
العدوّ ، فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يُجبرُ به المتخلف ، ويكافأ به
الشاخص » .

[١] أى في معناه وخوام . [٢] الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت
علينا من بني فلان دافة ، والدافة أيضاً ، قوم من الأعراب يريدون مصر ، والدافة : الجيش يدعون نحو
العدو أى يدبون .

٣٤٩ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَا وَاللَّهِ لئن فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُكُمْ الرَّحِيمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ ، بَأَنْ تَخَيَّرَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّأَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدْتَسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ » .

٣٥٠ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمْ تَبِعْ آثَارَكَ فِينَا ، فَتَسْتَمْتِعُ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمُدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطَى إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ^(٢)
(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٥١ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دغفل ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رِبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُضَرٌّ بِنِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قَالَ مَعَاوِيَةُ : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قَالَ : بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ ، كَانُوا أَكْثَرَ الْعَرَبِ أَمْجَادًا ، وَأَرْفَعَهُمْ عَمَادًا ،

[١] الجزيل : العاقل الأصيل الرأي . [٢] الخطى : الريح نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيح : شجر الرماح جمع وشيعة .
[٣] هو دغفل بن حنظلة النسابة من بني شيبان .

وأعظمهم رماداً . قال : فأى بنى كِنانة كان بعدهم أعزُّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يملُّون من سآمتهم ، ويكفُّون من أآواهم ، ويصدُّقون من عاداهم . قال : فمن بعدهم ؟ قال : بنو الحرث بن عبد مناة بن كِنانة ، كانوا أعزُّ بنيهم وأمنعهم ، وأجودهم وأنفعهم . قال : ثم من بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مناة ، كان بأسهم رهوباً ، وعدوهم منكوباً ، وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كِنانة ، وعن مِرَّة وعامر ابني عبد مناة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا تُظراء . قال : فأخبرني عن بني أسد . قال : كانوا يُطعمون السديف ^(١) ، ويكرهون الضيوف ، ويضربون في الزحوف ^(٢) ، قال : فأخبرني عن هذيل ، قال : كانوا قليلاً أكياس ^(٣) ، أهل منعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بني ضبة ، قال : كانوا ججرة من ججرات العرب الأربع ^(٤) ، لا يُصطَلَى بنارهم ، ولا يُفَاتون بشارهم ، قال : فأخبرني عن مُزينة ، قال : كانوا في الجاهلية أهل منعة ، وفي الإسلام أهل دعة . قال : فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزُّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنعها حريماً ، قال : فأخبرني عن قيس . قال : كانوا لا يفرحون إذا أُديلوا ^(٥) ، ولا يجزعون إذا أُبتلوا ، ولا يبخلون إذا سُئلوا ، قال : فأخبرني عن أشرافهم في الجاهلية ، قال : غطفان ابن سعد ، وعامر بن صعصعة وسُلَيم بن منصور ؛ فأما غطفان فكانوا كراماً

[١] شحم السنام . [٢] مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .
[٣] جمع كيس وهو الماقل . [٤] قال صاحب العقد : « ججرات العرب ، هم بنو نمير بن عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عيس بن بغيض ، وإنما قيل لهذه القبائل ججرات ، لأنها تحممت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجدير : التجميع ، ومنه قيل : ججرة العتبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تحمروا المسلمين فتفتنهم ، وفتنوا نساءهم ، يعني لا تجمعوهم في الغازی . الخ » — العقد ٢ : ٥٧ . [٥] أداله الله من عدوه : نصره عليه .

سَادَةٌ ، وللخَيْسِ^(١) قَادَةٌ ، وعن البَيْضِ ذَادَةٌ^(٢) ؛ وأما بنو عامر فكثيرٌ سَادَتْهُمْ ،
مَخْشِيَةٌ سَطَوَتْهُمْ ، ظاهرةٌ نَجَدَتْهُمْ ؛ وأما بنو سُليم فكان يُدْرَكُونَ الثَّارَ ،
ويعننون الجارَ ، ويُعْظَمُونَ^(٣) النارَ ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن
وائل واصدقني ، قال : كانوا أهلَ عَزِّ قاهرَ ، وشرفِ ظاهرَ ، ومجدِ فاخرَ ، قال :
فأخبرني عن إخوتهم تغلبَ ، قال : كانوا أُسُوداً تُرْهَبَ ، وِسِمَاماً^(٤) لا تُقْرَبَ ،
وأبطلا لا تُكذَبَ ، قال : فأخبرني كم أُدِيلُوا عَلَيْكُمْ في قتلِكُمْ كُلِّيًّا ؟ قال : أربعين
سنةً ، لانْتَصَفَ مِنْهُمْ في مَوْطِنِ نَلْقَاهُمْ فِيهِ ، حتى كَانَ يَوْمَ التَّحَالِيْقِ ، يومَ الحَرْثِ
ابنِ عُبَادٍ بعدَ قِتْلَةِ ابْنِهِ بُجَيْرٍ ، وكان أُرْسِلَهُ في الصَّلْحِ بَيْنَ الْقَوْمِ ، فَتَتَلَهُ مُهْلَهْلُ ،
وقال : بُؤْشِئِعٌ^(٥) نَعْلُ كَلِيبِ ، فقال الغلامُ : إن رَضِيتَ بهذا بنو بكرٍ رَضِيتُ ،
فبلغ الحَرْثَ ، فقال : نِعْمَ القَتِيلُ قَتِيلًا إنْ أَصْلَحَ اللهُ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبٍ وَبَاءَ بِكَلِيبِ ،
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا قَالَ مُهْلَهُلُ مَا قَالَ (الكَلِمَةُ^(٦)) ، فَتَشْمَرُ الحَرْثُ لِلْحَرْبِ ، وَأَمْرُنَا
بِحَلْقِ رءِوسِنَا أَجْمَعِينَ ، وهو يَوْمُ التَّحَالِيْقِ ، وله خَبْرٌ طَوِيلٌ ، وَقَالَ :

قَرَّبًا مَرَبَطَ النِّعَامَةِ مَنِ لَمِحَتْ حَرْبٌ وَائِلٍ عَنِ حِيَالٍ^(٧)
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عِلْمَ اللَّأْسَةِ - وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي
قَرَّبًا مَرَبَطَ النِّعَامَةِ مَنِ إِنْ بِيَعِ الكِرَامِ بِالشَّئِئِعِ غَالِي

فَأَدْرِنَا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فمن ذهب يذكر

[١] الخيس : الجيش . سمي بذلك لأنه حمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والمؤخرة .

[٢] البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها : [٣] كناية عن الكرم .

[٤] جمع سم مثل السين . [٥] الشئع : سير يشد به النمل .

[٦] هي قوله (بؤشئع نعل كليب) . [٧] النعامة : اسم فرسه ، واقمحت الناقة ، قبل اللقاح

وحالت حيوالا لم تنفح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات .

ذلك اليوم؟ قال: الحرث بن عباد، أسرمه لهما في ذلك اليوم، وقال له: ذلني على مهلهل بن ربيعة، قال: مالي إن دلتك عليه؟ قال: أطلقك، قال: على الوفاء؟ قال: نعم، قال له: أنا مهلهل، قال: ويحك! ذلني على كفء كريم، قال: امرؤ القيس^(١)، وأشار بيده إليه عن قرب، فأطلقه الحرث، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله، وبكر كلها صبرت وأبليت فحسن بلاؤها، إلا ما كان من ابني لجيم: حديفة ومجمل، ويشكر بن بكر، فإن سعد بن مالك بن ضبيعة جد طرفة بن العبد، هجاه في ذلك اليوم، فقال:

إِنَّ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارِسًا وَاحِدًا^(٢)

وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا^(٣)

وقال فيهم أيضاً:

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطًا فَاسْتَرَا حُوا^(٤)

إِنَّا وَإِخْوَتَنَا غَدًا كَشْمُودِ حَجْرٍ يَوْمَ طَا حُوا^(٥)

بِالْمَشْرِفِيَّةِ لَا تَقِيرَ وَلَا تُبَاحُ وَلَنْ تُبَاحُوا^(٦)

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ^(٧)

فقال معاوية: أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبة بأخبار العرب.

(ذيل الأمالي ٢٦)

[١] هو امرؤ القيس بن أمان النخلي . [٢] الإرقاد: الإغاة والإعطاء .

[٣] الحتر: الدر أو أقبجه . [٤] أراهط جمع الجمع لهط . [٥] الحجر: واد بين المدينة

والشام: مساكن قوم صالح . [٦] مشارف الشام: فرى من أرض العرب تدنو من الريف منها

السيوف المشرفية، وفي ذيل الأمالي «ولا نباح ولن نباحوا» بالنون وقد أصلحته «ولن تباحوا» بالتاء

على الالتفات من التكلم إلى الخطاب، أي ولن تباحوا يا قوم مادنا لكم حماة، وقال مصحح الأمالي:

«ولن تباحوا» كما في الأصل، ولعل هنا تحريماً، ووجه الكلام «كن بباح» .

[٧] قولهم لا براح كقولهم لا ريب، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٥٢ - دغفل وجماعة من الانصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كَفَّ ، فسأموا عليه ، فقال :
مَنْ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمِينِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا
الْعَمِيمِ ، كَيْنِدَةٌ ؟ » ، قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطَّوَالِ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ،
بنو عبد المَدَانِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّخُوفِ ، وَأَخْرَقُهَا
لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ، رَهْطُ عَمْرُوبِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ،
قال : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قِرَاءَةً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا فِنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ
عبد الله ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ، وَالْمَطْعَمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ،
وَالْقَائِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْأَنْصَارُ ؟ » قالوا : نعم . (الأملال ٢ : ٢٨٧)

٣٥٣ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ
العرب ، فِيهِمْ أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسْخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي
قُوَّةِهِ ، وَأَحْلَمَ النَّاسِ ، وَأَحْضَرَهُمْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي
قَرَيْشٍ ، قَالَ : لَا ، قَالَوا : فِي جَمِيْرٍ وَبَلُوكَهَا ، قَالَ : لَا ، قَالَوا : فِي مِضَرَ ، قَالَ :
لَا ، قَالَ مَصْقَلَةُ بْنُ رُقِيَّةَ الْعَبْدِيُّ : فَهِيَ إِذْنٌ فِي رِبِيعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قَالَ : نَعَمْ ،
قَالَ جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
قَالَ : نَعَمْ .

[١] قرى الصيف كرمى قرى بالكسر ، والفصر : وقراء بالفتح والمد : أضافه .

[٢] المحل : الجذب والشدة .

أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمٌ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَطَّعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا بِهَا جَدَلَهُ (١) عَنْ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَثَا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمُ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي (٢) هَذَا ، وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي (٣) إِنَّ مَعِيَ ذِرَاعِي أُخِّمِي بِهَا كُرَاعِي

وَأَمَّا أَسْحَى النَّاسِ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُوَّارٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةُ عَلَى السُّنْدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا (٤) ، فَعَمَلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ . رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسَمَّيْ مُطْعِمِ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشْرِ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتِ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دَرَاهِمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَيَّ مِثْلَاهُ »

فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدٍ

[١] جدله : صرعه على الجدالة (كس-حابة) وهي الأرض . [٢] الوساد : المتكأ ، والمخدة

كالوسادة ويثك . [٣] لا تراعي : لا تفزعى ، والكراع : جماعة الخيل .

[٤] الخبيص : نقي الدقيق يخلط بالعسل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الخلواء كضرب ، وخبيصها :

بالتشديد خلطها وعملها .

أهل العراق ، فقال معاوية : مَرَحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةَ ،
مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أُمِيرٍ يَبْرَأُ كَبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرِكُمْ ،
وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسَ إِلَى
صَعْصَعَةِ قَتَامٍ :

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أَمَا قَوْلِكَ يَا مَعَاوِيَةَ : إِنَّا قَدِمْنَا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ، فَلَعَمْرِي ، مَا الْأَرْضُ
تَقَدَّسَ النَّاسَ ، وَلَا يَقَدَّسَ النَّاسَ إِلَّا أَعْمَالُهُمْ ، وَأَمَا قَوْلِكَ : مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا
الْمَحْشَرُ ، فَلَعَمْرِي ، مَا يَنْفَعُ قَرِيبُهَا ، وَلَا يَضُرُّ بُعْدُهَا مُؤْمِنًا ، وَأَمَا قَوْلِكَ : لَوْ أَنَّ
النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَقَدْ وَلَدَهُمْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ
آدَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَهُمْ الْحَلِيمُ وَالسَّفِيهِ ، وَالْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ » .

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيس قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِصَدَقَاتِهِمْ وَفِيهِمُ الْأَشْجُ^(١) ، فَفَرَّقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ أَوْلُ
عَطَاءَ فَرَّقَهُ فِي أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَشْجُ ادْنُ مِنِّي ، فَدَنَا مِنْهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ فِيكَ
خَلَّتَيْنِ يَجِبُهُمَا اللَّهُ : الْأَنَاةُ وَالْحَلْمُ » وَكَفَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا ،
وَيُقَالُ : إِنَّ الْأَشْجَ لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ^(٢) . (البغد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٥٤ - وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ، قال :
عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ عَمِّي ! شَهِدْتَهُ يَوْمًا ، وَقَدْ قَدِمَتِ عَلَيْهِ وَفُودُ

[١] هو عبد الله بن عوف الأشج . [٢] هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوته به ، وقد أردت

من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

العرب ، فتمضى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يا معشرَ العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إياهم في الحرب ، وتقديكم لهم في السلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثر عليكم غيركم منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لثيم ، شجرةٌ قامت على ساق ، فتفرّعَ أعلاها ، واجتمعَ أصلها ، عضدَ الله من عضدّها ، فيالها كلمةٌ لو اجتمعت ! وأيدٍ لو اتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » . (العقد الفريد ٢ : ٤١)

٣٥٥ - وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز ^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزلُ أهرُ ذوائبَ ^(٢) الرّحال إليك ، إذ لم أجدِ مُعوّلاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأسم ^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودنى إليك أمل ، وتسوقنى بلوى ، والمجتهد يُعَدَّر ، وإذ بلغتكَ فقَطَنِي ^(٤) » ، فقال معاوية : أَحْطُطُ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم

[١] في صبح الأعشى « عبد المزّى » وفي الامالى : « قل رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

[٢] جمع ذؤابة : وهي الجلدة المعلقة على آخرة الرجل ، وفي صبح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

[٣] وسمه بسمة : علمه بعلامة . [٤] خسي .

أزل أستدلك بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألوى ^(١) بي الليل ،
فَقَبَضَ البَصْرَ ، وَعَقَى الأَثَرَ ، أقام بدني ، وسافر أملئ ، والنفس تلوم ، والاجتهاد
يَعْدِرُ ، وإذ بلغتك فَقَطَّنِي .

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة ^(٢) ، فهلك
هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزرارة : أتاني اليوم نعي
سيد شباب العرب ، قال زرارة : يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنتك ؟ قال : بل
ابنتك ، قال : للموت ما تلد الوالدة .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والنبين ٢ : ٣٧ ، والأملئ ١ : ٢٠١)

٣٥٦ - وفود زيد بن منية على معاوية

قدم زيد بن منية على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يعلى بن منية ^(٣)
صاحب جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن
أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى بن منية) ، فاما دخل على معاوية شكاً إليه ديناً
لزمه ، فقال : يا كعب ، أعطه ثلاثين ألفاً ، فاما ولي قال : وليوم الجمل ثلاثين
ألفاً أخرى ، ثم قال له : الحق بصهرك ، (يعني عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر)
فقدّم عليه مصر ، فقال :

« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتألف ، ألبس أردية الليل مرة ،

[١] المراد جن علي ، وأحدثت بي ظلمته ، يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به العقاء : طارت
به ، وألوى بما في الإناء : استأثر به .

[٢] الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يفزون صيفا لمكان البرد والثلج .

[٣] في صبح الأعشى والعقد « منه » بالباء وهو تصحيف والصواب « منية » وهو اسم أمه ، واسم
أبيه أمية ، والتصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلى عاملاً لعثمان رضي الله عنه على اليمن ، فلما
ولى علي رضي الله عنه الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه
مال كثير ، وانضم إلى السيدة عائشة رضي الله عنها في قتال علي في وئمة الجمل .

وَأخُوْضُ فِي لُجَجِ السَّرَابِ^(١) أُخْرَى ، مُوقِرًا^(٢) مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ ، وَهَارِبًا مِنْ دَهْرِ فَطَمٍ^(٣) ، وَدِينِ لَزِمٍ^(٤) ، بَعْدَ غِنَى جَدَّعْنَا بِهِ أَنْوْفَ الحَاسِدِينَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا إِلَيْكَ مَهْرَبًا ، وَعَلَيْكَ مَعْوَلًا ، فَقَالَ عْتَبَةُ : « مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا ، إِنْ الدَّهْرُ أَطَارَكُمْ غِنَى ، وَخَلَطَكُمْ بِنَا ، ثُمَّ اسْتَرَدَّ مَا أَمَكْنَهُ أَخْذُهُ ، وَقَدْ أَبْقَى لَكُمْ مِنْهَا مَا لِالضِّيْقَةِ^(٥) مَعَهُ ، وَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي وَيَدَكَ بِيَدِكَ اللهُ » ، فَأَعْطَاهُ سِتِينَ أَلْفًا كَمَا أَعْطَاهُ مَعَاوِيَةَ . (العقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

٣٥٧ - وفود ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية

دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ حَمَزَةَ الصَّدَائِيَّ^(٦) (وَكَانَ مِنْ خَوَاصِّ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ) عَلَى مَعَاوِيَةَ وَافِدًا ، فَقَالَ لَهُ : يَا ضِرَارُ ، صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : أَعْفَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : لَتَصِفَنَّهُ ، قَالَ : « أَمَا إِذَا لَا بُدَّ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى^(٧) ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَضْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَسْتَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشِنَ ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ ، وَيُنَبِّئُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَاهُ ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيْبِهِ إِيَّانَا ، وَقُرْبِهِ مِنَّا ، لَا نَكَادُ نَكَلْمَهُ لِهَيْبَتِهِ ، وَلَا نَبْتَدِّئُهُ لِعِظْمَتِهِ ، يُعْظَمُ أَهْلُ الدِّينِ ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ ،

[١] السراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .

[٢] موقر . من الوقر بالكسر وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقاراً .

[٣] فطم . يروي بالفاء والفاء ، فطمه وقطمه : قطعه ، وصبط في صبح الأعشى بالفاء ، وبالطاء المكسورة

وصف من قطم كفرح : اشهى اللحم أو غيره . [٤] وفي صبح الأعشى : « ودين لزم » وأزم

كضرب وفرح : عض بالقم كله شديداً . [٥] الضيقة : الفقر وسوء الحال ، وفتح .

[٦] صداء كغراب : حى بالين . [٧] الغاية .

لا يطمع القَوِيُّ في باطله ، ولا يَيْئِس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدُوْلَهُ ^(١) ، وغارت نجومُه ، وقد مثل في مخراجه قابضاً على لحيته ، يتماثل تَمَلُّمَ السِّلِيمِ ^(٢) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا غرّى غيرى ، ألي تعرّضتِ ، أم إلى تشوّقتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك ^(٣) حقير ، آه من قلة الزّاد ، وبعُد السفر ، ووحشة الطريق ! « فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحداً في حجرها . (الأمل : ٢ : ١٤٩ ، وروح الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

الوافدات على معاوية

٣٥٨ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وفدت سودة ابنة عمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه سأمت ، فقال لها : كيف أنت يا بنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك يوم صفين ؟ :

شمرّ كفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطعان ومُلْتَقَى الأقران
وأنصر علياً والحسين ورهطه واقصِدْ لهندِ وابنها بهوان
إن الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنازة الإيمان

[١] السدول جمع سدك بالضم والكسر : وهو الستر . [٢] السليم : اللدوغ ، وسمى بذلك تهاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفارة : تهاؤلاً بالفوز . [٣] الخطر : القدر .

فَقَدَّ الْجِيُوشَ وَسِرَّ أَمَامَ لِيُوَانَهُ قُدُّمًا بِأَبْيَضَ صَارِمٍ وَسِنَانٍ (١)

قالت : إى والله ، ما مثلى من رَغِبَ عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فإسألك على ذلك ؟ قالت : حُبُّ عَلَى عليه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليك من أثر عَلَى شَيْئًا ، قالت : أُنشِدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكار ما قد نسي ، قال : هيهات ! ما مثلي مقام أخيك يُنسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخى خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُّهُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ (٢)

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس ومُتِرِ الذنَبِ ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه ، قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّدا ، ولأمورهم مُتَقادما ، والله سألتك عن أمرنا ، وما اقترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ سَاطِئَكَ ، فيحصِدنا حِصَادَ السُّذْبُلِ ، ويدوسنا دِيَامَ (٣) البقر ، وَيَسُومُنَا (٤) الخَسِيْسَةَ ، وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرطاة (٥) قَدِمَ بِلَادِي ، وقتل

[١] القدم : الشجاع ، وى بلاغات النساء : « فقه الحنوف وسر أمام لوانه » .

[٢] العلم : الجبل . [٣] الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . [٤] يكفنا .

[٥] هو بسر بن أُرطاة ، وقيل ابن أبي أُرطاة ، وكان معاوية في أيام عَلَى سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة عَلَى ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ، وكان عليها عبيد الله ابن العباس من قبل عَلَى ، فهرب عبيد الله فزلها بسر وذبح عبد الرحمن ، وقثم ابني عبيد الله وهما صعبران بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المطلب ، فأصابها من ذلك حزن عظيم ، فأنشأت تقول :

يا من أحس بني اللذين هما كالدريين تشظى عنهما الصدق

يا من أحس بني اللذين هما سمى وقلبي ، فقلبي اليريم مختطف

يا من أحس بني اللذين هما منح العظام ، فحنى اليوم مزددهف

رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة، فإمّا عزلته عنا فشكرناك، وإمّا لا، فعرفناك، فقال معاوية: إياي تهديدٌ بقومك؟ والله لقد هممت أن احملك على قتب^(١) أشرس فأردك إليه، يُنفذُ فيك حكمه، فأطرقت تبكي، ثم أنشأت تقول:

صَلَّى الْإِلَٰهَ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
قَدْ خَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ مَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال: ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب، رحمه الله تعالى، قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟ قالت: أتيته يوما في رجل ولأه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغت^(٢) والسّمين، فوجدته قائما يُصلي، فانقتل من الصلاة، ثم قال برأفةٍ وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكي ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم، إني لم أمرهم بظلم خلقك، ولا تركِ حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيها:

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَ ثَكْمُ يَدْنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، ^(٣) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْمُوا ^(٤)
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ
مَنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامَ . »

فأخذته منه والله ما خزّمه بخزّام، ولا ختمه بختّام^(٥) فقراءته، فقال معاوية:

[١] القتب: الإيكاف الصغير على قدر سنام البير، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجاز أو الأشرس: الحشن الغليظ. [٢] الغت: المهزول. [٣] القسط: العدل. [٤] دثا يعثو عشوا: أفسد. [٥] الخزام جمع خزامة بالكسر، وهي في الأصل: حلقة تجمل في أحد جانبي منخري البعير، وخزامة الرمل: سدير رقيق يحرم بين الشراكين، الختام: الطين يحتم به على الشيء، (والخاتم: ما يوضع على الطيبة).

اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللوم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ! لمظكم^(١) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئاً ما تفتطمون ، وغرركم قوله :

فلو كنتُ بواباً على باب جنةٍ لقلتُ لهمدان أَدْخُلُوا بِسَلَامٍ
وقوله : ناديتُ همدانَ والأبوابَ مُعَلَّقةً ومثلُ همدانِ سَنَى فتحةَ البابِ^(٢)
كالهندِ واني لم تُفَلِّ مَضارِبُهُ وَجَهُ جَمِيلٍ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابِ^(٣)
اكتبوا لها ولقومها . (العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

٣٥٩ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والي المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاماً من بنى ليث في جناية جناها ، فأتمته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خيشمة^(٤) المذحجية ، فكأتمته في الغلام فأغاظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرَحِباً بِكَ يَا بِنْتَ خَيْشِمَةَ ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتُك تَشْتُمِينَنَا^(٥) ، وَتَحْضِينَ عَلَيْنَا عِدْوَانًا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا

[١] التلظ : الذوق ، وأن يحرك الانسان لسانه في فمه بعد الأكل ، يتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقي في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لمط فلانا (بالتشديد) لماظة : أي شيئاً يتلطفه ، ولمطه من حقه شيئاً : أعطاه (والعامية تبدل الظاء ضادا) .

[٢] سناء تسنية : سهل وفتح . [٣] سيف هندواني بكسر الهاء ، ويجوز ضمها لإتباطا للدال منسوب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيباً إذا خفق .

[٤] في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف ، وتحريره : ما ذكرنا .

[٥] وفي بلاغات النساء : « تشنين قربي » أي تبغضين .

يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ ، وَلَا يَنْتَقِمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ
لَأَنْتَ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، نَحْنُ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ قَوْلُكَ ؟

عَزَبَ الرُّقَادُ ، فَفُكِلْتِي لَا تَرَقُدُ وَاللَّيْلُ يُصَدِّرُ بِالْهَمُومِ وَيُورِدُ^(١)

بِآلِ مَذْحِجٍ ، لِأَمَقَامٍ ، فَشَمَّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لِيَالِ أَحْمَدَ يَقْصِدُ

هَذَا عَلَيَّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعُدُ^(٢)

خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا

مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده ، فقال
رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إِذَا هَلَكْتَ أبا الحسين فلم تزل بالحق تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا

فأذهب ، عليك صلاة ربك مادعت فوق الغصون حمامة قُمْرِيَا^(٣)

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفيًا

واليوم لا خائف يؤمل بعده هيهات نأمل بعده إنسيًا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننناه ،
لحظك الأوفر ، والله ما أورتك الشنان^(٤) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ،
فأدحض مقاتلتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تردد من الله قرباً ،
ومن المؤمنين حُباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله

[١] عزب : بعد .

[٢] سعود النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ،
وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهما ،
كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مطر ، وهذه الستة ليست من المنازل .

[٣] ضرب من الحمام والجمع قارى . [٤] البغض .

مامثلك من مدح باطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
وضميرِ قلوبنا ، كأن والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك .
قال : مِمَّن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم
استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حملك ، وكريم عفوك ، قال : وإنيهما
يظمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان
ابن عفان رحمه الله تعالى (١) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت :
يا أمير المؤمنين إن مروان تَبَنَّكَ (٢) بالمدينة تَبَنَّكَ من لا يريد منها البراح ، لا يحكم
بعدل ، ولا يقضي بسنة ، يتتبع عثرات المساهين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كَيْت وكَيْت ، فأقمته أحسن من الحجر ، وألحقته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى
من هو أولى بالعضو منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه
مُعدياً (٣) ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا
لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأني لى بالرجعة ، وقد نفذ زادي ،
وكلت راحتي ؟ فأمر لها براحلة موطأة ، وخمسة آلاف درهم .

(العقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصح الأعمش ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٠ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ
بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت ، وعشى (٤) بصرها ، وضعفت
قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ،

[١] تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . [٢] تبك به : أقام .

[٣] أعداء عليه : نصره ، وأطاعه ، وقواه . [٤] ضعف .

وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال غَيْرِكِ الدهرُ ،
قالت : كذلك هو ذو غَيْرِ (١) ، من عاش كبير ، ومن مات قُبِرَ ، قال عمرو بن
العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يازيدُ دونك فاحترف من دارنا سيفاً حُساماً في الترابِ دفينا
قد كنتُ أذخرُهُ ليومِ كريهةٍ فاليومِ أبرَزَه الزمانُ مَصُونَا

قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابنَ هندٍ للخلافةِ مالكا ! هيهات ، ذاك - وإن أراد - بعيدُ
مَتَيْتِكَ نفسك في الخلاءِ ضلالةً أغراك عمرو للشُّقا وسعيدُ

قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنتُ أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنايرِ من أُمِّيَّةَ خاطبا
فاللهُ أَخْرَ مُدَّتِي فتناولت حتى رأيت من الزمانِ عجائبا
في كلِّ يومٍ للزمانِ خَطِيئِهِم بين الجميعِ لآلِ أحمدَ عابا

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني (٢) ،
فقصُرَ مِحْجَبِي ، وكثُرَ عَجْجِي ، وَعَشِي بَصْرِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ قَائِلَةٌ مَا قَالُوا ، لا أدفعُ
ذلك بتكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ في
العيش بعد أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ،
اذكري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدها .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

[١] ذو أحداث . [٢] تناوبتي وتداولتني ، والمجبن : المصا المعطوفة الرأس .

٣٦١ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ،
فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت :
« يابن أخى ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت
بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا
سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعس
الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم الخُدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره
المشركون ، وكانت كلتنا هي العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ،
فوليتم علينا من بعده - وتحتجون بقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل في آل فرعون ،
وكان على بن أبي طالب رحمة الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة هرون من
موسى^(٣) ، فغايبتنا الجنة ، وغايتم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصري من
قولك ، وغضّي من طرفك ، قالت : ومن أنت ، لا أمّ لك ؟ قال : عمرو بن
العاص ، قالت : يابن الأحناء^(٤) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى

[١] جمع حد وهو الخط . [٢] أدلّ ، وى بلاغات النساء « وأصغر » .

[٣] ورواية بلاغات النساء : « فكما أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، وانصيبوا وقدرًا ، حتى
قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، مغمورا ذنبه ، مردوعا درجته ، شريفا عند الله مرضيا ، فصرنا أهل
البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يدبجون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد
المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي ،

وَكَادُوا يَقْتُلُونِي » ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وعمر .

[٤] رجل الخن وأمة الحناء : لم يحننا ، ولحن النساء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن

بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اذبح على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة ^(١) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتاني ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص بن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام مني بمكة مع كل عبد عاهر ^(٢) ، فأتم بهم ، فإنك بهم أشبه . فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، ساخ ! بصرک مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهدتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لآنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زرقه عينيك ، ومحرمة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ^(٣) ، ولقد رأيت الحكم ماذا ^(٤) القامة ، ظاهر الأمة ^(٥) ، سبط ^(٦) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب ^(٧) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للاقاة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر ^(٨)
ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري ^(٩)

شتم العرب « يا ابن اللخاء » كأنهم يقولون يا دنيء الأصل ، أو يا كئيب الأم ، والنايفة أم عمرو ، وقد تقدمت — انظر ص ١٩ . [١] وفي بلاغات النساء « ستة » . [٢] فاجر .
[٣] الدمامة : الفجج . [٤] ممتدا . [٥] الأيمة بالكسر ويفهم : الشأن والنعمة والهيمه .
[٦] طويله . [٧] الأتان : الحماره ، والمقرب التي قرب ولادها (فيكون بطنها كبيرا) .
[٨] السمر بالفتح مصدر سمر الحرب أي أوقدها ، وبالفهم : الجنون . [٩] قتلوا أربعهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — قيل اشترك في قتله علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب — وعمها شيبه بن ربيعة — قتله حمزة — وأخوها الوايد بن عتبة — قتله علي — وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان — وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة — .

شَفَيْتَ (وَحْشِيٌّ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي ^(١)
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَيَّ دَهْرِي حَتَّى تَرِمَّ أَعْظَمِي فِي قَبْرِي ^(٢)

فأجبتها :

يا بنت جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَّحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْمَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ ^(٣)
بِكُلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حَمزَةُ لَبْنِي ، وَعَلِيٌّ صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمرو : ويلكما ! أتما عرّضتُماني لها ، وأسمة ثمانى ما أكره ، ثم قال لها : يا عمة أقصدي قصدا حاجتك ، ودعي عنك أساطير النساء ، قالت : تأمر لي بألني دينار ، وألني دينار ، وألني دينار ، قال : ما تصنعين يا عمة بألني دينار؟ قالت : أشتري بها عينا خزخازة ^(٤) في أرض خوّارة ^(٥) ، تكون لولد الحارث بن عبد المطلب ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني دينار؟ قالت : أزوّجُ بها فتيان عبد المطلب من أكفأهم ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني دينار؟ قالت : أستعين بها على غسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع وضعتها ، هي لك نعم وكرامة ^(٦) ، ثم قال : أما والله لو كان عليّ ما أمر لك بها ، قالت : صدقت ، إن عليّا أدّى الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله في ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها ويدها ، فلم تأخذ بها ،

[١] وحشي غلام حبيب بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد. [٢] رمّ العظم كضرب وأرمّ : بنى فهو رميم

[٣] الزهر : الحسان البيض الوجوه . [٤] المرحار : الماء الجاري ، أى دين ماء جارية .

[٥] المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوّار العنان ، أى سهل المعطف ، كثير الجرى .

[٦] يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعيم بفتحهن ، ونعمى ونعامى ونعام ونعم ونعمة بضمهن ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أى أعمل ذلك لإنعاما لبيتك وإكراما .

ودعانا (أى على) إلى أخذ حقنا ، الذى فَرَضَ اللهُ لنا ، فَشَغِلْ بِحَرْبِكَ عَنْ وَضْعِ
 الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّ بِه ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّنا ،
 وَلَا نَرَى أَخْذَ شَيْءٍ غَيْرِ حَقِّنا ، أَتَذْكَرُ عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللهُ فَالِكَ (١) ، وَأَجْهَدُ بِلَاءَكَ ،
 ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبَ عَلِيًّا ، فَأَمْرُهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ لَهَا :
 يَا عَمَّةُ ، أَنْفِقِي هَذِهِ فِيمَا تَحِبِّينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتِ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ
 صَفَدَكَ (٢) وَمَعُونَتِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . (المقدّم القربى ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٦٢ - أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها
 ثلاثة دروع (٣) (بُرُودٍ) تَسَجَّبُهَا ذِرَاعًا ، قَدْ لَأَثَتْ (٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا
 كَأَلْمَنْسَفٍ ، فَسَأَمْتُ وَجَلَسْتُ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟
 قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ : ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلْدٍ ،
 وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ، قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْحٍ	عَضْبَ الْمَهْزَةِ لَيْسَ بِالْحَوَارِ (٥)
أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسَمَّرًا	لِلْحَرْبِ نَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارِ (٦)
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبُّهُ تَحْتَ لَوَاهِهِ	وَأَلِقِ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً	فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَمِثْلَكَ مِنْ عَفَا ، وَاللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ : « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ،

[١] تدعو عليه أى نذر الله أسنالك . [٢] الصفد : العطاء .

[٣] درع المرأة قيصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

[٤] اللوث عصب العمامة ، والكور لوث العمامة وإدارتها ، والمنسف ما ينفض به الحب : شئ طويل

منصوب الصدر ، أعلاه مرتفع . [٥] العصب : السيف القاطع ، والحوار من خار : إذا ضعف وكل .

[٦] عرّد تعريداً ، وعرّد كسمع : هرب .

وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ» قَالَ : هيهات ، أما والله لو عاد لعُدتِ ، ولكنه
اخْتَرِمَ^(١) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلی بيّنة من ربي ، وَهُدَى من أمرى ،
قال : كيف كَانَ قولك حين قتل ؟ قالت : أَنَسَيْتُهُ ، قال بعض جلسائه : هو والله
حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة فدحت ، فليس مُصَابِئُهَا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كاسفةٌ لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمامِ العادل
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطِيَّ وَمَنْ مَشَى فوق الترابِ لمحتفٍ أو ناعِلِ
حاشا النبي . لقد هددت قواءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فقال معاوية : قاتلك الله ! فتركت مقالا لقائل ، اذ كرى حاجتك ، قالت :
أما الآن فلا ، وقامت فعمّرت ، فقالت : تَعِسَ شَانِيُ عَلِيٍّ^(٤) ، فقال : زَعَمْتِ أَنْ
لَا ، قالت : هو كما علمت ، فلما كَانَ من الغد بعث إليها بجائزة . وقال : إذا
ضيعتُ الحلم فمن يحفظه ؟ (صح الأعرابي ١ : ٢٦١ ، بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٦٣ — دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سنة من سنّيه ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل
بالحجون^(٥) ، يقال لها دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر
بسلامتها ، فبعث إليها فجىء بها ، فقال : ما حالك يا بنة حامٍ ؟ فقالت : است
لِحَامٍ إِنْ عِبْتَنِي ، إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثمّت من بنى أبيك ، قال :
صدقّت ، أتدرين لم بعثتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت

[١] هلك . [٢] المتحوّل : المتغير . [٣] جمع القوة قوى ، وإنما قلت قواء بالمد للضرورة .
[٤] أى مبغضه . [٥] الحجون : جبل بمحلة مكة .

إِيكَ لِأَسْأَلُكَ : عَلَامَ أَحْبَبْتِ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتِي ، وَوَالِيَّتِهِ وَعَادِيَّتِي ؟ قَالَتْ : أَوْ
تُعَفِّينِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أُعْفِيكَ ، قَالَتْ : « أَمَا إِذَا أُبَيَّتْ فَإِنِّي أَحْبَبْتُ
عَلِيًّا عَلَى عَدْلِهِ فِي الرَّعِيَّةِ ، وَقَسَمَهُ بِالسُّوِيَّةِ ، وَأَبْغَضْتُكَ عَلَى قِتَالِ مَنْ هُوَ أَوْلَى
مَنْكَ بِالْأَمْرِ ، وَطَلَبْتُكَ ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقِّ ، وَوَالَيْتُ عَلِيًّا عَلَى مَا عَقَدَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوِلَايَةِ ^(٢) ، وَعَلَى حُبِّهِ الْمَسَاكِينَ ، وَإِعْظَامِهِ
لِأَهْلِ الدِّينِ ، وَعَادِيَّتِكَ عَلَى سَفْكَكَ الدَّمَاءِ ، وَشَقِّكَ الْعَصَا ، وَجَوْرِكَ فِي الْقَضَاءِ ،
وَحَكْمِكَ بِالْهَوَى » .

قَالَ : فَلِذَلِكَ انْتَفَخَ بَطْنُكَ ، وَعَظُمَ ثَدْيَاكَ ، وَرَبَّتْ عَجِيْزَتُكَ ، قَالَتْ : يَا هَذَا
بِهِنْدٍ ^(٣) وَاللَّهِ كَانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ لِأَبِي ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ اِرْبَعِي ^(٤) ،
فَإِنَّا لَمْ نَقْلُ إِلَّا خَيْرًا ، إِنَّهُ إِذَا انْتَفَخَ بَطْنُ الْمَرْأَةِ تَمَّ خَلْقُ وَلَدِهَا ، وَإِذَا عَظُمَ ثَدْيَاهَا
تَرَوَى ^(٥) رَضِيْعَهَا ، وَإِذَا عَظُمَتْ عَجِيْزَتُهَا رَزُنَ مَجْلِسُهَا ، فَرَجَعَتْ وَسَكَنَتْ ،
فَقَالَ لَهَا : يَا هَذِهِ هَلْ رَأَيْتِ عَلِيًّا ؟ قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَهُ ، قَالَ : فَكَيْفَ
رَأَيْتِهِ ؟ قَالَتْ : رَأَيْتُهُ وَاللَّهِ لَمْ يَفْتِنَنِي الْمَلِكُ الَّذِي فَتَنَكَ ، وَلَمْ تَشْغَلْهُ النِّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ ،
قَالَ : فَهَلْ سَمِعْتِ كَلَامَهُ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ وَاللَّهِ فَكَانَ يَجْلُو الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى ، كَمَا
يَجْلُو الزَّيْتُ الطُّسْتُ مِنَ الصَّدَأِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ قَالَتْ :
أَوْ تَفْعَلْ إِذَا سَأَلْتُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : تَعْطِينِي مِائَةَ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ فِيهَا فُخْلُهَا ،
وَرَاعِيهَا ، قَالَ : تَصْنَعِينَ بِهَا مَاذَا ؟ قَالَتْ : أَغْذُو بِالْبَانِهَا الصِّغَارَ ، وَأَسْتَحْيِي بِهَا
الْكِبَارَ ، وَأُكْتَسِبُ بِهَا الْمَكَارِمَ ، وَأُصْلِحُ بِهَا بَيْنَ الْعَشَائِرِ ، قَالَ : فَإِنِ أَعْطَيْتِكَ

[١] الطلبة : الطلب . [٢] تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

[٣] هي أمه هند بنت عتبة . [٤] ربيع : وقف وانتظر وتحبس . [٥] ارتوى .

ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ماء ولا كصداء^(١) ،
ومرعى ولا كالسعدان^(٢) ، وفتى ولا كالك^(٣) ، سبحان الله أودونه ، فأنشأ
معاوية يقول :

إذا لم أعذ بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدى يؤمّل للحلم
خذيها هنيئاً ، واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا والله ولا وبرة
واحدة من مال المسلمين (الهدالريدي : ١ : ١٣٢ ، وصح الأعمش ١ : ٢٥٩ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٤ - شداد بن أوس ومعاوية

وأمر معاوية شداد بن أوس الطائي أن يتنقّص عليّاً ، فقام فقال :
« الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى
آثر من رضا خلقه ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه يمضي آخرهم ، أيها الناس :

[١] صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة ماني بن قبيصة : أنه لما قتل
لقيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات
مرة : ما استحدثت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حس ، ولكني أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد
اتقى بي ، فرجع إليّ ، وقميصه اضح من دماء صيد ، والمسك يصوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من
فيه ، فصنيت ضمة ، وشميت شمة ، ولبنتي مائة ، فعمل روحها مثل ذلك ثم صمها ، وقال لها : أين أنا
من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء .

[٢] السعدان : بنت ذو شوك ، وهو من أصل مراعي الابل ، ولا نحسن على نبت حسننا عليه ،
وأول من قال ذلك الحسناء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ، فوجدت الناس مجتمعين
على هند بنت عتبة بن ربيعة ، ففرحت عنها وهي تاشدهم مرأتى في أهل بيتها ، فلما دنت منها قالت : على من
تبكين ؟ قالت : أبكي سادة مضوا ، قالت : فأشدتني مض ما قلت ، فأشدتها ، فقالت الحسناء : مرعى
ولا كالسعدان ، ثم أشدتها ما رنت به أخواها صحرا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ
القيس بن حجر الكندي ، وكان مفرحاً كما (بتح الرأء تبعصه الذاء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟
فقلت : مرعى ولا كالسعدان . [٣] قاله متم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة
تضرب للشيء يفضل على أفرانه .

إن الآخرة وعدُّ صادقٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، وَإِنِ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَإِنِ السَّمَاعُ الْمَطْبُوعُ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَإِنِ السَّمَاعُ الْعَاصِيَّ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَإِنِ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاوَهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فَتَاهًاوَهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ مُمَحَاوَهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفَاهًاوَهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاوَهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ بُخْلًاوَهُمْ ، وَإِنِ مِنْ صَلَاحِ الْوَلَاةِ أَنْ يَصْلُحَ قُرْنَاوَهَا ، وَنَصَحَ لَكَ يَمَعَاوِيَةُ مَنْ أَسْخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قال : « إِنْ كَانَ مِنْ مَالِكَ الَّذِي تَعَهَّدْتَ جَمْعَهُ مَخَافَةَ تَبِعْتَهُ ، فَأَصْبَتْهُ حِلَالًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِفْضَالًا ، فَنَعَمٌ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا شَارَكَكَ فِيهِ الْمَسَامُونَ ، فَاحْتَجَجْتَهُ ^(١) دُونَهُمْ فَأَصْبَتْهُ اقْتِرَافًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِسْرَافًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : « إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

☆ ☆

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضلُ ، أم علي ؟ وأينا أحبُّ إليك ؟ » ، فقال : « عليٌّ أقدمُ هِجْرَةً ، وأكثرُ مع رسول الله إلى الخير سابقَةً ، وأشجعُ منك قلبًا ، وأسلمُ منك نفسًا ، وأما الحبُّ ، فقد مضى عليٌّ ، فأنت اليومَ عند الناس أَرْجَى مِنْهُ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٦٥ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كَانَ أَجْهَلَ قَوْمِكَ ، حِينَ مَلَكَوا عَلَيْهِمْ امْرَأَةً » ، فقال : « بل قومك أَجْهَلُ ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البيئات : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

[١] احتجن المال : ضمه واحتواه .

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ» ، أَلَا قَالُوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ ! » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٦٦ — حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسي ، قال : ما تقول في مُرَاد ؟ قال :

مُدْرِكُ الْأُوتَارِ^(٢) ، وَحَمَاةُ الذَّمَارِ ، وَمُحْرِزُوُ الْحِطَّارِ ، قال : فما تقول في النَّجَعِ ؟

قال : مَا نِعْمُ السَّرْبِ^(٣) ، وَمُسْتَعْرُوُ الْحَرْبِ ، وَكَاشِفُوُ الْكَرْبِ ، قال : وما تقول

في بنى الحَرِثِ بنِ كَعْبٍ ؟ قال : فَرَّاجُوُ اللَّكَاكِ^(٤) ، وَفُرْسَانُ الْعِرَاكِ ، وَلِزَازُ

الضُّكَاكِ ، تَرَكَ تَرَكَ ، قال : فما تقول في سَعْدِ الْعَشِيرَةِ ؟ قال : مَا نِعْمُ الضَّيْمِ ،

وَبَانُو الرِّيمِ^(٥) وَشَافُوُ الْغَيْمِ ، قال : ما تقول في جُعْفِيٍّ ؟ قال : فُرْسَانُ الصَّبَاحِ^(٦) ،

وَمُعَلِمُوُ الرَّمَاكِ ، وَمُبَارِزُوُ الرِّيَّاحِ ، قال : ما تقول في بنى زُيَيْدٍ^(٧) ؟ قال : كَمَاةُ

أَنْجَادٍ ، سَادَاتُ أَحْمَادٍ ، وَوُقْرُهُ^(٨) عِنْدَ الدِّيَادِ ، صُبْرُهُ عِنْدَ الطَّرَادِ ، قال : ما تقول في

جَنْبٍ ؟ قال : كُفَاةُ يَمْنَعُونَ عَنِ الْحَرِيمِ ، وَيَفْرَجُونَ عَنِ الْكَطِيمِ^(٩) ، قال : فما

[١] أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . [٢] جمع وتر : وهو الثَّارُ ، والذَّمَارُ : ما يلزمك

حفظه وحايته ، والخطار جمع خطر بالتحريك : وهو السبق يتراهن عليه .

[٣] السرب : ما رمي من المال . [٤] اللكاك : الرحام ، ومثلها الضكك ، وله كرده : شدة

وألقه ، والاراز ككتاب : خشبة يلز بها الباب ، وفلان لراز العظام : أى يلز بها ويقرن ليدلها ، ومنه

قول لبيد :

إنا إذا التقت الحامع لم يزل منا لراز عظيمه حشامها

وترك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتعظيم ، أى دع هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فأنهم فى أسنى

مكان . [٥] الريم : الدرجة والعصل والزيادة ، والعيم : العطش . [٦] الغارة .

[٧] ضبط فى الأمالى بفتح الراءى ، وهو خطأ ، زيد كريبير : بطن من منجح ، رهط عمرو بن

مديكرب ، وكأمية بلد باليمن ، وكاة جمع كى : وهو الشجاع أو لاس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشمهم

وكتف ورجل : الشجاع الماضى فيها يعجز غيره . [٨] وتر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذباد

والنود : الدمع . [٩] الكظيم والمكطوم : المكروب .

تقول في صداء؟ قال: سمام الأعداء، ومَسَاعِيرُ الهَيَجَاءِ^(١)، قال: فما تقول في رهَاء؟ قال: مُيَنِّهِنُونَ^(٢) عادية الفوارس، ويردون الموت ويرد الخوامس^(٣)، قال: أنت أعلم بقومك . (الأمل ١ : ١٦٠)

٣٦٧ — حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية، فقال له: يا خيار كيف تجدك، وما صنع بك الدهر؟ فقال: يا أمير المؤمنين، صدع الدهر قناتي، وأثككتني لداتي^(٤)، وأوهى عمادي، وشيَّب سوادى، وأسرع في تِلَادِي^(٥)، ولقد عشتُ زمناً أُصِبي الكعاب^(٦)، وأسرَّ الأصحاب، وأجيد الضراب^(٧)، فبان ذلك عني، ودنا الموت مني، وأنشأ يقول:

كأني شتيمٌ بأسلِّ القلبِ خادِرُ ^(٨)	غَبَرْتُ زَمَانًا يَرَهَبُ الْقِرْنَ جَانِبِي
وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ	يَخَافُ عَدْوِي صَوَاتِي وَيَهَابُنِي
كَأَنِّي غُضِنٌ نَاعِمِ النَّبْتِ نَاضِرُ ^(٩)	وَتُصْنِي الكِعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي
كَأَنِّي قَنَاةٌ أَطْرَتْهَا الْمَاطِرُ ^(١٠)	فَبَانَ شِيبَابِي، وَاعْتَرَتْنِي رَثِيَّةٌ
لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتْقَاصِرُ ^(١١)	أَدِبٌ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي
لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ	وَقَصَّرَ الْفَتَى شَيْبُ وَمَوْتٌ كِلَاهِمَا
رَهِينٌ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ	وَكَيفَ يَلْدُ الْعَيْشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا

[١] الهيجاء: الحرب، وهو مسعر حرب (كدرهم) أي موقد نارها . [٢] يكفون .

[٣] الجس بالكسر: أي ترمي الإبل ثلاثة أيام، وترد الرابع، وهي لابل خوامس .

[٤] اللدة: من ولد معك . [٥] التلاد: المال القديم . [٦] كعب ثدى الجارية: نهدي،

وهي كعب وكعاب . [٧] ضرب الفحل صرابا: نكح . [٨] الفرون: كفؤك في الشجاعة أو

حام، والشتيم: الأسد العابس، والحدر: أجة الأسد . ومنه أسد خادر . [٩] اللمة: الشعر المجاوز

شحمة الأذن . [١٠] الرثية: وجع المفاصل واليدين والرجلين . والأطر والتأطير: عطف الشيء،

وتأطر الريح: تلى واعوج . [١١] القرم: الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من
الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا مواردَ ترغِب إلى الله أن يُصدرنا عنها وهو راض .
(الأمل ٢ : ٩٤)

٣٦٨ — حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية اعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأى شئ سُدَّت قَوْمك
يا عرابة ؟ قال : أخبرك يا معاوية بأنى كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال :
وكيف كان ؟ فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرِ العَشيرةِ كلِّها كذِي الحِلْمِ يُرَضَى ما يقول ويُعرَف
وذاك لأنى لا أعادى سَرَاتهم ولا عن أخى ضَرَّاءَهم أتَنكفُ^(١)
وإني لأعطي سائلي ، ولربِّما أَكَلَفُ ما لا أستطيع فأَكَلَفُ
وإني لمذمومٌ إذا قيل : حاتم نبا نَبوَةً ، إن الكَرِيم يُعَنَّفُ
ووالله إني لأعفو عن سفيهم ، وأحلمُ عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم ، وأعطي
سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل منى ،
ومن قَصَّر عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشَّماخ حيث
يقول فيك :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رُفِعَت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين
(الأمل ١ : ٢٧٧)

٣٦٩ — سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى

[١] أى أمتنع منه وآنف .

جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واصطنعك ، حتى بلغك باصطناعه إياك المدى الذى لا يُجَارَى ، والغاية التى لا تُسَامَى ، فاجازيت أبى بالآله ، حتى قدّمت هذا علىّ ، وجعلت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأبى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر آلائكم علىّ ، وتظاهر نعمائكم لىّ ، فقد كان ذلك ، ووجب علىّ المكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازاتُ الصدور ، وتجلّتُ تلك الأمور ، واستُ لنفسى باللأثم فى التشمير ، ولا الزارى ^(١) عليها فى التقصير ، وذكرت أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرم كريماً ، وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رحماً ، وذكرت أن أمك خير من أمه ، فلعمري إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرت أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن العُوطة ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : مه يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالة عليك ، واستعتبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجملُ له فى ردك ، وأجملُ على نفسك ، وولّه خراسان بشفاعتى ، وأعنه بجمال يُظهر به موروثه ، فولاه معاوية خراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم ، فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ . والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٠ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم

[١] زرى عليه : طابه . [٢] مدينة دمشق أو كورتها .

على ذلك ، ثم تمائل^(١) ، وهم في إرجافهم ، فحمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرقاقا من مرقاق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أَبَقِيَ الْحَوَادِثُ مِنْ خَلِيْلِكَ مِثْلَ جَنْدَلَةِ الْمَرَّاجِمِ^(٢)

صُلْبًا إِذَا خَارَ الرَّجَاءُ لُ أَيْلَ مَمْتَنِعِ الشُّكَاثِمِ^(٣)

قد رامني الأعداء قبلك فامتنعت من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وجِلماً راجحاً ، وَكَلَّاءً وَمَرَعِي لأوليائك ، وَسَمًّا نَاعِمًا لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مساميين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقبل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمزة كَادَ يَحْطِمُنِي ، وجذبني جذبة كَادَ يَكْسِرُ عَضْوًا مِنِّي .

(زهر الآداب ١ : ٥٧ ، والأمال ٢ : ٣١٥)

٣٧١ - روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَّى مَعَاوِيَةَ رَوْحَ بْنَ زَنْبَاعٍ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ فِي جَنَابَةٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالْقُدُومِ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَمَرَ بِضَرْبِهِ بِالسِّيَاطِ ، فَلَمَّا أَقِيمَ لِيَضْرِبَ قَالَ : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، وَأَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيْسَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا

[١] تمائل الليل : قارب البرء . [٢] الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

[٣] الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكائم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة في فم

الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لايقاد .

أَوْ تُشْمِتِ بِي عَدْوَا أَنْتِ وَقْتَهُ ^(١) ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا آتَى حَلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ
إِفْسَادِ صِنَائِعِكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِذَا اللَّهُ سَنَى عَقْدَ أَمْرٍ تَدَسَّرَا ، خَلُّوا سَبِيلَهُ .
(الأملال ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٧٢ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ
جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ
أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ وَالِي الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعِجَاءُهُ ، وَحِجْرِي
فِنَاءُهُ ، وَتَدْنِي سِقَاءُهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ
بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوْفَى فِصَالَهُ ^(٤) ، وَكَمَلْتُ خِصَالَهُ ، وَاسْتَوَكَمْتُ ^(٥)
أَوْصَالَهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرِهًا ^(٦) ، فَأَدِنِي ^(٧)
أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) . »

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتَهُ
قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عِلْمِي ، وَأُلْهِمُهُ
حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكِمَ قَتْلَهُ . »

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفًّا ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتَهُ
شَهْوَةً ، وَوَضَعْتَهُ كَرِهًا . »

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْدُدْ عَلَيَّ الْمَرْأَةَ وَلِدهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِكَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ

[١] وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كبتته » . [٢] السقاء : جلد السحلة يكون
للعاء واللبن . [٣] أرحاه . [٤] فطامه . [٥] اشتدت ومنف . [٦] الإياء والمشقة
بالفتح والضم ، أو بالفتح ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه .
[٧] آدام على فلان : أهداه وأطانه . [٨] الإكرام . [٩] الحف : الحفيف .

سجعتك . أو قال : « إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخلق
أن تحسن أدبه » . (الأمل ٢ : ١٤ ، وأمل السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

٣٧٣ — صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :
قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن
أبي سفيان ، وأقربهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فيينا هو
ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشرف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود
الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله
وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورفيقاً على العباد ، يُستسقى بك المطر ،
وَيُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتوَلَّف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، وَيُرْدَع
بك الجانف ^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة
في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير ^(٢) . قد أَلْجَأني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ
ضاق عليّ فيه المنهَجُ ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عاره ^(٣) ، لما
خشيت إظهاره ، فليُنصِفني أمير المؤمنين من الخصم ، فإني أعوذ بعقوته ^(٤)
من العار الوَيْيل ، والأمر الجليل ، الذي يشتدُّ على الحرائر ، ذوات البعول
الأجائر ^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بعلك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ،
ومن فعله المشهر ^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا

[١] المائل : الجائر . [٢] أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعذيراً : إذا قصر ولم يجتهد
(أو من غير تشويه من عذر الشيء : لطفه بالمعذرة كفرحة) . [٣] تكفى بذلك عن طلاقها .
[٤] العقوة : ماحول الدار . [٥] البعول والبعولة جمع بعل وهو الزوج ، والأجائر جمع أجور ،
أفعل تفضيل من جار . [٦] شهره كنعته ، وشهره بالمشديد : أظهره في شناعة .

الأسود: ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأسود: هي تقول من الحق بعضاً، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقضاً؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق، وأنا مُخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق، والله يا أمير المؤمنين ما طلقتها عن ريبة ظهرت، ولا لأى هفوة حضرت، واكنى كرهت شمائلها، فقطعتُ عنى جبائلها، فقال معاوية: وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت؟ قال: يا أمير المؤمنين: إنك مهيجها على بجواب عتيد^(١)، ولسان شديد، فقال معاوية: لأبدلك من محاورتها، فاردد عليها قولها عند مراجعتها، فقال أبو الأسود: «يا أمير المؤمنين، إنها كثيرة الصخب، دائمة الذرب^(٢)، مهينة للأهل، مؤذية للبعل، مسيئة إلى الجار، مظهره للعار، إن رأيت خيراً كتمته، وإن رأيت شراً أذاعته»، فقالت: «والله لولا مكان أمير المؤمنين، وحضور من حضره من المسامين، لرددتُ عليك بوادِر كلامك، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سهامك^(٣)، وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بَعلاً، ولا أن تُظهر لأحدٍ جهلاً، فقال معاوية: عزمتُ عليك لما أجبتُه، فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما علمته إلا ستولاً جهولاً، ملجأً بخيلاً^(٤)، إن قال فشرُّ قائل، وإن سكت فذو دغائل^(٥)، لئثٌ حين يأمن، وثعلبٌ حين يخاف، شحيحٌ حين يُضاف^(٦)،

[١] حاصر مهياً . [٢] الصخب: شدة الصوت، والذرب: حدة اللسان وبداءته .

[٣] البوادِر جمع بادرة، وهي ما يبدو من حدك في الغضب من قول أو فعل، بنوافذ أى بمهيج نافذة ماضية، وكل السيف وغيره فهو كلّ وكليل: لم يقطع .

[٤] وكان أبو الأسود معروفًا بالبعل، ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له: «أنت والله ظرف لفظ، وظرف علم، ووعاء حلم، غير أنك بخيل» فقال: «وما خير ظرف لا يمسك ما فيه؟» وسلم عليه أتراني يوماً، فقال أبو الأسود: كلمة بقولة، يقال له: «أناذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع لك، قال: فهل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: أطمئني، قال: عيالي أحق منك، ول: ما رأيت أأم منك! قال: نسيت نفسك . «أمالي الرافعي ١: ٢١٤» . [٥] دغائل: جمع دغيلة كسفينة والدغيلة والدغل بالتحريك: دخل في الأمر مضد . [٦] ضافه يضيفه: نزل عليه ضيفاً .

إن ذكر الجود انقَمَعَ^(١) ، لِمَا يَعْرِفُ مِنْ قِصْرِ رِشَائِهِ^(٢) ، وَلَوْ لَمْ آبَأْهُ ، ضَيْفَهُ جَائِعٌ ، وَجَارَهُ ضَائِعٌ ، لَا يَحْفَظُ جَارًا ، وَلَا يَحْمِي ذِمَارًا ، وَلَا يُدْرِكُ نَارًا ، أَكْرَمَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنْ أَهَانِهِ ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَكْرَمِهِ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : سَبِحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِي بِهِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنَ السَّجْعِ ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهَا مُطَلِّقَةٌ ، وَمَنْ أَكْثَرُ كَلَامًا مِنْ مَطَائِقَةٍ ؟ فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : إِذَا كَانَ رَوَاحًا^(٣) فَتَعَالَى أَفْصِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِالْقَضَاءِ .

فَلَمَّا كَانَ الرَّوَّاحُ جَاءَتْ وَمَعَهَا ابْنُهَا قَدْ احْتَضَنَتْهُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو الْأَسْوَدِ قَامَ إِلَيْهَا لِيَنْتَزِعَ ابْنَهُ مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، لَا تُعْجِلِ الْمَرْأَةَ أَنْ تَنْطِقَ بِحُجَّتِهَا ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا أَحَقُّ بِحَمْلِ ابْنِي مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا الْأَسْوَدِ دَعِّهَا تَقِلْ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ » ، فَقَالَتْ : « صَدَقَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : حَمَلَهُ خِفًا ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعَهُ شَهْوَةً وَوَضَعْتُهُ كَرْهًا ، إِنْ بَطْنِي لَوِ عَاوَهُ ، وَإِنْ ثَدْيِي لَسِقَاوَهُ ، وَإِنْ حِجْرِي لَفِنَاوَهُ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : سَبِحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِينَ بِهِ ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : إِنَّهَا تَقُولُ الْآيَاتِ مِنَ الشَّعْرِ فَتَجِيدُهَا ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهَا قَدْ غَلَبَتْكَ فِي الْكَلَامِ ، فَتَكَلَّفَ لَهَا آيَاتًا لَعَلَّكَ تَغْلِبُهَا ، فَأَنْشَأَ أَبُو الْأَسْوَدِ يَقُولُ :

مَرَّحَبًا بِالتِّي تَجُورُ عَلَيْنَا ثُمَّ سَهْلًا بِالحَامِلِ المَحْمُولِ
أَغْلَقْتُ بِابْنِهَا عَلِيًّا وَقَالَتْ : إِنْ خَيْرَ النِّسَاءِ ذَاتُ البُعُولِ
شَغَلْتُ نَفْسَهَا عَلِيًّا قَرَاغًا هَلْ سَمِعْتُمْ بِالفَارِغِ المَشْغُولِ ؟

[١] انقَمَعَ : دخل البيت مستحفيًا . [٢] الرشاء في الأصل : الحبل .

[٣] أي إذا كان الوقت رواحًا ، والرواح : العشى .

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصَّوَابِ وبالْحَقِّ كَمَنْ جَارَ عَنِ مَنَارِ السَّبِيلِ
كَانَ تَدْنِي سِقَاءَهُ حِينَ يُضْعِي ثُمَّ حَجْرِي فَنَاوُهُ بِالْأَصِيلِ
لستُ أُنْبِئُ بِوَاحِدِي يَا بَنَ حَرْبٍ بَدَلًا مَا عَلِمْتُهُ وَالْخَلِيلِ^(١)
فأجابها معاوية :

ليس مَنْ غَدَاهُ حِينًا صَغِيرًا وَسَقَاهُ مِنْ تَدْنِي بِخَذُولِ
هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَيْبِهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ^(٢)
أُمُّهُ مَا حَنَتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحَمَلِ هَذَا الضَّئِيلِ^(٣)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٧٤ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِمَ الأحنف في وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم
أبو حاضر الأسيديّ - وكان خطيباً جميلاً - فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت
فوالله لو دِدْتُ أَنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ
الدينار بالدرهم ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن لنا ولك مثلاً ، أفتأذن في ذكره ؟ »
قال : نعم ، قال : « مَثَلْنَا وَمِثْلِكَ وَمِثْلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الأَعشى حيث يقول :
عُلَّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلَّقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٤) »
أحبك أهل العراق ، وأحببت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك
ابن مروان » (البيان والنبين ١ : ١٦٤)

[١] أي أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . [٢] الرحم : الرحمة والبرقة والنعطف .
[٣] في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ، إذ يختل وزن البيت .
[٤] علقت فلان امرأة (بالبناء للمجهول . مشدداً) : أحبها .

٣٧٥ - كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خطباء من الأحماس^(١) إلى عبد الملك بن مروان ، فتكلموا ،

فلما انتهى الكلام إلى خطيب الأزدي ، قام فقال :

« قد علمت العرب أنا حتى فعل ، ولسنا بحى مقال ، وأنا نجزى بفعلنا

عند أحسن قولهم ، إن السيوف لتعرف أكرهنا ، وإن الموت ليستعذب أرواحنا ،

وقد علمت الحرب الزبون ، أنا نقرع جراحها ، ونحلب صراها^(٢) » ثم جلس^(٣).

(الأمل ٢ : ٢٥٩)

٣٧٦ - سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل العجاج^(٤) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاج بلغني أنك

لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية ،

أمكنه إخراج الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من

أن نُظلم ، وإن لنا حملاً يمنعنا من أن نُظلم ، فعلام الهجاء ؟ فقال : لكلماتك

أشعر من شعرك ! فأنى لك عز يمنعك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب البارع ،

والفهم الناصع ، قال : فما الحلم الذي يمنعك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب

[١] الحس كفضل : الأمانة الصلبة جمع أحس ، واتق به قريش ، وكسانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في

الجمالية جمعهم في دينهم ، أو لانتباهم بالحساء وهي الكعبة ، وأحاس العرب : من أمهاتهم من قريش ،

وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون . [٢] الصرى : بقية اللبن .

[٣] وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء نزار عند معاوية ، فذهبت في الحطب كل

مذهب ، قام صبرة بن شيبان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حتى فعال ، واسنا حتى مقال ، ونحن نبلغ

بمعاننا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروى المبرد في الكامل هذا القول عن

صبرة أيضاً - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيبان من الأزدي - انظر

الجزء الأول ص ٢٠٧ . [٤] هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور مات سنة ٩٠ هـ .

المُسْتَظْرَفُ ، وَالطَّبِيعَ التَّالِدَ ، قَالَ : يَا عَجَّاجَ لَقَدْ أَصْبَحْتَ حَكِيمًا . قَالَ : وَمَا
يَعْنِي وَأَنَا نَجِيٌّ^(١) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ . (الأمل ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٧٧ - وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

لَمَّا وَلِيَ الْحِجَابُ بْنُ يَوْسُفَ الْحَرَمِيِّينَ بَعْدَ قَتْلِهِ ابْنَ الزُّبَيْرِ ، اسْتَخَصَّ إِبْرَاهِيمَ
ابْنَ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَقَرَّبَهُ وَعَظَّمْ مِنْزَلَتَهُ ، فَلَمْ تَزَلْ تَلِكْ حَالَهُ عِنْدَهُ ، حَتَّى خَرَجَ
إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَخَرَجَ مَعَهُ مُعَادِلًا ، لَا يَقْصُرُ لَهُ فِي بَرٍّ وَإِعْظَامٍ ، حَتَّى
حَضَرَ بِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ لَمْ يَبْدَأْ بِشَيْءٍ بَعْدَ السَّلَامِ ، إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُ :
« قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ الْحِجَابِ ، لَمْ أَدْعُ لَهُ بِهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ
وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ،
وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبْوَةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ الْمُؤَاظَرَةِ . وَهُوَ
إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَبْكَ ، لِئَسْهَلَ عَلَيْهِ إِذْنُكَ ، وَتَعْرِفَ لَهُ
مَاعَرَ فَتَكَ » . فَقَالَ : أَذْكَرْتَنَا رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غَلَامُ : ائْذِنْ لِإِبْرَاهِيمَ
ابْنَ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَدْنَاهُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ
قَالَ لَهُ : يَا بْنَ طَلْحَةَ ، إِنْ أَبَا مُحَمَّدَ (الْحِجَابِ) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَعْرِفُكَ بِهِ مِنْ الْفَضْلِ
وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ
قَدْرِ الْأَبْوَةِ ، وَمَا بَلَآهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ الْمُؤَاظَرَةِ ، فَلَا تَدَعَنَّ
حَاجَةً فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَعَامَتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَوْلَى
الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقُّ مَا قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى

الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحة لا أجد
بُداً من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأخلىنى يا أمير المؤمنين ترد
عليك نصيحتى ، قال : أدونَ أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ، قال عبد الملك :
للحجاج قم ، فلما خَطَرَ ف^(١) السَّترَ أقبل على إبراهيم ، فقال : يا بن طلحة قل
نصيحتك ، قال : بالله يا أمير المؤمنين لقد عهدت إلى الحجاج فى تَغَطُّرُسه
وتعَجُّرُفه ، وَبُعْده من الحق ، وقُرْبُه من الباطل ، فوليته الحرمين ، وهما ما هما
وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار ، والموالى الأخياري ، يسومهم الخسْف^(٢) ،
ويحكم فيهم بغير السنَّة ، بعد الذى كان من سفك دماءهم ، وما انتهبك من حُرْمهم ،
وَيَطَّوْهم بِطَعامِ أهل الشام ، وَرَعاعٍ لا رَوِيَّةَ لهم فى إقامة حق ، ولا فى إراحة
باطل ، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله ؟ فكيف بك إذا جاثاك محمد صلى
الله عليه وسلم غداً للخصومة بين يدي الله تعالى ؟ أما والله إنك لن تنجو هناك
إلا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لك النجاة ، فارْبِعْ على نفسك أو دَعْ ، وكان عبد الملك مُتَكْرِماً ،
فاستوى جالساً ، وقال : كذبتَ وَمِنْتِ^(٣) فيما جئت به ! ولقد ظن بك الحجاج
ظناً لم نجده فيك ، وقد يُظن الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المائِن الحاسد ! قال :
فقمتم والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطر الفِطْنُ لِحَقْنِي لاحق ، فقال للحاجب :
امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل فلبث مَلِيّاً ، ولا أشكُ أنهما فى
أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى الستر ، إذا أنا بالحجاج
خارج ، فاعتنقنى ، وقبل ما بين عيني ، وقال : أما إذا جزى الله المتواخيئين خيراً

[١] المراد أرخى من خطر ف جلد المرأة إذا استرخى . [٢] يوايهم الدال .

[٣] مان مينا : كذب .

بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنَّ ناظريك ، ولأُعَلِّينَّ كعبك ، ولأُتَبِعَنَّ الرجالُ غبارَ قدمَيْك ، قال : فقلت في نفسي إنه ليسخرَ بي ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شارك أحد في نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يداً عندى من الحجاج ، ولو كنت محايياً أحداً بدىنى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين : لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما : استقلالاً لهما ، ووليته العراقيين وما هنالك من الأمور ، التي لا يُدَحِّضُهَا إِلَّا مثله ، وإعماقت له ذلك ليؤدى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج ، وأكرمتني أضعاف إكرامه .

(العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح البيهقوى ص ١١٩)

٣٧٨ — قدوم الحجاج مع أشرف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقدم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده إذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد بن عمير بن عطار : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وعمَّقها ^(١) ، وسفلت عن الشام ووبأها ، وجاورها الفرات ، فعذب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صفوان الأهمى : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم في السريَّة ^(٢) ، وأكثرُ منهم

[١] العمق : ركوب التمدى الأرض ، أرض عميقة كفرحة : ذات ندى وتقل ، أو قريبة من المياه ، وفي الأصل : « وعمقها » وهو تصحيف . [٢] السرية : من خسة أفسس إلى نثمائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال .

قندا^(١)، وعاجاً، وساجاً،^(٢) وناساً^(٣)، ماؤناصفو، وخيرنا عفو، لا يخرج من عندنا إلا قائدوسائق وناعق^(٤)»، فقال الحجاج: «أصلح الله أمير المؤمنين! إني بالبلدين خير، وقد وطئتهما جميعاً»، فقال له: قل فأنت عندنا مُصَدِّق، فقال: «أما البصرة فمعجوز شمْطَاء، دَفْرَاء، بَحْرَاء، أُوتِيَتْ من كل حَلْيٍ وزينة؛ وأما الكوفة، فشابة حسناء جميلة، لا حَلْيَ لها ولا زينة». فقال عبد الملك: فضلت الكوفة على البصرة. (مروج الذهب ٢: ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال:

قال خالد بن صفوان^(٥) - وَسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : «نحن منأبثنا قَصَب، وأنهارنا عَجَب، وسماؤنا رُطَب^(٦)، وأرضنا ذهب». وقال الأحنف: «نحن أبعد منكم سَرِيَّة، وأعظم منكم تَجْرِيَّة^(٧)، وأكثر منكم ذُرِّيَّة، وأغذى منكم بَرِّيَّة». وقال أبو بكر الهذلي: «نحن أكثر منكم ساجاً، وعاجاً، ودِيباجاً، وخراجاً، ونهراً عَجْجاً^(٨)». (البيان والتبيين ٢: ٤٦)

[١] الهند: غسل قصب الكر. [٢] الساج: خشب أسود رزين يحمل من الهند، ولا تكاد الأرض تبليه، وهو يشبه الأبنوس. [٣] في الأصل: «وباسا» بالياء، وأراه بالنون. [٤] يريد بالسائق: الأمير، وبالناعق: الحطيب. [٥] أي يصف البصرة، وكذا ما بعده. [٦] السماء: كل ماعلاك، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة، «مشان كسحاب: قرية قريبة منها»، وأن التمر لكثرتة ووفرتة يظلمهم. [٧] تاجر كنصر تجراً وتجارة: البحر، وأرى أن «تجرية» مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم وأطول باطا من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة تفر على الخليج الفارسي، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق - . [٨] العجاج: العياح من كل ذي صوت.

٣٧٩ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسر ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمثل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والده وف ، قال : فكيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدِّنا فنطمع فيهم ، ويلقوننا بجِدِّهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد . قال : فما حال قطري ؟ قال : كأدنا ببعض ما كدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورأته خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُجاة السرح^(١) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوَّأت^(٢) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

٣٨٠ - وفود كعب الأشقري على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقري - ومعه مروة بن تليد الأزدي - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة ، وقتل أميرهم عبد ربه الصغير ، فلما دخلا عليه بدَّر كعب ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

[١] السرح و الأصل : الدال السام . [٢] رَوَّأت في الأمر : نظر فيه وتعبه ، ولم يعجل بجواب .

يا حَفْصُ: إني عَدَانِي عنكم السَّفَرُ وقد سَهَرْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ
 فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له:
 أخبرني عن بني المهلب، قال: «المُغِيرَةُ فارسُهُم وسيِّدُهُم، نار ذاكِية^(١)،
 وصَعْدَةُ^(٢) عالية، وكَنَى يزيدَ فارساً شجاعاً، ليث غابٍ، وبحر جَمَّ عُبَابٍ،
 وَجَوَادُهُم وَسَخِيهِم قَبِيصَةٌ، ليث المغار^(٣)، وحامِي النِّمَارِ، ولا يَسْتَحِي الشُّجَاعُ
 أن يَفِرَّ من مُدْرِكٍ، فكيف لا يفر من الموت الحاضر، والأسد الخادر؟ وعبدُ
 الملك سمّ نافع، وسيف قاطع، وحيبُ الموتُ الزُّعَافُ، إمعاً هو طَوْدٌ^(٤)
 شامخ، ونخر باذخ، وأبو عَيْنَةَ البَطَلِ الهُمَامُ، والسيف الحَسَامُ، وكفالك بالمفضِّلِ
 نَجْدَةٌ، ليث هَدَّارٍ، وبحر مَوَّارٍ^(٥)، ومحمدُ ليثُ غابٍ، وحُسامُ ضِرَابٍ، قال:
 فكيف كانوا فيكم؟ قال: كانوا حُمَاةَ السَّرْحِ نهاراً، فإذا أَلِيلُوا^(٦) ففُرْسَانُ البياتِ،
 قال: فأَيُّهُمْ كَانَ أَنجِدُ؟ قال: كانوا كَالْحَلَقَةِ المَفْرَغَةِ: لا يُدْرِي أَيْنَ طَرَفُهَا، قال:
 فكيف كَانَ لَكُمْ المَهْلَبُ وكنتم له؟ قال: كَانَ لنا منه شَفَقَةُ الوالدِ، وله منا بَرٌّ
 الولدِ، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حالٍ: أدركوا ما رَجَوْا،
 وأمِنوا مما خافوا، وأرضاهم العَدَلُ، وأغناهم النِّقْلُ^(٧)، قال: فكيف كنتم أنتم
 وعدوكم؟ قال: كنا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذَا أَخَذُوا يَدِيْنَا مِنْهُمْ، وَإِذَا اجْتَهَدُوا
 واجتهدنا طَمِعْنَا فِيهِمْ، فقال الحجاج: إن العاقبة للمتقين، قال: كيف أفلتكم
 قطريٌّ؟ قال: كدناه ببيعض ما كَادَنَا به، فصرنا منه إلى الذي نحب، قال: فهلا
 اتبعتموه؟ قال: كَانَ الحَدُّ عندنا آثَرُ مِنَ الفَلِّ^(٨)، قال: أَكُنْتُ أَعَدَدْتُ لِي

[١] ذك النار: اشتد لهبها. [٢] الصعدة: القناة المستوية تبت كذلك. [٣] أغار على
 العدو: إغارة ومغارة. [٤] الطود: الجبل، وباذخ: عال. [٥] مار: ماج واضطرب.
 [٦] أليلوا وألأوا: دخلوا في الليل. [٧] الغنيمة والهبة. [٨] الهزيمة.

هذا الجواب؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل المبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٩٣)

٣٨١ — سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سليك بن سلكة^(١) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ، فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلق على اسمي ، وهدمت دارى ، وحرمت عطائى ، قال . هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وربما
ورب ماخوذ بذنبي عشيره
تعدى الصّحاح مبارك الجرب^(٢)
ومجا المقاريف صاحب الذنب

قال أصلح الله الأمير ، سمعت الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : قال : « يأيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً ، فنخذ أحداً مكانه ، إنا نراك من المحسنين ، قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن أظالمون » .

[١] هو غير سليك بن سلكة الذى صرب به المثل في العدو ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سايك بن عمرو التيمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تتعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك بن السلكة ، والشنفرى ، وتأبط شرّاً ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجمالية : عنقرة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير ابن الجباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولي في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العيون « وهو جاهلي قديم » — انظر ترجمته في سرح اليون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٢٣ .

[٢] في الأصل « جانيك من يجني عليك وقد » على أن العروض حذّاء كالضرب وهو صحيح ، ولكنني رأيت العروض في البيت الذى يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشاكلية بين العروضين .

قال الحجاج : عليّ يزيد بن أبي مسلم^(١) ، فأُتِيَ به فقتل بين يديه ، فقال :
افكك لهذا عن اسمه ، واصكك^(٢) له بغطائه ، وابن له منزله ، ومر مناديا
ينادي في الناس ، صدق الله ، وكذب الشاعر . (العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٨٢ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق ، وتنقّم مذهبهم ، وتسخط طريقتهم ،
فقال له جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسيناً - : « أما إنهم لو أحبوك
لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك ، فدع
ما يبعدهم منك ، إلى ما يقرّبهم إليك ، والتيسر العافية ممن دونك ، تُعطها ممن فوقك ،
وليكن إيقاعك بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك . قال الحجاج : « إني والله
ما أرى أن أردّ بنى اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف » ، فقال : « أيها الأمير ، إن
السيف إذا لاقى السيف ذهب الخييار » ، فقال الحجاج : « الخييار يومئذ لله » ،
قال : « أجل ، ولكن لا تدري لمن يجعله الله » ، فغضب الحجاج وقال :
« يا هَنَاءُ^(٣) إنك من محارب » ، فقال جامع :

وللحرب سُمِينَا ، وكان محارباً إذا ما القننا أمسى من الطمن أحمرًا
فقال الحجاج : « والله لهممت أن أخلع لسانك ، فأضرب به وجهك » ، فقال
جامع : « إن صدقناك أغضبتناك ، وإن غششناك أغضبتنا الله ، فغضب الأمير
أهون علينا من غضب الله » قال : أجل ، وسكن ، وشغل الحجاج ببعض الأمر ،

[١] كتاب الحجاج . [٢] صكك له كقتل : كتب له صكا ، وهو الكتاب الذي يكتب في
المعاملات : (الشيك) . [٣] هن : كلمة يكي بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح
باسمه قلت : ياهن أقبل ، وقد تراءد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة ، فيقال ياهناء أقبل ، أي
مافلان ، وهذه الهاء تصير تاء في الوصل ، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتكسر لاجتماع الساكنين .

فانسِلْ جامع ، فرَّ بين صفوف خيل الشام ، حتى جاوز إلى خيل أهل العراق - وكان الحجاج لا يَخْلِطُهُمْ - فأبصر كَبْكَبَةً^(١) فيها جماعةٌ من بكر العراق ، وتيمم العراق ، وأزد العراق ، وقيس العراق ، فلما رأوه أُشْرَأُثُوا إليه ، وبلغهم خروجه ، فقالوا له : ما عندك ؟ دافع الله لنا عن نفسك ، فقال : وَيُحْكَمْ ! عُثْمُوهُ بالخلع كما يَمْتَكُم بالعداوة ، وَدَعُوا التَّعَادِيَّ ما عاداكم ، فإذا ظفرتم به تراجعتم وتماقبتهم ، أيها التيميَّ : هو أعدى لك من الأزدى ، وأيها القيسيَّ : هو أعدى لك من التغلبيَّ ، وهل ظفرت بمن ناواه منكم إلا بمن بقي معه منكم ؟ » وهرب جامع من قوره ذلك إلى الشام ، فاستجار بزُفْر بن الحارث .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،
وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٨٣ - ليلي الأخيلية والحجاج

عَنْ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بن سعيد بن العاصي قال :

كنت أدخل مع عَنبَسَةَ بن سعيد بن العاصي إذا دخل على الحجاج ، فدخل يوماً ، فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة ، فأقعدني ، فجاء الحجاج بِطَبَقٍ فيه رُطَبٌ ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به ، ثم جىء بطبق آخر ، حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء ، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما ، ثم جاء الحاجبُ فقال : امرأة بالباب ، فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه ، حتى ظننت أن ذقته قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرت فإذا امرأة قد أسنت ، حَسَنَةَ الخَلْق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي لَيْلَى الأَخِيلِيَّة ، فسألها

[١] الككبكة : الجماعة .

الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلى ، ما أتى بك ؟ فقالت :
 « إِيخلافُ النُّجُومِ ^(١) ، وِقْلَةُ الغُيُومِ ، وكَلَبُ ^(٢) البَرْدِ ، وشِدَّةُ الجَهْدِ ، وكنت
 لنا بعد الله الرِّفْدَ ^(٣) » ، فقال لها : صِفي لنا الفِجَاجَ ^(٤) ، فقالت : « الفِجَاجُ
 مُنْبَرَةٌ ، والأرضُ مُقَشَعِرَةٌ ، وَالْمَبْرُكُ ^(٥) مُعْتَلٌّ ، وذو العِيَالِ مُخْتَلٌّ ^(٦) ، والمهَالِكُ
 للقلِّ ^(٧) ، والناسُ مُسْنِتُونَ ^(٨) ، رَحْمَةُ اللهِ يَرْجُونَ ، أصابتنا سِنُونٌ مُجْحِفَةٌ ^(٩)
 مُبْلِطَةٌ ، لم تَدَعِ لنا هَبْعًا ^(١٠) ولا رُبْعًا ، ولا عَافِطَةً ولا نَافِطَةً ^(١١) ، أَذْهَبَتِ
 الأموالُ ، ومزقت الرجالُ ، وأهلكت العِيَالِ » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير
 قولاً ، قال : ها تِى ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُفْلَلُ سِلاخُكُ ، إِنها أَلْمَنايا بِكَفِّ اللهِ حَيْثُ تَرَّاهَا ^(١٢)
 أَحْجَاجٌ لَا تُعْطِي العُصاةَ مُناهُمُ وَلَا اللهُ يُعْطِي للعُصاةِ مُناها
 إِذا هَبَطَ الحِجَاجُ أرضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصى دَأِها فَشَفاها
 شفاها من الداءِ العُضالِ الذي بها غلامٌ إِذا هَزَّ القِناةَ سقاها
 سقاها فَرَوَّاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهِ دِماءُ رِجالٍ حَيْثُ مالَ حَساها ^(١٣)

[١] أى أخلفت الجيوم التى يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . [٢] كلب البرد : شدته ، وأصل الكلب : السعار (بالضم) الذى يهيب الكلاب والذئاب . [٣] الرfid (بالفتح) : المعونة ، مصدر رفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والملة . [٤] الفججاج جمع وجح : بالفتح ، وهو الطريق الواسع بين جبلين . [٥] أرادت به الإبل الباركة فيه . [٦] مختل : محتاج من الحلة بالفتح وهى الحاجة . [٧] للقل : أى هالك من أجل القلة . [٨] أى مقحطون ، والسنة القحط . [٩] مجحفة : قاشرة ، ومبليطة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المساء ، والحجارة التى تفرش فى الدار ، وأبليط الرجل فهو مبليط : إذا لُزق بالأرض . [١٠] الهبع : الفصيل ينتج فى الصيف (فى آخر النتاج) والربع : الفصيل ينتج فى الربيع (وهو أول النتاج) . [١١] العافطة : الضائنة (النعجة) ، من العفط ، وهو الضرط ، عفطت كضرب : ضربت ، وهى عافطة ، والعفط أيضاً : شير الضأن ، تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة العنز ، من النقط ، نطقت الذئب كضرب نثرت بأنفها ، أو عطست ، وهى نافطة ، أو لانها تنقط ببولها أى تدفمه دفماً ، أو النافطة لإتباع للعافطة ، أو العافطة الامة الراعية ، والنافطة الشاة . [١٢] السلاح مذكر ويؤنث كما فى هذا البيت . [١٣] السجال جمع سجيل كشمس وهو الدلو العظيم .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَابُ رِزًّا كَتِيبَةً ۖ أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا (١)
 أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً ۖ بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاحًا (٢)
 فَمَا وَدَّ الْأَبْكَارُ وَالْعُونَُ مِثْلَهُ ۖ يَبْحَرُ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ ثَرَاهَا (٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قَاتَلَهَا اللَّهُ ! والله ما أصاب صِفَتِي شاعرٌ منذ دخلتُ العراقَ غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأَعِدُّ للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُكَ ! قالت : إني قد قلتُ أكثر من هذا ، قال : حسبك ، وَيَحْمَكُ ! حسبك ، ثم قال يا غلام ، اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجاج ، فالتفت إليه ، فقالت : نَكَلْتِكَ أُمَّكَ ! أما سمعتَ ما قال ؟ إنما أمرُك أن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث إليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال : ارزُدْها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كَادَ وَأَمَانَةَ اللَّهِ يَقْطَعُ مِقْوَلِي ! ثم أنشأت تقول :

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ ۖ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمَسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ (٤)
 حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِحتُ ۖ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُورٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ (٥)
 ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إلا أنا لم نَرَ قَطُّ أَفْصَحَ لِسَانًا ، ولا أَحْسَنَ مَحَاوِرَةً ، ولا أَمْلَحَ وَجْهًا ، ولا أَرْضَنَ شعراً منها ، فقال : هذه ليلي الأخيلية ، التي ماتت تُوْبَةً الخفاجي من حُبِّها ، ثم

[١] الرز: الصوت تسمعه من بعيد. [٢] الصرى : بقية اللبن. [٣] العون جمع حوان كسحاب، وهي التي كان لها زوج. [٤] الصمد : الذي يصمد أى يقصد فى قضاء الحاجج .
 [٥] لقتت : أصله من لقتت الناقة أى قبلت اللقاح ، والشهاب : شعلة من نار ساطعة ، ويقد يتوقد

التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذي يقول :

وهل تبكين ليلى إذا متُّ قبلها
كما لو أصاب الموت ليلى بكيثها
وأغبطُ من ليلى بما لا أناله
ولو أن ليلى الأخيلية سَأمتُ
لسَأمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزقا
وقام على قبري النساءُ النوايحُ ؟
وجاد لها دمعٌ من العين ساْفِحُ^(١)
بَلَى ، كلُّ ما قرَّرتُ به العينُ طأْحُ
علَى ، ودوني جندلٌ وصَفائحُ^(٢)
إليها صدَى من جانب القبر صأْحُ^(٣)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حمامة بطن الواديين ترنمي
أيدي لنا ، لا زال ريشك ناعماً
وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعتُ
وقد رابني منها صدودٌ رأيتُه
وأشرفُ بالقور اليفاع اعلنى
يقول رجالٌ : لا يضيرك نأيتها
بَلَى ، قد يضير العين أن تُكثرا البكا
وقد زعمت ليلى بأنى فاجرُ
سَقاكِ من العرَّالغوادى مطيرُها^(٤)
ولا زلت في خضراء غصنٍ نضيرُها
فقد رأيتُ منها الغداة سُفورُها
وإعراضها عن حاجتى وبُسورُها^(٥)
أرى نارَ ليلى أويرانى بصيرُها^(٦)
بَلَى ، كلُّ ما شَفَّ النفوسَ يضيرُها
ويُمنعُ منها نَوْمُها وسُرورُها
لِنَفْسِي تُقاها ، أو عليها فجورُها

[١] سافح : منصب . [٢] الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراس .
[٣] زقا : صاح ، والصدى - وهوالهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الاعراب أن روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فيصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثأر به ، وهذا مثل يراد به تحريض ولى القتيل على طلب دمه ، فجمله جهالة الأعراب حقيقة . [٤] الغوادى جمع غادية : وهي السحابة تنشأ غدوة . [٥] بسر كدخل : عبس وكلاج . [٦] القور جمع قارة : وهي الجبل الصغير المنقطع عن الجبال ، واليفاع : الل .

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما الذى رآه من سُفورك ؟ فقالت : أياها الأمير ، كان
مِيلمَ بنى كثيراً ، فأرسل إلى يوماً : إني آتيتك ، وفَطِن الحى ، فأرصدوا له ، فلما
أتانى سَفَرْتُ عن وجهى ، فعلم أن ذلك لِشَرِّ ، فلم يزد على التسليم والرجوع ،
فقال : لله درك ! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذى أسأله
أن يُصَلِّحك ، إنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأت أقول :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبْحُ بها فليس إليها ما حَيِّتَ سبيلُ
أنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه وأنت لِأخرى صاحبٌ و خليلُ

فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، ما رأيت منه شيئاً ، حتى فرَّق الموت بيني
وبينه ، قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج فى غزاة له ، فأوصى ابن عم له ،
إذا أتيت الحاضر من بنى عبادة فنادِ بأعلى صوتك :

عفا الله عنها ، هل أبيتنَّ ليلَةً من الدهر لا يسرى إلى خيالها ؟

وأنا أقول :

وعنه عفا ربِّي وأحسنَ حاله فعزَّت علينا حاجةٌ لا ينالها

قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مراثيك فيه ، فأنشدت :

لِتَبْكِ العَذَارَى من خَفَاجَةِ نِسْوَةٍ بماءِ شُثُونِ العَبْرَةِ المتحدِّرِ^(١)

قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

[١] الشثون جمع شأن : وهو مجرى الدمع إلى العين ، وكتب مصحح الأمالى قال : « قوله المتحدِّر ،
كذا فى النسخ ، وكتب بهامش بعضها امله المتحادر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفى هامش بعض
النسخ بعد البيت الآتى :

فنى لا تخطاه الرفاق ، ولا يرى لقدر عيالا دون جار مجاور » اه

كَأَنَّ فِي الْفِتْيَانِ تَوْبَةً لَمْ يُنْبِخْ قَلَائِصَ يَفْحَصْنَ الْحَصَى بِالْكَرَّاكِيرِ^(١)

فلما فرغت من القصيدة ، قال مُحْصِنُ الْفَقْمَعِيِّ : - وكان من جلساء الحجاج -
مَنْ الَّذِي تَقُولُ هَذِهِ هَذَا فِيهِ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأُظَنُّهَا كَاذِبَةً ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَتْ :
أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ لَوْ رَأَى تَوْبَةَ لِسِرِّهِ أَنْ لَا تَكُونَ فِي دَارِهِ عَذْرَاءٌ إِلَّا هِيَ
حَامِلٌ مِنْهُ ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ : هَذَا وَأَيُّكَ الْجَوَابُ ، وَقَدْ كُنْتَ عَنْهُ غَنِيًّا ، ثُمَّ قَالَ
لَهَا : سَلِي يَا لَيْلَى تُعْطَى ، قَالَتْ : أَعْطِي ، فَمَثَلُكَ أَعْطَى فَأَحْسَنَ ، قَالَ : لَكَ
عَشْرُونَ ، قَالَتْ : زِدْ فَمَثَلُكَ زَادَ فَأَجْمَلَ ، قَالَ : لَكَ أَرْبَعُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَمَثَلُكَ
زَادَ فَأَكْمَلَ ، قَالَ : لَكَ ثَمَانُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَمَثَلُكَ زَادَ فَتَمَّمَ ، قَالَ : لَكَ مِائَةٌ ،
وَاعْلَمِي أَنَّهَا غَنِمَتْ ، قَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَنْتَ أَجْوَدُ جُودًا ، وَأَعْجَدُ مَجْدًا ،
وَأَرْوَى زَنْدًا ، مَنْ أَنْ تَجْعَلَهَا غَنَمًا ، قَالَ : فَمَا هِيَ ؟ وَيُحَاكُّ يَا لَيْلَى ؟ قَالَتْ : مِائَةٌ
مِنَ الْإِبِلِ بَرَحَاتِهَا ، فَأَمَرَ لَهَا بِهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَلَاكِ حَاجَةٌ بَعْدَهَا ؟ قَالَتْ : تَدْفَعُ إِلَيَّ
النَّابِغَةَ الْجَعْدَى ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، وَقَدْ كَانَتْ تَهْجُوهُ وَيَهْجُوهَا ، فَبَلَغَ النَّابِغَةُ
ذَلِكَ ، فَخَرَجَ هَارِبًا عَائِدًا بَعْدَ الْمَلِكِ ، فَاتَّبَعَتْهُ إِلَى الشَّامِ ، فَهَرَبَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ
بِخُرَاسَانَ ، فَاتَّبَعَتْهُ عَلَى الْبَرِيدِ بَكْتَابِ الْحَجَّاجِ إِلَى قُتَيْبَةَ ، فَمَاتَتْ بِقَوْمَسَ^(٢) ،
وَيُقَالُ بِحُلُوان . (الأملی ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٨٤ - الغضبان بن القبعثري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية ،
عشرًا من النجائب ، وعشرًا من قعد النكاح ، وعشرًا من ذوات الأحلام ، فلما

[١] الفلائس جمع قلوب كصبور ، وهي الناقة الشابة ، أو الباقية على السير ، يفحص : يقابن ، من
فحص المطر التراب قلبه ، وفحص انقضا التراب : اتخذ فيه أخوصا وهو مجثمه ، والكرراكر جمع كركرة
بالكسر : وهي زور البير . [٢] قومس : صنع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

نظر إلى الكتاب لم يدري ما وصفه من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويًا ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب ، فله بداء أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل الغضبان الشيباني ، فأحضر فلما مثل بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدّون بي قبل أن أتعشى بهم^(١) ؟ قال : أصلح الله الأمير ، ما نفعتم من قالها ، ولا ضرت من فلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلى كتابًا لم أدر ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقرأ على ، فقرأ عليه ، فقال : هذا بين ، قال : وما هو ؟ قال : « أمّا النجبية من النساء : فالتى عظمت هامتها ، وطال عنقها ، وبعد ما بين منكبيها وئديها ، واتسعت راحتها ، وثخنت ركبها ، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كالليث ؛ وأما قعد النكاح ، فهن ذوات الأعجاز ، منكسرات الثدي ، كثيرات اللحم يقرب بعضهن من بعض ، فأولئك يشفين القرم ، ويروين الظمان ؛ وأما ذوات الأحلام ، فبنات خمس وثلاثين إلى الأربعين^(٢) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة الثقب^(٤) ، الحديدية الركب^(٥) ، السريعة الوثبة ، الواسطة^(٥) في نساء الحى ، التى إذا غضبت غضب لها مائة ، وإذا سميت كلمة قالت لا والله لا أنتهى حتى أقرها

[١] انظر خطبته في ص ٣٢٠ . [٢] القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشرق إلى الحبيب . [٣] هنا سطر أسقطناه ، ولينظره في الأصل من شاء . [٤] الوجه . [٥] وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم .

قَرَارَهَا ، التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية ، قال الحجاج :
على هذه لعنة الله ، ثم قال : وَيَحْك ، فأخبرني بخير النساء ، قال : خيرهن القريبةُ
القائمة من السماء ، الكثيرة الأخدمين الأرض ، الودود الولود ، التي في بطنها غلام ،
وفي حجرها غلام ، ويتبعها غلام ، قال : ويحك فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرم
السَّنُوط ^(١) الرُّبُوط ، المحمود في حرم الحى ، الذى إذا سقط لإحداهن دَلُوٌّ في
بئر ، انحطَّ عليه حتى يُخْرِجَه ، فهن يَجْزِيَنه الخير ، ويقلن عاقى الله فلاناً ، قال :
على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟ قال : خيرهم الذى يقول فيه الشَّامُخ التعلبى :
فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَذْنَى مَعِيشَةٍ وَلَا فِي بِيوتِ الْحَيِّ بِالْمَتَوَجِّجِ ^(٢)
فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ وَيضرب في رأس الكعبي المدجج ^(٣)
فقال له : حَسْبُكَ ، كم حَبَسْنَا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها
وخلَّى سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٨٥ - ابن القرية يعدد مساوى المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تكره المزاح وتنهى
عنه ، فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أوله
فَرَحٌ وآخره تَرَحٌ ، المزاح نقائص السفهاء كالشعر نقائص الشعراء ، والمزاح
يُوغِرُ صدر الصديق ، وينقُرُ الرفيق ، والمزاح يُبْدِي السرائر ، لأنه يُظهِر المعابر ،
والمزاح يُسْقِطُ الأروءة ، وَيُبْدِي الخنا ، لم يجرَّ المزاح خيراً وكثيراً ماجراً شراً ،

[١] السنوط : الذى لاشعرى ووجهه ألبنة « الكوسح » كجفر ، وفي الأصل « السبوط » بالياء ،
ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما الذى فيها من هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه
« مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد عن السعى ، والربوط ، يريد به الملازم لبيته الذى لا يخرج
منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه . [٢] الداخل .
[٣] الشيزى : خشب أسود تتخذ منه الفصاع ، يكى عن كرمه ، والمدجج : الشاك في السلاح .

الغالبُ بالمزاح وإثره ، والمغلوب به ثائر ، والمزاح يجلبُ الشتمَ صغيره ، والحربَ كبيره ، وليس بعد الحرب إلا عفوه بعد قدرة ، فقال الحجاج : « حسبك ، الموت خير من عفوه معه قدرة » . (زهر الآداب ٢ : ٨٥)

٣٨٦ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلى سليمان بن عبد الملك ، أتى يزيد بن أبي مسلم : مؤلى الحجاج ، فى جامعته^(١) ، وكان رجلاً دميماً تقطع حِممه^(٢) العين ، فلما رآه سليمان قال : لعن الله امرأً أجرك رَسَنك^(٣) ، وَوَلَّى مثلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتنى والأمر عنى مُدبر ، ولو رأيتنى والأمر على مُقبِل ، لاستعظمت من أمرى ما استصغرت ، ولا استجللت ما استحققت » ، فقال له سليمان : « أين ترى الحجاج ، أيهوى فى النار ، أم قد استقر فى قعرها ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين . لا تقل هذا ، إن الحجاج قمع لكم الأعداء ، وَوَطَأَ لكم المنابر ، وزرع لكم الهيبة فى قلوب الناس ، وبعده فإنه يأتى يوم القيامة عن عيين أيبك . وشمال أخيك الوليد ، فضعه من النار حيث شئت » ، فصاح سليمان : اخرج إلى لعنة الله ، ثم التفت إلى جلسائه ، فقال :

[١] الجامعة : القيد . [٢] تردده . [٣] الرسن : الجبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ماشاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج وأيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فخذ عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة ، وفيه يقول « وايم الله لئن أ مكى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائسك ، ولأحعلنسك شريدا فى الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : « فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بى وبك مسدة أعلق بها » فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمرى إنك لصي حديث السن تعذر بقلة عقلك ، وحدثنا سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أموراً دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

قَبَّحَهُ اللهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبَهُ لِنَفْسِهِ وَلصَاحِبِهِ ، وَلقد أَحْسَنَ المِكَافَأَةَ ،
أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ . (أمالي السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والعقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

٣٨٧ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم
الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبدا زبّابا ^(١) ،

[١] بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه
بالطائف - ويسمى كليباً - وفيه يقول الشاعر .

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف في الصفر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إبياد
زمان هو العبد القمير بدله يروح صبيان القرى ويفادى

« راحهم وروّحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباظا كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ،
وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطنه ويضعفه ويمجره في
تأخير مناجرتهم ، فقال المهلب لرسوله : « قل له : إن السامد يرى ما لا يرى العائب ، فإن كنت نصبتى
لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن أمكنتى الفرصة انتهزتها ، وإن لم تمكنى فأنا أدبر ذلك
بما يصلحه ، وإن أردت مى أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعلى ،
فابعت من رأيت مكانى » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف عرّاه من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبية الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبدت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإيشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعبا بذلك ،
وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبه منه فقدم كعب على عبد الملك واستنشده ، فأعجبه
مأسمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ،
« ورأى معاودة الدباغ غنيمة » ، فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ماشاهدته في تلك
الحروب وأزماتها ، وما يوردناه المهلب من خطرهما ، أن أنجو منها ، وأكون حجاما ، أو حائكا ، فقال
له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفمك ما أسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينسك
هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء ، - انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وسرح العيون
ص ١١٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٦ - .

قَنُورِ بْنِ قَنُورٍ^(١) ، لا نَسَبَ لَهُ فِي الْعَرَبِ » قَالَ سَلِيمَانُ : أَيَّ شَتْمٍ هَذَا !
 إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَابُ كَتَبَ إِلَيَّ : « إِنَّمَا أَنْتِ نَقْطَةٌ مِنْ مِدَادٍ ، فَإِنْ رَأَيْتِ
 فِيَّ مَا رَأَى أَبُوكَ وَأَخُوكَ كُنْتَ لَكَ كَمَا كُنْتَ لهُمَا ، وَإِلَّا فَأَنَا الْحِجَابُ وَأَنْتِ
 النَّقْطَةُ ، فَإِنْ شِئْتَ مَحَوْتِكِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَثْبَتُكِ » فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَقْبِلِ
 النَّاسَ يَلْعَنُونَهُ ، فَقَامَ ابْنُ أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا نَحْبِرُكَ عَنْ عَدُوِّ اللَّهِ بِعِلْمٍ » قَالَ : هَاتِي ، قَالَ : « كَانَ عَدُوَّ اللَّهِ
 يَتَزَيَّنُ تَزْيِينَ الْمُؤْمِسَةِ^(٢) ، وَيَصْعَدُ الْمُنْبِرَ فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَخْيَارِ ، فَإِذَا نَزَلَ عَمَلِ
 عَمَلِ الْفِرَاعِنَةِ ، وَأَكْذَبُ فِي حَدِيثِهِ مِنَ الدَّجَالِ » ، فَقَالَ سَلِيمَانُ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ :
 « هَذَا وَأَبْيُكَ الشَّتْمُ ، لَا مَا تَأْتِي بِهِ السَّفِيلَةُ^(٣) » . (الْبَيَانُ وَالتَّدْبِيرُ ١ : ٢١١)

٣٨٨ — كَلَامُ أَبِي حَازِمٍ لِسَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

حَجَّ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ لِلزِّيَارَةِ بَعَثَ إِلَى أَبِي حَازِمِ
 الْأَعْرَجِ ، وَعِنْدَهُ ابْنُ شِهَابٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا حَازِمٍ . قَالَ : فِيمَ
 أَتَكَلَّمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : فِي الْمَخْرَجِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ . قَالَ : يَسِيرُ إِنْ أَنْتِ
 فَعَلْتَهُ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : لَا تَأْخُذِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مِنْ حِلِّهَا ، وَلَا تَضَعُهَا إِلَّا فِي
 أَهْلِهَا . قَالَ : وَمَنْ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : مَنْ قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ الرِّعْيَةِ مَا قَلَّدَكَ ،
 قَالَ : عَظَنِي أَبُو حَازِمٍ . قَالَ : اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَصِرْ إِلَيْكَ إِلَّا بِمَوْتِ مَنْ كَانَ
 قَبْلَكَ ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ يَدَيْكَ بِمِثْلِ مَا صَارَ إِلَيْكَ . قَالَ : يَا أَبَا حَازِمٍ أَشْرَ عَلَىَّ ، قَالَ
 إِنَّمَا أَنْتِ سَوْقٌ ، فَمَا نَفَقَ^(٤) عِنْدَكَ مُجَلِّ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فَاخْتَرِ أَيُّهُمَا شِئْتَ .

[١] القنور : الشرس الصعب من كل شيء وكسئور : العبد . [٢] امرأة مومس ومومسة :
 فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور « من المومس كوعد : وهو احتكاك الشيء بالشيء حتى ينجرد ، وأومست :
 أمكنت من المومس » . [٣] سفلة الناس كسفلة وفرحة : أسافلهم وغواظهم . [٤] راج .

قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتننتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبِلتُ ، وما منعتني منها رضيتُ .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٨٩ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال يا أبا حازم : ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمّرتُم دنياكم ، وأخرتُم آخرتكم ، فأنتم تكرهون الثُّقْلة من العُمُران إلى الخراب ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما المُحْسِن فكالغائب يأتي أهله مسروراً ، وأما المَسِيء فالكالعبد الآبق ^(١) يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عِظْني وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، نزه ربك ، وعظّمه أن يراك حيث نهارك ، أو يفقدك حيث أمرك ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جلسائه : أسرفتَ ومحك على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيدنه للناس ولا يكتُمونه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بجمال ، فردّه وقال للرسول : قل له : والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟ (مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٧)

[١] الآبق : الحارب .

٣٩٠ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قدم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فاشرب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لا فِظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنن لكان في هذه الأمة من هو أحقّ بجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهئة لا وفد المرزئة (١) ، قدمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأننا قد أمنا في أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عطفنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم ، وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يفرّك حلم الله عنك ، وطول أملك ، وحسن ثناء الناس عليك ، فتزلك قدمك ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة (٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علمَ عنده صغيره إذا التفّت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

٣٩١ - خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :

[١] رزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئاً ، ورزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، أى لساناً وافدين لاعزاء . [٢] وفي زهر الآداب : «فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين» .

« الحمد لله الذى منَّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة .
وخلافكم عِصمة ، ومصائبكم أسوةً ، وجعلكم قدوة » . (زمر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٣٩٢ - خطبة عبد الله بن الأَهم

دخل عبد الله بن الأَهم على عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - تعالى مع العامة ، فلم يفجأ عمر إلا وهو ماثل بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن الله خلَق الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، والناس يومئذ في المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشر تلك المنازل ، أهل الوبر وأهل المدر ، تُحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة^(١) عيشتها ، مَيتهم في النار ، وحيثهم أعمى ، مع ما لا يُحصى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فإما أراد الله أن ينشر فيهم رحمته ، بعث إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، فلم يمنعهم ذلك أن جرَّحوه في جسمه ، ولقبوه في اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يرَّحل إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فإما أمر بالعزيمة أسفر لأمر الله لونه ، فأفلاج^(٣) الله حُجته ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا تقياً تقياً ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّته وأخذ مسبيله ، وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كان قابلاً منهم ، فانتضى السيوف من أعمادها ، وأوقد النيران من شعلها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يبرح يفصل أوصالهم ، ويسقى الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم فى الذى خرجوا منه ، وقرَّهم بالذى نفرُّوا منه ، وقد كان

[١] الرفاغة والرفاغية : سمة العيش والخصب . [٢] فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ، وكاهن ،

وشامر . [٣] نصر .

أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحبشية تُرَضِّع ولدًا له ، فرأى ذلك غُصَّةً عند موته في حلقه ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرِيءٌ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، وفارق الدنيا تقيًا تقيًا ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه ، ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فصَّرَّ الْأَمْصَارَ ، وخلط الشدة باللين ، فحسَّر عن ذراعيه ، وشمَّر عن ساقيه ، وأعدَّ للأمور أقرانها^(٢) ، وللحرب آلتها ، فلما أصابه قِنٌّ^(٣) المغيرة بن شعبة ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُدْبِتُونَ قَاتِلَهُ ؟ فاما قيل له قِنٌّ المغيرة ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفىء ، فيستحلَّ دمه بما استحلَّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعا وثمانين ألفًا ، فكسرها رباعه^(٥) ، وكره بها كفالة أهله وولده ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا تقيًا تقيًا على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْمٍ^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وألقتك ثديها ، فاما وليتها ألقيتها حيث ألقاها الله ، فالحمد لله الذى جلا بك حَوْبَتَهَا^(٧) ، وكشف بك كُرْبَتَهَا ، امضِ ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحقِّ شىء ، ولا يعزُّ على الباطل شىء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْمٍ » سكت الناس كلهم إلا هشامًا فإنه قال : « كذبت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

[١] الفتى من الإبل . [٢] أسبابها التى تقاد بها ، جمع قرن كسبب وهو الجبل يجمع به البعيران .

[٣] القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك .

[٤] صاح . [٥] الرباع جمع ربع كشمس وهو الدار . [٦] جمع ظالم : وهو المتهم والمائل ،

وأصله من ظلم البعير كنع : غمزى مشيه . [٧] الموبة : الهمة والحاجة .

٣٩٣ - مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال :
« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ،
وكم من قوم قد غرهم مثلُ الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ،
فخرجوا من الدنيا مرملين ^(١) ، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لما
كرهوا جُنَّةً ، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ،
فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت ، فقدمه بين يديك حتى تخرج
إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البَدَل ، حيث
يجوز البَدَل ، ولا تذهبن إلى سِلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك ،
يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، ورُدِّ الظالم .
(عيون الاحبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٣٩٤ - وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد
ابن أبي الجهم ^(٢) بن حذيفة العدوي ، وكان أعظمهم فدرًا ، وأكبرهم سنًا ،
وأفضلهم رأيًا وحلمًا ، فقام متوكئًا على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ،
وأثنت عليك فأحسنت ، ووالله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُثنيهم
فضلك ، أفتأذن لي في الكلام ؟ قال : تكلم ، قال : أفأوجز أم أطنب ؟ قال :
بل أوجز ، قال : « تولاك الله أمير المؤمنين بالحسنى ، وزينك بالتقوى ، وجمع لك

[١] أرمل : نقد زاده وافقر . [٢] في الأمل « اسمعيل بن أد ، الحمد » .

خير الآخرة والاولى ، إن لى حوائج أفأذكرها؟ قال : هاتها ، قال : كبرت سني ، وضعفت قواى ، واشتدت حاجتى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى ، وَيَنْفِي فَقْرِي » ، قال : يا بن أبى الجهم ، وما الذى يجبر كسرك ، وينفى فقرك؟ قال : ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ، فأطرق هشام طويلاً ، ثم قال : هيهات يا بن أبى الجهم ، بيتُ المال لا يحتمل ما سألت ! فقال : أما إن الأمر لوأحد ، ولكن الله آثرك لمجلسك ، فإن تُعطينا فحقتنا أدت ، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوت ، إن الله جعل العطاء محبةً ، والمنع مبغضةً ، ولأن أحببك أحب إلى من أن أبغضك ، قال : فألف دينار لماذا؟ قال : أفضى بها ديناً قد حم^(١) قضاؤه ، وقد حنى^(٢) حملة ، وأرهتني^(٣) أهله ، قال : نعم المسلك أسلكتها ، ديناً قضيت ، وأمانة أدت ، وألف دينار لماذا؟ قال : أزوج بها من أدرك من ولدى ، فأشد بهم عضدى ، ويكثر بهم عددى ، ولا بأس أغضضت طرفاً ، وحصنت فرجاً ، وأمرت^(٤) نسلاً ، وألف دينار لماذا؟ قال : اشتري بها أرضاً يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذخراً لمن بعدى ، قال : ولا بأس ، أردت ذخراً ، ورجوت أجراً ، ووصلت رحماً ، قد أمرنا لك بما سألت ، قال : فالحمودُ الله على ذلك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيراً ، وخرج ، فقال هشام : تالله ما رأيت رجلاً أطف فى سؤال ، ولا أرفق فى مقال ، من هذا ، هكذا فليكن القرشى ، وإنا لنعرف الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقثيراً ، وما نحن إلا خزان الله فى بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أذن أعطينا ، وإذا

[١] حم الأمر : قضى وقدر . [٢] أتقلنى .

[٣] الإرهاق : أن تحمل الإنسان على مالا يطيقه . [٤] كثرت .

منع أَيْبُنَا ، ولو كَانَ كل قائل يَصْدُق ، وكل سائل يَسْتَحَق ، مَا جَبَّهْنَا ^(١) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ، فَنَسَأَلُ الَّذِي يِيده مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجْرِيه على أَيْدِينَا ، فَإِنَّه يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ^(٢) ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَقَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَبْلَغْتَ ، وَمَا بَلَغَ فِي كَلَامِهِ مَا قَصَصْتَ ، فَقَالَ : إِنَّه مُبْتَدَى ، وَلَيْسَ الْمُبْتَدَى كَالْمُتَدَى .

(صبح الأعشى ١ : ٢٦٤ ، والأمالى ١ : ١٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٣٩٥ — مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الدُّهْنَ ، وذلك في عام بَاكَرٍ وَسَمِيهِ ، وَتَتَابَعُ وَآيُهُ ^(٣) ، وَأَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ، فَهِيَ كَالزَّرَابِيِّ ^(٤) الْمَبْثُوثَةِ ، وَالْقِبَاطِيِّ ^(٥) الْمَشُورَةِ ، وَرَأَاهَا كَالْكَافُورِ ، لَوْ وُضِعَتْ بِهِ بَعْضَةُ ^(٦) لَمْ تُتْرَبْ ^(٧) ، وَقَدْ ضُرِبَتْ لَهُ سُرَادِقَاتُ حَبْرٍ ^(٨) ، بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ يَوْسُفُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْيَمِينِ ، تَتْلَأُ كَالْعِقْيَانِ ^(٩) ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّْ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ أَزَلْ وَاقِفًا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّْ كَالْمُسْتَنْطِقِ لِي ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ ، وَوَدَّعَ عَنْكَ نِقْمَهُ ، وَجَعَلَ مَا قَلَّدَكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ رُشْدًا ، وَعَاقِبَةً مَا يَثُولُ إِلَيْهِ حَمْدًا ، وَأَخْلَصَهُ لَكَ بِالنَّيِّ ، وَكَثَّرَهُ لَكَ بِالنِّمَاءِ ، وَلَا كَدَّرَ عَلَيْكَ مِنْهُ مَا صَفَا ، وَلَا خَالَطَ سُرُورَهُ بِالرَّدَى ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتَ لِلْمُؤْمِنِينَ ثِقَةً وَمُسْتَرَاحًا ،

[١] حبه كمنه : اغيه بما يكره . [٢] يقبض ويضيق . [٣] الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض ، والولى : المطر بعد الوسمى . [٤] جمع زربى بالكسر ويضم : التمارق والبسط ، أو كل ما بسط واتسكى عليه (والتمارق : الوسائد الصغيرة) . [٥] قاطى بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطى بفتح الأول مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالغم على ثير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر . [٦] البضعة وقد تكسر : انقطعة من اللحم . [٧] أنزبه وتربه جعل عليه التراب . [٨] حبر جمع حبرة كغنية : ضرب من برود اليمن . [٩] العقيان : الذهب .

إليك يتمصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زين الله به ذكري ، وأطاب به نشري^(١) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ، ولا شيء أحضرت من حديث سلف لملك من ملوك العجم ، إن أذن لي فيه حديثه به ، قال : هات ، قلت : « كان رجل من ملوك الأعاجم ، جمع له فتاء^(٢) السن ، وصحة الطباع ، وسعة الملك ، وكثرة المال ، وذلك بالحوزرق ، فأشرف يوماً ، فنظر ما حوله ، فقال لمن حضره : هل عامتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت ؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة : إن أذنت لي تكلمت . فقال : قل ، فقال : رأيت ما جمع لك ، أشيء هو لك ، لم يزل ولا يزول ، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه ، وصار إليك ، وكذلك يزول عنك ؟ قال : لا . بل شيء كان لمن قبلي ، فزال عنه ، وصار إليّ ، وكذلك يزول عني ، قال : فسمرت بشيء ، تذهب أدته ، وتبقى تبعته ، تكون فيه قليلاً ، وترتهن به طويلاً ؟ فبكي وقال : أين المهرب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تُقيم في ملكك ، فتعمل فيه بطاعة ربك ، وإما أن تُلقني عليك أمساحاً^(٣) ، ثم تلحق بجبل ، تعبد فيه ربك ، حتى يأتي عليك أجلك ، قال : فإلى إذا أنا فعلت ذلك ؟ قال : حياة لا تموت ، وشباب لا يهرم ، وصحة لا تسقم ، وملك جديد لا يبلى ، قال : فإذا كان السحر فافرع على بابي ، فإنني مختار أحد الرأيين ، فإن اخترت ما أنا فيه ، كنت وزيراً لا يعصى ، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد ، كنت رقيقاً لا يخالف ، فقرع عليه عند السحربابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، وخلع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهياً

[١] النشر : الرائحة الطيبة . [٢] الفتاء كساء : الشاب .

[٣] الأمساح جمع مسح كحل وهو الكساء من شعر كتوب الرهبان .

للسياحة ، فلزما والله الجبل ، حتى أتاهما أجلهما » ، وأنشده قول عدي بن زيد :

وتفكر رب الخورنق إذ أصبح يوماً وللهدى تفكير

سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(١)

فارعوى قلبه ، فقال : وما غبطة حتى إلى الممات يصير؟^(٢)

فبكى هشام وقام ودخل ، فقال لى حاجبه : لقد كسبت نفسك شراً ، دعاك

أمير المؤمنين لتحدثه وتلمهيه ، وقد عرفت علته ، فما زدت على أن نعت إليه

نفسه ، فأقت أياماً أتوقع الشر ، ثم أتانى حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ،

وأذن لك فى الانصراف . (بيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ، الأغانى ٢ : ٣٣)

٣٩٦ - خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبه بن عقيل - وعنده جرير والفرزدق والأخطل ،

وهو يومئذ أمير - ألا تخبرنى عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا

أستارهم ، وأغرّوا بين عشائهم ، فى غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر؟ فقال

شيبه : « أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينجت من صخر ، وأما

الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً نحصله ، فقال :

ما عندى غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهتم ، فقال :

« أما أعظمهم نخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ،

وأقلهم غزلاً ، وأحلام عِللاً ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زار^(٣) ، والسامى

إذا خطر ، الذى إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل

[١] معرضاً : من أعرض الشيء إذا ظهر وبرز . [٢] الغبطة : المرة .

[٣] وفى رواية زهر الآداب : « إذا زعر » .

العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه سترأ ، الأغر الأبلق ، الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يُلحق ، فجرير ، وكلهم ذكى الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد .

فقال له مسامة بن عبد الملك : ماسمعنا بمثلك يا خالد فى الأولين ، ولا رأينا فى الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمته ، وأجزل لديكم قيسمه ، وأنس بكم الغربية ، وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ما علمت أيها الأمير كريم الغراس ، عالم بالناس ، جواد فى المخل^(١) ، بسام فى البذل ، حلیم عند الطيش ، فى ذروة قريش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس . »

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتخلصك يابن صفوان فى مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً ، وسأمت منهم . »

(الأغانى ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٣٩٧ - خالد بن صفوان وبلال بن أبى بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبى بردة^(٢) جليداً حين أبتلى ، أحضره يوسف بن عمر فى قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدو الله بلالاً ضربنى وحبسنى ، ولم أفارق جماعة ، ولا خلعت يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال

[١] المخط والجذب . [٢] هو بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعري .

فقال : « الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحِجابِ ، مستخفياً بالشريف ، مُظهِراً للعصبيَّة (١) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلتَ على بثلاث ، هن معك على ، الأميرُ مُقبِلُ عليك ، وهو عنى مُعرِضٌ ؛ وأنت مُطلقٌ ، وأنا مأسورٌ ؛ وأنت فى طينتك وأنا غريبٌ » ، فأخمه .

وكان سبب ضرب بلالٍ خالداً فى ولايته ، أن بلالاً مرَّ بخالد فى مَوْكِبٍ عظيمٍ ، فقال خالد : سحابةٌ صيفٌ عن قليلٍ تَقَشَّعُ (٢) ، فسمعه بلالٌ ، فقال : والله لا تَقَشَّعُ أو يصيبك منها شؤبوب (٣) برِدٍ ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

٣٩٨ — خطبة الكميث بن زيد بن بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب العقد قال :

كَانَ الْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ يَمْدَحُ بَنِي هَاشِمٍ وَيَعْرِضُ بَيْنِي أُمِيَّةَ ، فَطَلَبَهُ هِشَامٌ ، فَهَرَبَ مِنْهُ عَشْرِينَ سَنَةً (٤) ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْقَرَارُ ، مِنْ خَوْفِ هِشَامٍ ، وَكَانَ مَسْأَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ لَهُ عَلَى هِشَامٍ حَاجَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْضِيهَا لَهُ ، وَلَا يَرُدُّهُ فِيهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ مَسْأَمَةُ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ صُيُودِهِ ، أَتَى النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ ، وَأَتَاهُ الْكُمَيْتُ ابْنُ زَيْدٍ فِيمَنْ أَتَى ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَمَا بَعْدُ :
قِفْ بِالْدِيَارِ وَوُقُوفِ زَائِرٍ وَتَأَنَّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ (٥)

[١] وكان أصلاً من العرب اليمانيين . [٢] تنكسف وتنفرك . [٣] التؤبوب : الدفعة من المطر .

[٤] يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٥ — إلى سنة ١٢٥ هـ .

[٥] صاغر : ذليل .

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مَسْلَمَ بْنَ ابْنِ الْوَلِيدِ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٌ^(١)
عَلِقَتْ جِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ ذِمَّةَ الْجَارِ الْمَجَاوِرِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمَّيَّةَ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِهَ الْمَصِيبِ كَمُهْتَدٍ، بِالْأَمْسِ حَاطِرٌ

فقال مسامة : سبحان الله ! من هذا الهندكي^(٢) الجَلْحَابُ^(٣) ، الذي أقبل من
أخريات الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أمّا بعدُ ، ثم الشعر ؟ قيل له : هذا الكميت
ابن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسأله مسامة عن خبره ، وما كان فيه
طول غيبته ، فذكر له سُخْطُ أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسامة أمانه ،
وتوجه به حتى أدخله على هشام - وهشام لا يعرفه - فقال الكميت : السلام
عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، الحمد لله ، قال هشام : نعم ،
الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكميت : مبتدئ الحمد ومبتدعه ، الذي خصّ بالحمد نفسه ،
وأمر به ملائكته ، جعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ، وكلام أهل جنّته ،
أحمده حمد من علم يقيناً ، وأبصر مُسْتَبِينًا ، وأشهد له بما شهد به لنفسه
« قَائِمًا بِالْقِسْطِ^(٤) » وَحَدَّه لِاشْرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْعَرَبِيُّ ،
ورسوله الأُمِّيُّ ، أرسله والناس في هفوات خيرة ، وَمُدْلِهِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عند
استمرار أبطه^(٥) الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمته ، وجاهد في
سبيله ، وعبّد ربه ، حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

[١] نشره وأشره : أحياء . [٢] رحل هندكي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التثنية) .
[٣] الجَلْحَابُ : الشيخ الكبير ، والضمخ الأجلح ، (والاجلح : الذي انحصر الشعر عن جاني رأسه) .
[٤] العدل . [٥] الابهة : العظمة والهجبة والكبر .

ثم إني يا أمير المؤمنين ، تَهْتُ في حَيْرَةٍ ، وَحِرْتُ في سَكْرَةٍ ، اذْلَامٌ ^(١) بي خطرُها ، وأهاب ^(٢) بي داعيها ، وأجاني غاويها ، فاقطو وطيت ^(٣) إلى الضلالة ، وتسكمت ^(٤) في الظلمة والجهالة ، جائر أعن الحق ، قائلاً بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذ ^(٥) ، وَمَنْطِقُ التائب ، ومُبْصِرِ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أقلتُم عثرته ، ومجتريم ^(٦) عفوتُم عن جرؤهم .
فقال له هشام - وأيقن أنه الكميت - وَيَحْك ! مَنْ سَنَ لك العَوَاية ، وأهاب بك في العَمَاية ^(٧) ؟ قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة : فَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ، وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارَت سحاباً متفرقاً ، فَلَفَقَتْ ^(٨) بعضه إلى بعض ، حتى التحم ، فاستحك هَدْرٌ ^(٩) رَعْدُه ، وتلألؤُ برقه ، فنزل الأرضَ فَرَوَيْتُ ، واخضَلَّت ^(١٠) واخضرت ، وأسقيت ، فَرَوَى ظمآنُها ، وامتلأ عطشَانُها ، فكذلك نَعْدُك أنت يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الدَّاجِيَةَ ^(١١) بعد العُمُوس ^(١٢) فيها ، وَحَقَّنَ بك دمَاء قومٍ أشعَرَ خَوْفَكَ قلوبهم ^(١٣) ، فهم يكون لما يعلمون من حَزْمِكَ وبصيرتك ، وقد علموا أَنَّك الحرب وابن الحرب إذا احمرَّتِ الحَدَقُ ، وَعَضَّتِ المَعَاوِيرَ ^(١٤) بالهَامِ ، عَزَّ بِأَمْسِكَ ، واستربط جَأَشُكَ ^(١٥) ،

- [١] ادْلَامٌ الليل : ادلهم أي اسودَّ وأظلم ، وفي الأصل « اذْلَامٌ » وهو تصحيف .
[٢] أي دعاني ، وفي الأصل « وأهب » وهو تحريم ، (ويقال أيضاً هببت به أي دعوته لينزو) .
[٣] اقطوطي : قارب في مشيه إسراعاً . [٤] تسكع : مشى مشياً متعسفاً لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحمير . [٥] اللاجئ : المستجير . [٦] حرم بلان وأحرم واحترم : أذنب .
[٧] العماية : الفواية . [٨] من لفق الثوب كضرب : صم شقة إلى أخرى نخطهما .
[٩] من هدر البعير كضرب هدرأ وهديراً : صوت ، وفي الأصل « هدار » وهو تحريم .
[١٠] ابتلت . [١١] المظلمة . [١٢] في الأصل : « العموس » بالعين ، وهو تحريف ، والصواب : « العموس » من حمس ككرم وفرح عماسة وعموساً : اشتدَّ واسودَّ وأظلم .
[١٣] أشعر الحوف والمهم قلبي : لزق به ، وكل ما أزرقتَه بشيء : أشعرتَه به . [١٤] المفرك كبير ، وبهاء ، وككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المسلح .
[١٥] أي صار رابطاً من ربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه .

مِسْعَارٌ^(١) هَتَانُ، وَكَافٌ بَصِيرٌ بِالْأَعْدَاءِ، مُغْرِي الخليل بالنكراء^(٢)، مستغني برأيه عن رأى ذوى الألباب، برأى أريب، وحلم مصيب، فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء، وتتم عليه النعماء، ودفع به الأعداء، فرضى عنه هشام، وأمر له بجائزة.

وروى صاحب الأغاني خطبة الكميت^(٣) فقال:

[١] فلان مسر حرب ومسعار: أى موقد نار الحرب، ومطر هتان: هطال، ووكاف كذلك، وهما كناية عن الجود. [٢] النكراء: الأمر الشديد.

[٣] وكان سبب غضب هشام على الكميت: أن حكيم بن عباس السكبي كان ولما بهجاء مضر والكميت مضرى — فكانت شعراء مصر تهجوه ويحيمهم، وكان الكميت يقول هو والله أشد منكم فالوا فأجب الرجل، قال إن خالد بن عبد الله القسرى — والى العراق وهو عيسى — محسن إلىّ، فلا أقدر أن أرد عليه، فالوا فاسمع بأذنك مايقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء، وأنشدوه ذلك فحوى الكميت لمشيرته، فقال قصيدته المدهمة، وبلغ ذلك خالداً، فقال والله لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين حارية بأعلى ثمن، وعيرهن نباية فى حسن الوجوه والكمال والأدب، فرواهن الهاشميات — وهى قصائد فالها الكميت فى مدح بى هاشم، وكان معروفاً بالثشيع لهم مشهوراً بذلك، وتهد هذه القصائد من جيد شعره ومختاره وهى مطبوعة مشهورة — ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعاً، فلما أس بهن استنظهن، فرأى فصاحة وأدبا، فاستقرأهن انقرآن فقرآن، واستنشدهن الشعر، فأنددنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن! من فائل هذا الشعر؟ قال الكميت بن زبد الأسدى، قال وى أى بلد هو؟ قال: فى العراق ثم والكوفة، مكنت إلى خالد عامه بالعراق: ابعت إلىّ رأس الكميت، فبعث إليه خالد فى الليل، فأخذنه وأودنه السجن، وعزم لينفدن أمر الحليفة به، وأعمل الكميت الحيلة فى الفرار، فبعث إلى زوجته حبي (بضم) ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه لبس ثيابها، وتنفق ثيابها، وأقامها مكانه، وخرج متنكراً، وظل مسوارياً مدة، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه، خرج ليلاً فى جماعة من بى أسد، وما زال سير حتى بلغ الشام، واستجار بمسلة بن هشام، فأجاره واحتال له فى عفو الحليفة عنه، فقال له إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد حرع عليه جزاً شديداً، فإذا كان الليل فاصرب روافك على قبره، وأنا أبعث إليك بديه يكونون معك فى الرواق، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أئبنا، ونحن أحق من أجاره، فأصبح هشام على عادته متظلماً من قصره إلى القبر، فقال: من هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر، فقال: يجار من كان إلا الكميت فإنه لاجوار له فقبل: فإنه الكميت، قال: يحضر أعنف إحضار، فلما دعى به ربط السببان ثيابهم بثيابه، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر، وهم يقولون: يأمر المؤمنين استجار بقبر أئبنا، وقد مات ومات حظه من الدنيا، فأجعله هبة له ولنا، ولا تفضحننا فيما استجار به، وبكى هشام حتى انتحب، ثم أقبل على الكميت، فقال له: يا كميته: أت القائل كذا وكذا مما أوردته فى هاشمياته؟ فقال: لا والله، ولا أنا من أن الحجاز وحشية، ثم خطب بين يديه يستعطفه، فعفا عنه وأجازه، وتوفى الكميت سنة ١٢٦ هـ.

« حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « أما بعد : فإنى كنت أتدهدى ^(١) فى غمرة ، وأعوم فى بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزنى وهلها ^(٢) ، فتحيرت فى الضلالة ، وتسكمت فى الجهالة ، مهرعا عن الحق ، جاراً عن القصد ، أقول الباطل ضللاً ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة ^(٣) بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجريمة ^(٤) ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعماً لك ، عند عثرته لعائز ^(٥)
وغفرتهم لذوى الذنوب من الأكبـر والأصاغر
أبني أمية : إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل مائة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معاديت للخلافة كآبراً من بعد كآبر
بالسمة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر ^(٦)
وإلى القيامة لا ترا لـ إشافيع منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ^(٧) ، ومناط المنتجعين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين ، فقال له : ويلك يا كميته ! من زين لك الغواية ، ودلاك فى العماية ؟ قال ! الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه

[١] دهدى الحبر فدهدى : دحرجه ، كدهدهه ، والغرة : الانهماك فى الباطل ، والشدة .

[٢] الوهل : الضعف والفرع . [٣] الحوبة : الإثم . [٤] الجريمة ككامة : الجريمة .

[٥] يقال للعائز : لعمالك ، وهو دعاء له بأن ينتمش . [٦] هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء .

[٧] بنى أمية . [٧] الصباحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .

العهد ، فلم يجد له عزماً « فرضى عنه ، وأمر له بجائزة .

(المقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأطاني ١٥ : ١١٣)

٣٩٩ - مخاصمة عدى بن أرطاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عدى بن أرطاة على شريح^(١) القاضي يخاصم امرأة له ، فقال :
السلام عليكم ، قال : وعليكم ، قال : استمع منى ، قال : قل أسمع ، قال : إني
رجل من أهل الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : وإني قدِمْتُ إلى بلدكم
هذا ، قال : خير مقدّم ، قال : وإني تزوجت امرأة ، قال : بالرِّفاء^(٢) والبنين ،
قال : وإنها ولدت غلاماً ، قال : ليِّهِنَّكَ الفارسُ ، قال : وقد كنتُ شرطتُ لها
صداقها ، قال : الشرط أمْلِكُ ، قال : وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال :
الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال : قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟
قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال : بشهادة ابن أختِ خالتك .

(البيان والنبين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٠ - كلمة لعمر بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحَّ بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم

عن سُفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم
وبنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبونا عمرو ، فقال :
« يا بنيّ : إن لقريشَ دَرَجَاتٍ لُ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تخشع لها

[١] هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاء
عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بأقضاء ، ذا فطنة
وذكاء ، ومعرفة ، وعتل ، وإصابة ، توفى سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .
[٢] أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفأ الثرب كنع : لأم خرقة ، وضم بهضه إلى بعض .

رَقَابُ الْأَمْوَالِ ، وَغَايَاتِ تَقْصُرُ عَنْهَا الْجِيَادُ الْمُسَوِّمَةُ ^(١) ، وَالسُّنَا تَكِلُ عَنْهَا الشَّفَارَ الْمَشْحُودَةَ ، وَلَوْ اخْتَلَفَتِ الدُّنْيَا مَا تَرِينَتْ إِلَّا بِهِمْ ، وَلَوْ كَانَتْ لَهُمْ ضَاقَتْ بِسَمَةِ اخْتِلَافِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ لِيُخَيَّلُ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ نَاسًا تَخَلَّقُوا بِاخْتِلَاقِ الْعَوَامِّ ، فَصَارَ لَهُمْ رِفْقٌ فِي اللُّؤْمِ ، وَخَرَقٌ ^(٢) فِي الْحَرِصِ ، وَلَوْ أَمَكَّنَهُمْ لِقَا سُمُو الطَّيْرِ فِي أَرْزَاقِهَا ، إِنْ خَافُوا مَكْرُوهَهَا تَعَجَّلُوا لَهُ الْفَقْرَ ، وَإِنْ مُجَّلتَ لَهُمْ نِعْمَةٌ أَخْرَوْا عَلَيْهَا الشُّكْرَ ، أَوْلَيْتُكَ أَنْضَاءَ ^(٣) الْفِكْرِ ، وَعَجْزَةَ حَمَلَةِ الشُّكْرِ .

(الْأَمْوَالُ ٢ : ٢٣٨ ، وَالْمَقْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ٤٠)

٤٠١ — رَجُلٌ يَمْدَحُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيَّ

وَقَالَ رَجُلٌ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَبْدُلُ مَا جَلَّ ، وَتَجْبُرُ مَا انْقَلَبَ ، وَتُكْثِرُ مَا قَلَّ ، فَفَضْلُكَ بَدِيعٌ ، وَرَأْيُكَ جَمِيعٌ ، تَحْفَظُ مَا شَدَّ ، وَتُوَلِّفُ مَا نَدَّ » . (زَهْرُ الْأَدَابِ ٣ : ١٦٧)

خَطْبُ الْخَوَارِجِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا

٤٠٢ — خُطْبَةُ حَيَّانَ بْنِ ظَبْيَانَ السُّلَمِيِّ

رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ قَالَ :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ — وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَمَتْ ^(٤) يَوْمَ النَّهْرَوَانَ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعِمِائَةِ الَّذِينَ كَانُوا عَفَا عَنْهُمْ ، مِنْ

[١] الْحَيْلُ الْمُسَوِّمَةُ : الْمُرْسَلَةُ وَعَلَيْهَا رِكَابُنَا ، أَوْ الْمَعْلَمَةُ ، أَيْ الَّتِي جَعَلَ عَلَيْهَا سَوْمَةً (بِالضَّمِّ) أَيْ سِمَةً وَعِلَامَةً ، أَوْ الْمُرْهِيَةَ . [٢] كَقَفْلٍ وَسَبَبٌ : ضِدُّ الرِّفْقِ ، وَأَنْ لَا يَحْسُنَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ وَالنَّصْرَ فِي الْأُمُورِ . [٣] جَمْعُ أَنْضُو كَمَا لَوْ هُوَ الْمَهْرُولُ . [٤] ارْتَمَتْ : حَمَلَ مِنَ الْمَرْكَةِ رَثِيئًا ، أَيْ جَرِيحًا وَبِهِ رَمَقٌ .

المرتثين يوم النهر - فكان في أهله وعشيرته : فلبث شهراً أو نحوه ، ثم إنه خرج إلى الرمي ، في رجال كانوا يرون ذلك الرأي ، فلم يزالوا مقيمين بالرعى حتى بلغهم قتل عليّ كرم الله وجهه ، فدعا أصحابه أولئك ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، فأتوه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الإخوان من المسلمين : إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مراد قعد لقتل عليّ بن أبي طالب عند أغباش^(١) الصبح ، مُقابل السدة^(٢) التي في المسجد مسجد الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه ، حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة : صلاة الصبح ، فشدّ عليه ، فضرب رأسه بالسيف ، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات . »

فقام سالم بن ربيعة العبسي : لا يقطع الله يميناً علّت قذالاه^(٣) بالسيف ، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله عليه السلام ، ورضى الله عنه ولا رضى عنهم ولا رحمهم ، ثم إن حيان بن ظبيان قال لأصحابه :

« إنه والله ما يبقى على الدهر باقٍ ، وما يلبث الليالي والأيام ، والسّنون والشهورُ على ابن آدم ، حتى تُدبِقهُ الموت ، فيفارق الإخوان الصالحين ، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة ، ولم تزل ضارّةً لمن كانت له همّاً وشجناً^(٤) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُم اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فلنأتِ إخواننا ، فلندعهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عذرَ لنا في القعود ، وولاتنا ظالمةٌ ، وسنة الهدى متروكة ، ونأرنا^(٥) الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون ، فإن يُظفرنا الله بهم نَعْمِدُ بَعْدُ إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم ، وَيَسْنِي

[١] أغباش جمع غبش بالتحريك : وهو ظلمة آخر الليل . [٢] السدة : باب الدار ، وهي هنا ما يبقى من الطاق السودود . [٣] القنال : جماع مؤخر الرأس . [٤] الشجن : الهم والحزن . [٥] الثأر : قاتل حميك .

اللهُ بذلكِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ نُقْتَلُ فَإِنَّ فِي مَفَارِقَةِ الظَّالِمِينَ رَاحَةً لَنَا ،
وَلَنَا بِأَسْلَافِنَا أُسُوءَةً .

فَقَالُوا لَهُ : كُلُّنَا قَائِلٌ بِمَا ذَكَرْتَ ، وَحَامِدٌ رَأْيِكَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَرِذْ بِنَا المِصْرَ ،
فَإِنَّا مَعَكَ رَاضُونَ بِهَذَاكَ وَأَمْرِكَ ، فَخَرَجَ وَخَرَجُوا مَعَهُ مَقْبِلِينَ إِلَى الكُوفَةِ ، حَتَّى
نَزَلَهَا ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى قَدِمَ مَعَاوِيَةَ ، وَبَعَثَ المَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَاليَا عَلَى الكُوفَةِ .
(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

اتِّمَارُ الخَوَارِجِ

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فرزوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المُسْتَوْرِدُ بْنُ عُلْفَةَ التَّيْمِيُّ ،
وَحَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّامِيُّ ، وَمُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ بْنُ حُصَيْنِ الطَّائِي ، فَاجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ حَيَّانِ
ابْنِ ظَبْيَانَ ، فَتَشَاوَرُوا فِيمَنْ يُؤْتُونَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُمُ المَسْتَوْرِدُ :

٤٠٣ - مقال المستورد بن علفة

« يَا أَيُّهَا المَسَامُونَ وَالمُؤْمِنُونَ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا نَحْبِثُونَ ، وَعَزَلْنَا عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ ،
وَأَلَوْا عَلَيْكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ ، فَوَالَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ (١) وَمَا تُحْسِبُ الصُّدُورُ ،
مَا أبَالَى مَنْ كَانَ الوَالِي عَلَى مَنْكُمْ ، وَمَا شَرَفَ الدُّنْيَا نَزِيدٌ ، وَمَا إِلَى البَقَاءِ فِيهَا مِنْ
سَبِيلٍ ، وَمَا نَزِيدٌ إِلَّا الخُلُودَ فِي دَارِ الخُلُودِ » .

٤٠٤ - مقال حيان بن ظبيان

فَقَالَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ : « أَمَا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَأَنَا بِكَ وَبِكُلِّ امْرَأٍ
مِنْ إِخْوَانِي رَاضٍ ، فَانظُرُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنْكُمْ فَسَمُّوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَبَايِعُهُ » .

[١] بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤٠٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قلتما أنما هذا ، وأنما سيدا المسلمين ، وذوآ أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فمن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يلبى على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقهم في الدين ، وأشدهم اضطلاعا^(١) بما حُمِّل ، وأنما بحمد الله ممن يُرضى لهذا الأمر ، فليتولاه أحدكما . »

قالا : فتولاه أنت : فقد رضيناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنما أسن منى ، فليتولاه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضينا بكم أيها الثلاثة ، فولوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ويستعدوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٠)

٤٠٦ - خطبة المغيرة بن شعبة أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم

وَنَمَى إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ الْخَوَارِجَ خَارِجَةٌ عَلَيْهِ ، فَقَامَ فِي النَّاسِ ، فحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

«أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحبب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، وإنى والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سؤء لسفهائكم ، فأما العلماء الأتقياء فلا ، وإيم الله لقد خشيت أن لا أجد بُدًا من أن يُعصَب الحليم

التقى ، بذنب السفية الجاهل ، فكفؤوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهرُوا في مصر بالشقاق والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حَيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدئهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم : « إنه قد كان من الأمر ما قد عامتكم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكن في كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأنحوأنّ عما كتتم تعرفون ، إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلم لأثمّ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر . »

نخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عبد القيس ، فقال :

٤٠٧ - خطبة صعصعة بن صوحان

يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المساميين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورؤسائه ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فثبتت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاثلتم المرتدّين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى

كل حال، حتى اختلفت الأمة بينها، فقالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة،
وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١)، وقالت طائفة : نريد عبد الله بن وهب
الراسبي : راسب الأزد، وقتلتم : أنتم لا نريد إلا أهل البيت، الذين ابتدأنا الله
من قبلهم بالكرامة، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً، فلم ترالوا على الحق لازمين له،
آخذين به، حتى أهلك الله بكم، وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم، الناكثين
يوم الجمل، والمارقين يوم النهر، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان
كان حينئذ سلطانهم)، ولا قوم أعدى لله ولكم، ولأهل بيت نبيكم، وجماعة
المسلمين، من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا^(٢)، واستحلوا دماءنا،
وشهدوا علينا بالكفر، فإياكم أن تؤثؤوهم في دؤركم، أو تكتموا عليهم، فإنه ليس
ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد والله
ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي، وأنا باحث عن ذلك وسائل، فإن كان
حكي لي ذلك حقاً، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم، فإن دماءهم حلال، ثم
قال : يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا
تجعلوا لهم عليكم سبيلاً، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به
الغيرة بن شعبة في الناس، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم، وقالوا له : اخرج
بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشائرننا، نخرج بهم من الكوفة، ووجه الغيرة
لقتالهم معقل بن قيس الرياحي، فلما علم المستورد بمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

[١] أي معاوية، وكان والياً على الشام، وهي بالنسبة للعراق في المغرب .

[٢] أي علياً عليه السلام .

٤٠٨ - خطبة المستورد

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخرف معقل بن قيس قد وُجِّه إليكم ، وهو من السبئية ^(١) المفترين الكاذبين ، وهو لله ولكم عدو ، فأشيروا على برأيكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل ونتخى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتمس الدنيا ، ولا ذكرها ، ولا نخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ أنْهَا لي بحذاقيرها ، وأضعاف ما يُتَنَافَس فيه منها ، بقِبَال ^(٢) تَعْلَى ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يَهْدِيَنِي اللهُ إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ، وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لا أُقيم لهم حتى يَقْدَمُوا عَلَيَّ ، وهم حامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أُمَعِن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فتقطعوا وتبددوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

فخرجوا فمضوا على شاطئ دجلة ، فعبروه ومضوا في أرض جُوخَى ، حتى

[١] السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء أسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في عليّ ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وأتى قوم منهم إلى عليّ ، فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار ، فأججت في حفرتين ، وأحرقتهما بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، ثم إن علياً خاف من إحراق الباقيين منهم شماعة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فبنى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما باعه مقتل عليّ قال : لو أتيتمونا بدماعه سبعين مرة ما صدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة عليّ ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انتسبت أصناف الغلاة . [٢] قبال العمل : زمام بين الأصبع الوسطى والتي تليها .

بلغوا المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمدائن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال : (تاريخ الطبرى ٦ : ١١٠)

٤٠٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تتعجلوا في آثامهم ، فتقطعوا وتتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١) ، وإنه ليس شئ يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » ، نخرج في آثامهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين .

ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد معقلاً للمبارزة فتبارزا ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أم الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وشده أصحابه على الخوارج ، فما لبثوا أن قتلوه . (تاريخ الطبرى ٦ : ١١١)

٤١٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسرى إلى صديق فأفشاه لم أئله ، لأنى كنت أولى بحفظه ، ويقول : لا تُفش إلى أحدٍ سرّاً ، وإن كان مخلصاً ، إلا على جبهة المشاورة ، ويقول : كن أحرص على حفظ سرِّ صاحبك ، منك على حتن دمك ، ويقول : أول ما يدلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب إلا معيبٌ ، ويقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال فى حقّه استدعاءٌ للمزيد من الجواد^(٢) ، وكان يُكثّر أن يقول : لو ملكتُ الأرض بحذافيرها ، ثم دُعيت إلى أن أمتفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٥٣)

[١] تعبتهم . [٢] أى من المولى الكريم جل وعلا .

اثمار الخوارج ثمانية

٤١١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حيان بن ظبيان السلمي أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال لهم :
« أما بعد ، فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد ، فمِنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ،
وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن مِنَّا مَنْ ينتظر ،
فهو من سَلَفْنَا القاصين نحبهم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ،
فليَسْلُكْ سبيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ،
وَاللهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

٤١٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال معاذ بن جوين الطائي : « يَأْهَلُ الإِسْلَامِ : إنا والله لو علمنا أننا إذا
تركنا جهادَ الظلمة ، وإنكارَ الجور ، كَانْ لَنَا بِهِ عِنْدَ اللهِ عُذْرٌ ، لكان تركه
أيسرَ علينا ، وأخفَ من ركوبه ، ولكننا قد علمنا واستيقنا أنه لا عُذْرَ لَنَا ، وقد
جَعَلَ لَنَا القلوبَ والأسماعَ ، حتى نُنْكِرَ الظلمَ ، ونغيِّرَ الجورَ ، ونجاهدَ الظالمينَ » .
ثم قال : ابسط يدك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضرَبوا على يد حيان فبايعوه ،
وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي ^(٢) .



ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل معاذ بن جوين ، فقال لهم

[١] النعب : الأجل والنذر . [٢] وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

حيان : عبادَ الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمرونني أن أخرج ؟ فقال مُعَاذ : إني أرى أن تسير بنا إلى حُلوان^(١) حتى نزلها ، فإنها كُورة بين السهل والخييل ، وبين المِصر والشَّعر - يعني بالشَّعر الرِّيّ - فمن كان يرى رأينا من أهل المِصر والشَّعر والجبال والسَّواد^(٢) لحِق بنا .

٤١٣ - رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُعَاجِلُكَ قبل اجتماع الناس إليك ، لعمري لا يتركونكم حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسَّبَخة ، أو زُرارة^(٣) والحيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق برنا ، فإني والله لقد علمت أنكم لا تقدرُونَ - وأتم دون المائة رجل - أن تهزِموا عدوكم ، ولا أن يشتد نكايتكم فيهم ، ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم ، كان لكم به العذرُ ، وخرجتم من الأثم » قالوا : رأينا رأيك .

٤١٤ - مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأى جماعتكم ، فانظروا في رأيي لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتي بالحرب ، وتجربتي للأموار ، فقالوا له : أجل ، أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل في كثير ، والله ما تريدون على أن تُحزِرَ زوم^(٤) أنفسكم ، وتُقرِّوا أعينهم بقتلكم ، وليس هكذا تكون المكايدة ، إذ آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم ما يرضيهم » قالوا : فما الرأي ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي

[١] بلد بفارس . [٢] أي سواد العراق . [٣] حملة بالكوفة . [٤] أي تملكونهم .

أشار بنزولها مُعَاذِ بْنِ جُوَيْنٍ ، يَعْنِي حُلُوَانَ ، أَوْ تَسِيرُونَ بِنَا إِلَى عَيْنِ التَّمْرِ ، فَتَقِيمُ بِهَا ، فَإِذَا سَمِعَ بِنَا إِخْوَانِنَا أَتَوْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَوْبٌ ^(١) »

٤١٥ — رد حيان

فَقَالَ لَهُ حِيَانُ : « إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ سِرْتِ بِنَا أَنْتَ وَجَمِيعِ أَصْحَابِكَ نَحْوَ أَحَدٍ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، مَا أَطْمَأْنَنْتُمْ بِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِكُمْ خَيْوَلُ أَهْلِ الْمِصْرِ ، فَأَنْتِ تَشْفُونَ أَنْفُسَكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا عِدَّتُكُمْ بِالْكَثِيرَةِ ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَطْمَعُوا مَعَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا عَلَى الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ ، فَاخْرَجُوا بِجَانِبٍ مِنْ مِصْرِكُمْ هَذَا ، فَقَاتِلُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ مَنْ خَالَفَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَلَا تَرَبَّصُوا وَلَا تَنْتَظِرُوا ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تَبَادِرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَتَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ » . قَالُوا : أَمَا إِذَا كَانَ لَا بَدَأَ لَنَا ، فَإِنَّا لَنْ نَخَالَفَكَ ، فَاخْرَجْ حَيْثُ أَحْبَبْتَ .

٤١٦ — خطبة حيان

ثُمَّ إِنْ أَصْحَابُ حِيَانِ بْنِ ظَبْيَانَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « يَا قَوْمَ : إِنْ اللَّهُ قَدْ جَمَعَكُمْ لِحَيْرٍ ، وَعَلَى خَيْرٍ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، مَا سُرَّرتِ بِشَيْءٍ قَطُّ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ مَا أَسَاءتُمْ ، سُرورِي لِمُخْرِجِي هَذَا عَلَى الظُّلْمَةِ الْأُمَّةِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ الدُّنْيَا بِحِذَائِهَا لِي ، وَأَنَّ اللَّهَ حَرَمَنِي فِي مُخْرِجِي هَذَا الشَّهَادَةَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ نَخْرُجَ حَتَّى نَنْزِلَ جَانِبَ دَارِ جَرِيرٍ ، فَإِذَا خَرَجَ إِلَيْكُمْ الْأَحْزَابُ نَاجِزْتُمُوهُمْ » .

فَقَالَ عَتْرِيْسُ بْنُ عُرْقُوبٍ : أَمَّا أَنْ نَقَاتَلَهُمْ فِي جَوْفِ الْمِصْرِ ، فَإِنَّهُ يَقَاتِلُنَا الرِّجَالُ ، وَتَصَعَّدَ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ وَالْإِمَاءُ فَيَرْمُونَنَا بِالْحِجَارَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ : انزِلُوا بِنَا إِذْنَ مِنْ وَرَاءِ الْمِصْرِ الْجِسْرَ - وَهُوَ مَوْضِعُ زُرَّارَةَ ، وَإِنَّمَا بَنِيَتْ

[١] الأرب : الطريق والجهة .

زرارة بعد ذلك إلا أياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين:
لا . بل سيروا بنا فلننزل بانقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتكم عدوكم ، فإذا كان ذلك
استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجه واحد ،
نخرجوا ، فبُعِثَ إليهم جيشٌ ، فقتلوا جميعاً . (تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤١٧ - خطبة مسلم بن عبيدس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله
في السواد ، ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكوا
ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال
الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فخذوا في
جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل^(٣)
أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختر لهم مسلم بن عبيدس ، وكان ديناً
شجاعاً ، فأمره عليهم وشيعه .

فأما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : «إني ما خرجت لامتيار^(٤)»

[١] بانقيا : ناحية من نواحي الكوفة .

[٢] قدما لك في « مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج » أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة
سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقاتلوا معه ، ثم ناظروه ، فلم يرقهم ما سمعوا
منه ، فتفرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، ونابعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير
المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا
إليه ف قيل لهم : الأزارقة ، وهذه العرقه من أشد فرق الخوارج بأسا ، وأصلبها عوداً ، وأكثرها عدداً
وأحفلها حوادث وأبناء .

[٣] اطر هامش ص ٢٠٣ . [٤] أي الجلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة
بالكسر وهي الطعام .

ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فساوراءهم إلا سيوفهم
ورماحهم ، فمن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع .
فأما صاروا « بِدُولَابٍ » خرج إليهم نافع ، فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل في
المعركة ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ . (الكامل للبرد ٢ : ١٨٠)

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤١٨ — خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة — وهو على قتال الأزارقة — يأمر أصحابه بالتحريز
ويخوفهم البيات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : « احذروا أن تُسكادوا كما
تَكيدون ، ولا تقولوا هزَمنا وغلبنا . فإن القوم خائفون وجِلون ، والضرورة
تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إنكم قد عرفتم
مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا
دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولههم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد
لَقِيَهُمْ قبلكم الصابر المحتسب مُسْلِمٌ بن عُيَيْسٍ ، والعَجَلُ المفرط عثمان بن
عبيد الله ^(١) ، والمعصي المخالف حارثة بن بدر ، فقتلوا جميعاً وقتلوا ، فالقوهم بجد

[١] هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر الذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحرث
ابن نوفل) ، وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلما دبروا
إليهم دحيلة نرض إليهم الخوارج — وذلك قبيل الظهر — فقال عثمان بن عبيد الله حارثة بن بدر : أما
الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتهدى حتى أمأجرم ،
فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتسلف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتهم أهل المراق إلا
جنباً ، وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل
وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وولى حريمهم بعده
حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب يركض حتى أتى دحيلة ، فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأقام

وحدّ ، فإنما هم مهنتكم ^(١) وعارٌ عليكم ، وتقصُّ في أحسابكم وأديانكم
أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم ، ويطنّوا حرّيعكم .

(الكامل للبرد ٢ : ١٨٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٥)

٤١٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، وانهمز الناس

بسؤلأف فقال :

« والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهلُ الجبن والضعف ، والطمّع
والطبع ^(٢) ، فإن يمتسككم قرح ^(٣) فقد مسّ القوم قرحٌ مثله ، فسيروا إلى

عدوكم على بركة الله » . (الكامل للبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي م ١ : ص ٣٨٦)

٤٢٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدّة منكرة ، فأجفل الناس ،
وانصاعوا ^(٤) منهزمين ، لا تلوي ^(٥) أمّ على ولد ، حتى بلغ البصرة هزيمة الناس ،
وخافوا السبأ ^(٦) ، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يفاع ^(٧) ، في جانب عن
سننّ المنهزمين ، ثم إنه نادى الناس : إلىّ إلىّ عباد الله ، فتاب إليه جماعة من

رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : يا حارث ليس مثلي ضيع ، فقال للملاح :
قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً ، فماتوا عرقاً ، وتوجه الخوارج
نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفاً شديداً ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القبايع
(وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

[١] جمع ما هن ، وهو العبد والحامد . [٢] الشين والعيب .

[٣] القرح ويضم عض السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم .

[٤] انصاع : انقل راجعاً مسرطاً . [٥] مرّ لا يلو على أحد : أي لا يقف ولا ينتظر .

[٦] السبي . [٧] يفاع : ما ارتفع من الأرض .

قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضى جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون ، ويُنزَل النصر على الجمع اليسير فيَظهَرُونَ ، ولعمري ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراضٍ ، وإني لآتئم أهل الصبر ، وفُرسان أهل المِصر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً ^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئٍ منكم لما أخذ عشرة أحجار ^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٨)

٤٢١ - خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصعب بن الزبير أن أقدم على ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّةٌ ورحمة ، وابنٌ كبيركم : طاعةٌ وبرٌّ وتبجيلاً ، وأخو مثله : مؤاساةٌ ومناصحةٌ ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم ، وليلنْ له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَنِي إليه » ، ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

٤٢٢ - خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز

[١] فسادا . [٢] وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا مخالي فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج :
أنا ما بأحـجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأبطال وبحك بالحر ؟

السليطي ، وقتل ابن الماحوز يوم سِليّ وسِلبري^(١) ، فاجتمعت الحوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن عليّ السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيننا ، فقال لهم : اجتمعوا .

فحمّد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : « إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ، وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عبيس ، وربيعة الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحاتمة بن بدر ، وأشجيتهم المهلب ، وقتلتم أخاه المَعَارِك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين : « إِنَّ يَمَسَّنْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » ، فيوم سِليّ كان لكم بلاء ، وتمحيصاً ، ويوم سُولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغْلَبُنَّ على الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثِقُوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبَةُ للمتقين » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ م : ص ٣٨٨)

[١] مجموع اللفظين موضع واحد بالاهواز قرب جند بسابور ، وقعت فيها وقعة بين الحوارج والمهلب ، وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الحوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

سلي وسلبري مصارع فتية كرام وجرحي لم توسد خدودها

[٢] كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأميرم الرياح بن عمرو الاجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الرياح الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفاً وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها الحجاج بن باب الخيري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، البقي هو ، وعمران بن الحارث الراسبي فاختلفا ضربين ، فسقطا ميتين .

[٣] وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تيرى ، وبها المَعَارِك بن أبي صفرة ، اقتلوه وصلبوه ، فنمى الخيبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المفيرة ، فدخل نهر تيرى ، فاستنزله ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . [٤] وفي ذلك اليوم يقول رجل من الحوارج :

وكأن تركنا يوم سُولاف منهم أسارى وقتلى في الجحيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟

فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجىء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضمف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل مصر ، وإنكم لصلحاء من أتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم ، أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يتشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته ، فقاتل رجلاً عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو إن صدقتموهم أن يظفركم الله بهم ، وأن يظهركم عليهم . »

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارثون ، فلم يشعروا بهم حتى غشوهم ، فقاتلوهم مجدياً لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقرروا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولوا عليهم قطري بن الفجاءة المازني وبايعوه .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكمال للبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٩١)

[١] أصبهان : بفتح الهمزة والباء ، وقد كسر همزتها ، وقد نبدل باؤها فاء .

[٢] إن هنا نافية .

٤٢٤ — نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبدالله

ولما بعث خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) ، قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :
« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَطِطُّ^(٣) بقريش منهم رَحِمٌ دَاسَةٌ مَاسَةٌ ، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها ، وليس صاحبهم إلا المباكر المناكر ، المجرَّب^(٤) ، الذى أرَضَعَتْهُ الحربُ بِلِبانِها ، وَجَرَّسَتْهُ^(٥) وَضَرَّسَتْهُ ، وذلك أخو الأزدي المهلب بن أبي صُفرة ، والله إن غَنَّاكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِينِهِ ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهرِ وغَدْرِهِ ، وليس المجرَّب كمن لا يُعْلَمُ ، ولا الناصح المشفق ، كالغاشِّ المُتَهَمِ » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ .
وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأخذوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَنْهَا . (ذيل الأمل من ص ٣٣)

[١] كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٢٠) .
[٢] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فأصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهراً ، ثم عمد لعارس ، وخرج خالد إلى الاهوار ، وندب لئاس رجلاً فحملوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحط هذا المصر ، لئى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستحلف المهلب على الاهواز فى ثلاثمائة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفاً ، فحمل ضد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الاسر لا يتم إلا بالمهلب وسيمامون ! » إلى أن قال : فهاضمهم عبد العزيز ، فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبى فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا ناقة ، فاقنعمها وراءهم ، والناس يهونونه وبأبى وكان لهم فى اطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم السكينة ، وانحاز عبد العزيز ، وانبعهم الحوارج يقتلونهم كيف شاؤوا .

[٣] أصله من أطّ الرجل أطيطاً : صوت . [٤] من حرب السنان : حدده .

[٥] التجريس : التحكيم والتحرية ، وضرسته الحرب تضريساً : حربته وأحكمته أيضاً .

[٦] وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الحوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص ممن سبى ، قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها فى السوق حاضرة بادية الحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كلاً وحسناً ، فتزايدت فيها العرب ، والموالى ، حتى بلغها تسعين ألفاً ، فأقبل رجل من الحوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطرى بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفاً من بيت

٤٣٥ — خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطريُّ بن الفُجَاءة مِنبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها خُلوة خَضِرَة^(٢) ، حُفَّت^(٣)
 بالشَّهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وَتَحَبَّبَتْ بالعاجلة^(٥) ، وَحَلَّيْتُ^(٦) بالآمال ،
 وتزيَّنت بالغرور ، لاتدوم حَبْرَتها^(٧) ، ولا تُؤمِّن فَجَعَتها ، غرارة ضرارة ،
 خَوَّانة غَدَّارة ، وَحائِلَة^(٨) زائِلَة ، ونافِدة^(٩) بائِدة ، أَكَّالَة غَوَّالَة^(١٠) ، بَدَّالَة
 نَقَّالَة ، لَا تَعْدُو إذا هي تناهت إلى أمنيَّة أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن
 تكون كما قال الله تعالى : « كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ،

المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين ، فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنني رأيت هؤلاء قد
 تازعوا عليها ، حتى ارتفعت الأصوات ، واحمرت الحدق ، فلم يبق إلا الحط بالسيرف ، فرأيت أن تسعين
 ألعاً في جنب ماخشيت من العفة بين المسلمين هيبة ، فقال قطري : حلوا عنه ، عين من عيون
 الله أصابها » اه .

[١] أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نوح البلاعة ، وعراها إلى الإمام عليّ كرم الله
 وجهه ، وكذلك الغضاعي في دستور معالم الحكم ، وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) :
 « وهذه الخطبة دكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والنبين ، ورواها قطري بن الفجاءة ،
 والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموق لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية
 لأمير المؤمنين عليه السلام ، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه ، وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب
 بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأصاره ، وقد
 لقي قطري أكثرهم » .

[٢] أي ناضرة ، من حضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر ، وهو من كلام رسول الله صلى الله
 عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ٥٥ : [٣] أي أطافت بها الشهوات .

[٤] أعجبت أهلها بمتاع قليل ليس بدائم . [٥] أي وتحببت إليهم باللذة العاجلة ، (والفسس مولعة
 يحب العاجل) . [٦] حليت المرأة فهي حال وحالية كتحتل « وفي رواية : وتعلمت » .

[٧] الخبرة : السرور ، وفي رواية : « لاتقوم نضرتها » ، لاتقوم : لانتبت ، والنضرة : النعمة
 والنفى والحسن . [٨] أي متحولة متغيرة من حال يحول ، وفي رواية « خائلة » أي خادعة .
 [٩] أي هالكة فانية من نقد يفقد كفرح . [١٠] أي مهلكة من عاله ينوله .

فَأَصْبَحَ هَشِيماً^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ، مع أن
 امرأاً لم يكن منها في حَبْرَةٍ ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ ، ولم يَلْتَقَ من سَرَّأُهَا بَطْنًا ،
 إِلَّا مَنْحَحْتَهُ من ضَرَّأُهَا ظَهْرًا^(٢) ، ولم تَطْلُهُ غَيْثَةٌ^(٣) رِخَاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ^(٤) عليه مِرْنَةٌ
 بِلَاءً ، وَحَرَى إِذَا أَصْبَحَتْ له مَنْتَصِرَةً ، أن تُنْسِيَ له خَاذِلَةً مُتَنَكِّرَةً ، وإن جَانِبٌ
 منها اعْدَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى^(٥) ، أَمْرٌ عليه منها جَانِبٌ وَأَوْبَى^(٦) ، وإن آتت امرأً
 من غَضَارَتِهَا^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نِعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ من نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، ولم يُنْسِ امرؤٌ منها
 في جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ منها على قَوَادِمِ^(٨) خَوْفٍ ، غَرَّارَةٌ ، غُرُورٌ مَا فِيهَا ،
 فَانِيَةٌ ، فَإِنِ مَا عَلَيْهَا ، لِأَخِيرِ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، من أَوَّلِهَا منها اسْتَكْرَمَ
 مِمَّا يُؤْتَمِنُهُ ، وَمِنْ اسْتَكْرَمَ مِنْهُ اسْتَكْرَمَ مِمَّا يُؤْبِقُهُ^(٩) ، وَيُطِيلُ حُزْنَهُ ، وَيُبْسِكِي
 عَيْنِيهِ ، كَمِ وَائِقٍ بِهَا قَدْ جَمَعَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ^(١٠) ، وَذِي
 اخْتِيَالٍ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمِ مِنْ ذِي أُبْهَةِ فِيهَا قَدْ صَيَّرَتْهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَحْوَةِ

- [١] الهشيم : ماتهم وتحطم ، وتذروه : أى نظيره . [٢] كسى بالبطن والظاهر عن إفاها عليه وإدارها عنه لأن الملاق لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .
 [٣] طله السحاب يطله : إذا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غيبة » والغيبة
 بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وى رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم فى سكون بلا
 رعد وبرق . [٤] هطلت السماء بكس هطلا : تابع مطرها ، وى رواية : « هتنت » هتنت السماء
 بكس أيضاً هتناً : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمرنة : السحابة أو ذات الماء .
 [٥] أى صار عدبا حلوا . [٦] أمر : صار مرا ، وأوى : مسهل عن أوبأ ، أى صار ويثا ،
 وبثت الأرض كعرج وكرم وعى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام .
 [٧] النصارى : العمة والسعة والحصب ، وأرهمته : حمله على مالا يطيقه ، وى رواية : « لا ينال امرؤ
 من غضارتها رعا » والرغب بالتحريك ماترغب فيه ، وى رواية : « فإن آتت امرأ من غصونها ورقا » ،
 وى رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها عمأ ، أرهمته من نوائبها غما » .
 [٨] القوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح ، الواحدة قادمة ، وخس الحوف بالقوادم لأنها
 مقاديم الريش ، والراكب عليها بعرض سقوط قريب . [٩] يهلكه . [١٠] وى رواية : « وذى
 حكم ننته إليها قد صرعه » . [١١] الاختيال : الكبر والمعجب ، والأبهة : الغلظة ، والبهجة
 والكبر والنحوة .

قد رَدَّتْهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّتْهُ ^(١) لِلدِّينِ وَالْفَمِّ ، سُلْطَانَهَا دُؤُولٌ ،
وَعَيْشَهَا رَتْقٌ ^(٢) ، وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ ، وَخُلُوهَا صَبْرٌ ، وَغِدَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا ^(٣)
رِمَامٌ ، وَقِطَافُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَيْثُهَا بَعْرَاضُ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بَعْرَاضُ سُقْمٍ ، وَمَنْعِيهَا
بَعْرَاضُ اهْتِضَامٍ ، مَلِيكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيمُهَا مَنْكُوبٌ ،
وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ ، وَهَوُولُ الْمُطَّلَعِ ،
وَالْوَقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكْمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعَدَّ
عَدِيدًا ، وَأَكْثَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عِتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ؟ تَعْبُدُوا ^(٧) لِلدُّنْيَا
أَيَّ تَعْبُدُوا ! وَآثُرُوهَا أَيَّ إِثَارٍ ! وَظَنَعُوا عَنْهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَلَغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا
سَمَّحَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخَطْبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ
أَرْهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعُضَعْتَهُمْ بِالنَّوَابِ ، وَعَقَّرْتَهُمْ بِالْمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ

[١] صرخته وقلبه . [٢] رنق الماء كفرح وصر : كدر ، فهو رنق كعدل وكتب وجبل ،
وأجاج : ملح مر ، وسمام جمع سم مثلث السين . [٣] أسباب جمع سبب : وهو الجبل ، ورمام :
بالية ، حل أرمام ، ورمام : أى بال . [٤] السلع : شجر مر ، أو سم ، أو صرب من الصبر ، أو
بقلة خبيثة الطعم . [٥] مسلوب ، من حره حرما كمله طلباً : سلب ماله فهو محروب وحرير ، وفي
رواية : « وجارها محروب » . [٦] العتاد : العدة ، وقد عتد ككرم عتاداً فهو عتيد : أى حاصر
مهاً ممداً ، وفي رواية : « وأشد عتوداً » من عند عن الطرين كنصر وسمع وكرم عتوداً : أى ملك ،
وفي رواية : « وأشد عتوداً » . [٧] أى استعبدتهم الدنيا ، تعبدوه : اتخذوه عبداً .

[٨] أى بشان وأسر . [٩] الفوادح : النوائب المثقلة ، من فدحه الدين إذا أنقله ، وفي رواية :
« الفوادح » والفوادح جمع فادح : وهو أكل يقع في الشجر والأسنان ، وفي رواية : « وأوهقتهم »
أى جعلتهم في الوهق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالطول .

[١٠] وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية : « وعقرتهم المناخر ، ووظفهم بالماسم » ،
عقرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالعقر (كسبب وسكن) وهو الزناز ، والمناخر جمع منخر بفتح الميم
والهاء ، وبكسرهما ، وبضمهما ، وكلمة : الأناب ، والماسم جمع منسم كجلس وهو خب البعير .

رَأَيْتُمْ تَنْكُرُهَا لِمَنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْنَدِ^(٢) ، هَلْ زُوِّدْتَهُمْ إِلَّا السَّغَبَ^(٣) ، وَأَحْلَتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تُؤْتِرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، فَبُئِستِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعَاهُوا - وَأَنْتُمْ تَعَاهُونَ - أَنْكُمْ تَارْكُوهَا لِأَبَدٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِيبِ وَاللَّهُو ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتَبْدُونَ بِكُلِّ رِيحٍ^(٤) آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » ، وَاتَعَطَّوْا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، مُجَلُّوْا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَانزَلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَكْنَانٌ^(٦) ، وَمِنَ النَّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهَمَّ جِيرةً لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ

[١] أَى خَصَعَ لَهَا وَدَلَّ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « لِمَنْ رَادَهَا » أَى طَلَبَهَا ، رَادَهُ رُودًا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالَ .
 [٢] الْمُسْنَدُ : الْأَمْرُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ » . [٣] الْجُوعُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ » وَالصِّقُ : الصِّقُ . [٤] نَزَلَ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، الرِّيحُ : الْمَرْتَمَعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَى أَبْنِيَةٌ وَقَصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَعْبَثُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَتَطَاوَلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمَبَانِي مِنَ الْقُصُورِ وَالْحِصُونِ . [٥] وَفِي رِوَايَةٍ : « فَلَا يَرْعُونَ » أَى فَلَا يَرْتَعُونَ أَحَدًا .
 [٦] الْأَكْنَانُ جَمْعُ كَنٍّْ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَفَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ وَسْتَرَةٍ ، وَالضَّرِيحُ : الْقَبْرُ أَوْ النَّقِ وَسَطُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ » ، وَالْأَجْنَانُ جَمْعُ حَبْنٍ كَسِبَ وَهُوَ : الْقَبْرُ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْعَرَاضُ ، وَالرُّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . [٧] الْمَنْدَبَةُ : الدَّبُّ عَلَى الْمَيْتِ . [٨] وَفِي رِوَايَةٍ : « إِنْ حِيدُوا » مِنْ جَادَمِ الْعَيْثِ إِذَا أَمْطَرُوا . [٩] قَحِطَ النَّاسُ كَسَمْعٍ ، وَقَحِطُوا وَأَنْحَطُوا مَبْنِيينَ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتَانِ) ، وَبِكُلِّ رُوي .

يَقْنَطُوا ، جَمَعَ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِيرةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتْنَاءُ وَنَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ،
 حُمَلَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ ، لَا يُخْشَى فِجْمُهُمْ ، وَلَا
 يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قَتَلْتَ مَسَاكِينَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ، اسْتَبَدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا ،
 وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَفَارَقُوهَا كَمَا دَخَلُوهَا ، حُفَاةً عُرَاهُ فُرَادَى ، غَيْرَ
 أَنْ ظَعَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَإِلَى خُلُودِ الْأَبَدِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « كَلَّا
 بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَرَكَمُ
 اللَّهُ ، وَاتَّقُوا بِمَوَاعِظِهِ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ ، عَصَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَرَزَقْنَا
 وَإِيَّاكُمْ آدَاءَ حَقِّهِ » .

(البيان والتبيين ١ : ٦٣ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، والقداغريد

٢ : ١٦٠ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ :

٢٥٠ ، ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ ، دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

وَمَا دَبَّتْ عِقَابُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأَزَارِقَةِ ، وَلَعِبَتْ بِهِمُ يَدُ الشَّقَاقِ ، خَلَعُوا
 قَطْرِيَّ بْنَ الْفَجَاءَةِ ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فَانْفَصَلَ إِلَى عَبْدِ رَبِّهِ أَكْثَرَ مِنْ (١)
 الشَّطْرِ ، وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَهْلَبِ ، فَأَجَلَّتْ الْوَقْعَةُ عَنْهُ قَتِيلًا ، وَقَدْ جَمَعَ
 أَصْحَابَهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قَتَلَ فِي صَبِيحَتِهَا ، فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ : إِنْ قَطَرِيًّا وَعَبِيدَةً (٢) هَرَبَا طَلَبَ الْبَقَاءَ ، وَلَا سَبِيلَ
 إِلَيْهِ ، فَالْقُوا عَدُوَّكُمْ ، فَإِنْ غَلَبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَغْلِبُكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلَقُّوا

[١] أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان ، فوجه الحجاج إليه جيشاً عليه سفيان بن الأبرد

فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه ، وقتل سنة ٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة .

[٢] هو عبدة بن هلال البكري من كبراء الأزارقة .

الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يهبها لكم في الآخرة » . (الكامل المبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٥)

٤٢٧ — خطبة صالح بن مسرح^(١)

وروى الطبرى فى تاريخه قال :

كان صالح بن مسرح يرى رأى الصُفْرِيَّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُحْتَبِئاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بداراً^(٤) وأرض الموصل والجزيرة ، له أصحاب يُقرئهم القرآن ، ويفقههم ويقصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْكَ النِّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنُصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنُصِّحَ لِلأُمَّةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغَبُ الْعَبْدُ

[١] هو صالح بن مسرح أحد بنى امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه ، وقد خرج على بنى أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة ، فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى ما به ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فشرح إليهم الحاج جيشاً يقوده الحارث بن عميرة فخاربهم ، وقتل فى المعركة صالح . [٢] الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وم أصحاب زياد بن الأصم ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكتم العبادة ، أو لخلوهم من الدين ، وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . [٣] أخبت لله : خضع وتواضع . [٤] دارا : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة . [٥] حقد كضرب : خف وأسرع .

فما عند الله ، وتفرَّغَ بَدَنُه لَطَاعَةِ اللَّهِ ، وإن كثرة ذكر الموت تُخَيِّفُ الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ ، حَتَّى يَجْأَرُ^(١) إِلَيْهِ وَيَسْتَكِينُ لَهُ ، وَإِنْ فِرَاقُ الْفَاسِقِينَ حَقٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وَإِنْ حَبَّ الْمُؤْمِنِينَ لِلْسَّبَبِ الَّذِي يُنَالُ بِهِ كَرَامَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَجَنَّتُهُ ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ ، أَلَا إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَعَلَّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَزَكَاتَهُمْ وَطَهَّرَهُمْ ، وَفَقَّهَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفًا رَحِيمًا ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَلى الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ التَّقِيُّ الصَّدِيقُ ، عَلَى الرِّضَا مِنَ الْمَسَامِينِ ، فَاقْتَدَى بِهَدْيِهِ ، وَاسْتَنْبَسَتْهُ ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ رَحْمَةً اللَّهُ ، وَاسْتَخَالَفَ عَمْرَ فَوَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَ هَذِهِ الرِّعِيَةِ ، فَعَمِلَ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَحْيَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يُمَحِّقْ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّتِهِ^(٢) ، وَلَمْ يَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَأْمٍ ، حَتَّى لَحِقَ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَوَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ عَثْمَانُ ، فَاسْتَأْثَرَ بِالنِّقْيِ ، وَعَطَّلَ الْحُدُودَ ، وَجَارَ فِي الْحُكْمِ ، وَاسْتَذَلَّ الْمُؤْمِنَ ، وَعَزَّزَ الْمَجْرِمَ ، فَسَارَ إِلَيْهِ الْمَسَامُونَ فَتَمَلَّوهُ ، فَبَرِيءَ اللَّهُ مِنْهُ وَرَسُولُهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلِيَ أَمْرَ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمْ يَدْشَبْ أَنْ حَكَّمَ فِي أَمْرِ اللَّهِ الرِّجَالَ ، وَشَكَّ فِي أَهْلِ الضَّلَالِ ، وَرَكَنَ^(٣) وَأَذْهَنَ ، فَنَحْنُ مِنْ عَلِيٍّ وَأَشْيَاعِهِ بَرَاءٌ ، فَتَيَسَّرَ وَرَحِمَ اللَّهُ لَجَهَادِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الْمُتَحَرِّبَةِ ، وَأُمَّةِ الضَّلَالِ الظَّالِمَةِ ، وَلِلْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، وَاللَّهَاقِ بِإِخْوَانِنَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُوقِنِينَ الَّذِينَ

[١] جَأَرُ إِلَيْهِ كَنَعُ : رَمَعَ صَوْتَهُ بِالْهَدَاءِ ، وَتَضَرَّعَ وَاسْتَعَاثَ . [٢] أَحْنَقُ الصَّلْبِ : لَرَقٌ بِالْبَطْنِ ، وَالْجِرَّةُ : مَا يُخْرِجُهُ الْبَعِيرُ مِنْ جَوْفِهِ وَيَتَمَصَّهُ ، كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ عَدَمِ إِضْهَارِهِ الْحَقْدَ وَالِدَغْلَ . [٣] رَكَنَ إِلَيْهِ : مَالَ .

باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماسَ رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزَعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم - غيرَ ما ترَجُمُ الظنون - ففرِّقْ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحَلالِكُمْ ودنياكم ، وإن اشتدَّ لذلك كرهُكُمْ وجَزَعُكُمْ ، أَلَا فَبِيعُوا اللَّهَ أَنْفُسَكُمْ طَائِعِينَ وَأَمْوَالَكُمْ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ آمِنِينَ ، وَتَعَاتِقُوا الْحُورَ الْعِينِ ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِبَائَكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ الذَّاكِرِينَ ، الَّذِينَ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » . (تاريخ الطبري ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٨ - خطبة أخرى له

وروى الطبري أيضاً قال :

« بينا أصحابُ صالحٍ يختلفون إليه ، إذ قال لهم ذاتَ يومٍ : « ما أذرى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجَورُ قد فَشَا ، وهذا العَدْلُ قد عَفَا ، ولا ترداد هذه الوِلاية على الناس إلا غُلُوبًا وَعُتُوبًا ، وتباعداً عن الحق ، وَجُرْأَةً على الرب ، فاستعدُّوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطل والدعاء إلى الحق ، مثلَ الذي تريدون ، فيأتوكم فلتتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٩ - خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَعَجَّلُوا إلى قِتالِ أحدٍ من الناس إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ غَضَبًا لَلَّهِ ، حَيْثُ انْتَهَكْتُمْ حِمَامَهُ ، وَعَصَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَسُفِكَتِ الدِّمَاءُ بِغَيْرِ

حِلْمِهَا ، وَأَخَذَتِ الْأَمْوَالَ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، فَلَا تَعْيَبُوا عَلَى قَوْمِ أَعْمَالِكُمْ تَعْمَلُوا بِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مَسْتَوْلُونَ ، وَإِنْ عَظَمْتُمْ رَجَالَهَا ، وَهَذِهِ دَوَابُّ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ فِي هَذَا الرَّسْتِاقِ (١) ، فَاذْهَبُوا بِهَا فَشُدُّوا عَلَيْهَا ، فَاحْمِلُوا أَرْجُلَكُمْ ، وَتَقَوُّوا بِهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٣٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَخَلَّفَ عَلَى رِيَاةِ الْخَوَارِجِ الصُّفْرِيَّةِ بَعْدَ مَقْتَلِ صَالِحِ بْنِ مُسَرِّحٍ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ، وَهُوَ شَيْبِيبُ بْنُ يَزِيدَ الشَّيْبَانِيُّ ، فَكَتَبَ الْحِجَابُ لِقِتَالِهِ الْكُتَّابَ ، وَكَانَ أَمِيرَهَا فِي بَعْضِ الْوَقَعَاتِ زَائِدَةُ بْنُ قُدَّامَةَ ، وَجَاءَ شَيْبِيبٌ حَتَّى وَقَفَ مُقَابِلَ الْقَوْمِ ، فَخَرَجَ زَائِدَةُ يَسِيرِينَ الْمِيْمَةَ وَالْمَيْسِرَةَ ، يَحْرَضُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

« عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ الطَّيِّبُونَ الْكَثِيرُونَ ، وَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْخَبِيثُونَ الْقَلِيلُونَ ، فَاصْبِرُوا جُعِلَتْ لَكُمْ الْفِدَاءُ ، إِنَّهَا تَحْمِلَتَانِ أَوْثَلَاتٌ ، ثُمَّ هُوَ النَّصْرُ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، أَلَا تَرَوْنَهُمْ وَاللَّهِ لَا يَكُونُونَ مَائِي رَجُلًا ؟ إِنَّمَا هُمْ أَكْلَةُ رَأْسٍ ، وَهُمْ السُّرَّاقُ الْمُرَّاقُ ، إِنَّمَا جَاءَ وَكُمْ لِيُهَرِّقُوا دِمَاءَكُمْ ، وَيَأْخُذُوا فِيئِكُمْ ، فَلَا يَكُونُوا عَلَى أَخْذِهِ ، أَقْوَى مِنْكُمْ عَلَى مَنْعِهِ ، وَهُمْ قَلِيلٌ وَأَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَهُمْ أَهْلُ فُرْقَةٍ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ جَمَاعَةٍ ، غَضُّوا الْأَبْصَارَ ، وَاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالْأَسِنَّةِ ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى أَمْرَكُمْ » ، فَمَا بَرِحَ يَقَاتِلُهُمْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، حَتَّى قَتَلَ . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٣١ — خطبة الحجاج بن يوسف

وَلَمَّا هَزَمَ شَيْبِيبُ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ الْحِجَابُ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

[١] الرستاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (معرب) .

ابن محمد بن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلُنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأُبْعَثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والنيظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - يعني جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، وأُعتب الأمير ، فليئد بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٣٢ - خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة ، إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا ، ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن للنّا كلّ الهارب الهوان والجفوة ، والذي لا إله غيره ، لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأولينكم كنفاً خشناً ، ولأعزّ كننكم بكلّ كلّ ثقيل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٥)

٤٣٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ،

وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ،
وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنتص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئتون ومئتون ، ألا إني
مُصَلِّي الظهر ، ثم سأثر بكم إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٩)

٤٣٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ،
يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم
قَصَصاً كثيراً منه قوله :

« يا أهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله
لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا تَرَوْنَ أَنَّهُ يَقُولُ : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حَمِدَ اللهُ فِعَلَهُ فَمَا أَعْظَمَ دَرَجَتَهُ ، وليس الله لأحدٍ
أَمَقَّتْ مِنْهُ لِأَهْلِ الْبَغْيِ ، ألا تَرَوْنَ أَنَّ عَدُوَكُمْ هَذَا يَسْتَعْرِضُ الْمُسْلِمِينَ بِسَيْفِهِ ؟
لَا يَـؤُونَ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَهُمْ قُرْبَةٌ عِنْدَ اللهِ ، فهم شِرَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَكِلَابُ
أَهْلِ النَّارِ . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القُصَّاصُ يَقْصُونَ عَلَى النَّاسِ وَيَحْرُضُونَهُمْ ؟ فلم
يتكلم أحد ، فقال : أين من يَرَوِي شِعْرَ عَنْتَرَةٍ فَيَحْرُكُ النَّاسَ ؟ فلم يجبه أحد ، ولا
رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله لكأنني بكم وقد قرّرتم عن عتاب بن ورقاء ،
وتركتموه تسنفي في استهـ الرياح ، وحمل عليه شبيب فتفرّق عنه كثير من أصحابه
وخذّلوه ، وثبت في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج نَجْزَ أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلِّها يقتل أمراءهم ، ويفل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سُفيان بن الأبرد الكلبي ، في أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مَذْحِج ، في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشدوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، فلا أعزَّ اللهُ من أراد بكم العزَّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا ، إلا من كان لنا عاملاً ، ومن لم يكن شهيد قتال عتَّاب بن ورقاء ^(١) . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإياضي ^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب

[١] ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمدافعته ، فشنت جموعه ، فاصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشاً عليه سُفيان بن الأبرد ، فالتقيا على جسر دجيل ، وحمل بينهما وطيس القتال ، حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا مفاصل المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه ، وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، سقط والماء ، وكان هلاكه سنة ٥٧٧ .

[٢] هو عبد الله بن يحيى الكندي ، كان من حضرموت ، وكان مجتهداً عابداً من رؤساء الخوارج الإياضية (والإياضية : فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إياض - بكسر الهمزة -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً ، وسيرة في الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا يحل لنا المقام على ماري ، ولا الصبر عليه ، وكتب إلى جماعة من الإياضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج ، فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلج بن عقبة المسعودي في رجال من الإياضية ، فغرضوه على الخروج ، وكثر

الناس ، فحمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ووعظ وذكر وحذر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ،
الإسلام ديننا ، ومحمد نبيُّنا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال
حلالا ، لا نبغى به بدِلا ، ولا نشترى به تمنا قليلا ، وحرّمنا الحرام ونبذناه
وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعول ،
من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكَّ
في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائض يَبْتَأْتِ ، وآياتٍ مُحْكَمَاتٍ ، وآثارٍ
مُقْتَدَىٰ بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، عَدْلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد
الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْدِ ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلِّ فِتْرَةٍ بقايا من أهل العلم ،
يَدْعُونَ من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ
على الحق في سالف الدهور شُهَدَاءَ ، فما نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ،
أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبلموا الله بلاء
حسنا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغانى ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٥)

جمعه . وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القائم بن عمر)
فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت الصرة فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها
من الخزائن والأموال .

خطب أبي حمزة الشاربي

٤٣٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة ^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى

عليه ، وقال :

« يا أهل المدينة : سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمرُ الله - فيهم القول ، قاتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حِلِّه ، فوضعوه في غير حَقِّه ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفتننا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مَقاسِمنا وحقوقنا في مهور النساء ، وفُرُوج الإماء ^(٢) ،

[١] بعد أن استولى عبد الله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحسن السيرة في الناس ويلين جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم ، وكثر جمعه ، وأنته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاء جمع شاركوا وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شربنا أسننا في طاعة الله أى نعمنا وربهنا ، أخذاً من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أو لقولهم : شربنا الآخرة بالدنيا ، أى اشتربناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأردى ثم السلمى من أهل البصرة » إلى مكة ، فأقل إليها يوم الثروبة « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومعنى عبد الواحد إلى المدينة ، جهر جشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة لإقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لفسير إلى من ظلمكم ، وحار في الحكم عليكم ، ولا نجعلوا حدنا بكم ، فإننا لا نريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة ، وقالوا يا أعداء الله : أمحن نعليكم وتدعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج يا أعداء الله : أمحن نفسى الأرض ؟ إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر باليء ، فانظروا لأنفسكم ، واخاعوا من لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لا طاعة لمن عدى الله ، فادخلوا في السلم ، وعادوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ، منهم من قريش أربعة وأخسون ، ودخل أبو حمزة المدينة ثلاث عشرة بقية من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام [٢] وفي رواية : « وسألناكم : هل يقتلون بالطن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم نعم » .

فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، نؤاخذهم الله أن يتنحوا عنا وعنكم ، ليختار المسامون لأنفسهم ، فقلتم : لا يفعلون ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم ، فإن نظهر نحن وأنتم ، نأت بمن يُقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلتم : لا تقوى على ذلك ، فقلنا لكم : نخلوا بيننا وبينهم ، فإن نظفر نعدل في أحكامكم ، ونحملكم على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ونقسيم فينكم بينكم ، فأبيتهم وقاتلتمونا دونهم ، فقاتلناكم وقتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم .
(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٣٨ - خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :
« يا أهل المدينة مررتُ بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة بشاركم ، وكتبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنى غنى ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزاك الله خيراً ، فلا جزاكم الله خيراً ، ولا جزاه خيراً » .
(ربح الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

٤٣٩ - خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه (١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيرون أصحابه ، لحداثة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متنكب قوساً عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

[١] روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقاتلتكم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنتُ أدبكم ، وَيُنْحَكُم ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتابُ ، وَبَيَّنَّ له فيه السننُ ، وَشُرِّعَ له فيه الشرائعُ ، وَبَيَّنَّ له فيه ما يأتي وما يَدْرُ ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يُخْجِمُ إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وَعَلَّمَ المسامِين مَعَالِمَ دينهم ، ولم يدعهم من أمرهم في شُبُهَة ، وولَّى أبا بكر صلواتهم ، فولاه المسامون أمر دينهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقابل أهل الرِّدَّة ، وشمرَّ في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمةُ الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنَّد الأجناد ، ومَصَّرَ الأمصار ، وجَبَى النَّيْءَ ، وفَرَضَ الأَعْطِيَّةَ ، وشمرَّ عن ساقه ، وحسَّرَ عن ذراعه ، وجلَّدَ في الحُرِّ ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان ^(١) ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمةُ الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه - وكان دونهما - ثم سار في الست الأواخر بما أَحْبَطَ به الأوائِلَ ، واضطرب حبل الدين بعدها ، فطلبها ^(٢) كل امرئ لنفسه ، وأسرَّ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك ، ثم ولي علي بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قَصْداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله .

[١] أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

[٢] أي الحلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معارية فيها .

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه^(١) ، وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عبادة الله خوفاً^(٢) ، ومال الله دُولاً^(٣) ، وبغى دينه عوجاً ودغلاً^(٤) ، وأحلّ الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ، يزيد الخُمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود^(٥) ، الفاسق في بطنه ،

[١] انظر ص ١٧ و ١٨ . [٢] عبيداً . [٣] جمع دولة بالضم أى مداولا بين عشيرته دون سائر المسلمين . [٤] الدغل : العساد كالدغل .

[٥] روى المسعودى فى مروج الذهب - ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، ومهود ، ومادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن عينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - وأقبل على ساقيه ، فقال :

اسمنى شربة روى مشاشى ثم صل فاسق منانها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى واتسديد معى وجهادى

« والمشاش كعرب : النفس والطبيعة » ، ثم أمر المغنبي فعموا ، وعاب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الصوق ، وفى أيامه طهر العناء بككة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكى بأبى قيس ، يحصره مجلس منادمتيه ، وي طرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله على أمان وحشية ، قد ربيصت وذلك لذلك بسرج ولجام ، ويساق بها الخيل يوم الخلة ، خاء فى بعض الأيام سابقاً فنناول القسبة ، ودخل الحرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهور (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصممة بمثل الشقائق) وعلى الأذن سرج من الحرير الأحمر مقوش ملمع بأنواع من الألوان . فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبى قيس بفصل عانها فليس عليها إن سقطت صان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به حياذ أمير المؤمنين أذن 1

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلها بالصيد لايزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه » الجلال بالكسر جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به « ويهر لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل أن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية وجعلها فى خزائن بيت المال ، ورحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق فى تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق ، سأل عن يزيد فعرفوه أنه فى الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضراً فيها ، ف ضرب مخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، وبينما هو فى بعض الأيام جالس فى خيمته ، لم يشعر إلا بكابة قد دخلت عليه ، وفى قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبالغاً

المأبون^(١) في فرجه ، نخالف القرآن ، واتبع الكهَّان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشهيه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طريده لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

ثم تداولها بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيألفها أمة ! ما أضعفها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيء أعمالهم ، واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يكذب ، وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر -

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المساميين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عز وجل :

كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها يزيد وأنها قد شذت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدها بنفسه ، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زيّ اللوك ، وقد علتة غبرة ، فقام إليه وسلم عليه ، فقال له ، رأيت كلبة عابرة بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يا ولانا ، ها هي في الحية ، قد شربت ماء واستراحت ، وقد كانت على غاية من العطش والنعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الحيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فحذب بجبالها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

[١] أبته بشيء كصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كقعدة : العيب . [٢] بلغ أشده أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد

« فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ^(١) » ، فأمرُ أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيماً ، غلام مأبون في بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُردتين قد حيكتا له ، وقومتا على أهلها بألف دينار ، وأكثر وأقل ، قد أخذت ^(٢) من غير حلِّها ، وصُرفت في غير وجهها ، بعد أن ضربت فيها الأَبْشَار ^(٣) ، وحلقت فيها الأشعار ، وهتكت فيها الأستار ، واستحلَّ مالم يُحِلُّ الله لعبد صالح ، ولا لنبى مرسل ، ثم يُجاس حباية عن يمينه ، وسلامته عن شماله ، تغنيانه بمزامير الشيطان ، ويشرب الخمر الصراح المحرمة نصاً بعينها ، حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت رُوحه ولحمه ودمه . وغابت سورتها على عقله ، مزق حلتيه ، ثم التفت إليهما فقال : أتأذنان لي أن أطير ^(٤) ؟ نعم ، فطرن إلى لعنة الله ،

اختلف المؤرخين في مقدار سنِّ يزيد ، فقيل إنه تولى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل إن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

[١] الآية الكريمة في الدنأى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ . . . » . [٢] أى الدنأير . [٣] فيها : أى في تحصيلها ، والأشارج جمع شر وهو جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد صرب الناس في حياة الأموال .

[٤] ذكر ذلك ابن طاطا في البحري ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خليف بنى أمية شعث بجاريتين اسم إحداهما سلامة ، والأخرى حباية ، فقطع معهما زمانه ، قالوا : فعت يوماً حباية :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تظمن ولا تسوع فتبرد

فأهوى يزيد ليظير ، فقالت يا أمير المؤمنين : لا يك حاحة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : على من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل بعدها ، نخرج بعس خدمه وهو يقول : « سححت عيك فا أسحكتك » وروى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حباية مولدة من مولدات المدينة ، حلوة جميلة أوجه طريفة حسنة العناء ، وقد قال يزيد بن عبد الملك : ما تقرعيني بما أرتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة وحباية ، فأرسل فاشترينا له ، فلما اجتمعنا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فألقت عصاماً واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عينا بالأياب المسامر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزيد يلومه في الإلحاح على العناء والشراب ، وقال له : إليك

وحريق ناره ، وأليم عذابه ، طره إلى حيث لا يردك الله .

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال : « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طغاماً جهالاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فلكوا الأمر ، وتساطوا فيه تسلط رُبويّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنّة ، ويعطلون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوثة ، ويقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وايت بمقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغت بهذه الأمة عن النظر في الأمور ، والوفود بابك ، وأصحاب التلامات سيحرون ، وأنت عاقل عنهم ، فقل : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حياجه أياماً ، فمست حياجه إلى الأحوص أن يقول أبياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لآتاه اليوم أت يتبلدا فقد علب الخزوت أن يتحلدا
بكيت الصبا جهدى من شاء لامي ومن شاء آسى و البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت في طلب الغنى لأعلم أنى لست في الحب أوحدا
إذا أت لم تمشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر سلعدا
فما العيش إلا ما تلذت وشتهى وإن لام فيه ذو الشنان ومدا

وماكث يريد جمعة لارى حياجه ، ولا بدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمبى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فنلقته والعود في يدها ، فمئت البيت الأول ، ففطى وجهه ، وقال : مه لا تفعلى ، ثم عمت : فما العيش إلا ما تلذت وشتهى : فمدل إليها ، وقال : صدقت والله فمع الله من لآمنى فيك ، يا اعلام مر مسلمة أن يصلى بالناس ، وأقام معها يشرب ونغنيه ، وعاود ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكنت إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها . انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، ومما ذكره المسعودى : أن حياجه اعتلت فأقام يزيد أياما لا يطهر للناس ، ثم مات ، فأقام أياما لا يدونها حتى جيتف قبيل له : إن الناس يتحدثون بمجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، ودفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن نسل عنك النفس أو تدع الهوى فبالياس تسلو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما ولائلا ومات .

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالنَّارِ مِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ^(١) ، فأقبل صَنَفٌ تاسع ليس منها ، فأخذ كلُّها ، تلکم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنى سمعت الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » - فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظير نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصبية لحزب لزموه ، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيًّا كان أو رشدًا ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدؤل في رجعة الموتى ^(٢) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، ينقمون المعاصي على أهلها ، ويعملون

[١] الصدقات : الزكاة ، العامين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها ، والمؤلفة قلوبهم : الذين أسلموا وديتهم ضعيفة في الاسلام ، فتستألف قلوبهم ، وفي الرقاب : أى وفي فك رقاب المكاتبين ، فيما ونون بشيء منها ، والمارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير مصيبة ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .

[٢] كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن أعين الناس ، فالشيعة الكيسانية يقولون أن محمد بن المنفية رضى الله عنه لم يموت ، وإنما في جبل رضوى (بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تحريان بماء وعسل ، وأنه يعود بعد النية فيملا الأرض عدلا كما كانت جورا ، وفيه يقول كثير من أبيات :

غيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

— انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٥ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والاثنا عشرية « وهى إحدى فرقتى الشيعة الامامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الامام الثانى عشر وهو محمد ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدى المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ، وأنه يخرج في آخر الزمان فيملا الأرض عدلا وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون وكل ليلة بعد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجعون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

إِذَا وَلَّوْا بِهَا ، يُصِرُّونَ عَلَى الْفِتْنَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ الْمَخْرَجَ مِنْهَا ، جُفَاءً فِي دِينِهِمْ ، قَلِيلَةٌ عَمَلُهُمْ ^(١) ، قَدْ قَلَدُوا أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ دِينَهُمْ ، وَزَعَمُوا أَنَّ مُوَالَاتِهِمْ لَهُمْ تُغْنِيهِمْ عَنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَتُنَجِّيهِمْ مِنْ عِقَابِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يُؤَفَّفَكُونَ ^(٢) .

فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الْفِرْقِ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ تَتَّبِعُونَ ، أَمْ بِأَيِّ مَذَاهِبِهِمْ تَقْتَدُونَ ؟ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي ! قَلْتُمْ هُمْ شَبَابٌ أَحْدَاثٌ ، وَأَعْرَابٌ جُفَاءَةٌ ، وَيُحْكِمُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ! وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ الْمَذْكُورُونَ فِي الْخَيْرِ إِلَّا شَبَابًا أَحْدَاثًا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَعَالِمٌ بِتَابِعِكُمْ فِيمَا يَضُرُّكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، وَلَوْلَا اسْتِغَالِي بِغَيْرِكُمْ عَنْكُمْ مَا تَرَكْتُ الْأَخْذَ فَوْقَ أَيْدِيكُمْ . شَبَابٌ وَاللَّهِ مُسَكِّتُهُلُونَ ^(٣) فِي شَبَابِهِمْ ، غَضِيضَةٌ عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ ، ثَقِيلَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ ، أَنْضَاءُ ^(٤) عِبَادَةٌ ، وَأَطْلَاحُ سَهَرٍ ^(٥) ، بَاعُوا أَنْفُسًا تَمُوتُ غَدًا ، بِأَنْفُسٍ لَا تَمُوتُ أَبَدًا ، قَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، مَنْحَنِيةً أَصْلَابُهُمْ عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ، كَلِمَاتٍ أَحَدُهُمْ بِآيَةٍ مِنْ ذِكْرِ الْجَنَّةِ بَكَى شَوْقًا إِلَيْهَا ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ مِنْ ذِكْرِ النَّارِ شَهَقَ شَهْقَةً ، كَأَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ بَيْنَ أُذُنَيْهِ ، قَدْ أَكَلَتْ الْأَرْضُ رُكَبَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَنْوْفَهُمْ وَجِبَاهَهُمْ ، وَوَصَلُوا كَلَالَ ^(٦) اللَّيْلِ بِكَلَالِ النَّهَارِ ، مُصْفَرَّةً أَلْوَانَهُمْ ، نَاحِلَةً أَجْسَامَهُمْ ، مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ ، وَكَثْرَةِ الصِّيَامِ ، مُسْتَقْلُونَ لَذَلِكَ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، مُؤَفَّفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ، مُنْجِزُونَ لَوَعْدِ اللَّهِ ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا سِيَاهَ الْعَدُوِّ وَقَدْ فُوتَ ^(٧) ،

[١] وفي البيان والتبيين « جفأة عن القرآن ، أنواع كهان » . [٢] أفكته عنه كضرب : صرفه وقلب رأيه . [٣] أي قد أحرزوا رزاق الكهول وسداد رأيهم .
[٤] جمع نضوكامل وهو المهزول . [٥] جمع طلاح وهو كمنضو وزنا ومعنى .
[٦] الكلال : النعب والإعياء . [٧] فوَّق السهم : جعل له دوقا (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ، أي أعدت للرمى .

ورماحهم وقد أشرعت^(١) ، وسيوفهم وقد انثضيت^(٢) ، وبرقت الكتيبة
ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا
بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا^(٣) الأستة ، وشائك السهام ، وظبات
السيوف بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم ، فضى الشاب منهم قُدما ، حتى
اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واخترضت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفّر^(٤)
جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم
وحسن مأب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف
الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أيدت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها
صاحبها راعيا وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق^(٥) ، قد فُلق بعمد
الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
وأدخل أرواحهم الجنان » . (الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٤٠ - خطبة أخرى

ورقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه . وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم ، وصلة الرّحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغير
ما عظمت من الباطل ، وإماتة ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ،
وأن يُطاع الله ، وَيُعصى العباد في طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا
طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقسم

[١] سدّت . [٢] استلت . [٣] جمع شباة : وهي حد كل شيء ، والطبات جمع ظبة ،
وهي حد السيف . [٤] أصابه العفر : وهو التراب . [٥] كريم .

بالسَّوِيَّةِ ، والعدلِ في الرعية ، ووضع الأَخماسِ في مواضعها التي أمر الله ^(١) بها ، تعلمون يا أهل المدينة أننا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أَشْرًا وَلَا بَطْرًا ، ولا عَبَثًا ، ولا لهوًّا ، ولا لدولة مُلْكٍ نريد أن نخوض فيه ، ولا لثأر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصاييحَ الحقِّ قد أطفِئَتْ ، ومعالِمَ العدلِ قد عُطِّلتْ ، وكثُرَ الادِّعاءُ في الدين ، وعَمِلَ بالهوى ، وَعُغِّفَ القائلُ بالحقِّ ، وقُتِلَ القائمُ بالقِسْطِ ، ضاقت علينا الأرضُ بما رَحِبَتْ ، وسمعنا داعيًّا ^(٢) يدعو إلى طاعة الرحمن ، وَحُكْمِ القرآنِ ، فأجَبْنَا داعِيَ اللهِ ، وَمَنْ لَا يَجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٣) فِي الْأَرْضِ ، فأقبلنا من قبائلِ شَتَّى ، النفرُ ^(٤) منا على بعير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون لِخَافَا وَاحِدًا ، قليلون مُستضعفون في الأرض ، فأَوانا اللهَ وأَيَّدنا بنصره ، وأصبحنا واللهِ جميعًا بنعمته إخوانًا ، وَعَلَى الدينِ أعوانًا ، ثم لقينا رجالكم بقُدَيْدٍ ، فدَعَوْنَاهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآنِ ، ودَعَوْنَاهم إلى طاعة الشيطانِ ، وحكم مروانِ وآلِ مروانِ ، فشتانَ لعمرُ الله ما بين النغيِّ والرشدِ ! ثم أقبلوا يُهْرَعُونَ وَيَرْفُونَ ^(٥) ، قد ضرب الشيطانُ بِجِرَانِهِ ^(٦) ، وغلت بدمائهم مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمُ إبليسُ ظَنَّهُ ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائبَ ، بكل مُهَنْدِ ذِي رَوْتِقٍ ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِطِكُمْ ^(٧) اللَّهُ بِعَذَابٍ

[١] قال الله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » . [٢] يريد عبد الله بن يحيى الكندي .

[٣] أي لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته . [٤] النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة .

[٥] زف الظلم وغيره كضرب زفا وزفياً وزفوفاً وأزف : أسرع .

[٦] جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحراه أي استولى عليهم . [٧] أسحطه : استأصله .

من عنده أو بأيدينا ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ إِنْ أَوْلَيْتُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ، وَآخِرَكُمْ شَرٌّ آخِرٍ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثَنٍ ، أَوْ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عَضُدِهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(١) . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، الأغانى ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٨ ، والقصد المريد ٢ : ١٦١)

٤٤١ - خطبة له في سب أهل المدينة وتقرير عنهم

وخطب بالمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَا لِي رَأَيْتَ رَسْمَ الدِّينِ فِيكُمْ بَاقِيًا ، وَأَثَارَهُ دَارِسَةً ، لَا تَقْبَلُونَ عِظَتَهُ ، وَلَا تَفْقَهُونَ مِنْ أَهْلِهِ حُجَّةً ، قَدْ بَلَيْتَ فِيكُمْ جِدَّتُهُ ، وَأَنْظَمْتُمْ عَنْكُمْ سُنَّتَهُ ، تَرَوْنَ مَعْرُوفَهُ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَعْرُوفًا ، إِذَا انْكَشَفَتْ لَكُمْ الْعِبَرُ ، وَأَوْضَحَتْ لَكُمْ النُّذُرَ ^(٢) ، تَحْمِيَتْ عَنْهَا أَبْصَارُكُمْ ، وَصَمَّتْ عَنْهَا أَسْمَاعُكُمْ ، سَاهِينَ فِي غَمْرَةٍ ، لَاهِينَ فِي غَفْلَةٍ ، تَنْبَسِطُ قُلُوبُكُمْ لِلْبَاطِلِ إِذَا نُشِرَ ، وَتَنْقَبِضُ عَنِ الْحَقِّ إِذَا ذُكِرَ ، مُسْتَوْحِشَةٌ مِنَ الْعِلْمِ ، مُسْتَأْنَسَةٌ بِالْجَهْلِ ، كَلِمًا وَقَعَتْ عَلَيْهَا مَوْعِظَةٌ زَادَتْهَا عَنِ الْحَقِّ نُفُورًا ، تَحْمَلُونَ قُلُوبًا فِي صُدُورِكُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَوْ لَمْ تَلْمِزْ لِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ أَنْزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَّصِدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ ، مَا تُعْنِي

[١] روى أنه قال عجب ذلك : « يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ أَخْبَرُونِي عَنْ ثَمَانِيَةِ أَسْمَاءٍ فَرَّصَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى الْعَرَبِ ، عَلَى حَبِّهِ لِلضَّعِيفِ ، لِحُبِّ النَّاسِ ، لَيْسَ لَهُ مِنْهَا وَلَا سَهْمٌ وَاحِدٌ ، فَأَخَذَ جَمِيعَهَا لِنَفْسِهِ مَكَابِرًا عَرَبِيًّا لِرَبِّهِ ، مَا يَقُولُونَ فِيهِ وَفِيمَنْ عَاوَنَهُ عَلَى فِعْلِهِ ؟ يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ بَلْفِي أَنْتُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي . . . الخ » وقد حذفته هنا لوروده في الخطبة السالفة . [٢] النذر : جمع نذير وهو النذير .

عنكم صحة أبدانكم إذا سقيمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سبباً غالباً
ينقاد له ، ويطيع أمره ، وجعل القلوبَ غالباً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب
مَيْلاً ، كانت الأبدان لها تبعاً ، وإن القلوب لا تلين أهلها إلا بصحتها ، ولا
يصححها إلا المعرفةُ بالله ، وقوةُ النية ، ونفاذُ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى
الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يأهل المدينة : داركم دارُ
الهجرة ، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نبت به داره ، وضاق به
قَرَارُه ، وآذاه الأعداء ، وتجهمت ^(١) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمرى لم
يكونوا أمثالكم ، متوازنين مع الحق على الباطل ، مختارين الآجل على العاجل ،
يصبرون للضراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاهدوا في سبيله ، وآووا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ، وآثروا الله على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ^(٢) . قال الله تعالى لأمثالهم ولن أهدى
بهدهم : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وأنتم أبناؤهم
ومن بقى من خلفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم ، أوتأخذوا بسنتهم ، تُعنى القلوب ،
صُمَّ الآذان ، اتبعتم الهوى ، فأرداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا موعظُ
القرآن تجرركم فتردجرون ، ولا تعظكم فتعتبرون ، ولا توظكم فتستيقظون ،
لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم ، ما سرتهم بسيرتهم ، ولا حفظتم
وصيتهم ، ولا احتذيتهم مثالهم ، لو شقت عنهم قبورهم ، فعرضت عليهم أعمالكم ،
لعجبوا كيف صُرف العذاب عنكم ! » .

(الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٨)

[١] تحببه وتعهم له : استقبله بوجه كريمة . [٢] الخصاصة : الفقر

وجاء في رواية العقدة الفريد :

« يأهل المدينة : أولكم خيرٌ أول ، وآخركم شر آخر ، إنكم أطعتم قُرءاءكم وفقهاءكم فاخْتَأَنُوكُمْ^(١) عن كتابِ غيرِ ذِي عِوَج ، بتأويلِ الجاهلين ، وانتحالِ المُبْطِلين ، فأصبحتم عن الحقِ ناكِبين^(٢) ، أمواتا غيرَ أَحْيَاءٍ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يأهل المدينة : يا أبناءَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ما أصحَّ أصلَكم ، وأسقمَ فرَعُكم ! كَأَنَّ آبَاءَكُمْ أَهْلَ اليقين ، وأهلِ المعرفةِ بالدين ، والبصائرِ النافذة ، والقلوبِ الواعية ، وأنتم أهلُ الضلالةِ والجهالة ، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم ، والأمانى فأضلتكم ، فتح اللهُ لكم بابَ الدين فسَدَدْتُمُوهُ ، وأغلقَ عنكم بابَ الدنيا ففتحتُمُوهُ ، سِرَاعٌ إِلَى الفِتْنَةِ ، بِطَاءٍ عَنِ السُّنَّةِ ، عُمَى عَنِ البرهانِ ، صُمٌّ عَنِ العِرفَانِ ، عَيْبِدِ الطَّمَعِ ، خُلَفَاءِ الجَزَعِ ، نِعَمَ مَا وَرَثْتُمْ آبَاءَكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وبئسَ ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به ، نصر الله آباءكم على الحق ، وخذلكم على الباطل ، كَانَ عِدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعِدَدُكُمْ كَثِيرًا خَبِيثًا ، اتبعتم الهوى ، فَأَرَدَاكُمْ ، واللَّهُو فأسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجركم فلا تردجِرُونَ ، وتعبِركم^(٣) فلا تعبرون . »

(العقد المرید ٢ : ١٦١)

٤٤٢ - خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في نائبي فِتْنَةٌ^(٤) ، وقائدُ ضلالة ، قد طال بُشُومُهَا ، واشتدَّ عَلَيْكَ نُغْمُومُهَا ، وتلوَّنتَ^(٥) مَصَائِدُ عَدُوِّ اللَّهِ فِيهَا ، وما

[١] خاتوكم . [٢] أى عادلين عنه منصرفين . [٣] المراد : تمطكم ، من العبرة ، ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذى فيها : « عبر الدرهم : وزنها » .
[٤] من إضافة الصفة الموصوف أى فى فتنة ناشئة ، أى حياة شابة .
[٥] تعددت وصارت ذات أوان أى نصب العود لنا المصايد ، ودبر المكاييد للإيقاع بنا .

نَصَبَ مِنَ الشَّرْكَ لِأَهْلِ الْغَفْلَةِ عَمَّا فِي عَوَاقِبِهَا ^(١) ، فَلَنْ يَهْدَّ عَمُودَهَا ، وَلَنْ يَنْزِعَ أوتَادَهَا ، إِلَّا الَّذِي بِيَدِهِ مُلْكُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، أَلَا وَإِنَّ لِلَّهِ بَقَايَا مِنْ عِبَادِهِ لَمْ يَتَحَيَّرُوا فِي ظُلْمَتِهَا ، وَلَمْ يُشَايِعُوا أَهْلَهَا عَلَى شُبُهَاتِهَا ، مَصَابِيحُ النُّورِ فِي أَفْوَاهِهِمْ تَرَهُو ، وَأَلْسِنَتُهُمْ بِحُجَجِ الْكِتَابِ تَنْطِقُ ، رَكَبُوا مَنَهْجَ السَّبِيلِ ، وَقَامُوا عَلَى الْعَلَمِ ^(٢) الْأَعْظَمِ ، هُمْ خُصَمَاءُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِهِمْ يُصْلِحُ اللَّهُ الْبِلَادَ ، وَيُدْفَعُ عَنِ الْعِبَادِ ، فَطُوبَى لَهُمْ وَلِلْمُسْتَصْبِحِينَ ^(٣) بِنُورِهِمْ ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ ^(٤) . (العقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(٥) فقال :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : إِنَّا خَارِجُونَ لِحَرْبِ مَرْوَانَ ، فَإِنْ نَظَّهَرْنَا نَعْدِلُ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلُكُمْ عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ، وَنَقْسِمُ بِبَنَاتِكُمْ فِيئَتِكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَمَنَّوْنَ لَنَا : فَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغانى ٢٠ : ١١٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦١)

[١] أى ولسنا منهم . [٢] العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستحقون في دعوتهم .
[٣] أى المستصيبين . [٤] ذكر الجاحظ هذه الحطبة ، وقال : ذهب عنى إسنادها ، وهى لأبي حمزة كما فى العقد الفريد .
[٥] وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ، وأمره أن يعفى فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقاتل عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ، وخرج أبو حمزة للقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حمزة ، وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بنى العباس ، ثم سار ابن عطية إلى اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

٤٤٤ - عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران^(١) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدَّبك أهلُك يا حجاج ! كيف أمِنتَ أنْ أجيبَكَ بمثل ما لقيتَنِي به ؟ أبعَدَ الموتِ منزلةً أصانَعك عليها ؟ فأطرق الحجاج أستحياءً وقال : خلُّوا عنه ، فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقَكَ إلا اللهُ ، فارجع إلى حربِه معنا ، فقال : هيهات ! غلَّ يَدًا مُطلِقُها ، وأسَرَّ رِقبةً مُعتِقُها .
(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

الخطب الوعظية والوصايا

٤٤٥ - خطبة سحبان بن زفر الوائلي^(٢) (توفي سنة ٤٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارٌ بلاغ ، والآخرة دار قرّار ، أيها الناس : تخذوا من دار

[١] كان رأس التمد من الحوارج الصمرية وخطيبهم وشاعرهم .

[٢] هو سحبان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في العصاحة والبيان ، فتميل : « أخطب من سحبان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموحدة ، على أنها تعزى إلى الامام عليّ - انظر نهج البلاغة ١ : ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي القالي - في الأمالي ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ - وأبو العضل الميداني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الاخبار م ٢ : ٢٥٣ - والحصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » - م ٣ : ص ٢ - .

وقد روى ابن نباتة في سرح العميون أنه قدم على معاوية وفد من خراسان ، فيهم سعيد بن عثمان ابن عفان ، فطلب سحبان فلم يوجد في منزله ، فاقترض من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تمنح ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان أن لا تقطع كلامي فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سحبان : « والعجم والجن والانس » اه ، واهل هذه الإطالة هي التي عافت الرواة عن حفظ ما يقول .

مَمَّرْكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ،
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَفِيهَا حَيَاتُكُمْ وَلِغَيْرِهَا ،
خُلِقْتُمْ ، إِنْ الرَّجُلُ إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ اللَّهُ ؟
قَدَّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ ، وَلَا تَخْلَفُوا كُفْلًا عَلَيْكُمْ .

(سرح العيون ص ٩٥)

٤٤٦ - خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : سَافِرُوا بِأَبْصَارِكُمْ فِي كَرِّ الْجَدِيدِينَ ^(١) ، ثُمَّ ارْجِعُوا هَا كَلِيلَةً
عَنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، فَإِنَّ الْمَاضِيَ عِظَةٌ لِلْبَاقِي ، وَلَا تَجْعَلُوا الْغُرُورَ سَبِيلَ الْعِجْزِ عَنِ
الْجِدِّ ، فَتَنْقَطِعَ حُجَّتُكُمْ فِي وَاقِفِ اللَّهِ سَائِلِكُمْ فِيهِ ، وَمَحَاسِبُكُمْ فِي مَا أَسْلَفْتُمْ ،
أَيُّهَا النَّاسُ : أَمْسِ شَاهِدٌ فَاخْذَرُوهُ ، وَالْيَوْمَ مُؤَدَّبٌ فَاعْرِفُوهُ ، وَغَدًا رَسُولٌ
فَأَكْرِمُوهُ . »

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٤٧ - خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اعْمَلُوا لِلَّهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، فَإِنَّكُمْ نَبَاتُ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدُ
نِقْمَتِهِ ، وَلَا تَغْرِسْ لَكُمْ الْآمَالَ ، إِلَّا مَا تَجْتَنِيهِ الْآجَالُ ، وَأَنْزِلُوا الرِّغْبَةَ فِيمَا يورث
الْعَطَبَ ، فَكُلْ مَا تَرْرَعُهُ الْعَاجِلَةُ ، تَقْلَعُهُ الْآجِلَةُ ، وَاحْذَرُوا الْجَدِيدِينَ ، فَهَمَا
يَكْرَهُانَ عَلَيْكُمْ ، إِنْ عُمَّتِي مِنْ بَيْتِي لِحُوقِ بَعْنِ مَضَى ، وَعَلَى أَثَرِ مَنْ سَلَفَ ،
يَمِضِي مَنْ خَلَفَ ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . » (مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٤٨ - خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد : حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ

قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقَصٌ ، وَبِلَاغٌ إِلَى دَارٍ
غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ
لِنَفْسِهِ ، وَرَاقَبَ رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أُخْرِجَ
مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبَّكُمْ وَعَدَّ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدَكُمْ مِنْ ذَنْبِهِ
عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ » . (تهذيب الكامل ١ : ٢٧)

كلام الحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٤٩ - خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله^(٢) :

« يَا بَنَ آدَمَ : بِيَعُ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ تَرَبِّحُهُمَا جَمِيعًا ، وَلَا تَبِيعُ آخِرَتِكَ
بِدُنْيَاكَ فَتَخْسِرَ هَا جَمِيعًا ، يَا بَنَ آدَمَ : إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَنَافِسْتَهُمْ فِيهِ ، وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَغْبِطَهُمْ عَلَيْهِ ، الشَّوَاءُ^(٣) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ ،
أُمَّتُكُمْ آخِرُ الْأُمَمِ ، وَأَنْتُمْ آخِرُ أُمَّتِكُمْ ، وَقَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟

[١] هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقد عزاها المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى البيهقي في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد أوردته في الجزء الأول ص ٢٧٠ .

[٢] هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتسكين وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . [٣] الإقامة .

المعاينة؟ فكأن قد . هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحاليها^(١)، وبقيت الأعمال
 قلائد في أعناق بني آدم . فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله
 لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون
 الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم ، من رأى
 محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً راثماً ، لم يضع لينة على لينة ، ولا
 قصبه على قصبه ، رُفِعَ له عِلْمٌ فشمَّرَ إليه^(٢) ، فالوَحَاءُ الوَحَاءُ^(٣) ، وَالنَّجَاءُ النِّجَاءُ ،
 غلامٌ تعرَّجون؟ أُنْتِمْ وَرَبُّ الكعبة ! قد أُسْرِعَ بخياركم : وأنتم كل يوم
 ترذُلون^(٤) ، فإذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة
 والسلام على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان
 صَفْوَتَهُ من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا مَوْضِعاً ينظر إليه
 أهلُ الأرض^(٥) ، وآتاه منها قُوْتاً وبلغةً ، ثم قال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
 رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فرغِبَ أقوام عن عيشه ، وسخِطُوا ما رضى له
 رَبُّهُ ، فأبعدهم الله وأسَخَقَهُمْ^(٦) .

يا بن آدم : طأ الأرض بقدميك ، فإنها عن قليل قَبْرُك ، واعلم أنك لم تزل
 في هَدْمِ عمرك مُنذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلاً نظر فتفكر ،
 وتفكر فاعتبر ، وأبصر فصبر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا ، فذهب الجزع
 بقلوبهم ، ولم يُدْرِكُوا ما طلبوا ، ولم يَرْجِعُوا إلى ما فارقوا .

[١] أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى هى حال وحالية : لبست الحلى ، والمعنى ذهبت بزخرفها
 الذى تزيفت به للناس فأصلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها » .
 وهو تحريف . [٢] وفى نسخة : « سما إليه » . [٣] الوحا ويمد : العجلة والإسراع
 [٤] أى تصيرون أردالا جمع رذل وهو اللون الحسيس .
 [٥] أى مَوْضِعاً سامياً . [٦] أى أبعدهم ، وفى نسخة : « وسخَقَهُمْ » أى أهلكهم

يا بن آدم : اذكر قوله : « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ^(١) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا » . عدلَ والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك ، خذوا صفا الدنيا ، وذروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا ، دعوا ما يُريكم إلى ما لا يريكم ، ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت ^(٢) السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبتُ أقواما ما كانت صحبتهم إلا فُرّة العين ، وجلاء الصدور ، ولقد رأيت أقواما كانوا - من حسنانهم أن تُردّ عليهم - أشفق ^(٣) منكم - من سيئاتكم أن تُعذبوا عليها - ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها ، مالى أسمع حسيبًا ، ولا أرى أنيسًا ، ذهب الناس وبقى النّسناس ^(٤) ، لو تكاشفتُم ما تدافنتُم ، تهاديتم الأطباق ، ولم تتهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَا » أعدوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قبلِ ربّه ، إن هذا الحق قد جهّد أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرّف فضله ، ورجا عافيته ، فمن حمد الدنيا ذمّ الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مُقيمٌ على سُخطه .

[١] أى عمله يجمعه في عنقه ، والتعبير به لما كانوا يقيّمون ويقشاهون بالطائر السائح والبارح ، استعيرت لما هو سبب الخير والشر . [٢] بحيث . [٣] أخوف . [٤] في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقى النّسناس » قيل : فما النّسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النّسناس كلام كثير منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوم في أشياء ، وليسوا منهم .

يا بن آدم : الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر في القلوب ،
وصدقه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٥٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ^(١) » قال :

« عَمَّ أَلْهَاكُمْ ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ ^(٢) ، هذا والله فَضَّحَ الْقَوْمَ ،
وَهَتَكَ السَّتْرَ ، وَأَبْدَى الْعَوَارِ ^(٣) ، تُنْفِقُ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهْوَاتِكَ سَرَفًا ، وَتَمْنَعُ فِي
حَقِّ اللَّهِ دِرْهَمًا ! ستعلم يَا أَلْكَع ^(٤) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛
فأما المؤمن : فقد أُلْجِهَ الْخَوْفُ ، وَقَوْمَهُ ذِكْرُ الْعَرَضِ ؛ وأما الكافر : فقد قَمَعَهُ
السَّيْفُ ، وَشَرَّدَهُ الْخَوْفُ ، فَأَذَعَنَ بِالْجِزْيَةِ ، وَسَمَّحَ بِالضَّرْبَةِ ؛ وأما المنافق : ففي
الْحُجْرَاتِ وَالطَّرِيقَاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلِنُونَ . وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ،
فَاعْتَبَرُوا إِنْكَارَهُمْ رَبَّهُمْ ، بِأَعْمَالِهِمُ الْخَيْثَةَ ، وَيَلَيْكَ ؟ قَتَلْتَ وَايَهُ ، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَيْهِ
جَنَّتَهُ ؟ » . (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥١ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا خَلَا بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ ، فَإِنْ
وَأَفَقَهُ حَمْدَ رَبِّهِ ، وَسَأَلَهُ الزِّيَادَةَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِنْ خَالَفَهُ أَعْتَبَ وَأَنَابَ ، وَرَاجَعَ مِنْ
قَرِيبٍ ، رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا وَعَظَّ أَخَاهُ وَأَهْلَهُ فَقَالَ : « يَا أَهْلِي : صَلَاتِكُمْ صَلَاتِكُمْ ،
زَكَاتِكُمْ زَكَاتِكُمْ ، جِيرَانِكُمْ جِيرَانِكُمْ ، إِخْوَانِكُمْ إِخْوَانِكُمْ ، مَسَاكِينِكُمْ

[١] النباهى بالكثرة . [٢] لا تنفى . [٣] العوار مثلث العين : العيب .

[٤] الكع : اللئيم والأحمق .

مسا كينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده ، فقال : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » يابن آدم : كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس ؟ » (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عمالك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر ، فإنك إذا رأيت سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر ، فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله عبداً كسب طيباً ، وأنفق قصداً ، وقدم فضلاً ، وجّهوا هذه الفضول ^(١) حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ، ويؤثرون بالفضل ، ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها قرحاً ، فأياكم وهذه السبل المتفرقة ، التي جماعها الضلالة ، وميعادها النار ، أدركت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفتشون خدودهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكك

[١] جمع فضل وهو الزيادة من المال وغيره .

رقابهم ، إذا عملوا الحسنة سررتهم ، وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءت لهم ، وسألوا الله أن يغيرها لهم ، يابن آدم : إن كان لا يُغنيك ما يكفيك ، فليس ها هنا شيء يُغنيك ، وإن كان يُغنيك ما يكفيك ، فالقليل من الدنيا يكفيك ، يابن آدم : لا تعمل شيئاً من الحق رياءً ، ولا تتركه حياءً . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٤ — خطبة أخرى

وكان يقول : « إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا ، وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ، ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبةً ، في علمهم ، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبةً في دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم ، وزهدوا في علمهم ، لما رأوا من سوء موضعه عندهم » ، وكان يقول : « لا أذهب إلى من يُوارى عنى غناه ، ويُبدي لى فقره ، ويُغلق دونى بابه ، ويعنى ما عنده ، وأدع من يفتح لى بابه ، ويُبدي لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٥ — خطبة أخرى

وكان يقول : « يابن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مؤتم ، وعاج اغتم ، وأعرابي لافقه له ، ومنافق مكذب ، ودنياوى^(١) مُترَف ، نَعق بهم ناعق فاتبعوه ، قرأش نار^(٢) ، وذبان طمع ، والذي نفسُ الحسنِ بيده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا في عافية

[١] نسبة إلى دنيا . [٢] أى هم كالغراش يتهافت على النار يحسبها نافمة له ، فتحرقه .

مستورون ، فإذا نزل بلاءهم صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ،
والمنافق إلى نفاقه ، أي قوم : إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا
إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ
من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٦ - خطبة أخرى

وقال في يوم فطر - وقد رأى الناس وهيئاتهم - : « إن الله تبارك وتعالى
جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يستبِقون فيه بطاعته إلى مرصاته ، فسبق أقوام
ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب ، في اليوم الذي
يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطون ، أما والله أن لو كشف الغطاء ، لشغل
محسن بإحسانه ، ومُسيء بإساءته ، عن ترجيل^(١) شمر ، أو تجديد ثوب » .
(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

٤٥٧ - مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولي عمر بن هبيرة الفزارى العراق - وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك -
استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشعبي ، سنة ثلاث ومائة ، فقال
لهم : إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ
عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاني ما تررون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ،
أعرف في تنفيذ الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن
سَطوته ، فما تررون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقيّة ، وكان ابن هبيرة
لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال :

[١] وفي رواية الكامل للبرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن وتكثيره
وإرخاؤه وإرساله .

« يابن هبيرة : خَفِ اللهُ في يزيد ولا تَحَفْ يزيدَ في اللهُ ، إن اللهُ يَمْنَعُكَ من يزيد ، وإن يزيد لا يَمْنَعُكَ من اللهُ ، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكًا ، فَيُرِيكَ عن سريرك ، ويخرجك من سَعَةِ قَصْرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، ثم لا يُنَجِّبُكَ إلا عَمَلُكَ ، يابن هبيرة : إن تَعَصَى اللهُ ، فإنما جعل اللهُ هذا السلطانَ ناصرًا لدينِ اللهِ وعبادِهِ ، فلا تَرَكِبَنَّ دينَ اللهِ وعبادِهِ بسلطانِ اللهِ ، فإنه لاطاعةُ لِمَخْلُوقٍ في معصيةِ الخالقِ » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يُوشِكُ أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكةِ اللهِ فَظًّا غليظًا ، لا يَعْصِي اللهُ ما أمرُهُ ، فيخرجك من سَعَةِ قَصْرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، فلا يُغْنِي عنك ابن عبد الملك شيئًا ، وإني لأرجو أن اللهُ عزَّ وجلَّ سيَعْصِمُكَ من يزيد ، وإن يزيد لا يَمْنَعُكَ من اللهُ ، فاتقِ اللهُ أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر اللهُ إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعةِ يزيد ، نظرةً يَمَقُتُكَ بها ، فيُغْلِقُ عنك بابَ الرَّحْمَةِ ، واعلم أني أخوَّفُكَ ما خوَّفُكَ اللهُ سبحانه حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وَإِذَا كُنْتَ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ في طاعتهِ كَفَاكَ بَوَائِقُ ^(١) يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصيةِ اللهِ وكَلَّمَكَ اللهُ إلى يزيد حين لا يُغْنِي عنك شيئًا » .

فبكى عمر بن هبيرة بكاءً شديدًا ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا ^(٢) له فَسَفَسَفَ لَنَا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٥٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان واليًا على البصرة - الحسن البصرى يومًا ، فقال :

[١] جمع بائنة وهي الداهية . [٢] سفسف عمله : لم يبالغ في إحكامه .

يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خلق الدنيا وما فيها من ريشها (١) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقال الحسن : « أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجعت (٢) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يُعْطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّر له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلفه ، وأنزل عليه كتاباً مهيئاً ، وحدد له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فما بلغنا إليه بفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب مخرَجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها »

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنحب ربنا ، فقال الحسن :

« لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأُنزل الله

تعالى عليه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » . فجعل

سبحانه أتباعه صلى الله عليه وسلم علماً للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق

[١] الرياش : اللباس الفاخر والمذل والحصب والمعاش . [٢] أى ملت إليها ، من ترجعت به الأرجوحة : مالت .

الله أيها الرجل في نفسك ، وإيّم الله لقد رأيتُ أقوامًا كانوا قبلك في مكانك ،
يَعْلُونَ المنابرَ ، وتهتَزُّ لهم المراكبُ ، وَيَجْرُؤُونَ الذيولَ بَطْرًا ورياءَ الناسِ ،
يبنون المَدَرَ (١) ، وَيُوَثِّرُونَ الأَثَرَ (٢) ، ويتنافسون في الثياب ، أُخْرِجُوا من
سلطانهم ، وسُلبوا ما جَمَعُوا من دنياهم ، وَقَدِمُوا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم ،
فالويلُ لهم يوم التغابن (٣) ، ويا ويحهم - يَوْمَ يَفِرُّ المُرءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٠)

٤٥٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيّدك الله ، إن أخاك من نصّحك في دينك ، وَبَصْرَكَ عيوبك ،
وهداك إلى مَرَشِدِكَ ، وإن عدوك من غرّك ومناك ، أيها الأمير اتق الله فإنك
أصبحتَ مخالفا للقوم في الهدى والسيرة ، والعلائية والسريرة ، وأنت مع ذلك
تتمنى الأمانى ، وَتَرَجَّعُ في طلب العذر ، والناس أصالحك الله طالبان ، فطالب
دنيا ، وطالب آخرة ، وإيّم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر
واخترِم (٤) ، فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفانى ، وتترك الباقي ، فتكون من
النادمين ، واعلم أن حكيمًا قال :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيا

[١] المدر : قطع الطين اليابسة ، والمراد يبنون القصور .

[٢] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة
بالضم والكسر ، والجمع أثر كفرصة وفرص . [٣] غبنه وبيع يغبه ، والتغابن : أن يغبن بعض
القوم بعضاً ، وسمى يوم القيامة يوم التغابن ، لأن أهل الجنة تغيب أهل النار بأخذ منازلهم و
الجنة لو آمنوا . [٤] هلك .

نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر^(١) ، ومن الضَّلالة بعد الهدى ، لقد حَدَّثت
أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كَانَ يقول : « كفى بالمرء خيَانَةً أَنْ يكون
للخَوْنَةِ أَمِينًا ، وعلى أعمالهم معينا » . (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥١)

٤٦٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط
وروى أن الحجاج بنى داراً بواسِط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما
دخلها قال :

« الحمد لله : إن الملوك ليرَوْن لأنفسهم عزًا ، وإنا آتَرى فيهم كل يوم عِبْرًا ،
يَعْمِد أحدهم إلى قصر فيشِيِّده ، وإلى فرش فينَجِّده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب
فيحسِّنُها ، ثم يُحْفُ به ذُبَابُ طَمَعٍ ، وفرَاشُ نارٍ ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا
ما صنعتُ ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أمَّا أهل
السموات فقد مقتوك ، وأمَّا أهل الأرض فتمد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخرَّبت
دار البقاء ، وغرَّرت في دار الغرور ، لتَدِلَّ في دار الجُبور ، ثم خرج وهو يقول :
إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، لِيَبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتُمونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يأهل
الشام أيشتمنى عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تُنكرون ! ثم أمر
بإحضاره فجاء وهو يحرك شفثيه بما لم يُسَمِع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال :
يا أبا سعيد ، أمَّا كَانَ لإمارتي عليك حقٌّ حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله

[١] الحور : القصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور »
أى من القصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من كور الدامة وهو
لغها وجمعها . [٢] واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
[٣] التنجيد : الترين ، والنجاد : الذى يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

أيها الأمير، إن من خَوَّفَكَ حتى تبلغَ أَمْنَكَ أرفقُ بك وأحبُّ فيك ممن أَمَّنَكَ حتى تبلغَ الخوفَ ، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فافعلِ الأوَّلَى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحبَّاه .

وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عِلْمُ عليّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية^(١) وغلَّف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحبي عند شِدَّتِي ، ويا وليَّ نعمتي ، ويا إلهي وإلهَ آبائِي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّتَه ، واصرف عني أذاه » ، ففعل ربي عز وجل .

(الحسن البصري لابن الجوري ص ٥٣ ، والمبىة والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمانى السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٦١ - صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(٤) كل مظلوم ،

[١] طيب . [٢] أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامها في سلك الوصايا .

[٣] هداية ورشاد . [٤] اسم من الإنصاف .

ومَفزَع كل ملهوف ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالرَاعِي الشفِيق على إبله ،
الرفِيق الذي يرتاد لها أطيبَ المرعى ، ويذودها عن مراتع الهَلَكَة ، ويحميها
من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقرّ (١) ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين
كأَب الحانِي على ولده ، يسعى لهم صِغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في
حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالأم الشفِيقَة ،
البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كُرْهاً ، ووضعته كُرْهاً ، وربّته طفلاً ، تسهر بسهره ،
وتسكن بسكونه ، تُرضعه تارةً ، وتقطّعه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغنم
بشكايته ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّي
صغيرهم ، ويعون كبيرهم ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ،
تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين هو
القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ،
وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبداً تمنه
سيده ، واستحفظه ماله وعباله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق
ماله ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ،
فكيف إذا أتاها من يلبسها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا
قتلهم من يقتصّ لهم ؟ واذكري يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وفلةَ أشياعك
عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم يا أمير
المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك
أحبّاءك ، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك يومَ يقرّ المرءُ

مِنْ أُخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، وَاذْكَرِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا مُبْعَثٍ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فَالْأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، فَالآنَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ ، قَبْلَ حُلُولِ الْأَجْلِ ، وَاتَّقِطَاعَ الْأَمَلِ ، لَا تَحْكَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ ، وَلَا تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ، وَلَا تَسَلِّطِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتَقِبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا^(١) وَلَا ذِمَّةً ، فَتَبُوءَ بِأَوْزَارِكَ ، وَأَوْزَارٍ مَعَ أَوْزَارِكَ ، وَتَحْمِلَ أَثْقَالَكَ ، وَأَثْقَالَ مَعَ أَثْقَالِكَ ، وَلَا يَغْرَتَنَّكَ الَّذِينَ يَتَنَعَمُونَ بِمَا فِيهِ بِؤْسُكَ ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ طَيِّبَاتِكَ فِي آخِرَتِكَ ، لَا تَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ غَدًا ، وَأَنْتَ مَأْسُورٌ فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ ، وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فِي مَجْمَعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ^(٢) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، إِنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ أَبْلُغْ بَعْضَتِي مَا بَلَّغَهُ أَوْلُو النُّهْيِ مِنْ قَبْلِي ، فَلَمْ آلُكَ^(٣) شَفَقَةً وَنُصْحًا ، فَأَنْزِلْ كِتَابِي إِلَيْكَ كَمَا دَاوَى حَبِيبِهِ ، يَسْقِيهِ الْأَدْوِيَةَ الْكُرِيهَةَ ، لِمَا يَرْجُوهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ ، وَالسَّلَامِ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتَهُ .

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٦٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلي يا أبا سعيد بموعظة

فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو

كأنّ قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم
ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى ، وإن أذاقك طعم
حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن
الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٦٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز : اكتب إلى يا أبا سعيد بدم الدنيا ،
فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظعن^(١) وانتقال ، وليست بدار
إقامة على حال ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبةً ، فاحذرّها فإن الراغب فيها تارك ،
والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب
الحاذق ، وجدها تُذل من أعزها ، وتفرّق من جمعها ، فهي كالسمّ يأكله من
لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حتفه ، فكن فيها يا أمير المؤمنين
كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبر على لاؤها^(٢) ،
أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرّها ، ولم يغتر بزينتها ، فإنها غدارة
ختالة^(٣) خداعة ، قد تعرضت بآمالها ، وتزينت لخطاياها ، فهي كالعروس ،
العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة^(٤) ، وهي ، والذي بعث محمداً بالحق ،
لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها ، واحذر عثرتها ، فالرّخاء فيها
موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤدّى إلى الهلكة والفناء .

[١] ارتحال . [٢] شدتها . [٣] خداعة . [٤] من الوله بالتحريك وهو ذهاب العقل
من شدة الوجد .

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أَمَانِيَّهَا كَاذِبَةٌ ، وَآمَالُهَا بَاطِلَةٌ ، وَصَفْوُهَا كَدْرٌ ،
وَعَيْشُهَا نَكْدٌ ، وَتَارِكُهَا مُوَفَّقٌ ، وَالْمَتَمَسِّكُ بِهَا هَالِكٌ غَرِيقٌ ، وَالْفَطْنُ اللَّيْبُ
مَنْ خَافَ مَا خَوَّفَهُ اللَّهُ ، وَحَذِرَ مَا حَذَّرَهُ ، وَقَدَّرَ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ،
فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ الْيَقِينُ ، الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَارَ عَقُوبَةٍ ، لَهَا يَجْمَعُ مِنْ
لَا عَقْلَ لَهُ ، وَبِهَا يَفْتَرُّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، وَالْحَازِمُ اللَّيْبُ مَنْ كَانَ فِيهَا كَالْمَدَاوِي
جِرَاحِهِ ، يَصْبِرُ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، لِمَا يَرْجُو مِنَ الْعَافِيَةِ ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ
الدَّارِ ، وَالْدُنْيَا وَآيْمُ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ ، وَالْمَتَوَسُّطُ بَيْنَهُمَا
الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَائِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ تَاجِيَا «

وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابَهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ : يَرْحَمُ
اللَّهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَوْقِظُنَا مِنَ الرَّقْدَةِ ، وَيُنَبِّئُنَا مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَاللَّهُ هُوَ مِنْ
مُشْفِقِي مَا أَنْصَحَهُ ! وَوَاعِظِي مَا أَسَدَّقَهُ وَأَفْصَحَهُ !

(الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ ص ٥٤ ، وَسِيرَةُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ ص ١٢١)

٤٦٤ — كَلِمَاتُ حِكْمَةٍ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ

وَقَالَ : احْذَرِ مَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ حَدِيثَ غَيْرِكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْقُلُ إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثَكَ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَا تَنَالُونَ مَا تَحْبُونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ ، وَلَا تُدْرِكُونَ
مَا تَأْمَلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ . الصَّبْرُ صَبْرَانُ : صَبْرٌ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، وَصَبْرٌ
عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّبِيرِينَ . أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ
الْهُوَى . لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَجْمَعُ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ وَحِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ ، وَيَجْرِي فِي الْحَقِّ مَجْرَى
السُّفَهَاءِ . مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ

أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لو تائب . احذروا العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . لا تكن شاة الراعى أعقل منك ، تجرها الصيحة ، وتطردها الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدل المنافق ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسره علانيته ، ومشهده مغيبه . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله ، والذكر من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشر ما استعمل التسوية ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مرة لا يصبر عليه إلا من عرف حسن العافية ، ومن رجا الثواب خاف العقاب . حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الذئور^(١) ، واقدعوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلعة^(٣) ، وإنكم إلا تزعوها^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمذك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليلاك . إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس ضراخاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لوقت الليل حتى ينحني ظهرك ، وصمت النهار حتى يسقم جسمك ، لم ينفعك ذلك إلا بورع صادق . وسمع

[١] ذئور القلوب : اتحاء الذكر منها . [٢] كفوها واكبحوها .

[٣] مس طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » .

[٤] وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية : « تمنعوا » .

رجلا يُكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسيك عليك لسانك ، فقد قيل : ماشيء أحقّ بسجّين من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خلق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذلّ وقال : «يا عجباً لقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذِنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعري ! ما الذى ينتظرون ؟ وقال : اجعل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ، ولا تعمُرُها ، وقال : ليس العَجَب ممن عَطِب كيف عطب ، إنما العجب ممن نجا كيف نجا » ، وقال : « من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحرص على العلم ، وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبرّ في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال . »

(الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى ١ : ١١٠ - ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

٤٦٥ — خطبة واصل بن عطاء ^(١) المنزوعة الراء

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا في دُنُوّه ، ودنا في عُلوّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يثُوده ^(٢) حِفْظُ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداء ، وَعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شىء

[١] هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعرلين ، وأحد الأئمة المتكاملين ، وكان يلثغ بالراء ، فيجعلها عينا ، فاستطاع بهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبه ، وخالد بن صفوان ، والفصل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتحل هذه الخطبة وعراها من حرف الراء ، وأبدع في القول :

فضل عبد الله خطبة واصل وصوغف في قسم الصلوات له الشكذ

(والشكذ بالضم:المطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . [٢] يثقله ، آده أودا (كنصر) بلغ منه المجهود .

خَلَقَهُ ، وَتَمَّ مَشِيئَتَهُ ، وَأَوْضَحَ حِكْمَتَهُ ، فَدَلَّ عَلَى أُلُوهِيَّتِهِ ، فَسَبَّحَانَهُ لَأَمْعَقِّبِ (١)
لِحُكْمِهِ ، وَلَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ ، تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعِظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ ،
وَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلَهُ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، إِلَهًا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَعَظُمَتْ آلَاؤُهُ ، وَعَلَا عَنْ صِفَاتِ
كُلِّ مَخْلُوقٍ ، وَتَنَزَّاهُ عَنْ شَبِيهِهِ كُلِّ مَصْنُوعٍ ، فَلَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ
الْعُقُولُ وَلَا الْأَفْهَامُ ، يُعَصَى فَيُحْلَمُ ، وَيُدْعَى فَيَسْمَعُ ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ ،
وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَأَشْهَدُ شَهَادَةَ حَقٍّ ، وَقَوْلَ صَدَقَ ،
بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ ، وَصِحَّةِ طَوِيلَةٍ ، أَنْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدَهُ وَنَبِيَّهُ ، وَخَالَصْتَهُ (٢)
وَصَفِيَّهُ ، ابْتَعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ بِالْبَيِّنَةِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، فَبَلَّغَ مَا أُنْكِتَهُ (٣) ، وَنَصَحَ
لَأُمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تَأْخُذُهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَأُمَّمٍ ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْهُ زَعْمُ
زَاعِمٍ ، مَاضِيًا عَلَى سُنَّتِهِ ، مُؤَفِيًا عَلَى قَصْدِهِ ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ،
وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ وَأَزْكَى ، وَأَتَمَّ وَأَنْمَى ، وَأَجَلَ وَأَعْلَى صَلَاةِ صَلَاةِهَا عَلَى صَفْوَةِ
أَنْبِيَائِهِ ، وَخَالَصَةِ مَلَائِكَتِهِ ، وَأَضْعَافِ ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ .

أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ مَعَ نَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، وَالْمَجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ ،
وَأَحْضُكُمْ عَلَى مَا يُدْنِيكُمْ مِنْهُ ، وَيُزِيلُكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنْ تَقْوَى اللَّهُ أَفْضَلُ زَادَ ، وَأَحْسَنُ
عَاقِبَةٌ فِي مَعَادٍ ، وَلَا تُلْهِمِيَنَّكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَرِيئَتِهَا وَخُدْعُهَا ، وَفَوَاتِنَ لَذَائِهَا ، وَشَهْوَاتِ
آمَالِهَا ، فَإِنَّهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، وَمُدَّةٌ إِلَى حِينٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَرْوُلُ ، فَكَيْفَ عَاطِيَنَّكُمْ
مَنْ أَعَاجَبِيَّهَا ، وَكَمْ نَصَبَتْ لَكُمْ مِنْ حِبَائِلِهَا ، وَأَهْلَكَتْ مِنْ جَنَحِ إِلَيْهَا ، وَاعْتَمَدَ

[١] لَارَادَ لَهُ . [٢] هَذَا الشَّيْءُ خَاصَّةٌ لَكَ : أَيْ خَاصَّةٌ .

[٣] الْمَأْنَكَةُ : بَعْضُ الْأَمْرِ وَتَفْتِيحُ : الرَّسَالَةُ .

عليها ! أذاقتهم خلواً ، ومزجت لهم سمماً ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا
المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاتفوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ،
واستخدسوا التلاد ، قبضتهم بمخملها ^(١) ، وطحنتهم بكلكلها ^(٢) ، وعضّتهم
بأنيابها ، وعاضّتهم من السّعة ضيقاً ، ومن العزّة ذللاً ، ومن الحياة فناءً ، فسكنوا
اللحود ، وآكلهم الدود ، وأصبحوا لآ ترى إلامسا كينهم ، ولا تجد إلامعالمهم ،
ولا تحسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً ، فتزودوا عافاكم الله ، فإن أفضل
الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلمكم تفليحون ، جعلنا الله وإياكم ممن
ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه ،
أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب . إن أحسن قصص
المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزّكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا
تلى عليكم فأنصتوا له ، واسمعوا لعلمكم تفليحون ، أعوذ بالله القوي ، من الشيطان
الغوّي ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ،
ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ثم قال :

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين ، وأعاذنا وإياكم من
العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم . (مفتاح الأفسار ص ٢٧٠)

٤٦٦ — وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابدلوا نداكم ، وكفوا أذاكم ،
واعفوا إذا قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتكم ، فإن خير المال ما أفاد حمداً ، أو نقي

[١] أحمل : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والمراد احتوت عليهم .

[٢] الكلكل : الصدر .

ذما ، ولا يقولنَّ أحدُكم : ابدأ بمن تَعْمَلُ ، فإنما الناس عيالُ الله ، قد تكفَّلَ اللهُ بأرزاقهم ، فمن وَسَّعَ أخلفَ اللهُ عليه ، ومن ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللهُ عليه .

(الأمالي ٢ : ٢٢)

٤٦٧ — وصية عبد الله بن شداد لابنه ^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :
« يا بُنَيَّ ، إني أرى داعيَ الموت لا يُقْلَعُ ، وأرى من مَضَى لا يرجع ،
ومن بقي فإليه يَنزِعُ ^(٢) ، وإني مُوصِيكَ بوصية فاحفظها ، عليك بتقوى الله
العظيم ، وأبِئكَنَّ أولىَّ الأمور بك شُكْرُ اللهِ ، وَحُسْنُ النية في السِّرِّ وَالْعَلانية ،
فإن الشُّكْرَ يزداد ، وَالتقوى خيرُ زاد ، وَكُنْ كما قال الحُطَيْبَةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدٌ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَعْضِي بَعِيدٌ

ثم قال : أيُّ بُنَيَّ ، لا ترهَدَنَّ في معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالأيام ذات
نوائب ، على الشاهد وَالغائب ، فكم من راغِبٍ أصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أن
الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمان يرَ الهوان ، وَكُنْ أَيُّ بُنَيَّ كما قال
أبو الأسود الدؤلي :

وَعُدَّ مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلاً وَنِعْمَةً عَلَيْكَ ، إِذَا مَا جَاءَ لِلْعُرْفِ طَالِبٌ ^(٣)
وَإِنْ أَمراً لَا يُرْتَجَى الْخَيْرُ عِنْدَهُ يَكُنْ هَيْبَةً ثِقْلاً عَلَى مَنْ يَصَاحِبُ

[١] هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة الليثي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث
على الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . [٢] يشناق . [٣] العريف : المعروف .

فلا تمنعنَ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغبٌ
 رأيتُ التوا هذا الزمانِ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوائبُ^(١)

ثم قال : أي بني ، كن جواداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
 الخلق ، فإن أحمدَ جود المرء الإنفاقُ في وجه البرِّ ، وإن أحمدَ بُخل الحرِّ الضنُّ^(٢)
 بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري :

أجودُ بمكنون التلاد ، وإنني بسرِّك عمَّن سألني أضنينُ^(٣)
 إذا جاوز الإثنين سرِّ فإنه بنثٌ ، وتكثير الحديثِ قينُ^(٤)
 وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتني مكانُ بسوادِ الفؤادِ مكينُ^(٥)

ثم قال : أي بني ، وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن
 الكريم يَحْتال ، والدنيء عيال^(٦) ، وكن أحسنَ ما تكون في الظاهر حالاً ، أقلُّ^(٧)
 ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند
 الإنفاد^(٧) نِعْمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي^(٨) :

وجَدْتُ أبا قَدَ أورثه أبوه خِلالاً قد تُعدُّ من المعالي^(٩)
 فأكرمُ ما تكونُ على نفسى إذا ما قلَّ في الأزْمامِ مالى
 فتَحْسُنُ سِيرَتِي وأصونُ عِرْضِي ويجمُلُ عند أهل الرأى حالى

[١] التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اعوج .

[٢] الصن بالكسر والصنارة بالفتح : البخل .

[٣] سال يسال من باب خاف لغة في سأل المهورز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

[٤] نث الحديث : أفتاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الاثنين للضرورة .

[٥] سواد الفؤاد ، وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبته . [٦] العيال جمع عيل بكيد :

وهو من يلزم الانفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) . [٧] الفقر .

[٨] هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . [٩] بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد .

وإن نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم أخضُصن بِجَفَوَتِي المَوَالِي^(١)
ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حياً لها^(٢) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب
العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتى شتمُ ابنِ عمى وما أنا مُخلفٌ من يرْتَجِبِنِي
وَكَلِمَةً حاسِدٍ فى غيرِ جُرْمٍ سمعتُ فقلتُ مَرى فانفُذِنِي^(٣)
فما بُوها عَلَى ولم تَسُوْنِي ولم يَمَرَق لها يوما جَبِينِي
وذو اللَوْنين يلقانى طَلِيقا وليس إذا تَغَيَّب يَأْتَلِينِي^(٤)
سمعتُ بِعَيْبِهِ فصفحتُ عنه مُحَافِظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا تُواخِ امرأً حتى تعاشره ، وتفقد موارده ومصادره ،
فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٥) ، فواخه على إقالة العثرة ، والمواساة
فى العُسرَة ، وكن كما قال المقنّع الكِنْدِي :

أَبُلُ الرجال إذا أردت إِياءَهُم وَتَوَسَّمَنَّ فَمِائِهِم وَتَفَقَّدِ
فإذا ظفرت بذي اللبابة والثقى فَبِهِ اليَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) فاشدُدِ^(٦)
وإذا رأيت (ولا محالة) زَلَّةً فعلى أخيك بِفَضْلِ حَمَلِكِ فارزُدِ

ثم قال : أى بنى ، إذا أحببت فلا تُفْرِط ، وإذا أبغضت فلا تُشْطِط^(٧) ، فإنه
قد كان يقال : أَحْبَبُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أن يكون بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ،

[١] الموالى جمع مولى وهو هنا القريب . [٢] قعد حيا له وبجيا له : بازائه ، أى إن تركتها
تجرى فى مجراها . [٣] نفذم : جازم . [٤] اثنتى : قصر ، أى لا يقصر فى نهش عرضى .
[٥] الخبر والخبرة بكسر الخاء فهما ، ويضمان : العلم بالشىء ، كالاختبار .
[٦] لب من باب تعب ، وفى لغة كقرب مع الفتح فى المضارع لبابة : أى صار ذا لب بالضم
وهو العقل . [٧] شط فى حكمه وأشط : جار .

وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَّا ، عسى أن يكون حبيبك يومًا مَّا ، وكن كما قال هُدْبَةُ
ابن الخَشْرَمِ العُدْرِي :

وكن معقلًا للحلمِ واصْفَحْ عن الخِذَا فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا حَيَّيْتَ وَسَامِعُ (١)

وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ (٢)

وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ

وعليك بصُحبة الأخيار، وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار، فإنه عار،
وكن كما قال الشاعر :

أَفْحَبِ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رُبَّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرَبِ

وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَانَمْتَ فَاشْتِمِ ذَا حَسَبِ

إِنَّ مَنْ شَانَمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ (٣)

وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبِ

(الأمل : ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والنبين ٢ : ٥٧ ، ١٣٨)

٤٦٨ — وصية أسماء بن خارجة لابنته (٤)

زَوْجِ أَسْمَاءَ بِنَ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هِنْدًا مِنْ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَمَا
كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبِنَاءَ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بِنْتِي ، إِنْ الْأَمَهَاتِ يُوَدَّبْنَ الْبِنَاتِ ،
وَإِنْ أُمَّكَ هَلَكْتَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ
الْحُسْنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لِلوُدِّ ، وَإِيَّاكَ وَالغَيْرَةَ ،
فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الطَّلَاقِ ، وَكُونِي لَزُوجِكَ أُمَّةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي
الْقَائِلُ لَأُمَّكَ :

[١] العقل : اللجأ ، والحا : الفحش . [٢] نزع عن الشيء : انهمى عنه .

[٣] الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس . [٤] أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ،

وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته .

خذي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيحِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(١)
وَلَا تَنْقُرِي نَقْرَةَ الدُّفِّ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحَبُّ يَذْهَبُ
(الأغانى ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٦٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهْرِيُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ
كاليوم ، ولا سمعتُ كأربع كلمات ، تكلم بهن رجلٌ عند هشام ، دخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاحٌ مُلْكِك ،
وَاستقامةٌ رِعْيَتِكَ » . قال : وما هنَّ ؟ قال : « لَا تَعِدْ عِدَّةً لَا تَتَّقِي مِنْ نَفْسِكَ
بِإِنجَازِهَا ، وَلَا يَغُرُّكَ الْمُرَّةُ تَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا ، إِذَا كَانَ الْمُتَجَدِّرُ وَعَرًّا ، وَاعْلَمْ
أَنَّ لِلْأَعْمَالِ جَزَاءً ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَغْتَاتٍ ، فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ » .
قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث المهدى ، وفي يده لقمَةٌ قد
رفعها إلى فيه ، فأمسكها ، وقال : وَيَحْكُ ! أَعِدْ عَلَيَّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين
أَسِغْ^(٢) لِقْمَتِكَ ، فقال : حديثُك أعجبُ إليَّ . (زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٧٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٣) رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، قال :
« أَمَا بَعْدُ حَفِظْكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطْكُمْ وَوَفَّقْكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ ،
فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ،
وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفَهُمْ فِي

[١] السورة : الحدة . [٢] ابتلع . [٣] هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ .

صنوف الصناعات ، وَضُرُوبِ المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ،
فجعلكم معشرَ الكُتَّابِ في أشرف الجهات ، أهلَ الأدبِ وَالرُّوِيَةِ وَالْعِلْمِ وَالرِّوَايَةِ ،
بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يُصْلِحُ اللهُ للخلق
سلطانهم ، وتعمُرُ بلادهم ، لا يستغني الملكُ عنكم ، ولا يوجد كَافٍ إلا منكم ،
فوقمكم من الملوك مَوْقعَ أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يُبْصِرُونَ ،
وَألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يَبْطِشُونَ ، فأمتعكم اللهُ بما خصكم
من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه ^(١) من النعمة عليكم .

وليس أحدٌ أحوجَ إلى اجتماعِ خِلالِ الخيرِ المحمودِ ، وخصالِ الفضلِ المذكورةِ
المعدودةِ ، منكم أيها الكُتَّابُ ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكتابَ يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مُهِمَّاتِ أموره ،
أن يكون حليماً في موضعِ الحِلْمِ ، فهِيماً في موضعِ الحُكْمِ ، مقداماً في موضعِ
الإقدامِ ، مُحْجَماً في موضعِ الإحْجَامِ ، مُؤَثِّراً لِلْعَفَافِ ، والعدلِ والإِنصَافِ ،
كَتُوماً لِلأَسْرَارِ ، وَفِيّاً عندَ الشدائدِ ، عالماً بما يأتي من النوازلِ ، يضعُ الأمورَ
مواضعَها ، وَالطَّوَارِقَ أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكّمه ،
فإن لم يُحْكِمْه ، أخذ منه بمقدار يكتب به ، يعرفُ بغيرِةِ عقله ، وحسنِ أدبه ،
وفضلِ تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدُرُ عنه قبل صدوره ، فيعدُّ
لكل أمر عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ ^(٢) ، ويهيئُ لكل وجهِ هيئته وعادته ، فتنافسوا يا معشر
الكتابِ ، في صنوفِ الآدابِ ، وتفقهوا في الدينِ ، وابدءوا بعلمِ كتابِ اللهِ
عزَّ وجلَّ والفرائضِ ، ثم العربيةِ ، فإنها ثقافٌ ^(٣) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخَطَّ ،

[١] أسببه . [٢] العتاد : العدة . [٣] الثقاف في الأصل : ما سوى به الرماح .

فإنه حليةُ كتبكم ، واروؤوا الأشعار ، واعرِفوا غريبها وَمعانيها ، وأيام العرب
والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا
تضيّعوا النظر في الحساب ، فإنه قوامُ كُتّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن
المطامع سنيها ^(١) ، ودنييها ، وسفساف ^(٢) الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلّة للرقاب ،
مفسدةٌ للكتّاب ، ونزّهوا صناعتكم عن الدنّاءات ، وأزبّوا ^(٣) بأنفسكم عن
السّعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكِبَر والصِّلَف والمظمة ،
فإنها عداوةٌ مجتَلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم ، وتواصوا
عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنّبل من سلفكم .

وإن نَبأَ الزمان برجلٍ منكم فاعطفوا عليه وواسّوه ، حتى يرجع إليه حاله ،
ويثوب ^(٤) إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم الكِبَرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه ،
فزوروه وعظّموه وشاوروه ، واستظهروا ^(٥) بفضل تجربته ، وقدم معرفته ،
وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظَ منه
على ولده وأخيه ، فإن عرّضت في الشغل مَحْمَدة ، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبه ،
وإن عرّضت مَذْمَمة ، فليحملها هو من دونه ، وليحذر السَّقطة والزّلة ، والمَلَل
عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكُتّاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاء ، وهو لكم
أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبهُ الرجل ، يَبْذُل له من نفسه ما يجب له
عليه من حقّه ، فواجبٌ عليه أن يمتدّد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله وصبره ،

[١] رفيها . [٢] الرديء من كل شيء . [٣] ربأً : تلا وارفع .

[٤] يرجع . [٥] تقروا .

ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدير أمره ، ماهو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ماله .

فاستشعروا ذلكم - وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة ، والحِرمَانِ والمواساة والإحسان ، والسراء والضراء ، فنعمت الشئمة هذه لمن وُسم بها : من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّي الرجل منكم ، أو صيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصيفاً ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً ، وللنعم موفراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متأنفاً ، وعن إيدائهم متخلفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سجلات خراجهِ واستقضاء حقوقهِ رفيقاً ، وإذا صيَّب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقهُ ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقهُ من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح ، بالطف حيلة ، وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً^(١) لم يهيجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً^(٢) اتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شُروداً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرّوناً قمع برفق هواها في طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتهِ ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يُحاوره من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه

[١] رعه الفرس كنع : رفسه . [٢] شب الفرس كضرب وانصر : رفع يديه .

وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمَ أَوْدِهِ ، مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تُحِيرُ ^(١) جَوَابًا ، وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا ، وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا ، إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّكْبَ عَلَيْهَا ، أَلَا فَاْمَعِينُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ ، وَأَعْمَلُوا فِيهِ مَا أَمَكَّنَكُمُ مِنَ الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ ، تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مَنْ صَحَبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ ، وَالِاسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ ، وَيَصِيرُ ^(٢) مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاخَاةِ وَالشَّفَقَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَلَا يَجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ - فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ ، وَمَلْبَسِهِ ، وَمَرْكَبِهِ ، وَمَطْعَمِهِ ، وَمَشْرَبِهِ ، وَبِنَائِهِ ^(٣) وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ - قَدْرَ حَقِّهِ ، فَإِنَّكُمْ - مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنَعَتِكُمْ - خَدَمَةٌ لَا تُحْمَلُونَ فِي خَدَمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَحَفْظَةِ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ ، وَقَصَصْتَهُ عَلَيْكُمْ ، وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرْفِ ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ، فَإِنَّهُمَا يُمَقِّبَانِ الْفَقْرَ ، وَيُذِلَّانِ الرَّقَابَ ، وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِيَّما الْكُتَّابَ ، وَأَرْبَابَ الْآدَابِ ، وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهَ ، وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ ، فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ ^(٤) أَعْمَالِكُمْ ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتِكُمْ ، ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْيِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً ، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتَلَفَةً ، وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنِ الْإِنْفَازِ عَمَلِهِ وَرُؤْيَتِهِ ، فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكِفَايَةِ مِنْ مَنْطِقَتِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصَاحِحَةٌ لِفِعْلِهِ ، وَمَدْفَعَةٌ

[١] لا ترد . [٢] تأمنوا ، مجزوم في جواب الأمر ، أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط أي إن تعملوا تأموا ، ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب والرفع كما هو مشهور . نقول بضمهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناصح » مردود . [٣] بنى على أهل ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . [٤] مبتدأ

للتشاغل عن إكثاره ، وَلِيَضْرَعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ ،
مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْعَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدِنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدْبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا ، أَوْ قَالَ
قَائِلًا : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنَعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حَيْلَتِهِ ،
وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ،
فِيصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي
صِنَاعَتِهِ ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَبَابِ مِنْ رَحَى
بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا
تَرْكِيَّةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَمْدُ اللَّهِ
وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .
وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيحَةَ ^(١) يَلْزِمَهُ
الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزِّ
وَجَلِّ ؛ فَإِنَّكَ جَعَلْتَهُ آخِرَهُ ، وَتَمَمْتَهُ بِهِ ، تَوَلَّيْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ ،
بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عَالِمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَدُهُ ، وَالسَّلَامُ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(صبح الأعشى ١ : ٨٥)



[١] في نسخة : « الصحة » ، وذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ٤٦) أن هذا القول من كلام الأحنف السائر في أيدي الناس .

الصراع بين الاموية والعباسية

٤٧١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي (١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نباتة بن حنظلة : عامل جرجان (٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله (٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نباتة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثلها ، فلما رآهم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم ، لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظاموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحو نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدّلوا وغيروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرّ والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

[١] هو أحد القباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم الامام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

[٢] من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . [٣] وكان قحطبة قبل ذلك قد تعبأ لقتال تميم ابن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلّغه ذلك ، فارتحل هارباً ، وتفرق عن أصحابه ، فسار إلى نباتة بن حنظلة بمرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، مات بها كذا .

فسلّطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالنار ، وقد عهد إلى الإمام ^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرم الله عز وجل عليهم ، فتَهْزَمونهم وتقتلونهم .

وقد قرئ على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهضُ عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرُك ، فإذا ظَهَرْتَ عليهم ، فأثخن في القتل » ، فاتقوا في مستهلِّ ذى الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٧٢ - خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، والعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالقوه بجِدِّ واحتسابٍ ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

[١] هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عاص ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلبه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحيمة (كهيئة) حيث يقيم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه في حرّان ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام حاف أخواه السفاح والنصور وجماعة من أقاربهم ، فهدّوا إلى الكوفة ، فأخلى لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بني العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

تمة في خطب الحجاج

٤٧٣ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متأملاً ، فخط اللثام عنه ثم قال :

« مَوْجُ لَيْلِ التَّطْمِ ، وَانْجَلَى بِضَوْءِ صُبْحِهِ ، يَا أَهْلَ الْحِجَازِ ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟
أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلْمَةَ الْجَوْرِ ، وَطُخِيَةَ ^(١) الْبَاطِلِ بِنُورِ الْحَقِّ ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَاجَ
وَطَاءَةَ مُشْفِقٍ ، وَعَطَفَةَ رَحِمٍ ، وَوَصَّلَ قَرَابَةَ ، فَأَيُّكُمْ أَنْ تَزِلُّوا عَن سَنَنِ أَقْنَانِكُمْ
عَلَيْهِ ، فَأَقْطَعَ عَنْكُمْ مَا وَصَلْتُهُ لَكُمْ ، بِالصَّارِمِ الْبِتَّارِ ، وَأَقِيمِ مَنْ أَوْدِكُمْ مَا يَقِيمِ
الْمُثَقَّفِ ^(٢) مِنْ أَوْدِ الْقَنَازَةِ بِالنَّارِ » ، ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عضت به الحربُ عضها وإن شمّرت عن ساقها الحربُ شمّرا
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

انتهى الجزء الثاني ، ويليه : الجزء الثالث ، وأوله : الباب الرابع في خطب ووصايا
العصر العباسي الأول

[١] الطخية : الظلمة ، ويثك . [٢] مقوم الرماح والأود : الاعوجاج .

سقط من هامش ص ٢٤ ما يأتي :

جاء في مقال الحسن بن علي رضي الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٢٤ : « وإن حد الله في الزنا لثابت
عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائلا عنه » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر
ابن الخطاب رضي الله عنه ، فاتمه أبو بكر - أخو زياد - هو وافر معه بأنه زنى بأمة جميل بنت الأرقم ،
وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل
المغيرة وأبو بكر ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه ما أتى
إلا أمر أنه ، وكان الشهود عليه : أبو بكر ، وشبل بن معبد البجلي ، ونافع بن كعدة ، وزيادا ، فبدأ عمر
بأبي بكر ، فشهد عليه أنه زنى بأمة جميل ، وشهد شبل ونافع بتلك ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ،
إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها فتعاه ، وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ :

« فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْلَيْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشفني من الأعبد

فقال : أسكت ، أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجتك بأحجارك .

- اقرأ القصة في تاريخ الطبري ٤ : ٢٠٧ - .

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها		١
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	١	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		٢
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٢	٢
مقال عدى بن حاتم	٣	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	٤	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	٥	٥
« في الصلح بينه وبين معاوية	٦	٥
خطبة له بعد الصلح	٧	٦
« لمعاوية في أهل الكوفة	٨	٧
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	٩	٨
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٠	٨

خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح	١١	١٠
» له في عهد خلافته	١٢	١٠
» أخرى له	١٣	١٢

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد
ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ،
بحضرة معاوية

مقال عمرو بن العاص	١٤	١٤
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	١٥
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	١٥
» المغيرة بن شعبة	١٧	١٥
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	١٦
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضى الله عنهما	١٩	٢٥

مقتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه

تأيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما	٢٠	٢٨
---	----	----

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكرى	٢١	٢٩
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٠
» عبيد الله بن زياد	٢٣	٣٠
» أخرى له	٢٤	٣٢

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

خطبة كثير بن شهاب	٢٥	٣٢
« عبيد الله بن زياد	٢٦	٣٣
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٣٤
« أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له	٢٨	٣٧
خطبة للحسين رضى الله عنه	٢٩	٣٨
« أخرى له	٣٠	٣٨
« « «	٣١	٣٩
« زهير بن القين البجلي	٣٢	٣٩
« للحسين أيضاً	٣٣	٤٠
خطبته ليلة قتله	٣٤	٤١
رد أهل بيته عليه	٣٥	٤٢
« أصحابه	٣٦	٤٢
خطبته غداة يوم قتله	٣٧	٤٣
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٨	٤٣
خطبته وقد دنا منه القوم	٣٩	٤٤
خطبة أخرى	٤٠	٤٤
« زهير بن القين	٤١	٤٦
« الحرّ بن يزيد	٤٢	٤٨
طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه		
خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٣	٥٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة .
رقم
الخطبة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة .	رقم الخطبة
خطبة رفاعة بن شداد	٤٤	٥١
» سليمان بن صرد	٤٥	٥٢
» خالد بن سعد بن نفيل	٤٦	٥٣
» سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٧	٥٤
» عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٨	٥٤
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٤٩	٥٥
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥٠	٥٧
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥١	٥٨
رد المسيب بن نجبة	٥٢	٥٨
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٣	٥٩
خطبة سليمان بن صرد	٥٤	٦٠
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٥	٦٠
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٦	٦١
رأى ابن صرد	٥٧	٦١
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٨	٦٢
» سليمان بن صرد	٥٩	٦٢
» أخرى له	٦٠	٦٣
» »	٦١	٦٤
» عبد الملك بن مروان	٦٢	٦٥
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين		٦٦
رضى الله عنه		
خطبته حين قدم الكوفة	٦٣	٦٦
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٤	٦٧

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٥	٦٨
رد السائب بن مالك	٦٦	٦٩
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٧	٦٩
» أخرى له	٦٨	٧٠
» محمد بن الحنفية	٦٩	٧١
» المختار	٧٠	٧١
» عبد الرحمن بن شريح	٧١	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٧٢	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٧٣	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٧٤	٧٤
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٧٥	٧٥
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٧٦	٧٥
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٧٧	٧٦
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٧٨	٧٧
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٧٩	٧٩
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٠	٨٠
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام	٨١	٨١
عبد الله بن عباس ومعاوية	٨٢	٨٣

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

مقال معاوية	٨٣	٨٦
» ابن عباس	٨٤	٨٧

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٧ ٨٥ مقال معاوية لابن عباس

٨٨ ٨٦ » ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٩ ٨٧ مقال معاوية لبني هاشم

٨٩ ٨٨ » ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ ٨٩ مقال معاوية

٩١ ٩٠ » ابن عباس

٩١ ٩١ عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٩٢ ٩٢ عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

٩٣ ٩٣ جواب ابن عباس

٩٣ ٩٤ مقال عمرو بن العاص

٩٣ ٩٥ جواب ابن عباس

٩٤ ٩٦ مقال مروان بن الحكم

٩٥ ٩٧ جواب ابن عباس

٩٦ ٩٨ مقال زياد

٩٦ ٩٩ جواب ابن عباس

٩٧ ١٠٠ مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

٩٧ ١٠١ جواب ابن عباس

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٩٨ ١٠٢ مقال المغيرة بن شعبة

٩٨ ١٠٣ جواب ابن عباس

٩٩ ١٠٤ مقال يزيد بن معاوية

٩٩ ١٠٥ جواب ابن عباس

١٠٠ ١٠٦ مقال معاوية

١٠٠ ١٠٧ جواب ابن عباس

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

١٠١ ١٠٨ مقال ابن عباس

١٠٢ ١٠٩ رد ابن العاص

١٠٣ ١١٠ عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

١٠٤ ١١١ مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

١٠٩ ١١٢ مقال ابن الزبير

١١٠ ١١٣ « » عباس

١١٠ ١١٤ خطبة عبدالله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بنى هاشم

١١٣ ١١٥ « ابن الزبير يتنقص ابن عباس

١١٤ ١١٦ رد ابن عباس عليه

١١٧ ١١٧ عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص

١١٩ ١١٨ الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص

١٢٠ ١١٩ الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم

١٢١ ١٢٠ عقيل بن أبي طالب ومعاوية

١٢٤ ١٢١ خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٦	١٢٢
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٩	١٢٣
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٣٠	١٢٤
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٣٤	١٢٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٣٥	١٢٦
رد قيس بن سعد	١٣٥	١٢٧
<hr/>		
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٣٦	١٢٨
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٣٧	١٢٩
» » » وعبد الله بن عباس	١٣٩	١٣٠
» » » ورجل من بني فزارة	١٤٤	١٣١
رجل من آل صوحان يحبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٤٥	١٣٢
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٤٦	١٣٣
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٤٧	١٣٤

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٤٨	١٣٥
» معاوية	١٤٩	١٣٦
» ابن الزبير	١٥٠	١٣٧
» معاوية	١٥١	١٣٨
عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٥٤	١٣٩

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٤٠	١٥٥
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٤١	١٥٨
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٤٢	١٥٩
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٤٣	١٦٣
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٤٤	١٦٥
« لما بلغه قتل مصعب	١٤٥	١٦٥
خطبة أخرى له	١٤٦	١٦٧
خطبته وقد بلغه قتل عمر والأشقر	١٤٧	١٦٨
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٤٨	١٦٨
خطبته يوم قتله	١٤٩	١٧٠
خطبة أخرى	١٥٠	١٧٠
« مصعب بن الزبير	١٥١	١٧١

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٥٢	١٧٢
خطبة أخرى له بالمدينة	١٥٣	١٧٣
« له بالمدينة	١٥٤	١٧٣
خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة	١٥٥	١٧٤
خطبة له في يوم صائف	١٥٦	١٧٤
آخر خطبة له	١٥٧	١٧٥
خطبته وقد حضرته الوفاة	١٥٨	١٧٥

١٧٧ ١٥٩ وصيته لابنه يزيد

خطب يزيد بن معاوية

١٧٨ ١٦٠ خطبته بعد موت معاوية

١٧٩ ١٦١ خطبة أخرى له

١٨٠ ١٦٢ » معاوية بن يزيد

خطب عبد الملك بن مروان

١٨٠ ١٦٣ خطبته بمكة

١٨١ ١٦٤ خطبة له موجزة

١٨١ ١٦٥ خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص

١٨٢ ١٦٦ » لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير

١٨٤ ١٦٧ » عام حجه

١٨٥ ١٦٨ » وقد علم بخروج ابن الأشعث

١٨٥ ١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

١٨٦ ١٧٠ » للشعبى

١٨٦ ١٧١ » لأخيه عبد العزيز بن مروان

١٨٧ ١٧٢ » لولده عند وفاته

١٨٨ ١٧٣ خطبة للوليد بن عبد الملك

١٨٨ ١٧٤ » لسليمان بن عبد الملك

خطب عمر بن عبد العزيز

١٨٩ ١٧٥ أولى خطبه

١٨٩ ١٧٦ خطبة أخرى

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أخرى	١٧٧	١٩٠
» »	١٧٨	١٩١
» »	١٧٩	١٩٢
» »	١٨٠	١٩٢
» »	١٨١	١٩٣
» له يوم عيد	١٨٢	١٩٣
» أخرى	١٨٣	١٩٤
» »	١٨٤	١٩٤
» »	١٨٥	١٩٥
» »	١٨٦	١٩٥
» »	١٨٧	١٩٥
» »	١٨٨	١٩٦
» »	١٨٩	١٩٦
» »	١٩٠	١٩٧
» »	١٩١	١٩٧
» »	١٩٢	١٩٨
آخر خطبة له	١٩٣	١٩٨
نص آخر	١٩٤	٢٠٠
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٥	٢٠٠
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	١٩٦	٢٠١
تأيينه ابنه عبد الملك	١٩٧	٢٠٥
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	١٩٨	٢٠٦

وصية يزيد بن معاوية لاسلم بن زياد حين ولاء	٢٠٧	١٩٩
✓ خطبة عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهدد أهل مصر	٢٠٨	٢٠٠
» » في تقرعهم وتهدهم	٢٠٨	٢٠١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٩	٢٠٢
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢١٠	٢٠٣
» فيهم إذ طعنوا على الولاية	٢١٠	٢٠٤
» بمكة	٢١١	٢٠٥
» في علته التي مات فيها	٢١٢	٢٠٦
وصيته لمؤدب ولده	٢١٢	٢٠٧
وصية سعيد بن العاص لبنيه	٢١٣	٢٠٨
✓ خطبة عمرو بن سعيد الأشدق		
خطبة له بالمدينة	٢١٥	٢٠٩
» بمكة	٢١٦	٢١٠
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢١٧	٢١١
خطبته حين غلب على دمشق	٢١٨	٢١٢
خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢١٩	٢١٣
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢٢٠	٢١٤
نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٢٢١	٢١٥
تأديب معاوية لجلسائه	٢٢١	٢١٦
كلام معاوية وقد سقطت ثناياه	٢٢٢	٢١٧

٢٢٢	٢١٨	تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله
		طلب معاوية البيعة ليزيد
٢٢٤	٢١٩	خطبة الضحاك بن قيس الفهري
٢٢٥	٢٢٠	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٢٦	٢٢١	» ثور بن معن السلمي
٢٢٧	٢٢٢	» عبد الله بن عصام الأشعري
٢٢٧	٢٢٣	» عبد الله بن مسعدة الفزاري
٢٢٨	٢٢٤	» عمرو بن سعيد الأشدق
٢٢٩	٢٢٥	» الأحنف بن قيس
٢٢٩	٢٢٦	» الضحاك بن قيس
٢٣٠	٢٢٧	» الأحنف بن قيس
٢٣١	٢٢٨	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٣١	٢٢٩	» معاوية
٢٣٢	٢٣٠	» يزيد بن المقنع
٢٣٢	٢٣١	» الأحنف
٢٣٣	٢٣٢	» معاوية
٢٣٤	٢٣٣	» عبد الله بن عباس
٢٣٤	٢٣٤	» عبد الله بن جعفر
٢٣٥	٢٣٥	» عبد الله بن الزبير
٢٣٥	٢٣٦	» عبد الله بن عمر
٢٣٦	٢٣٧	» معاوية

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة مروان بن الحكم	٢٣٨	٢٣٧
» معاوية	٢٣٩	٢٣٨
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٤٠	٢٣٩
خطبة معاوية	٢٤١	٢٤٠
» الحسين	٢٤٢	٢٤٢
» معاوية	٢٤٣	٢٤٤
» عبد الله بن عمر	٢٤٤	٢٤٥
» معاوية	٢٤٥	٢٤٦
» عبد الله بن الزبير	٢٤٦	٢٤٨
» معاوية	٢٤٧	٢٤٩

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٤٨	٢٥٠
» عطاء بن أبي سفيان الثقفى	٢٤٩	٢٥١
» عبد الله بن مازن	٢٥٠	٢٥١
» غيلان بن مسلمة الثقفى	٢٥١	٢٥٢

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٢	٢٥٣
» وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبة يستقدمه	٢٥٣	٢٥٤
» وقد استلحقه معاوية	٢٥٤	٢٥٥
» حين ولى البصرة (وهى البتراء)	٢٥٥	٢٥٧
» بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٥٦	٢٦١

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أخرى له بالكوفة	٢٥٧	٢٦٢
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٥٨	٢٦٢
خطبة أخرى له	٢٥٩	٢٦٣
» »	٢٦٠	٢٦٣
وصية لزياد	٢٦١	٢٦٣
ما كان يقوله لمن ولاء عملا	٢٦٢	٢٦٤
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٣	٢٦٤
خطبته عند موت معاوية	٢٦٤	٢٦٦
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٥	٢٦٦
» عبید الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٦٦	٢٦٧
رد معاوية على ابن زياد	٢٦٧	٢٦٩
مقال يزيد بن معاوية	٢٦٨	٢٧١
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٦٩	٢٧٢

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٠	٢٧٣
» حين ولي العراق	٢٧١	٢٧٤
» وقد سمع تكبيراً في السوق	٢٧٢	٢٧٧
» وقد قدم البصرة	٢٧٣	٢٧٨
خطبته بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٤	٢٧٩
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٧٥	٢٨١
» له بالبصرة	٢٧٦	٢٨٢
» أخرى له بالبصرة	٢٧٧	٢٨٢

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٢٨٣	٢٧٨	خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية
٢٨٤	٢٧٩	خطبة أخرى
٢٨٤	٢٨٠	خطبته لما مات عبد الملك بن مروان
٢٨٥	٢٨١	« حين أراد الحج
٢٨٥	٢٨٢	« لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد
٢٨٦	٢٨٣	« وقد أرجف أهل العراق بموته
٢٨٧	٢٨٤	خطبة له في الوعظ
٢٨٨	٢٨٥	« أخرى
٢٨٨	٢٨٦	« »
٢٨٩	٢٨٧	« »
٢٨٩	٢٨٨	« »
خطب قتيبة بن مسلم الباهلي		
٢٩٠	٢٨٩	خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو طخارستان
٢٩١	٢٩٠	« وقد تهيأ لغزو بلاد السغد
٢٩٢	٢٩١	« وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة
٢٩٣	٢٩٢	« حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك
٢٩٥	٢٩٣	خطبة أخرى
٢٩٦	٢٩٤	« »
٢٩٦	٢٩٥	« »
٢٩٧	٢٩٦	كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم
٢٩٩	٢٩٧	خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس
٣٠١	٢٩٨	نص آخر لخطبة طارق

خطبة عثمان بن حيان المرّى	٢٩٩	٣٠٢
وصية يزيد بن الملب لابنه مخلد	٣٠٠	٣٠٤
نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه	٣٠١	٣٠٥
✓ خطب خالد بن عبد الله القسرى		
خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٠٢	٣٠٦
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٠٣	٣٠٧
خطبته بمكة في الحجاج	٣٠٤	٣٠٧
» في الحث على مكارم الأخلاق	٣٠٥	٣٠٨
» يوم عيد	٣٠٦	٣٠٨
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣٠٧	٣٠٩
خطبة يوسف بن عمر الثقفى	٣٠٨	٣٠٩

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصارى	٣٠٩	٣١٠
» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣١٠	٣١١
» مسلم يجرضهم	٣١١	٣١١
» ابن حنظلة يجرض أصحابه	٣١٢	٣١٢

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣١٣	٣١٣
» أخرى له	٣١٤	٣١٤
» عمرو بن حريث	٣١٥	٣١٥
» عمرو بن مسيع	٣١٦	٣١٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

خطبة الأحنف بن قيس	٣١٧	٣١٦
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣١٨	٣١٧
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣١٩	٣١٩
خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٢٠	٣٢٠
فتنة ابن الأشعث		
خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٢١	٣٢١
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٢٢	٣٢٢
خطبة عامر بن وائلة الكنانى	٣٢٣	٣٢٣
» عبد المؤمن بن شدت بن ربيع	٣٢٤	٣٢٣
» ابن الأشعث بالمربد	٣٢٥	٣٢٤
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٢٦	٣٢٤
عامر الشعبي والحجاج	٣٢٧	٣٢٥
أيوب بن القرية والحجاج	٣٢٨	٣٢٦
كلمة لابن القرية	٣٢٩	٣٣٠

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٠	٣٣١
» يزيد بين يدي الوليد	٣٣١	٣٣٢
» مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبد العزيز	٣٣٢	٣٣٢
» يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال	٣٣٣	٣٣٣
» أخرى له	٣٣٤	٣٣٤
» » »	٣٣٥	٣٣٥
» الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب	٣٣٦	٣٣٥
» مروان بن المهلب	٣٣٧	٣٣٦

خطب الأحنف بن قيس التيمي

الأحنف ومعاوية	٣٣٨	٣٣٧
» » أيضا	٣٣٩	٣٣٨
قوله في مدح الولد	٣٤٠	٣٣٩
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٤١	٣٤٠
نصيحته لقومه	٣٤٢	٣٤٠
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٤٣	٣٤٠
كلمات حكيمة للأحنف	٣٤٤	٣٤١
صفية بنت هشام المنقرية تؤمن بالأحنف	٣٤٥	٣٤٣

خطب الوفود

وما ألقى بمحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٤٦	٣٤٤
وقد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٤٧	٣٤٥
خطبة زياد	٣٤٨	٣٤٥
» معاوية	٣٤٩	٣٤٦
» الأحنف بن قيس	٣٥٠	٣٤٦
وقد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٥١	٣٤٦
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٥٢	٣٥٠
وقد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٥٣	٣٥٠
وفود العرب ومعاوية	٣٥٤	٣٥٢
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٥٥	٣٥٣

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٣٥٤	٣٥٦	وفود زيد بن منية على معاوية
٣٥٥	٣٥٧	« ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية
الوافدات على معاوية		
٣٥٦	٣٥٨	وفود سودة بنت عمارة على معاوية
٣٥٩	٣٥٩	« أم سنان بنت خيشمة على معاوية
٣٦١	٣٦٠	« بكارة الهلالية على معاوية
٣٦٣	٣٦١	« أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية
٣٦٦	٣٦٢	أم البراء بنت صفوان ومعاوية
٣٦٧	٣٦٣	دارمية الحجونية ومعاوية
٣٦٩	٣٦٤	شداد بن أوس ومعاوية
٣٧٠	٣٦٥	معاوية ورجل من أهل سبأ
٣٧١	٣٦٦	حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان
٣٧٢	٣٦٧	حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية
٣٧٣	٣٦٨	حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية
٣٧٣	٣٦٩	سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية
٣٧٤	٣٧٠	مصقلة بن هبيرة ومعاوية
٣٧٥	٣٧١	روح بن زنباع ومعاوية
٣٧٦	٣٧٢	مخاصمة أبي الأسود الدؤلي وامراته بين يدي زياد بن أبيه
٣٧٧	٣٧٣	صورة أخرى
٣٨٠	٣٧٤	وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير
٣٨١	٣٧٥	كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان
٣٨١	٣٧٦	سؤال عبد الملك للعجاج وما أجابه به
٣٨٢	٣٧٧	وفود العجاج بإبراهيم بن محمد بن طاحنة على عبد الملك بن مروان

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك	٣٧٨	٣٨٤
وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٣٧٩	٣٨٦
« كعب الأشقرى على الحجاج	٣٨٠	٣٨٦
سليكم بن سلكتة والحجاج	٣٨١	٣٨٨
جامع المحاربي والحجاج	٣٨٢	٣٨٩
ليلي الأخيلية والحجاج	٣٨٣	٣٩٠
الغضبان بن القبعثرى والحجاج	٣٨٤	٣٩٥
ابن القرنة يعدد مساوي المراح	٣٨٥	٣٩٧
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٣٨٦	٣٩٨
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٣٨٧	٣٩٩
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٣٨٨	٤٠٠
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٣٨٩	٤٠١
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٣٩٠	٤٠٢
خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه	٣٩١	٤٠٢
خطبة عبد الله بن الأهم	٣٩٢	٤٠٣
مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز	٣٩٣	٤٠٥
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٣٩٤	٤٠٥
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٣٩٥	٤٠٧
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٣٩٦	٤٠٩
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٣٩٧	٤١٠
خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٣٩٨	٤١١
مخاصمة عدى بن أرطاة لامراته عند شريح القاضي	٣٩٩	٤١٦
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٠٠	٤١٦
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤٠١	٤١٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب الخوارج وما يتصل بها	٤١٧	٤١٧
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤٠٢	٤١٧
اثمار الخوارج		٤١٩
مقال المستورد بن علفة	٤٠٣	٤١٩
« حيان بن ظبيان »	٤٠٤	٤١٩
« معاذ بن جوين »	٤٠٥	٤٢٠
خطبة المغيرة بن شعبة	٤٠٦	٤٢٠
« صعصعة بن صوحان »	٤٠٧	٤٢١
« المستورد بن علفة »	٤٠٨	٤٢٣
« معقل بن قيس الرياحي »	٤٠٩	٤٢٤
كلمات حكيمة للمستورد	٤١٠	٤٢٤
اثمار الخوارج ثانية		٤٢٥
خطبة حيان بن ظبيان	٤١١	٤٢٥
« معاذ بن جوين »	٤١٢	٤٢٥
رد حيان بن ظبيان	٤١٣	٤٢٦
مقال عتريس بن عرقوب	٤١٤	٤٢٦
رد حيان	٤١٥	٤٢٧
خطبة حيان	٤١٦	٤٢٧
« مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة »	٤١٧	٤٢٨
خطب المهلب بن أبي صفرة		
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤١٨	٤٢٩
خطبة أخرى له في جنده	٤١٩	٤٣٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
نص آخر	٤٢٠	٤٣٠
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٢١	٤٣١
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٢٢	٤٣١
« عتاب بن ورقاء ارياحي وقد طال عليه الحصار	٤٢٣	٤٣٣
نصيحة عزم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٢٤	٤٣٤
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٢٥	٤٣٥
« عبد ربه الصغير	٤٢٦	٤٣٩
« صالح بن مسرح	٤٢٧	٤٤٠
« أخرى له	٤٢٨	٤٤٢
« »	٤٢٩	٤٤٢
« زائدة بن قدامة	٤٣٠	٤٤٣
« الحجاج بن يوسف	٤٣١	٤٤٣
« أخرى للحجاج	٤٣٢	٤٤٤
« شبيب بن يزيد الشيباني	٤٣٣	٤٤٤
« عتاب بن ورقاء	٤٣٤	٤٤٥
« الحجاج	٤٣٥	٤٤٦
« عبد الله بن يحيى الإباضي	٤٣٦	٤٤٦

خطب أبي حمزة الشاري

خطبته حين دخل المدينة	٤٣٧	٤٤٨
خطبة أخرى له	٤٣٨	٤٤٩
خطبته وقد باغته أن أهل المدينة يعيبون أصحابه	٤٣٩	٤٤٩
خطبة أخرى	٤٤٠	٤٥٧
خطبته في سب أهل المدينة وتقريرهم	٤٤١	٤٥٩

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٤٦١ ٤٤٢ خطبة أخرى

٤٦٢ ٤٤٣ خطبته حين خرج من المدينة

٤٦٣ ٤٤٤ عمران بن حطان والحجاج

الخطب الوعظية والوصايا

٤٦٣ ٤٤٥ خطبة سحبان بن زفر الوائلي

٤٦٤ ٤٤٦ » معاوية

٤٦٤ ٤٤٧ » عبد الملك بن مروان

٤٦٥ ٤٤٨ » لعمر بن عبد العزيز

كلام الحسن البصرى

٤٦٥ ٤٤٩ خطبة له

٤٦٨ ٤٥٠ » أخرى

٤٦٨ ٤٥١ » »

٤٦٩ ٤٥٢ » »

٤٦٩ ٤٥٣ » »

٤٧٠ ٤٥٤ » »

٤٧٠ ٤٥٥ » »

٤٧١ ٤٥٦ » »

٤٧١ ٤٥٧ مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

٤٧٢ ٤٥٨ مقام الحسن البصرى عند النضر بن عمرو

٤٧٤ ٤٥٩ مقام آخر له عند النضر

٤٧٥ ٤٦٠ مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التى بناها بواسط

٤٧٦ ٤٦١ صفة الامام العادل

٤٧٨ ٤٦٢ موعظته لعمر بن عبد العزيز

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٤٧٩	٤٦٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٨٠	٤٦٤	كلمات حكيمة للحسن المصرى
٤٨٢	٤٦٥	خطبة واصل بن عطاء
٤٨٤	٤٦٦	وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية
٤٨٥	٤٦٧	« عبد الله بن شداد لابنه
٤٨٨	٤٦٨	« أسماء بن خارجة لابنته
٤٨٩	٤٦٩	رجل ينصح لهشام بن عبد الملك
٤٨٩	٤٧٠	وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٩٥	٤٧١	خطبة قطبة بن شبيب الطائى
٤٩٦	٤٧٢	« أخرى له

تتمة فى خطب الحجاج

٤٩٧	٤٧٣	خطبته بعد قتل ابن الزبير
-----	-----	--------------------------



فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أيوب بن القرية ٣٢٦ - ٣٣٠ - ٣٩٧

- ب -

بكاره الملالية ٣٦١

بلال بن أنى برده ٤٠٠

- ث -

ثور بن معن السلمى ٢٢٦

- ج -

جامع الحاربي ٣٨٩

- ح -

الحجاج بن يوسف الثقفى ٢٧٣ - ٢٧٤ -

٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٢٨٢ -

٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ -

٢٨٨ - ٢٨٩ - ٣٨٥ - ٤٤٣ - ٤٤٤ -

٤٤٦ - ٤٩٧

الحرب بن يزيد ٤٨

الحسن البصرى ٣٣٥ - ٤٦٥ - ٤٦٨ -

٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٤ -

٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ -

- ا -

إبراهيم بن الأشتر ص ٧٥

إبراهيم بن محمد بن طلحة ٥٨ - ٣٨٢

أبو الأسود الدؤلى ٣٧٦

أبو بكر الهذلى ٣٨٥

أبو حازم الأعرح ٤٠٠ - ٤٠١

أبو حاضر الأسيدى ٣٨٠

أبو حمزة الشارى ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ -

٤٥٧ - ٤٥٩ - ٤٦١ - ٤٦٢

أبو صخر الهذلى ١٦٣

الأحنف بن قيس ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٣١٦ -

٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ -

٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٨٥

أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ٣٦٣

أسماء بن خارجه ٤٨٨

أم البراء بنت صفوان ٣٦٦

أم سنان بنت خيثمة ٣٥٩

السيدة أم كلثوم بنت على رضى الله عنها ١٢٤

أيوب بن سليمان بن عبد الملك ٣٣١

روح بن زنباع ٣١٧ - ٣١٩ - ٣٧٥

- ز -

زائدة بن قدامة ٤٤٣

الزبير بن عليّ ٤٣١

زهير بن القين البجلي ٣٩ - ٤٦

زياد بن أبيه ٩٦ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥

٢٥٧ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٣٤٥

زيد بن منية ٣٥٤

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ١٢٦

- س -

السائب بن مالك ٦٩

سحبان بن زفر ٤٦٣

سعد بن حذيفة بن اليمان ٥٤

سعید بن العاص ٢١٣

سعید بن عثمان بن عفان ٣٧٣

سليك بن السلكة ٣٨٨

سليمان بن صرد ٨ - ٥٢ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢

٦٣ - ٦٤

سليمان بن عبد الملك ١٨٨

سودة بنت عمارة ٣٥٦

- ش -

شبيب بن يزيد الشيباني ٤٤٤

شداد بن أوس الطائي ٣٦٩

الحسن بن عليّ رضي الله عنه ١ - ٢ -

٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٦ -

١١٩ - ١٢٠

الحسين بن عليّ رضي الله عنه ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ - ١٢٩ - ٢٤٢

حيان بن ظبيان ٤١٧ - ٤١٩ - ٤٢٥ -

٤٢٦ - ٤٢٧

- خ -

خالد بن سعد بن نفيل ٥٣

خالد بن صفوان ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٤٠٢ -

٤٠٧ - ٤٠٩ - ٤١٠

خالد بن عبد الله بن أسيد ٢٢٠

خالد بن عبد الله القسري ٣٠٦ - ٣٠٧ -

٣٠٨ - ٣٠٩

خالد بن يزيد ٢١٩

الخيار بن أوفى النهدي ٣٧٢

- د -

دارمية الحجونية ٣٦٧

دغفل بن حنظلة ٣٤٦ - ٣٥٠ -

- ذ -

ذكوان ١٤٨

- ر -

رفاعة بن شداد ٥١

شرح القاضي ٤١٦

- ص -

صالح بن مسرح ٤٤٠ - ٤٤٢

صخير بن حذيفة بن هلال ٦٠

صمصمة بن صوحان ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩ -

١٤٤ - ٣٥٠ - ٤٢١

صفية بنت هشام المنقرية ٣٤٣

- ض -

الضحك بن قيس ٢٢٤ - ٢٢٩ - ٢٦٤ - ٢٦٦

ضرار بن حمزة الصدائي ٣٥٥

- ط -

طارق بن زياد ٢٩٩ - ٣٠١

- ع -

عابس بن أبي شبيب ٢٩

عامر الشعبي ٣٢٥

عامر بن وائلة الكنانى ٣٢٣

عبد الحميد بن يحيى ٤٨٩

عبد ربه الصغير ٤٣٩

عبد الرحمن بن أبي بكر ٢٣٩

عبد الرحمن بن أم الحكم ٩٧

عبد الرحمن بن شريح ٦٩ - ٧٠ - ٧٢

عبد الرحمن بن عثمان ٢٢٥ - ٢٣١

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٣٢١ -

٣٢٢ - ٣٢٤

عبد العزيز بن زرارة ٣٥٣

عبد العزيز بن مروان ٣١٨

عبد الله بن الأهم ٤٠٣

عبد الله بن جعفر ١١٧ - ٢٣٤

عبد الله بن الحنظل ٥٤

عبد الله بن حنظلة الأنصارى ٣١٠ - ٣١٢

عبد الله بن الزبير ١٠٤ - ١٠٩ - ١١٣ -

١٥٠ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٥٩ -

١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٠ -

٢٣٥ - ٢٤٨

عبد الله بن سعد ٦١

عبد الله بن شداد ٤٨٥

عبد الله بن عباس ٣٤ - ٨٣ - ٨٧ - ٨٨ -

٨٩ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٥ - ٩٦ -

٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٣ -

١٠٤ - ١١٠ - ١١٤ - ٢٣٤

عبد الله بن عبد الحجر ٣٧١

عبد الله بن عصام ٢٢٧

عبد الله بن عمر ٢٣٥ - ٢٤٥

عبد الله بن الكواء ١٣٦

عبد الله بن مازن ٢٥١

عبد الله بن مسعدة ٢٢٧

عقيل بن أبي طالب ١٢١
عمر بن عبد الرحمن ٣٧
عمر بن عبد العزيز ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١
١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦
١٩٧ - ١٩٨ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٥ - ٢٦٥
عمر بن هبيرة ٣٠٥
عمر بن حريث ٣١٥
عمر بن سعيد الأشدق
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٨
عمر بن العاص ١٤ - ٩٣ - ١٠٢
١٠٣ - ١٣٠ - ١٥٥
عمر بن عتبة بن أبي سفيان ٢٢١ - ٢٢١ - ٤١٦
عمر بن مسمع ٤١٥
عمران بن حطان ٤٦٣
- غ -
الغضبان بن القبعثري ٣٢٠ - ٣٩٥
غيلان بن مسامة الثقفي ٢٥٢
- ق -
قتيبة بن مسلم ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢
٢٩٣ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧
قطبة بن شبيب الطائي ٤٩٥ - ٤٩٦
قطري بن الفجاءة ٤٣٥
قيس بن سعد بن عبادة ١٣٥

عبد الله بن مطيع ٦٨ - ٧٤ - ٧٥
عبد الله بن هاشم ١٣٠ - ١٣٤
عبد الله بن همام السلولي ٢٥٠
عبد الله بن وال التيمي ٥٩
عبد الله بن يحيى الاباضي ٤٤٦
عبد الله بن يزيد الأنصاري ٥٧ - ٦٢
عبد المؤمن بن شبت بن رمي ٣٢٣
عبد الملك بن مروان ٦٥ - ١٨٠ - ١٨١
١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧
٢٢٢ - ٤٦٤ - ٤٨٤
عبيد الله بن زياد بن أبيه ٣١ - ٣٢
٣٣ - ٢٦٧ - ٣١٣ - ٣١٤
عبيد الله بن عبد الله المرسي ٥٥
عتاب بن ورفاء الرياحي ٤٣٣ - ٤٤٥
عتبة بن أبي سفيان ١٥ - ٢٠٨ - ٢٠٩
٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢
عتريس بن عرقوب ٤٢٦
عثمان بن حيان المرسي ٣٠٢
العجاج بن روبة ٣٨١
عدى بن حاتم ٣
عرابة بن أوس بن حارثة ٣٧٣
عرهم العدوي ٤٣٤
عطاء بن أبي صيفي ٢٥١

مصقلة بن هبيرة ٣٧٤

معاذ بن جوين ٤٢٠ - ٤٢٥

معاوية بن أبي سفيان ٧ - ٨٦ - ٨٧ -

٨٩ - ٩٠ - ١٠٠ - ١٣٥ - ١٤٩ -

١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٧٢ - ١٧٣ -

١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ - ٢٢١ - ٢٢٢ -

٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٦ - ٢٣٨ - ٢٤٠ -

٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ - ٢٦٩ - ٣٤٦ -

٣٥٢ - ٤٦٤

معاوية بن يزيد ١٨٠

معقل بن قيس ٤٢٤

المغيرة بن شعبة ١٥ - ٩٨ - ٤٢٠

المهلب بن أبي صفرة ٢٧٢ - ٤٢٩ -

٤٣٠ - ٤٣١

- ن -

النعمان بن بشير ٣٠ - ٢٦٦

- و -

واصل بن عطاء ٤٨٢

الوليد بن عبد الملك ١٨٨

الوليد بن عقبة ١٥ - ٢١٧

- ي -

يزيد بن أبي مسلم ٣٩٨

يزيد بن أنس الأسدي ٧٤

- ك -

كثير بن شهاب ٣٢

كعب بن معدان الأشقري ٣٨٦

الكهيت بن زيد الأسدي ٤١١

- ل -

ليلي الأخيلية ٣٩٠

- م -

مالك بن بشير ٣٨٦

محمد بن أبي الجهم العدوي ٤٠٥

محمد الباقر ١٤٧

محمد بن الحنفية ٢٥ - ٢٨ - ٧١ - ٨١ -

محمد بن عمير بن عطار ٣٨٤

محمد بن كعب القرظي ٤٠٥

المختار بن أبي عبيد الثقفي ٦٦ - ٦٧ -

٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٩ - ٨٠ -

مخلد بن يزيد بن المهلب ٣٣٢

مروان بن الحكم ٩٤ - ٢٣٧ - ٢٣٩ -

مروان بن المهلب ٣٣٦

المستورد بن علفة ٤١٩ - ٤٢٣ -

مسلم بن عبيس ٤٢٨

مسلم بن عقبة ٣١١

المسيب بن نجبة ٥٠ - ٥٨ -

مصعب بن الزبير ١٧١

٣٣٥ - ٣٣٤

يزيد بن الوليد ٢٠٦

يوسف بن عمر الثقفي ٣٠٩

تم فهرس أعلام الخطباء

يزيد بن معاوية ٩٩ - ١٧٨ - ١٧٩

٢٧١ - ٢٠٧

يزيد بن المقنع ٢٣٢

يزيد بن المهلب ٣٠٤ - ٣٣٢ - ٣٣٣

